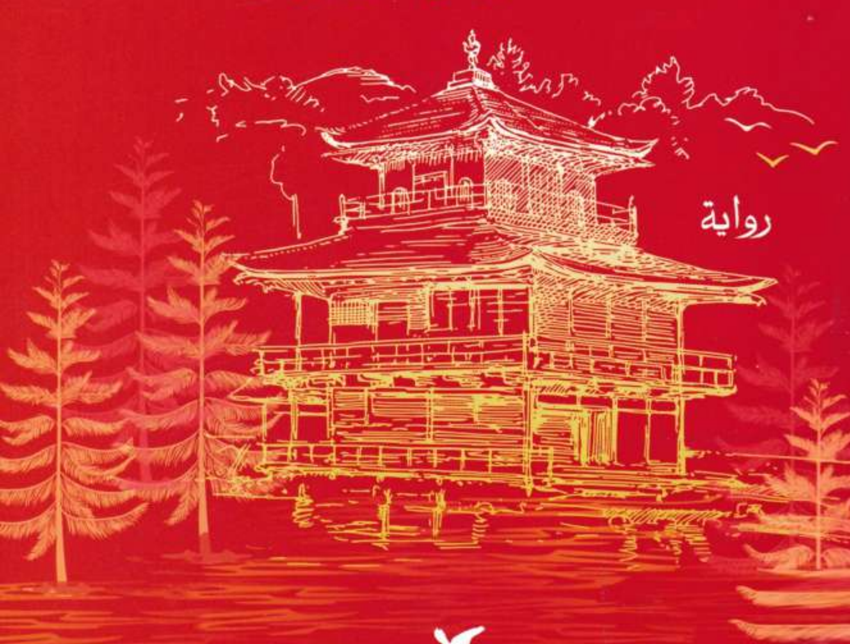
المعبد الذهبي

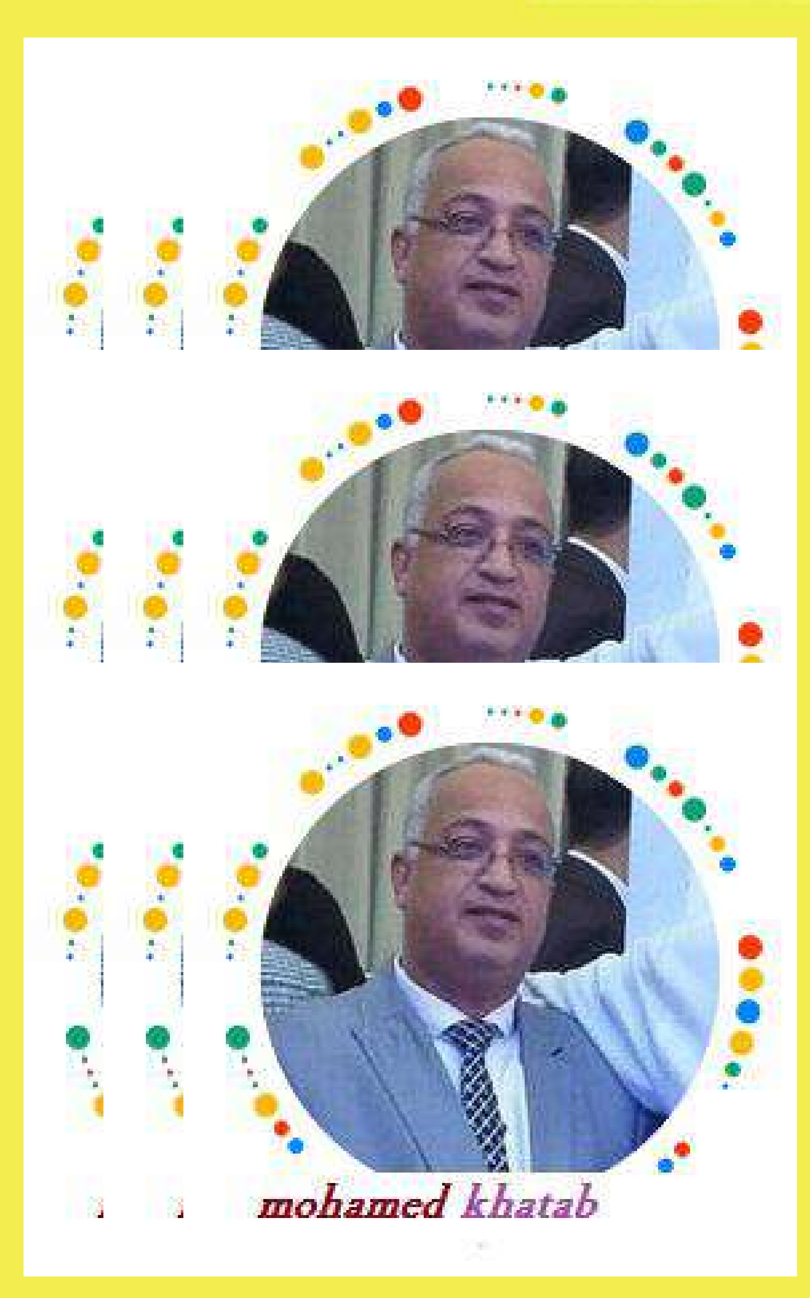
يوكيو ميشيما

ترجمة: ديمتري أفيرينوس



رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر


mohamed khatab

المعبد الذهبي

يوكيو ميشيما

رواية

مكتبة
١٢٠٧



إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.
الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٢١
ISBN: 978-6144-58-520-7

Originally published as: **KINKAKUJI**

JAPAN FOUNDATION
Published with the support of the Japan Foundation.

ترجمة: ديمتري أفيرينوس

تدقيق: حسين إبراهيم
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي



الفصل الأول

كثيرًا ما حدَّثني والدي، منذ طفولتي، عن المعبد الذهبيّ.

يقع مسقط رأسي في منطقة موحشة ناتئة في بحر اليابان، إلى الشمال الشرقي من مايزورو. غير أن والدي لم يولَد هناك، بل في شيراكو، في ضواحي مايزورو الشرقية. وكرَّس نفسه رجلَ دين، وصار كاهنًا لمعبد على الرأس البعيد، ثم تزوّج في هذا المكان، وأنجب طفلًا هو أنا.

لم تكن هناك مدرسة إعدادية مناسبة قرب المعبد على رأس ناريو، فغادرتُ بيت والديَّ وأُرسِلتُ إلى منزل عمّي في مسقط رأس والدي. وشرعت، في أثناء إقامتي هناك، أتردَّد إلى مدرسة شرق مايزورو الإعدادية، أذهب إليها وآتي منها سيرًا على قدمَيّ.

كانت الشمس في بلدة والدي شديدةَ السطوع. ولكنْ كنَّا

نتفاجَأ عدة مرّات بهطول وابل من المطر في شهرَي تشرين الأول وتشرين الثاني من كلّ سنة، وحتى في الأيام التي لم يبدُ فيها أنه يمكن لسحابة واحدة أن تظهر. وتساءلت إن كنت قد اكتسبت من هنا مزاجي المتقلّب.

اعتدتُ، في أماسي الربيع، بعد عودتي من المدرسة، أن أجلس على طاولة الدراسة في الطابق الثاني من بيت عمّي، وبصري شاخص إلى التلال. كانت أشعّة الشمس الغارقة تسطع على الأوراق الغضّة التي تغطي خواصر التلال، فيبدو كأن ستارة ذهبية تنتصب وسط الحقول. وخطر في بالي المعبدُ الذهبي، عندما أبصرت هذا المشهد.

كانت صورة المعبد الذهبي، كما وصفه لي والدي، هي التي تطغى على قلبي، على الرغم من أني رأيته أحيانًا في صور فوتوغرافية أو كتب مدرسية. لم يخبرني والدي قطّ بأن المعبد الذهبي الحقيقي يسطع ذهبيًّا، أو أيّ شيء من هذا القبيل. ومع ذلك، ووفقًا لروايته، لا شيء على هذه الأرض أبهى منه. وعلاوة على ذلك، كانت الحروف إيّاها التي كُتب بها اسمُ المعبد، ووقعُ الكلمة نفسُه، يُضفيان عليه خاصّيّةً خرافية حُفرت في قلبي حفرًا.

كنت، كلّما وقع بصري على سطح الحقول البعيدة تلتمع في ضياء الشمس، أتيقن من أنه الانعكاس الذهبي الذي يُلقيه المعبد غير المرئي. ويمتدّ إلى الشرق مباشرة معبرُ يوشيزاكا الذي يشكّل الحدود بين ولاية فوكوي وولاية كيوتو التي أقيم بها. وتشرق الشمس

فوق هذا المعبر الجبليّ مباشرة. ومع أن مدينة كيوتو الفعلية تمتدّ في الاتجاه المعاكس تمامًا، فقد اعتدت أن أرى المعبد الذهبي يحلّق عاليًا في سماء الصباح وسط أشعة الشمس وهي تبزغ من ثنايا تلك التلال الشرقية.

كان المعبد الذهبي يتراءى لي في كلّ مكان. وما دام بصري لا يقع فعليًا عليه، فكان مثل البحر. ذلك أن خليج مايزورو يقع على بعد ثلاثة أميال ونصف الميل إلى الغرب من قرية شيراكو حيث أقيم، ومع ذلك كانت التلال تحجب الماء عن البصر. لكن كان يحُوم في الجو دومًا نوعٌ من استشعار هذا البحر: كانت الريح تجلب معها رائحته أحيانًا، بينما كانت أسراب النوارس تنهال على الحقول المجاورة طلبًا للملجأ من الجو العاصف، أحيانًا أخرى.

كنت ضعيف البنية، يسبقني الصّبْية الآخرون دومًا في الجري، أو يهزمونني في الألعاب الرياضية. وفوق ذلك، عانيت التأتأةَ منذ ولادتي، على نحو جعلني أكثر انزواءً في سلوكي. كان الجميع يعلمون بأنني قادم من معبد. واعتاد بعض أكثر الأطفال سوءَ خُلُق أن يسخروا مني بتقليد كاهن يتأتئ وهو يحاول متلعثمًا تلاوةَ السوترا(*). كانت إحدى القصص الواردة في بعض كتبنا تحكي عن محقّق

(*) السوترا: مصطلح سنسكريتي الأصل، يشير في الموروث الروحي للهند (ولاسيما الهندوسية والبوذية) إلى الحديث التعليمي الديني المثبّت في نصوص. وقد يشير إلى قول مأثور واحد، أو إلى مجموعة من الأحاديث، أو إلى تعليم مطوّل. و«السوترا» في البوذية هي الكتب الشريفة القانونية المعتمَدة، وكثير منها تدوين لأحاديث البوذا غوتاما. (المترجم)

يتأتئ، ودأَبَ الصِّبْيةُ على أن يقرأوا لي تلك المقاطع بصوت مرتفع على نحو خاص.

غنيّ عن القول إن تأتأتي وضعت حاجزًا بيني وبين العالم الخارجي. الصوت الأول هو الذي أعاني صعوبةً شديدة في نطقه. فهو مثل مفتاح يفتح الباب الذي يفصل عالمي الداخلي عن العالم في الخارج، ولم يحدث قطّ أن دار ذلك المفتاح في قُفله بسلاسة. في وسع أكثر الناس، بفضل امتلاكهم ناصيةَ الكلام، أن يُبقوا هذا الباب بين العالم الداخلي والعالم الخارجي مفتوحًا على مصراعيه، بحيث يمرّ الهواء طليقًا بينهما. أمّا أنا فكان محالًا عليّ هذا الأمر؛ فقد تجمّع على المفتاح صدأٌ كثيف.

يشبه ثقيل اللسان، حين يصارع يائسًا للنُّطق بصوته الأول، عصفورًا صغيرًا يتخبّط لتخليص نفسه من شَرَك دِبْق كثيف. وحين يتمكّن أخيرًا من تخليص نفسه يكون الأوان قد فات. ولا ريب في أن ثمة أوقاتًا يبدو فيها واقع العالم الخارجي كأنه في انتظاري، مكتوف الذراعين، إن صحّ التعبير، بينما أتخبط لتخليص نفسي. غير أن الواقع الذي ينتظرني ليس واقعًا جديدًا، إذ حين أبلغ العالم الخارجي أخيرًا بعد جهودي كلّها، فإن كلَّ ما أقع عليه هو واقع تغيَّر لونه توًّا، وخرج من بؤرة وعيي؛ واقع فقد النضارة التي رأيتها ملائمة لي، وأخذت تفوح منه رائحةٌ نصف نتنة.

يسهل عندئذٍ أن يتخيَّل المرء كيف يمكن لشاب مثلي أن يتمتع بشكلين متضادّين من أمنيات القوة. كنت أستمتع بأوصاف الطغاة،

في مادة التاريخ. أتصوَّر نفسي طاغية متأنّيًا كتوماً، يتعلّق أفراد حاشيتي بكلّ تعبير يطرأ على وجهي، ويعيشون ليلَ نهار خائفين مني، مرتعدين. لا حاجة بي إلى تسويغ قسوتي بكلمات واضحة، سَلِسة. فسكوتي وحده كان كافيًا لتسويغ أيّ ضرب من ضروب القسوة. فمن ناحية كنت أستمتع بتخيُّل كيفية إنزالي العقاب، واحداً بعد الآخر، بأساتذتي وزملائي في المدرسة، الذين يتلذَّذون في تعذيبي كلَّ يوم. ومن ناحية ثانية أتخيل نفسي، فنانًا عظيمًا، أُوتيَ أرفع درجات البصيرة؛ سيدًا للعالم الداخلي بلا منازع. كان مظهري الخارجي فقيرًا، لكنّ عالمي الداخلي أصبح، على هذا النحو، أغنى من العالم الداخلي لأيّ واحد آخر. أمَا كان من الطبيعي أن يؤول الأمر بفتى يعاني عاهة مستديمة كعاهتي، أن يظن أنه كائن جرى اصطفاؤه سراً؟ كنت أشعر كأنَ رسالةً لم أكن أعرف عنها شيئًا بعدُ، تنتظرني في مكان ما من هذا العالم.

لا تزال الواقعة التالية من تلك الفترة راسخةً في ذاكرتي. كانت مدرسة شرق مايزورو الإعدادية تشغل مساحة فسيحة، تحيط بها التلال بلطف، ومجهَّزة بمبانٍ حديثة زاهية.

كان أحد خرّيجي مدرستنا، وقد صار طالبًا في مدرسة مايزورو للهندسة البحرية، في إجازة ذات يوم من أيام أيار، فجاء لزيارة مدرسته الإعدادية القديمة.

كانت الشمس قد لوَّحته، فأسبغت عليه سُمرة جذّابة، وبدا أنفه نافرًا من تحت قبّعة بزّته، وقد كان يعتمرها مسحوبةً إلى الأسفل

فوق عينيه: كان صورةً عن البطل الشابّ الكامل، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. وقف يومذاك يخبر رفاقه الأصغر سنًّا عن شظف حياته الحالية، بكلّ قوانينها العسكرية. وعلى الرغم من أنه يصف، بحسب زعمه، حياةً مفعَمة بالمشقّات، فإن نبرته كانت توحي بأنه يتكلّم على أكثر أنماط الحياة ترفًا وإسرافًا. كانت كل حركة يأتي بها مفعمةً بالغطرسةً، لكنه، على الرغم من حداثة سنّه، كان يدرك جيدًا أهمية التظاهر بالتواضع. كان صدره المكتسي ببزّته المزدانة بالضفائر، ناهدًا مثل تمثال على مقدم سفينة تشق طريقها عبر نسيم البحر. كان جالسًا على الدرج الحجري المفضي نزولًا إلى فسحة المدرسة، وقد تحلّق حوله، وقوفاً، رهطٌ من الطلاب يصغون إلى كلماته بشغف، وفي أحواض الحديقة على المنحدر كانت أزهار أيار متفتحة؛ الزنبق والجلبان والشقّار والأقحوان البري. وتتدلّى فوق رؤوسها أزهارُ شجرة المغنولية البيضاء الثرية.

كان المتكلّم والمستمعون إليه جميعًا جامدين في أماكنهم كالأصنام. كنت قاعدًا على الأرض بمفردي على بعد بضعة أمتار. هكذا كان سلوكي حيال أزهار أيار، وحيال تلك البزّة المزهوّة، وحيال شعشعة تلك الضحكات المجلجلة.

كان هذا البطل الشابّ أكثر اهتمامًا بي من اهتمامه بمعجبيه. كنت الوحيد الذي لم يُظهر انحناءً أمام وقاره، وهذا الخاطر جرح كبرياءه. سأل الآخرين عن اسمي.

«هيه، ميزوغوتشي!» ناداني. كانت تلك أول مرة يقع فيها

بصره عليَّ. حملقت فيه من دون أن أنبس ببنت شفة، فشعرت، في الابتسامة التي راح الآن يرمقني بها، بشيء أشبهَ بتملُّق صاحب النفوذ.

«لمَ لا تجيبني بشيء؟ هل أنت أصمُّ؟»

«أنا م... م... مت... متأتئ»، أجاب عني واحد من معجبيه، ثم أعقبوه جميعًا بالضحك. أيّ شيء باهر كان ضحكُ الازدراء ذاك! كان ثمة شيء لامع، لامعٌ مثل الضوء المنعكس من عناقيد الأوراق، يحضُّ على ضَحك رفاق صفي القاسي، والذي كان حصرًا من سِمات الفِتْية في سنّهم.

«ماذا؟ أحقًّا أنت متأتئ؟ لمَ لا تنتسب إلى مدرسة الهندسة البحرية؟ افعلْ، وسوف يخلّصونك، بسياطهم، من تلك التأتأة في يوم واحد!»

لا أدري كيف، لكنني ارتجلت على الفور جوابًا واضحًا. تدفَّقت الكلمات بسلاسة، من دون أدنى إرادة مني:

«لن أذهب إلى هناك. سوف أصبح كاهنًا».

لزم الجميع الصمت. طأطأ البطل الشاب رأسه، فالتقط نصلة عشب ووضعها في فمه، ثم قال:

«طيّب. إذن، في إحدى السنين القادمة، متى حان أوان دفني، سيكون لديك عمل تقوم به».

كانت حرب المحيط الهادئ(*) قد اندلعت.

اختبرت، في تلك اللحظة، من دون ريب، نوعًا من يقظة الذات: معرفة أنه سوف يتعيَّن عليَّ أن أقف ممدودَ اليدين، منتظرًا في عالم مظلم؛ وأن أزهار أيار، والبزّات العسكرية، ورفاقَ صفي السيِّئي الخُلُق، سوف يمرُّون جميعًا، لا محالة، من تحت يدَيَّ الممدودتين؛ معرفة أني أنا نفسي أقبض على العالم، كأنما أعتصره من أساسه... غير أن معرفة كهذه كانت أثقل من أن تصير مصدر كبرياء لفتًى مثلي.

لا بدَّ من أن الكبرياء أمرٌ أخفُّ، أكثرُ بهجة، أسهلُ على الرؤية، أكثرُ بريقًا. كنت أريد شيئًا مرئيًا. كنت أريد لكبريائي أن تكون شيئًا في وسع أيّ كان أن يراه. والسيف الذي يتقلّده متدلّيًا من خصره، على سبيل المثال، كان لِيَفيَ حتمًا بالغرض.

هذا السيف القصير، الذي انبهر به جميع طلاب المدرسة الإعدادية، كان حقًّا حلية جميلة. يقال إن من عادة الطلاب في الأكاديمية البحرية أن يستعملوا سيوفهم سرًّا لبَرْي أقلامهم. فكرت في «كم سيكون أنيقاً أن تستعمل رمزًا جليلًا كهذا في أمور تافهة من هذا النوع!»

(*) حرب المحيط الهادئ (أو حرب آسيا والمحيط الهادئ): مسرح الحرب العالمية الثانية التي اندلعت على مساحة شاسعة شملت المحيط الهادئ وجزره وجنوب غربه وجنوب شرق آسيا. ويُجمع جمهور المؤرخين على أنها نشبت في ٨/٧ كانون الأول ١٩٤١، عندما غزت اليابان تايلاند وهاجمت المستعمرات البريطانية في ماليزيا وسنغافورة وهونغ كونغ، بالإضافة إلى القوات العسكرية والقواعد البحرية للولايات المتحدة في هاواي والفيليبين. (المترجم)

خلع الشابّ بزّة مدرسة الهندسة وعلّقها على السياج الأبيض. أجل، كانت رائحة بشرة شابّ تفصّدت عرقًا تفوح من السروال والقميص الداخلي الأبيض، وهما معلّقان هناك إلى جانب جميع الأزهار مباشرة. حطّت نحلة، عن طريق الخطأ، على زهرة القميص البيضاء الزاهية تلك. كانت قبّعة البزّة المزينة بضفيرتها المذهّبة مطروحةً على السياج. وكما لو أن القبّعة موضوعة على رأس لابسها، كانت قاعدةً هناك على النحو الصحيح، مسحوبةً إلى الأسفل فوق العينين. تحدى صاحبَها واحدٌ من رفاقه الأصغر سنًّا، فذهب إلى حلبة المصارعة في الخلف لينخرط في مباراة.

اعتمل في نفسي شعورٌ بأني كنت في حضرة قبر جليل وأنا أنظر إلى هذه الأغراض التي طرحها. وعزّزت كثافة أزهار أيار هذا الشعور. القبّعة التي عكست شدة سواد واقية الشمس، والسيف وحزامه الجلدي، اللذان كانا معلّقَين هناك إلى جانبها، كانت جميعًا قد انفصلت عن جسمه، وتنضح جمالًا ذا خصوصية شاعرية. كانت الأغراض، في حدّ ذاتها، ناصعةً في ذهني نصاعةَ ذكراي عن الشاب؛ إذ بدت لي فعلًا أشبهَ ببقايا أشياء تعود إلى بطل شابّ غادر إلى الجبهة.

تأكّدت من خلوّ المكان حولي. سمعت صوت هتاف من جهة حلبة المصارعة. أخرجت من جيبي السكين الصدئة التي أستعملها لبري أقلامي، ثم انسللت إلى السياج، ونقشت عدة أثلام قبيحة على ظهر غمد السيف الأسود الجميل...

قد يتسرَّع الناس حين يسمعون وصفًا من هذا النوع، ويحكمون بأني كنت أتّصف بخصال شاعر شابّ. لكني، حتى ذلك اليوم بالذات، لم أكن قد نَظَمتُ قصيدة واحدة، بل لم أجرؤ حتى على كتابة ملحوظة في دفتر. لم يكن لديّ أيُّ دافع خاص إلى التفوّق على الآخرين، بصقل قدرة جديدة أعوّض بها عن تلك النواحي التي كنت فيها متأخراً عن الآخرين. بكلام آخر، كنت أكثر كبرياء من أن أكون فنانًا. فحلمي بأن أصبح طاغية أو فنانًا عظيمًا، لم يتعدَّ أبدًا مرحلة مجرَّد الحلم. ولم يكن لديَّ أدنى شعور بالرغبة في إنجاز أمر ما، بإعمال يديَّ فيه فعليًا.

ولما أضحى عدم فهم الاخرين لي مصدر كبريائي الوحيد، لم يجابهني، قطّ، أيُّ دافع إلى التعبير عن الأمور، وإلى إفهامهم شيئًا كنت أعرفه. كنت أحسب أنها لم تكن مقيَّضةً لي تلك الأشياء التي في مقدور الآخرين أن يروها. راحت وحدتي تزداد وتزداد بدانة، تمامًا مثل خنزير.

حطَّت ذاكرتي، على حين غرّة، على حادثة مأسَوية وقعت في قريتنا. وعلى الرغم من كوني غير معنيّ فعليًا بها، بأيّ شكلٍ من الأشكال، أو هكذا يُفترَض، فإني لا أزال غير قادر على التخلُّص من الشعور إيّاه بأني شاركت فيها.

وجدت نفسي دفعة واحدة، عبر هذه الحادثة، وجهًا لوجه أمام كلّ شيء: أمام الحياة؛ أمام اللذة الجسدية؛ أمام الغدر؛ أمام الكراهية؛ أمام الحب. أجل، أمام كلّ شيء ممكن في هذا العالم.

أما ذاكرتي فقد آثرت الإنكار وإغفال عنصر السموّ الكامن في هذه الأمور كلّها.

كانت فتاة فاتنة تدعى أويكو تقيم على بُعد بيتين من منزل عمّي. عيناها واسعتان وصافيتان. وربما كان سبب تعاليها أن أسرتها غنية. ومع أن الناس يعاملونها بكثير من التقدير، إلا أن من الصعب تصوّر ما كان يدور في خلدها حين تختلي بنفسها. أغلب الظن أنها كانت عذراء، غير أن النسوة الغيورات كنّ ينشرن الأقاويل عنها، زاعمات أن نظراتها تشي بأنها امرأة عاقر.

عُيّنتْ أويكو ممرضةً متطوعةً في مستشفى مايزورو للبحرية، مباشرة بعد تخرُّجها من المدرسة الثانوية للبنات. كان المستشفى قريبًا من بيتها، بحيث تستطيع الذهاب إليه ركوبًا على الدراجة. وكان عليها أن تصل إلى العمل في وقت مبكر جدًّا من كلّ صباح، فتراها تغادر المنزل مع بزوغ الفجر، قبل انطلاقي إلى المدرسة بساعتين تقريبًا.

كنت مستلقيًا ذات مساء، غارقًا في تخيُّلات كئيبة، مفكّرًا في جسم أويكو. لم أستطع النوم تلك الليلة كما ينبغي لي، فانسللتُ من فراشي بينما كانت العتمة لا تزال مخيّمة، وانتعلت حذائي الرياضيَّ، وخرجت إلى ظلمة الفجر الصيفي.

لم تكن تلك الليلة أولَ مرة صوّرت فيها لنفسي جسمَ أويكو. في البدء كان يخطر لي من حين إلى آخر، لكنه آل تدريجياً إلى

الالتصاق ببالي. راح جسم أويكو، كأنه خواطري هذه وقد تخثَّرت، ينغمس في انعكاس موحش، أبيضَ ولدنٍ في آنٍ معًا، وأخذ يتصلَّب على هيئة لحم عابق. كنت قد فكرت مرارًا في الدفء الذي ستشعر به أصابعي عندما ألمس ذلك اللحم. فكرت أيضًا في اللدونة التي ستستقبل أصابعي، وفي العبق الذي سيشبه أريج غبار الطَّلْع.

هرولت رأسًا على طول الطريق في ظلمة الفجر. لم تعرقل الحجارة خطواتي، وأشرعتِ الظلمةُ الطريقَ وفتحتْها أمامي.

وصلت إلى مكان تتّسع فيه الطريق وتقود إلى قرية ياسووكا الصغيرة. تنمو هنا شجرة كِياكي(*) عظيمة، وجذعها مبلَّل بالندى. اختبأت عند أسفلها، وانتظرت وصول دراجة أويكو من جهة القرية.

لم يكن لديّ أدنى فكرة عما أنوي فعله بعد أن انتظرت. هرولت طوال الطريق إلى هنا حتى انقطع عني النَّفَس، لكني، بعد أن ارتحت في ظلِّ شجرة الكِياكي، لم أعرف ماذا في نيّتي أن أفعل. لكنّي لطالما عشت منقطعًا عن العالم الخارجي، إلى حدّ أني تخيَّلت أنّ كلّ شيء سيصير سهلًا بمجرَّد أن أقفز إليه، وأنّ كلّ شيء سيغدو ممكنًا.

لسعَ البعوض ساقَيّ. سمعت دِيَكة تصيح هنا وهناك. اختلست النظر إلى أعلى الطريق، فلمحتُ بعيدًا هيئةً بيضاء غير واضحة. ظننتها للوهلة الأولى لونَ الفجر، لكنها كانت أويكو.

(*) الكِياكي: شجرة الدردار الياباني المنتشرة في الشرق الأقصى؛ اسمها العلمي Zelkova serrata. (المترجم)

كانت تقود دراجتها، والمصباح الأمامي مضاء. الدراجة تنزلق على طول الطريق في صمت. هببت من مجلسي عند شجرة الكِياكي، ووقفت منتصبًا أمام الدراجة، التي تمكّنت بمشقّة من التوقّف المفاجئ.

شعرت، إذ ذاك، بأني تحوّلت إلى حجر. إرادتي؛ رغبتي؛ كلُّ شيء استحال حجرًا. فقدَ العالم الخارجيّ صلته بعالمي الداخلي، وعاد يطوّقني من جديد، ويتّخذ وجودًا وضعيًّا. الـ «أنا» الذي انسلَّ من بيت عمه، فانتعل حذاءً رياضيًّا أبيض وهرول على امتداد هذه الدرب عبر ظلمة الفجر حتى بلغ شجرة الكِياكي؛ ذلك الـ «أنا» كان قد حمل ذاته الباطنة على الجري بأقصى سرعة، حتى وصل إلى هنا. ثمة انعدام للمعنى تامٌّ ورهيب في سقوف القرية التي كانت خطوطها الخافتة بارزةً في ظلمة الفجر؛ في الأشجار السُّود؛ في قمم جبال الأوبایاما السوداء؛ أجل، وحتى في أويكو التي كانت واقفة أمامي الآن. شيءٌ ما أضفى واقعيةً على هذا كلّه من دون أن ينتظر مشاركتي: هذا الواقع الهائل، العديم المعنى، المظلم تمامًا، كان معطًى لي، وضاغطًا عليَّ بثقل لم أعهده قبلئذٍ قطُّ.

خطر في بالي، كالعادة، أن الكلمات كانت الأشياء الوحيدة التي يمكنها أن تنتشلني من هذا الموقف. وهذا كان سوء فهم أتّسم به. كلّما كان المطلوب هو الفعل أجدني دومًا مستغرقًا في الكلمات؛ إذ إن خروج الكلمات من فمي كان من الصعوبة بحيث أنهمك فيها وأنسى كلَّ شيء عن الفعل. كان يبدو لي أن الأفعال، وهي

أمور باهرة، ومتنوعة، يجب دومًا أن تصحبها كلمات تساويها إبهارًا وتنوُّعًا.

لم أكن أنظر إلى أيّ شيء. أصاب أويكو الفزعُ، في البداية، على ما أذكر، لكنها اكتفت بالنظر إلى فمي حين أدركت أني أنا الواقف أمامها. أحسب أنها كانت تنظر إلى ذلك الثقب الصغير الأبله القاتم الذي كان ملوَّثًا مثل عشّ حيوان صغير في الحقول، وكان الآن يتلوى في ضوء الفجر الباكر: كانت تنظر إلى فمي فحسب. وإذ اطمأنَّت إلى أنه لن يصدر منه أدنى قوة تصلني بالعالم الخارجي، شعرت بارتياح.

قالت «وحقّ السماء، يا له من فعل خارق!»، وأضافت: «وأنت مجرَّد متأتئ!»

حمل صوتُ أويكو خاصيةَ نسمة صباحية، ونداوتها. قرعتْ جرس دراجتها ووضعت رجليها على الدوّاستين من جديد، ثم التفَّت بالدراجة من حولي كأنها تتفادى حجرًا على الطريق، وقرعت جرسها بازدراء، مرة بعد مرة، على الرغم من أن المكان حولنا كان خاليًا من أيّ أحد سوانا. فتناهى إلى سمعي صداه عبر الحقول البعيدة، بينما كانت تقود مبتعدة.

أبلغت أويكو أمَّها ذلك المساء عني، فاتّصلت والدتها بمنزل عمّي تشكوني إليه. وعمّي، الذي كان فائق اللطف عادةً، وبَّخني بقسوة. لعنتُ عندئذٍ أويكو، ورحت أتمنّى لها الموت. واستُجيبت لعنتي بعدئذٍ ببضعة أشهر، وصرت منذئذٍ فصاعدًا أؤمن جازمًا بقوة اللعنات.

تمنيت لأويكو، ليلًا نهارًا، الموتَ. تمنيت للشاهدة على خزيي أن تختفي. حسبي ألا يبقى الشاهد حتى يُمحى خزيي عن وجه الأرض. الناس الآخرون جميعًا شهود. فلو انعدم وجودهم لَما أمكن للعار أن يولَد أبدًا في العالم. ما رأيته في وجه أويكو، وراء تينك العينين اللتين كانتا تلتمعان كالماء في العتمة، كان عالمَ الناس الآخرين؛ الذين لن يَدَعونا وشأننا أبدًا، والذين يقفون متأهّبين بصفتهم الشركاءَ في جريمتنا، والشهودَ عليها. لا بدَّ من إبادة الناس الآخرين جميعًا. فحتى يكون لي أن أواجه الشمس حقًّا، لا بدَّ للعالم بذاته من أن يباد...

تخلَّت أويكو عن وظيفتها في مستشفى البحرية، بعد شهرين من إبلاغها عني، ومكثت في المنزل. وسَرَتْ في القرية ثرثرات من كلّ صنف. ثمّ وقعت الحادثة، عند أواخر الخريف.

ما كنَّا لنحلم يومًا بأن يأتي فارٌّ من الخدمة في البحرية ويتَّخذَ قريتنا ملجأً. جاء أحد عناصر شرطة كمبي - تاي العسكرية إلى مكتب قريتنا، ذاتَ يوم، في وقت الظهيرة تقريبًا. لكن، لم يكن أمرًا شديد الندرة أن يأتي أحد عناصر الكمبي، فلم نعلّق على الزيارة أيَّ أهمية خاصة.

كان يومًا مشرقًا من أواخر تشرين الأول. كنت قد ذهبت إلى المدرسة كالمعتاد، وأنهيت وظيفتي البيتية المسائية، وأتأهَّب للنوم. وبينما كنت على وشك إطفاء النور، نظرت عبر النافذة ورأيت الناس يتراكضون على امتداد شارع القرية. كانوا يلهثون مثل زمرة من

الكلاب. نزلت إلى الطابق الأرضي. كان عمّي وعمّتي قد استيقظا، فخرجنا جميعًا. وقف أحد رفاقي في المدرسة عند مدخل البيت، وعيناه مفتوحتان على اتساعيهما من فرط المفاجأة. صاح فينا:

«لقد قبض الكمبي لتوّهم على أويكو، واقتادوها إلى هناك. فلنذهبْ ونرَ!»

انتعلت صندلي على عجَل وأخذت أركض. كانت ليلة مقمرة فاتنة، وحواملُ الأرزّ تلقي على الأرض، هنا وهناك في الحقول المحصودة، ظلالًا واضحة.

استطعت أن أتبيَّن حركة ثلّة من الظلال، خلف أجمة من الشجر. كانت أويكو قاعدة على الأرض مرتدية ثوبًا أسود، ووجهها شديد البياض، ويقف حولها كالطوق بعضُ عناصر الكمبي ووالداها. كان أحد الكمبي ممسكًا بغرض يشبه علبة طعام، وهو يصرخ. ووالدها يجول برأسه من طرف إلى آخر، معتذرًا إلى الكمبي تارة، ومؤنّبًا ابنتَه تارة أخرى. وأمُّها جاثمة على الأرض تبكي.

أخذنا نرقب المشهد من الطرف البعيد لأحد حقول الأرزّ. تزايد عدد المتفرجين تدريجيًا حتى تلامست أكتافهم في صمت الليل. وتدلّى القمر صغيرًا فوق رؤوسنا، كأنه تقلّص.

همس رفيقي في المدرسة في أذني مفسّرًا. يبدو أن أويكو قد سرقت طعامًا من بيتها في علبة الطعام تلك، وكانت على وشك الانطلاق إلى القرية المجاورة حين قبض عليها الكمبي الذين نصبوا

لها كمينًا. فمن الواضح أن قصدها كان تسليم علبة الطعام إلى الفارّ؛ فقد صاحبته بينما كانت تعمل في مستشفى البحرية، وحملت منه نتيجة ذلك، وطُردت من العمل. وكان رجال الكمبي يستجوبونها الآن بخصوص مخبئه، لكنها اكتفت بالقعود هناك من دون أن تتحرّك بوصةً واحدة، مصرَّةً على لزوم الصمت.

لم أستطع، من ناحيتي، إلا التحديق إلى وجه أويكو من دون أن ترمش عيناي. بدت كأنها مجنونة قُبض عليها. كان وجهها هامدًا تحت القمر.

لم أكن قد رأيت قطّ، حتى ذلك الوقت، وجهًا بهذا الامتلاء بالرفض. فوجهي، كما فكرت، كان وجهًا نبذه العالم، لكن وجه أويكو كان ينبذ العالم. كان نور القمر ينصبُّ بلا هوادة على جبينها، وعينيها، وجسر أنفها، ووجنتيها. لكنّ وجهها الهامد كان يغسله الضوء فحسب. فلو أنها حرّكت عينيها أو فمها قليلًا، لاغتنم العالم، الذي كانت تسعى جاهدة لنبذه، هذه الحركةَ، إشارةً لكي يأتي مندفعاً إليها.

حدَّقت، حابسًا أنفاسيَ، إلى ذلك الوجه الذي انقطع تاريخه عند هذه النقطة بالذات، والذي ما كان ليشي بأمر واحد يخصُّ أيًّا من المستقبل أو الماضي. يحدث أحيانًا أن نبصر وجهًا كهذا على قرمة شجرة قُطعت لتوّها. ومع أن المقطع العرضي للشجرة فتيٌّ ونضِر اللون، إلا أن كلّ نموّ توقّف عند هذه النقطة. إنه مشرَّع للريح والشمس، اللذين ما كان يجب أبدًا أن يُشرَّع لهما. إنه عرضة فجأة

لعالَم لم يكن عالمه في الأصل. وعلى هذا المقطع العرضي، المرسوم بعروق الخشب الجميلة، نبصر وجهًا غريبًا؛ وجهًا صامدًا أمام هذا العالم، لا لشيء إلا كي ينبذه...

لم أستطع إلاّ أن أفكّر في أنه لن تتكرّر أبدًا برهةٌ يكون فيها وجهها في مثل جماله في تلك اللحظة. أجل، لن تتكرّر، لا في حياة أويكو، ولا في حياتي أنا، المتفرج. لكنّ تلك البرهة لم تدم المدة التي توقعتها؛ إذ إن تحوّلًا طرأ فجأة على وجهها الجميل ذاك.

نهضت أويكو واقفة. يُخيَّل إليَّ أني رأيتها في تلك اللحظة تضحك. يُخيَّل إليَّ أني رأيت أسنانها البيض تلتمع في نور القمر. ليس في وسعي أن أقول المزيد بخصوص هذا التحول؛ إذ إن أويكو، حين نهضت واقفة، ابتعد وجهها عن نور القمر، وضاع في فيء الأشجار.

من المخجل أني لم أستطع رؤية هذا التغيير الذي طرأ على أويكو لحظةَ قرَّ رأيُها على الغدر. فلو أني رأيته فعلًا، بكلّ تفاصيله، فلربما نبتت في باطني روحُ الصَّفح عن الناس؛ روحٌ من شأنها أن تغفر كلَّ لون من ألوان القُبح.

أشارت أويكو في اتجاه غار كاهارا في القرية المجاورة.

«آه، هو إذن في معبد كونغو!» صاح الكمبي.

اعتراني، إذ ذاك، إحساسٌ طفولي بابتهاج احتفالي. قرر الكمبي أن ينقسموا مجموعاتٍ متفرقةً، فيطوّقوا معبد كونغو من

جميع الجوانب. واستُدعي القرويون ليمدّوا لهم يد العون. أمّا أنا، فانضممتُ، بدافع اهتمام حاقد، إلى بضعة فتيان آخرين في الفريق الأول. سارت أويكو في مقدمة فريقنا لتدلّنا على الطريق. أدهشتني الثقة في خطواتها وهي تسير أمامنا على امتداد الدرب المقمر، يحيط بها الكمبي.

كان معبد كونغو مكانًا مشهورًا. بُني في كهف على مبعدة خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام من بلدة ياسُؤوكا، وكان مشهورًا بشجرة الكايا(*) التي غرسها الأمير تاكاووكا(**)، وبالباغودة(***) الثلاثية الطوابق الممشوقة، والمنسوبة إلى هيداري جِنغورو(****). وكنّا كثيرًا ما نأتي إلى هنا، في الصيف، للاستحمام بماء الشلال خلف التلال.

(*) شجرة الكايا: شجرة صنوبرية بطيئة النمو موطنها جنوب اليابان وجزيرة جيجو في كوريا الجنوبية؛ اسمها العلمي Torreya nucifera. (المترجم)

(**) الأمير تاكاووكا (٧٩٩-٨٦٥): أمير من الأسرة الإمبراطورية وراهب بوذي، معروف أيضًا باسمه الرهباني شينّيو؛ من أوائل اليابانيين الذين حاولوا بلوغ الهند، لكنه مات في الطريق. (المترجم)

(***) الباغودة: برج متدرّج ذو سقوف متعددة ومتطابقة، تطوَّر عن الاستوبا (مبنى على شكل مدفن تُحفظ فيه الذخائر المقدَّسة) في الهند وسائر جنوب آسيا، حتى بلغ أوج أناقته في الشرق الأقصى؛ يشير المصطلح عمومًا إلى دار عبادة طاوية أو بوذية. (المترجم)

(****) هيداري جِنغورو: فنان ياباني مجدِّد متعدد المواهب، عمل نحاتًا ورسامًا وممثلًا هزليًّا وراوية قصص وأستاذًا للفن. على الرغم من أن بعض الدراسات تشير إلى أنه نشط في فترة إيدو المبكرة (نحو ١٥٩٦-١٦٤٤)، فإن هناك مَن يشكك في وجوده تاريخيًّا، ويرجّح أن ما نُقِلَ عنه من قصص أقرب إلى الحكايات الشعبية. يُنسَب إليه عددٌ من منحوتات الآلهة الشهيرة في جميع أنحاء اليابان. (المترجم)

يقع حائط المعبد الرئيسي على كتف النهر. تنمو أعشاب الباMبا كثيفةً على كتل التراب المكسورة، وسنابلُها البيضاء تشعُّ ساطعة في حلكة الليل، وكانت أزهار الكاميليا متفتّحةً على مقربة من بوابة المعبد الرئيسة. سار فريقنا صامتًا بمحاذاة النهر.

كانت قاعة معبد كونغو فوقنا. حالما يعبر المرء الجسر الخشبيّ، يجدُ الباغودة الثلاثيةَ الطوابق إلى يمينه؛ وتنبسط الغابة إلى اليسار بأوراقها الخريفية، وتتعالى في عمق الشجر الدرجاتُ الحجرية المئة والخمس، مكسوّةً بالطحلب. كانت الدرجات مصنوعة من الحجر الجيري وزلقةً للغاية.

نظر الكمبي إلى الخلف، قبل أن يعبر الجسر الخشبيّ، وأشار إلى فريقنا بالتوقف. يقال إن بوابة مسقوفة على النمط الياباني (ديفا) كانت تقوم هنا في قديم الزمان شيّدها النحّاتان الشهيران أونكِي وتَنكِي(*). وفي ما يتعدّى هذه النقطة، كانت تلال وادي كوجوكو جزءًا من مساحة معبد كونغو.

حبسنا أنفاسنا.

حثّ الكمبي أويكو على المضي قُدُمًا. عبرت الجسر الخشبي بمفردها، ثم تبعناها بعد قليل. كان الجزء السفلي من الدرجات

(*) أونكِي (١١٥٠-١٢٢٣): أشهر نحاتي مدرسة كيي التي ازدهرت في فترة كاماكورا؛ تخصَّص بتماثيل البوذا وشخصيات بوذية مهمة أخرى، ومال أسلوبه إلى واقعية لم يعرفها النحت الياباني قبله. تَنكِي (١١٧٣-١٢٥٦): تلميذ أونكِي وابنه البكر. (المترجم)

الحجرية مغلَّفًا بالظلال، بينما يغتسل جزؤها العلويّ بنور القمر. اختبأنا هنا وهناك عند أسفل الدرجات. كانت الأوراق آخذة في الاصطباغ بمسحة خمرية خريفية، لكنها بدت سوداء تحت ضوء القمر.

كانت قاعة معبد كونغو الرئيسة تقع عند قمة الدرجات. ويُفضي رواق من هنا إلى قاعة فارغة تبدو كأنها مصمَّمة لأداء رقصات كاغورا(*) المقدَّسة، وكانت مبنية على غرار مسرح معبد كيوميزو(**): كانت تبرز فوق التل، محمولةً من تحت الجرف على عدد من الأعمدة والعوارض المتصلة في ما بينها. والقاعة والرواق، والإطارُ الخشبي الذي يحملهما، كانت جميعًا مجلوَّة بالريح والمطر، وتلمع ناصعة البياض كهيكل عظمي. وحين كانت الأوراق تبلغ أقصى توهُّجها بلون الخريف، كانت مسحاتها الحمراء تتمازج تمازجًا بديعًا مع بياض هذه البنية الهيكلية. أما ليلًا، فكان الإطار الخشبي المبيَّض، المرقَّش بنور القمر، يبدو غامضًا وخلابًا.

كان الفارُّ مختبئًا في القاعة فوق المسرح، على ما يبدو، وينوي الكمبي الإيقاع به مستخدمين أويكو طُعمًا.

(*) رقصات كاغورا: نمط محدَّد من الرقص المسرحي تطوَّر عن شعائر الكهانة القديمة، ويقال إن جذوره أقدم من مسرح النو. لا يزال تقليدًا حيًّا، طقوسه مرتبطة بإيقاعات التقويم الزراعي، ويشبه في بعض الأوجه مسرحَ الكابوكي. (المترجم)

(**) معبد كيوميزو: معبد بوذي مستقلّ يقع شرق كيوتو، ومن المعالم التاريخية البارزة في كيوتو القديمة؛ مصنَّف ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي. (المترجم)

أمّا نحن - الشهود على الاعتقال الوشيك - فقد اختبأنا وحبَسنا أنفاسنا. ومع أن الهواء البارد في تلك الليلة من أواخر تشرين الأول لفحَ وجهي، فقد كانت وجنتاي ملتهبتين.

تسلَّقت أويكو وحدها الدرجات الجيرية المئة والخمس. تسلَّقتها بفخر، مثل مجنونة. كان بياض وجهها الجميل بارزًا بين سواد ثوبها وسواد شعرها.

وسط القمر والنجوم؛ وسط غيوم الليل؛ وسط التلال الراسمة حدودَ السماء بهيئتها المَهيبة التي تعكس أشجار الأَرْز المدبَّبة؛ وسط بقعَ القمر المرقَّطة؛ وسط مباني المعبد الرقراقة البياض وهي تَنهَدُ من قلب الظلمة المحيطة؛ كنت، وسط هذا كلّه، ثملًا بشفافية جمال خيانة أويكو. كانت هذه الفتاة مؤهلة للسير وحدها، صاعدةً تلك الدرجاتِ البيضَ، نافخةً صدرَها بفخر. وكان غدرها هو بعينه غدر النجوم والقمر وأشجار الأرْز المدبَّبة. بكلمات أخرى، كانت حيّة في عالمنا نفسه، نحن الشهود، وتتقبَّل الطبيعة التي تحيط بنا جميعًا. كانت تصعد تلك الدرجات بصفتها ممثّلة عنّا. وما كان في وسعي إلا أن أفكر منقطعَ الأنفاس: «تقبَّلتْني أخيرًا، بخيانتها، أنا أيضًا. إنها الآن تخصُّني!»

يختفي، عند نقطة معينة، ما نصطلح على تسميته أحداثًا من داخل ذاكرتنا. ظلَّت أمام ناظرَيَّ أويكو إيَّاها، التي كانت تصعد تلك الدرجاتِ المئةَ والخمس، والمغطّاةَ بالطحالب. ويلوح لي أنها تصعد تلك الدرجاتِ صعودًا أبديًّا.

لكنها صارت شخصًا مختلفًا كليًا، اعتبارًا من تلك النقطة فصاعدًا. لعلَّ الأمر أن أويكو إيَّاها، التي صعدت تلك الدرجات، غدرت بي؛ غدرت بنا، مرة أخرى. لم تعد تنبذ العالم بكلّيته، اعتبارًا من تلك النقطة فصاعدًا. ولا هي كانت تتقبَّله بكلّيته أصلًا. لقد استسلمت لنظام الهوى المحض: هَوَت إلى دَرك امرأة وهبت ذاتَها لرجل واحد بعينه.

لهذا السبب بالذات، لا أستطيع أن أتذكَّر ما يلي، إلا بوصفه مشهداً مصوَّراً على مطبوعة حجرية قديمة. سارت أويكو على طول الرواق، ونادت في ظلمة قاعة المعبد. ظهر ظلّ رجل. قالت له شيئًا، فصوَّب مسدسًا نحو الدرجات الحجرية، وأطلق النار. وجاء ردُّ الكمبي الناريُّ من خلف أجمة قريبة. كان الرجل يتأهب للإطلاق مرة أخرى، حين استدارت أويكو في اتجاه الرواق وراحت تجري. أطلق مصوِّبًا على ظهرها طلقةً في إثر أخرى، فتهاوت أويكو على الأرض. ثم صوَّب الرجل فوّهة المسدس إلى صدغه، وأطلق مرة أخرى.

هبَّ الكمبي أولًا، ومن بعدهِ جميع الآخرين، وشقّوا طريقهم صاعدين الدرجات، واندفعوا صوب الجثتين. لبثتُ مختبئًا بهدوء في ظلّ أوراق الخريف. كانت أُطُر المعبد الخشبيةُ البيضاء، مكدّسةً في كلّ اتجاه، بعضها فوق بعض، تتطاول فوق رأسي. تناهى إليَّ وقعُ أقدام الناس وهم يمشون على طول ألواح الرواق الخشبية فوقي، وهي تصطفق اصطفاقًا طفيفًا.

أخذت أضواء المصابيح المتقاطعة تمرّ على درابزين الرواق، ووصلت إلى أغصان الأشجار ذات الأوراق المحمرَّة.

شعوري الأوحد كان أن هذا كلّه كان يجري في ماضٍ غابر. لا ينزعج متبلّدو الإحساس إلا عندما يرون الدم فعليًا. ومع ذلك، تكون المأساة قد اكتملت بالفعل بحلول الوقت الذي يتمّ فيه سفك الدم. أخذتني غفوةٌ. وعندما استيقظت، رأيت أن الجميع قد انصرفوا. واضح أنهم غفلوا عنّي. كان الجو مليئًا بتغريد الطيور، وشمس الصباح مشرقة تنشر ضياءها مباشرة عبر أوراق الشجر المحيطة. بدت الأبنية الهيكلية فوقي كأنما انتعشت، وقد أضاءتها الشمس من الأسفل. قذف المعبد قُدُمًا بقاعته الفارغة، بهدوء وافتخار، في الوادي ذي الأوراق المحمرَّة.

نهضت واقفًا، وقد اعترتني رجفة، وفركت نفسي لتنشيط دورتي الدموية. لازمت جسميَ قشعريرةُ البرد وحدها. كلُّ ما بقي كان قشعريرة البرد.

زار والدي بيتَ عمّي إبّان عطلة ربيع السنة التالية. كان يرتدي ثوبه الكهنوتيّ فوق بزّة مدنية مخصّصة لزمن الحرب. قال إنه ينوي اصطحابي إلى كيوتو لبضعة أيام. كان داء والدي القديمُ قد أضحى أسوأ كثيرًا، وقد صدمتني رؤيةُ مدى تدهور حاله. حاولنا جميعًا، ليس أنا فحسب، بل عمّي وعمّتي أيضًا، أن نُثنيه عن القيام بالرحلة، لكنه لم يُصغِ إلينا. وأدركت، حين فكرت بعدئذٍ في الأمر، أنه أراد أن يقدّمني، وهو لا يزال حيًّا، إلى رئيس المعبد الذهبي.

ما فتئتُ، طوالَ سنوات كثيرة، أحلم طبعًا بزيارة المعبد الذهبي، لكني لم أستسغ فكرة الذهاب في رحلة برفقة والدي، الذي كان كلُّ مَن يراه يلحظ فورًا أنه مريض للغاية، على الرغم من جسارة جهوده كلّها في إخفاء مرضه. وخامرني شيء من التردُّد مع اقتراب الوقت الذي سأرى فيه، للمرّة الأولى، المعبدَ الذهبي، الذي لم يكن بصري قد وقع عليه قطّ. ومهما حدث، كان من الضروري أن يكون المعبد الذهبي جميلًا. لذا، راهنت بكلّ شيء، لا على الجَمال الموضوعي للمعبد ذاته، بقدر ما راهنت على قدرتي أنا على تخيُّله جميلًا.

كنت متمكناً تماماً في ما يتعلق بالمعبد الذهبي، بقدر ما كان ممكناً لفتى في سني أن يفهمه. وكنت قد قرأت في كتاب للفنون، القصة السطحية التالية عن تاريخ المعبد.

«استولى أشيكاغا يوشيمِتسو (١٣٥٨-١٤٠٨) على دارة كيتاياما من أصحابها آل سايونجي، وحوَّلها إلى فيلا مكتملة البناء. تتألف الأبنية الرئيسة من مبانٍ بوذية، مثل الـمَذخَر، وقاعة النار المقدَّسة، وقاعة الاعتراف بالذنوب، والهوسوي - إنْ؛ ومن الشقق السكنية، مثل الشِّنْدِن، وقاعة السادة، وقاعة المجلس، وبرج تِنكيو، وبرج كوهوكو، وقاعة إيزومي، وسرادق كنْسِتسو. وكان الـمَذخَر أكثر هذه الأبنية حظًا بالعناية في تشييده، ثم أصبح يُعرَف في وقت لاحق باسم المعبد الذهبي. ومن الصعب تحديد متى أُطلِق عليه اسم المعبد الذهبي، لكن أغلب الظن أن هذا حدث في أعقاب حرب

أونِنْ (١٤٦٧-٧٧). وكان الاسم، في فترة بومّاي (١٤٦٩-٨٧)، شائعَ الاستعمال.

«المعبد الذهبي مبنى برجي من ثلاثة طوابق يُطل على بركة في حديقة (بركة كيوكو). انتهى بناؤه على الأرجح نحو العام الخامس من فترة أوي (١٣٩٨). بُني الطابقان الأول والثاني على طراز شِنْدِن زوكوري للعمارة المنزلية، وجُهّزا بمصاريع قابلة للطيّ، لكن الطابق الثالث عبارة عن شقة مساحتها ثمان عشرة قدمًا مربعة، مبنية على طراز الزّنْ الخالص. ويعلو السقفَ المغطى بلحاء السرو، والمبنيَّ على طراز هوكِي زوكوري، طائرٌ فينيق من النحاس المذهَّب. أما قاعة تسوري، بجملون سقفها، فتنتأ إطلالتُها على البركة، وتكسر رتابة البنى المعمارية المحيطة. سقف المعبد الذهبي لطيف الانحدار، ومصنوع من خشب دقيق العروق. والمبنى برمَّته خفيف وأنيق، في آنٍ. وهو تحفة من تُحَف عمارة الحدائق، حُرِصَ فيها على أن ينسجم الطرازُ السكني مع الطراز البوذي. وبذا، فإن المعبد يعبّر عن ذوق أشيكاغا يوشيمِتسو(*) الذي أخلص في اعتماد ثقافة البلاط الإمبراطوري، وهو ينقل نقلًا مثاليًا أجواء تلك الفترة.

«حُولت قاعة كيتاياما، بعد وفاة يوشيمِتسو، إلى معبد زِن، عملًا برغبة يوشيمِتسو، وعُرفت بالروكوونجي. ونُقلت هذه المباني، في

(*) أشيكاغا يوشيمِتسو (١٣٥٨-١٤٠٨): ثالث شوغُن من آل أشيكاغا؛ تولّى الحكم العسكري من عام ١٣٦٨ إلى عام ١٣٩٤ في فترة موروماشي. (المترجم)

وقت لاحق، إلى مكان آخر، أو تُركت لعوامل الخراب. ومن حُسن الحظّ أن المعبد الذهبيّ نفسه باقٍ...»(*).

شُيّد المعبد الذهبي، مثلَ قمر معلّق في سماء الليل، رمزًا لعصور الظلام. لذا، كان من الضروريّ أن تخيّم الظلمةُ على معبد أحلامي الذهبي من جوانبه كلّها. وكانت أعمدة البناء الجميلة والرشيقة، قائمةً بهدوء وثبات، في هذه الظلمة، وتبثّ من الداخل نورًا خافتًا. وأيًّا تكنِ الكلمات التي قد يخاطب الناس بها المعبدَ الذهبي، فلا بدّ من أن يواصل الوقوف هناك صامتًا، مبديًا لأعين العالم بنيتَه الرهيفة، ومُكابدًا الظلمةَ المحيطة به.

اعتدت كذلك أن أفكّر في طائر الفينيق النحاسيّ المذهّب، والذي يتوّج سقف المعبد الذهبي، وبقي هناك سنةً تلو السنة عرضةً لعناصر الزمن. لم يَصِحْ قطّ هذا الطائرُ الذهبيّ الغامض عند بزوغ الفجر، ولم يرفرف بجناحيه أبدًا. هو نفسه، في الواقع، نسي تماماً أنه طائر. ومع ذلك، غير صحيح القول إن هذا الطائر لم يكن يبدو كأنه يطير. تطير الطيور الأخرى عبر الفضاء، لكن هذا الفينيق الذهبيّ كان أبديَّ الطيران عبر الزمن، بجناحيه المشعَّين. كان الزمن يرتطم بذينك الجناحين، ثم يَحُوم القهقرى. ظلّ الفينيق بلا حراك، كي يطير، ونظرةُ غضب تغشى عينيه، رافعًا جناحيه عاليًا، خافقًا أرياش ذيله، مادًّا ببسالة ساقَيه الذهبيتين الجليلتين.

(*) ما بين أهلَّة «...» في ما سبق منقول بحذافيره، على ما يبدو، عن دليل كيوتو السياحي. (المترجم)

لاح لي المعبد الذهبيُّ كأنه سفينة مَهيبة تمخر عباب الزمن، كلَّما تحرَّكت خواطري في مناخ كهذا. كان كتاب الفن يذكر «أبنية عرضة للرياح، ليس فيها ما يكفي من الجُدُر»، وكان هذا أيضًا يستحضر في مخيّلتي شكلَ السفينة. فالبِركة، التي تطلّ عليها سفينة المتعة المركَّبة، الثلاثية الطوابق هذه، يجوز أن تُعَدَّ رمزًا للبحر. لقد شقَّ المعبد الذهبي سبيلَه عبر ليل شاسع. هو عبور ما كان في وسع المرء أن يتكهَّن بنهايته بعدُ. كانت تلك السفينة العجيبة تُلقي مرساتها، في أثناء النهار، بنظرة بريئة، وتبيح مرآها لحشود الناس. إنما كانت الظلمة المحيطة تنفح السفينة بقوة جديدة، حين يأتي الليل، فتراها تبحر بعيدًا، وسقفها يأسر الريح مثل شراع عظيم.

لا أبالغ إن قلت إن أول مشكلة حقيقية واجهتُها في حياتي كانت مشكلة الجَمال. كان والدي مجرَّد كاهن قروي بسيط، تعوزه المفردات، ولقَّنني أنّ «لا شيء على هذه الأرض يضاهي جَمال المعبد الذهبي». وكلَّما خطر في بالي أن الجَمال حلَّ أصلًا بهذا العالم من دون علم مني، لا يسعني إلاّ أن أشعر بشيء من الكَرْب والسخط. فلو أنه كان موجودًا هناك حقًّا، لَعنى ذلك أن وجودي بالذات مغترب عن الجمال.

بيد أن المعبد الذهبيّ لم يكن أبداً، في نظري، مجرَّد فكرة. صحيح أن الجبال تحجبه عن بصري، لكن لو شئت أن أراه لكان متاحًا لي دومًا أن أقصده وأراه. لذا كان الجَمال شيئاً في مقدورك أن تلمسه بأصابعك، ويستطيع أن ينعكس بوضوح في عينيك. كنت

أعرف ذلك وأصدّقه؛ أعرف أن المعبد الذهبيّ، وسط تغيُّرات العالم وتقلُّباته، باقٍ هناك آمِنًا، عصيًّا على التغيُّر.

كنت أفكر في المعبد الذهبي أحيانًا كأنه قطعة صغيرة، دقيقة، مصنوعة يدويًّا، أستطيع أن أضعها بين يدَيَّ. وكنت أفكر فيه أحيانًا أخرى بصفته كاتدرائية ضخمة، مَهولة، تتسامى إلى ما لا نهاية. لم يكن في وسعي، حين كنت فتًى يافعًا، أن أتصوَّر الجَمال بصفته أمرًا صغيراً أو كبيراً، بل معتدل. لذا، فكلَّما رأيت زهورًا صيفية صغيرة مندَّاة تبدو كأنها تبث ضوءًا مبهَمًا، بدَتْ لي في مثل جمال المعبد الذهبي. وبالمثل، كلَّما تجاسرتْ على التقاطُر صوب الناحية الأخرى من التلال غيومٌ قاتمة، حبلى بالرعد، وحوافُّها فقط تشعُّ ذهبًا، كان بهاؤها يذكّرني بالمعبد الذهبي. وحتّى عندما أبصر وجهًا جميلًا، فإن التشبيه يقفز إلى ذهني: «جميل كالمعبد الذهبي».

كانت رحلة حزينة. تنطلق قطارات خطّ مايزورو من غرب مايزورو إلى كيوتو، عن طريق مدينة آيابي، وتتوقّف عند جميع المحطات الصغيرة، مثل ماكورا وأويسوغي. كانت العربة قذرة. وعندما وصلنا إلى وادي هوزو وأخذنا نجتاز النفق بعد الآخر، انصبَّ الدخان كثيفًا بلا رأفة، وأجبر والدي على السعال مرارًا وتكرارًا.

كان الركاب، في أغلبيتهم، مرتبطين بالبحرية، بطريقة أو بأخرى. وكانت عربات الدرجة الثالثة ممتلئة بالأقارب وهم في طريق عودتهم من زيارة ضبّاط صغار، أو بحّارة، أو مشاة بحرية، أو عمال ترسانة متمركزين في مايزورو.

نظرت عبر النافذة إلى سماء الربيع الغائمة الرصاصية. حدّقت إلى الثوب الذي يرتديه والدي فوق بزّته المدنية، وإلى صدر ضابط شاب صغير متورّد البشرة، بدا كأنه يطفر على طول صفّ أزراره المذهّبة. شعرت كما لو كنت واقعًا بين الرجلين. سوف أُجنَّد في الجيش، قريبًا، عندما أبلغ السن المناسبة. ومع ذلك، لم أكن متأكدًا من أني، حتى عندما أُستدعى، سأتمكّن من أن أفي بواجبي، كذلك الضابط الصغير قبالتي. أيًّا يكن الأمر، فلقد كنت في الوقت الحاضر واقعًا صراحةً بين عالمين. فمع أني لا أزال صغير السنّ، إلا أني كنت واعيًا، بحكم جبيني الدميم، والعنيد، بأن كل شيء بين عالم الموت الذي يحكمه والدي وعالمِ الحياة الذي تحتلُّه الشبيبة، كان يتمّ بواسطة الحرب. وأنا، نفسي، من المحتمل أن أصير وسيطًا. فإذا قُتلت في الحرب فسيتضح أن اختياري مسارًا بعينه، من المسارين الاثنين الماثلين أمام ناظرَيَّ، لن يُحدِث أدنى فرق.

حاولت أن أعتني بأبي كلَّما انتابته نوبة من السعال. كنت، بين الحين والآخر، ألمح نهر هوزو خارج النافذة. كان لونه داكن الزرقة، يكاد يكون قاتمًا، مثل كبريت النحاس المستخدَم في اختبارات الكيمياء. كلَّما خرج القطار من نفق ظهر وادي هوزو إما على مسافة كبيرة من السكّتين، وإما قريبًا في متناول اليد على نحوٍ غير متوقَّع. كان محاطًا بالصخور الملساء، ويدير مخرطته الزرقاء الداكنة، المَرَّة تلو المَرَّة.

كان والدي يحمل بعض كرات الأرزّ الناصعة البياض في علبة

طعامه، وقد خجل من فتحها أمام الناس في العربة. قال والدي «إنه ليس أرزًّا من السوق السوداء. مصدره قلوب أبناء رعيَّتي الطيبين. يجوز لي أكله بفرح وامتنان».

تكلَّم بصوت عالٍ، بحيث سمعه جميع مَن في العربة، لكنه لم يتمكَّن من إنهاء كرة أرزّ صغيرة واحدة إلا بشق النَّفس، عندما بدأ يأكل.

لم أشعر بأن هذا القطار الأسخم البالي كان متوجّهًا إلى المدينة حقًّا. أحسست بأنه كان يمضي إلى محطة الموت. ما إن جال هذا الخاطر في بالي، حتى صارت للدخان، الذي يملأ عربتنا كلَّما عبرنا أحد الأنفاق، رائحةُ محرقة الجثث.

على الرغم من كلّ ما حدث، فإن قلبي خفق عندما وقفت أخيرًا أمام بوابة السَّنْمون(*) في روكُونجي. لقد قُدِّر لي الآن أن أرى واحدًا من أجمل الأشياء في العالم.

كانت الشمس آخذة في الغروب والتلال يحجبها الضباب. عَبَر عدّة زوار آخرين البوابة بالتزامن مع دخولي بصحبة والدي تقريبًا. كان ينتصب برج الحرس إلى يسار البوابة، تحيط به مجموعة من أشجار الخوخ التي لا تزال مزهرة.

ثمّة سنديانة دهرية سامقة أمام القاعة الرئيسة. وقف والدي عند

(*) بوابة السَّنْمون («بوابة الانعتاق المثلَّث»): البوابة الرئيسة المسقوفة في أيّ معبد زِن ياباني. (المترجم)

المدخل واستأذن بالدخول، ثمّ أرسل رئيس الدير رسالة يخبرنا فيها بأنه مشغول مع أحد الزوّار، وسألنا أن ننتظر برهة. قال والدي:

«هيّا، لنستفِد من هذا الوقت. لنتجوَّلْ ونتفرج على المعبد الذهبيّ».

اتضح أن والدي كان يريد أن يُريني أنه كان صاحب بعض النفوذ في هذا المكان، وقد حاول أن يجتاز مدخل الزوار من دون أن يدفع رسم الدخول. غير أن الرجل، الذي كان يبيع التذاكر والتعاويذ الدينية، قد حلَّ محلّه شخص آخر، وتغيَّر أيضًا جامع التذاكر عند البوابة. كلاهما تغيَّر منذ الوقت الذي كان والدي يكثر فيه المجيءَ إلى هذا المعبد قبل عشر سنين تقريبًا.

«المرة القادمة التي سأجيء فيها»، قال والدي بلهجة باردة، «أظن أنهما سيكونان قد تغيَّرا من جديد».

لكني شعرت بأنه لم يعد يؤمن حقاً بهذه «المرة القادمة».

عجَّلت في السير متقدِّمًا إيّاه، وأنا أكاد أجري. كنت أتصرَّف عمدًا كصبيّ صغير مَرِح. (كان يظهر عليَّ شيءٌ من السلوك الصّبْيانيّ، فقط في مثل هذه الأوقات؛ فقط عندما أتعمَّد التمثيل). فالمعبد الذهبي، الذي لطالما حلمت به، أظهر لي صورته، إذ ذاك، كأكثر الأماكن تخييبًا للآمال.

وقفت عند حافة بركة كيوكو. كشف المعبد الذهبي، على الجانب الآخر من الماء، واجهتَه العاكسة للشمس الآفلة. وكان السوسِي، أبعدَ

إلى اليسار، نصفَ مخفيّ، والمعبدُ الذهبي يلقي بظله الكامل على صفحة البركة، حيث تطفو أُشْن الماء وأوراق النباتات المائية. كان الانعكاس أجمل من البناء نفسه. والشمس الغاربة تجعل انعكاس الماء يتموَّج ذهابًا وإيابًا فوق حوافّ سطوح الطوابق الثلاثة. بدا انعكاس ظهر حافة السطح، مقارنة بالضياء المحيط، شديدَ الصفاء والإبهار: خُيِّل إليَّ أن المعبد الذهبيَّ ينحني إلى الوراء باعتزاز.

«ها هو ذا، فما رأيك؟» قال والدي. «أليس جميلًا؟ الطابق الأول يسمَّى الهوسُوي - إنْ، والثاني هو التشوندو، والثالث اسمه الكوكيونشو». ووضع يده المريضة الهزيلة على كتفي.

غيَّرتُ زاويةَ رؤيتي بضعَ مرات وحنيت رأسي في اتجاهات متعدّدة. بيد أن المعبد لم يُثر في داخلي أيَّ انفعال. كان مجرَّد بناء ثلاثيّ الطوابق، صغير، قاتم، قديم. بدا طائر الفينيق على ذروة السقف مثلَ غُراب حطَّ هناك ليرتاح. لم يُخفق البناء في لفت نظري بصفته جميلًا فحسب، بل انتابني حتى إحساس بالتنافر والقلق أيضًا. فكرت: «هل يمكن للجَمال أن يكون شيئًا بمثل هذا الخلوّ من الجَمال؟»

لو أني كنت فتًى متواضعًا، مواظبًا على دروسه، لأسفت على قصور ذائقتي الجمالية قبل أن يعتريني الإحباط بهذه السرعة. غير أن ألم الانخداع بشيء كنت قد توقعت منه الكثيرَ، سلبني الاعتبارات الأخرى كلَّها.

خطر في بالي أن المعبد الذهبي ربما اعتمد نوعاً من التنكر

لإخفاء جَماله الحقيقي. أليس ممكنًا أن يخدع الجَمال الذين يعاينونه، كي يحتميَ من الناس؟ كان عليَّ أن أقترب من المعبد الذهبي أكثر؛ كان عليَّ أن أزيل العوائق التي بدت قبيحة أمام ناظري؛ كان عليَّ أن أتفحَّصه برمَّته، تفصيلًا تفصيلًا، وأنفذَ إلى ماهيّة جماله، بعينَيَّ هاتين. فبقدر ما كنت أؤمن فقط بالجمال الذي يمكن للمرء أن يراه بعينيه، كان موقفي آنذاك طبيعيًا جدًّا.

راح الوالد، متخذًا سيماءَ الوقار، يقودني حتى الرواق المفتوح للهوسُوي - إنْ. نظرت أولًا إلى نموذج المعبد الذهبي المنفَّذ بإتقان، والموضوع في صندوق زجاجي. راقني هذا النموذج. كان أقرب إلى المعبد الذهبي الذي أراه في أحلامي. وإذ عاينت صورته المصغَّرة والمتقَنة هذه ضمن المعبد العظيم إيَّاه، تذكَّرت سلسلة التوافقات اللامتناهية التي تنشأ حينما يوضع كونٌ صغير في كونٍ واسع، ويوضَع بدوره كونٌ أصغر داخل الكون الصغير. كان في وسعي، للمرة الأولى، أن أحلم؛ أحلم بالمعبد الذهبي، الصغير والمتقَن، والذي كان أصغر حتى من هذا النموذج؛ وبالمعبد الذهبي الذي كان أعظم، بما لا يقاس، من البناء الواقعي. كان من العظمة، بالفعل، بحيث يكاد يغلّف العالم.

غير أني لم أبقَ واقفًا أمام النموذج حتى أجل غير مسمّى. قادني والدي بعد ذلك إلى تمثال خشبي ليوشيمِتسو اشتهر بأنه كنز وطنيّ. كان معروفًا بـ: روكوونين دونو دوغي، وهو الاسم الذي اتَّخذه يوشيمِتسو حين حلق شعره مترهّبًا.

باغتني هذا التمثال، هو الآخر، بكونه ليس إلا صورة طريفة، سخماء؛ فلم أستطع أن أستشعر فيه أيَّ جَمال. صعدنا، بعد ذلك، إلى التشوندو في الطابق الثاني، ونظرنا إلى اللوحة الموضوعة على السقف، والمنسوبة إلى كانو ماسونوبو(*)، والتي تصوّر ملائكة يعزفون الموسيقى. رأيت في الطابق الثالث، الكوكيوتشو، البقايا البائسةَ لقشرة الذهب التي كانت تغطي أصلًا داخل المعبد برمَّته. لم أستطع أن أجد جمالًا في أيّ من هذا كلّه.

اتكأت على الدرابزين الأهيف وخفضت بصري شارد الذهن نحو البركة التي كانت شمس المساء تنعكس على صفحتها. كان سطح الماء يبدو مثل مرآة قديمة علاها صدأ النحاس، وصورة المعبد الذهبي ساقطة مباشرة على هذا السطح، وشمس المساء منعكسة في الماء، تحت النباتات المائية وأُشُن الماء. كانت هذه السماء مختلفة عن السماء فوق رأسينا. كانت صافية ومترعة بضياء رائق. وتزدرد، من تحت ومن الداخل، عالمَنا الترابيَّ هذا عن بكرة أبيه، والمعبد الذهبي يغرق فيها مثل مرساة ضخمة من الذهب الخالص أمست برمَّتها سوداء من كثرة الصدأ.

كان الأب تاياما دوسِن، رئيس المعبد، من أصدقاء والدي في إبَّان دراستهما في أحد معابد الزّن، حيث أمضيا فيه ثلاث سنوات،

(*) كانو ماسانوبو (١٤٣٤-١٥٣٠): كبير رسَّامي الحكم العسكري في عهد آل أشيكاغا، ويُعَدُّ عمومًا مؤسِّس مدرسة كانو للرسم؛ تخصَّص بلوحات الزّن، وكذلك بلوحات تفصيلية للآلهة البوذية والبوذِسَتْفا (البشر المنذورون للاستنارة). (المترجم)

عاشا خلالها معًا. وتردَّد الشابان إلى المدرسة الدينية الخاصة في معبد سوكوكو (الذي بُني هو الآخر في عهد الشوغن يوشيمِتسو)، ثمّ رُسِما كاهنَين بعد أن تمرَّسا في عدد من المناسك القديمة لفرقة الزّن. وأخبرني الأب دوسِن، بعد ذلك بوقت طويل (وكان يكلّمني وهو طيّب المزاج)، بأنه لم يتقاسم وأبي أيامَ الرياضة الصارمة فحسب، بل دَأَبا أيضًا على تسلُّق جدار المعبد، في بعض الليالي، بعد وقت النوم، والخروجِ معًا لمرافقة النساء مقابل أجروتسلية نفسيهما.

عدتُ ووالدي إلى مدخل القاعة الرئيسية، بعد إنهاء جولتنا في المعبد. اصطحبنا أحدهم عبر قاعة طويلة فسيحة، وأوصلنا إلى ديوان الرئيس الواقع في المكتبة الكبرى المطلّة على الحديقة، الشهيرة بشجرة صنوبرها المعمّرة.

جلست هناك، في بزَّتي المدرسية، مستقيمَ الظهر، متيبّسًا، لكنّ والدي بدا فجأة مرتاحًا. وعلى الرغم من أنه تدرَّب والرئيس في مدرسة الزّن نفسها، فقد كان الفارق بينهما كبيرًا من حيث المظهر، فأبي كان هزيلًا من شدة المرض، رثَّ الهيئة، تتَّصف بشرته باليباس والهشاشة. أما الأب دوسِن فبدا أشبه تمامًا بكعكة وردية اللون. على مكتبه أكداس من الطرود غير المفتوحة، والمجلّات والكتب والرسائل المرسَلة إليه من جميع أنحاء البلاد، والتي بدا أنها تنمُّ عن ازدهار المعبد. التقط بأصابعه الغضّة مقصًّا، وفتح بمهارة واحدًا من الطرود.

«إنها كعكة بعث بها أحدهم من طوكيو»، أوضح لنا. «لم يعد

مثل هذا الكعك متوفّرًا كثيرًا هذه الأيام؛ إذ يبدو، على ما قيل لي، أنهم كفّوا عن توزيعه في الدكاكين، وباتوا يرسلونه إلى الجيش، أو إلى دواوين الحكومة».

احتسينا شايًا يابانيًّا منكّهًا، وأكلنا صنفًا من الكعك الغربيّ الناشف لم أذقه من قبل. وكلّما ازددت توترًا تساقط الفتات من الكمكة على سروالي المنسوج من الجوخ الأسود اللامع.

كان والدي والرئيس يعبّران عن امتعاضهما من أن الجيش والمسؤولين لا يُغْدقون التبرعات إلا على مزارات الشنتو، مستهينِين بالمعابدة البوذية. وهم لا يستهينون بها فقط، بل إنهم يضطهدونها فعلًا. ثم أخذا يتناقشان في كيفية إدارة المعابد في المستقبل.

كان الرئيس رجلًا بدينًا. وجهه مستدير ومتغضن، لكن كلّ غضن من الغضون يبدو كأنه مغسول تمامًا. وكان طويل الأنف، على نحوٍ يوحي بأن المادة الصمغية السائلة منه قد تصلّبت، بطريقة أو بأخرى. وعلى الرغم من أن وجهه كان يبدو مسترخيًا، إلى حدّ ما، فإن ثمة هالة من الصرامة تشعُّ من رأسه الحليق. فكأن طاقته كلّها مركزة في ذلك الرأس: كانت ثمة صفة حيوانية رهيبة تنبعث منه.

انتقل الكاهنان بسرعة بالحديث إلى أيامهما في المدرسة الدينية. كنت أنظر إلى شجرة الصنوبر الشبيهة بمركب شراعيّ في الحديقة. لقد تشكّلت من تنكيس أغصان شجرة صنوبر عظيمة ولفّها مجتمعةً على هيئة قارب، والأغصان عند مقدمة المركب مطوّعة جميعًا على سويّة أعلى من البقية. بدا واضحًا أن رهطًا من الزوّار

قد وصل قبل أوان الإغلاق بالضبط، فتناهت إلى سمعي همهمةُ أصوات من جهة المعبد الذهبيّ، في الجانب الآخر من الجدار. يمتصّ صدى خطاهم وأصواتَهم جوُّ المساء الربيعيّ، وينبعث منهم صوتٌ هادئ، لا تشوبه أدنى حدَّة. بدت لي خطواتهم حقًّا كخُطى بشر يعبرون الأرض، بينما كانت تنحسر مثل الجَزْر. رفعت بصري محدِّقًا إلى طائرالفينيق على قمة المعبد الذهبيّ: كان يمتص كلَّ ما تبقَّى من ضوء المساء.

«الآن، هذا الولد، كما ترى...» استدرت نحو والدي إذ سمعته ينطق هذه الكلمات. وكان على وشك أن يعهد بمستقبلي إلى الأب دوسِن، في هذه الغرفة شبه المعتمة.

«لا أظنّ أنني سأعيش مدةً أطول»، قال والدي. «وأودّ أن أسألك أن تعطف على هذا الولد عندما يحين الوقت».

على الرغم من أن الأب دوسِن كان كاهنًا، دأبُه تعزية الناس في أوقات كهذه، فإنه لم يخصَّ هذه المناسبة بكلمات ملطَّفة، بل اكتفى بالجواب: «طيّب، سوف أعتني به».

ما أدهشني حقًّا هو أنهما راحا يتبادلان بمرح، بعدئذٍ، نوادرَ عن مِيتات عدد من مشاهير الكهنة. أحدهم مات وهو يقول: «ويحي! لا أودُّ أن أموت!» وآخر أنهى حياته بكلمات غوته بعينها: «مزيد من النور!» بينما نقل شهود ثِقات عن كاهن ثالث أنه ظلَّ يُحصي أموال المعبد حتى اللحظة التي مات فيها.

قُدِّمتْ إلينا وجبةٌ مسائية معروفة لدى البوذيين بـ «الدواء»، وتقرَّر أن نُمضي الليلة في المعبد. أقنعت والدي، بعد تناول العشاء، وبعد أن بزغ القمر، بأن يصحبني لإلقاء نظرة أخرى على المعبد الذهبي.

كان والدي شديد الانفعال من لقائه الرئيسَ مجددًا بعد كلّ هذه السنين، فبدا منهَكًا تمامًا، لكنه أذعن للخروج معي، متثاقلَ الأنفاس ومتكئًا على كتفي، حين سمعني أذكر المعبد الذهبي.

ارتفع القمر من على حافَة جبل فودو، وظهر المعبد الذهبي يتلقّى بغبطةٍ نورَه. بدا البناء كأنه يطوي ظلَّه المعقَّد والقاتم، ويهمد بهدوء. وحدها أُطُر نوافذ الكوكيوتشو المقوَّسة كانت تسمح لظلال القمر الرقيقة بأن تتسلَّل إلى البناء. لم تكن للكوكيوتشو جُدُر تخصُّه، فبدا أن نور القمر الخافت يتَّخذه مسكنًا.

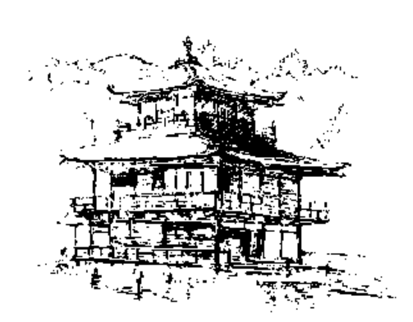
كان يتصاعد، من جزيرة أشيوارا، صراخُ طيور الليل وهي تطير مبتعدة صوب المدى. كنت واعيًا ثقلَ يد والدي الهزيلة على كتفي. ودُهشت حين اختلست النظر إلى كتفي، إذ رأيت أن يده قد انقلبت، تحت ضوء القمر، إلى يد هيكل عظميّ.

أخذ المعبد الذهبيّ، بعد عودتي إلى ياسووكا، وبعد أن خيَّب ظني لأول وهلة كلَّ هذه الخيبة، ينعش جَمالَه في داخلي يومًا بعد يوم، حتى غدا في النهاية معبدًا ذهبيًّا أجملَ مما كان عليه قبل أن أُبصره. ما كان في وسعي أن أجزم أين مكمن هذا الجَمال. يبدو أن ما ظلَّ

يتغذى في أحلامي قد أصبح حقيقيًّا، وفي إمكانه الآن أيضًا أن يكون باعثًا على مزيد من الأحلام.

كفَفتُ أخيرًا عن ملاحقة وَهم المعبد الذهبيّ في الطبيعة، وفي الأشياء التي تحيط بي. وراح، شيئًا فشيئًا، يتَّخذ وجودًا أعمق وأصلب في داخلي. وطفق يعوم بوضوح أمام ناظرَيَّ، كلٌّ من أعمدته، ونوافذِه الجَرَسية المدبَّبة الأقواس، وسقفِه، وطائر الفينيق على ذروته. وبدا الأمر كما لو أني أستطيع أن ألمس كلًّا منها بيدَيَّ هاتين. بات أدقٌّ أجزاء المعبد تامَّ الانسجام مع البنية المركَّبة برمَّتها. كان الأمر أشبه بسماع بضع نغمات من قطعة موسيقية، فتتدفق المعزوفة كلّها عبر الذهن: في أيّ جزء من المعبد الذهبي قد أنتقيه، يتصادى البناء برمَّته في داخلي.

«صَدَقْتَ حين قلتَ لي إن المعبد الذهبي أجمل شيء في العالم؛» هذا ما كتبته، للمرة الأولى، في رسالة إلى والدي، الذي عاد من فوره إلى معبده على الرأس البعيد، بعد أن أعادني إلى بيت عمّي. وجاءتني برقية من أمّي، كأنّها ردٌّ على رسالتي، تقول فيها إن نزفًا حادًّا أصاب والدي، وإنه قد مات.



الفصل الثاني

وضع موتُ والدي حدًّا لزمن صبايَ الحقيقي. فلطالما أدهشني أن صباي كان يفتقر تمامًا إلى ما يجوز أن يسمَّى الاهتمام الإنساني. وتحوَّلت هذه الدهشة إلى نوع من الانفعال العاجز الذي لم يعُدْ يُصنَّف في خانة المفاجأة، حين أدركت لاحقًا أني لم أشعر بأدنى أسًى على موته.

عجَّلتُ في الذهاب إلى قرية والدي، وكان مسجًّى فعلًا في نعشه عندما وصلت. كنت قد سرت حتى بلغت أوجيورا، وأبحرت منها بالقارب، عابرًا الخليج إلى ناريو، في رحلة استغرقت يومًا كاملًا. كان وقتًا حارًّا من السنة قبيل موسم الأمطار، ووهج الشمس يزداد يومًا بعد يوم. حُمِلَ نعش والدي فورًا إلى المحرقة الواقعة على الرأس المهجور، بعد أن رأيت جثمانه، كي يُحرَقَ على شاطئ البحر.

شأن عجيب هو موت الكاهن في معبد ريفي. عجيب لأنه خاص

جدًا. فلطالما كان الكاهن، إذا جازت العبارة، المحورَ الروحي للمنطقة؛ الراعي المؤتمَنَ على حياة رعيَّته؛ الرجلَ الذي يستودعونه آخِرتَهم. وذلك الرجل، عينُه، قد مات في معبده. فكأنه أوفى ما في ذِمَّته من واجب بإخلاص شديد؛ كأن الرجل الذي دأب على تعليم الآخرين كيف يموتون، كان يقدم لهم برهانًا علنيًا على ما علّمهم إياه، وبنتيجة خطأ من نوع ما، مات هو نفسه فعلًا.

بدا أن نعش والدي، وُضع في مكان أكثر من مناسب؛ مكان سبق لأدق التحضيرات أن اتُّخذت لاستقباله. كانت أمي والكاهن الشابّ وأفراد الرعية يقفون أمامه، وهم ينتحبون. تولّى الكاهن الشابّ تلاوة السوترا بنبرة متلعثمة، تقريبًا كما لو أنه لا يزال متكلًا على تعليمات والدي المسجّى أمامه في نعشه.

كان وجه والدي مدفونًا بين أزهار أوائل الصيف. كان ثمة شيء مخيف في النضارة المتناهية لتلك الأزهار، فكأنها كانت تحملق إلى الأسفل في قاع بئر؛ إذ إن وجه الميت يهوي إلى عمق لانهائي تحت السطح الذي كان الوجه يمتلكه وهو حي، غير تاركٍ للأحياء شيئًا يبصرونه غير رسم قناع. إنه يهوي، بالفعل، إلى غور هو من العمق بحيث لا يعود انتشاله إلى السطح ممكنًا أبدًا. يمكن لوجه الميت أن يخبرنا، أفضل من أيّ شيء آخر في هذا العالم، كم هي شاسعة المسافة التي تفصلنا عن الوجود الحقيقي للجوهر المادي، وكم هو متعذّر علينا أن نضع أيدينا على الطريقة التي يوجد بموجبها هذا الجوهر. كانت هذه هي المرة الأولى التي يواجهني فيها موقف

كهذا، تتحول فيه الروح عبر الموت إلى جوهر ماديّ محض. شعرت الآن بأنني أبدأ، رويدًا رويدًا، في فهم لماذا كانت أزهار الربيع؛ الشمسُ؛ مكتبي؛ دارُ المدرسة؛ الأقلامُ، أي كلُّ جوهر مادي، في الواقع، تبدو دومًا بهذه البرودة في نظري؛ تبدو كأنها كانت دائمًا موجودة بعيدًا جدًا.

كانت والدتي وأفراد الرعية على اختلافهم يراقبونني الآن، في هذا اللقاء الأخير مع والدي. غير أن قلبي العنيد ما كان ليتقبّل التشبيه بأرض الأحياء التي تشير إليها ضمنًا كلمة «لقاء»؛ فما جرى لم يكن يشبه اللقاء البتة. كنت أنظر إلى وجه والدي الميّت فحسب.

كانت مسألة نظر إلى الجثة فحسب. كنت أنظر فقط. كان النظر (الفعل، أي مجرّد النظر إلى أحدهم، كما يفعل المرء عادة، من دون أيّ انتباه خاص) برهانًا بليغًا على حقوق الأحياء، وأنه يمكن لهذا النظر أن يكون أيضًا تعبيرًا عن القسوة. خطر هذا كلُّه في بالي الآن، بصفته تجربة حيّة. هكذا أثبت الفتى، الذي لم يغنّ بصوت عالٍ قطُّ، ولم يَعْدُ قطُّ صارخًا بأعلى صوته حقائق وجوده ذاته.

لم أشعر بأدنى خجل، الآن، حين أدرت نحو المشيّعين وجهًا مشرقًا، بلا دموع، مع أني كنت في كثير من النواحي أفتقر إلى الشجاعة الأدبية. كان المعبد واقعًا على جُرف قبالة البحر. والتفتُّ، خلف ضيوف الجنازة، سُحُبُ الصيف، بعضُها على بعض، فوق مياه عرض بحر اليابان، وحجبت عني المشهد.

شرعَ الكاهن يرنّم الآن سوترا الزّن الخاصة، المصاحبةَ لرفع الجثمان، فرنَّمتُ معه. كانت قاعة المعبد الرئيسة معتمة. الراية التي كانت معلّقة بين الأعمدة؛ الزهور التي تزين الحَرَم؛ المبخرة؛ المزهريات: كلُّ شيء كان يتلألأ ساطعًا مع الضوء المنعكس من الشمعة المقدَّسة. وكان نسيم البحر يهبُّ داخل المعبد، بين الحين والحين، نافخًا كُمَّي ثوبي الكهنوتي. فيما كنت أتلو السوترا، منتبهًا باستمرار لوضعية سُحُب الصيف وهي تلقي بوهج قوي في زاويتَي عينَيّ.

ثمة ضوء شديد كان ينسكب ثابتًا من خارج المعبد على أحد جانبَي وجهي. كم كان سطوعه زاهيًا. يا لتلك الإهانة!

باغتنا وابلٌ من المطر عندما صار موكب الجنازة على بعد نحو مئتي متر من المحرقة. كنّا، لحسن الحظ، قد وصلنا تمامًا إلى أمام بيت أحد أفراد الرعية الودودين، فتمكنّا من الاحتماء معًا مع النعش. لم يبدُ أن المطر على وشك التوقُّف، فكان على الموكب أن يواصل السير، فأُعطينا، جميعًا، عُدَّةً لاتقاء المطر، واستأنفنا رحلتنا إلى المحرقة بعد أن غطّينا النعش بقطعة قماش مشمَّع.

تقع المحرقة على شاطئ حجريّ صغير في رأس بارز في البحر جنوب شرقي القرية. لا بدّ من أن هذا المكان استُخدِم منذ قديم الزمان لإحراق الجثث، لأن الدخان لم ينتشر من هنا صوب البيوت.

كان البحر، مقابل هذه النقطة، مائجًا بصورة استثنائية. وانهالت قطرات المطر ثاقبةً سطحه المضطرب، بينما كانت الأمواج العظيمة

تتدحرج إلى الأمام، وتتكسر. راح المطر يثقب سطح الماء بهدوءٍ، في خضمّ هذا الجو الغامض، غيرَ آبهٍ بحالة هياج البحر الاستثنائية. وكانت عصفة ريح تهبُّ فجأة، مرّةً بعد مرة، وتسفح المطر على الصخور المقفرة، فتتلوّن الصخور البيض بالسواد، كما لو أن رذاذًا هائلًا من الحبر قد ضربها.

عَبَرنا نفقًا وبلغنا المكان. وقفنا في النفق احتماءً من المطر، بينما كان العمال يتهيّأون لإحراق الجثمان.

لم أستطع اختلاس لمحة إلى البحر ذاته. لم يكن يوجد غير الأمواج والحجارة السُّود المبتلّة والمطر، الذي أخذ ينهال على النعش عنيفًا، بينما كانوا يصبُّون زيتًا على خشبه الخفيف.

ثم أوقدوا فيه النار. كان الزيت مقنّنًا، لكنهم تدبَّروا أمرهم للحصول على كمية وافرة منه، لأن الجنازة كانت جنازة كاهن، فما هي إلا برهة حتى أخذت ألسنة اللهب تصارع المطر وتتصاعد في الجو بصوت أشبه بقرقعة السياط. وعلى الرغم من أننا كنّا في وضح النهار، فإن شكل النيران الشفّاف كان بارزًا بوضوح وسط الدخان الكثيف. تعالى الدخان متماوجًا رأسًا، وراح شيئًا فشيئًا ينحرف صوب الجروف، ثم ارتفعت، في لحظة معينة، ألسنةُ اللهب برشاقة من تلقاء ذاتها وسط المطر.

صدر فجأة، على نحو مروّع، صوتُ شيء ما يتشقق. انفتح غطاء التابوت.

نظرت إلى والدتي التي كانت تقف إلى جانبي. هي ذي واقفة، ممسكة سبحتَها بكلتي يديها. كان وجهها شديد الجمود؛ بدا منكمشًا إلى درجة يُخيَّل إلى المرء فيها أنَّ في وسعه وضعَه في كفّ يده.

ذهبت إلى كيوتو عَمَلًا بوصية والدي، وأصبحت مساعد كاهن في المعبد الذهبي. كرِّستُ للكهنوت، في هذه المرة، على يد الأب الرئيس، فكان يزوّدني بنفقات دراستي، وكنت أخدمه في مقابل ذلك، وأقوم بأعماله المنزلية. بعبارة أوضح كان وضعي يشبه وضع الطالب الذي يعتمد في مصاريف دراسته على ذويه.

أدركتُ، حالما تولَّيت الخدمة في المعبد، أنَّ مَن بقوا في المعبد، كانوا الرجال المسنّين، والصبيان اليافعين، بعد استدعاء عريف عنبرنا الفظّ إلى القوات المسلَّحة. كيفما قلّبتُ الأمر، كنت مرتاحًا جدًا لوجودي هنا. لم يعد أحد يغيظني لكوني ابنَ كاهن، كما كان الطلاب العاديون في المدرسة الإعدادية يفعلون. هنا، كان الجميع في الموقع ذاته. ونقطتا الافتراق الوحيدتان كانتا أني متأتئ، وأقبحَ من الآخرين قليلًا.

انقطعتُ عن الدراسة في مدرسة شرق مايزورو الإعدادية قبل أن أتخرَّج، إنما تقرَّر، بمساعي الأب تاياما دوسِن، أن أتابع تعليمي في المدرسة الإعدادية لأكاديمية رنزاي. كان مقرَّرًا أن أباشر هناك في الفصل الدراسي الخريفي الذي يبدأ بعد أقل من شهر، غير أني كنت أعلم بأني ما إن أباشر في مدرستي الجديدة حتى أجنَّد للعمل

الإلزامي في أحد المصانع. كانت تواجهني الآن في حياتي جملةٌ جديدة من الظروف. لا تزال لدي بضعة أسابيع من عطلة الصيف. عطلة صيفية في إبَّان فترة حدادي؛ عطلة صيفية متواضعة بشكل غريب في إبَّان المرحلة الأخيرة من الحرب عام ١٩٤٤. سارت حياتي، بصفتي مساعدَ كاهن، بسلاسة، وأشعر، وأنا أعود إليها بالذاكرة، بأن هذه العطلة كانت آخر عطلة حقيقية عشتها في حياتي. لا أزال أسمع بجلاء صوت الزيز.

كان المعبد الذهبي، الذي أراه الآن من جديد بعد انقضاء بضعة أشهر، يجثم بسلام في ضوء نهار من نهارات أواخر الصيف. وكان رأسي حديث الحلاقة لأني كنت قد انتظمت لتوّي في سلك الكهنوت. شعرت بأن الهواء يلائم رأسي كثيرًا، وانتابني شعور خطير على نحو غريب بأن الخواطر التي تجول فيه تظلّ متصلة بظواهر العالم الخارجي بواسطة غشاء واحد من الجلد الهش والحساس. وكلَّما رفعت بصري شاخصًا إلى المعبد الذهبي برأسي الجديد هذا، شعرت بأن البناء يتغلغل فيَّ، ليس عن طريق عينَيَّ فحسب، بل عبر رأسي أيضًا، تمامًا مثلما أحسّ عندما يتجاوب رأسي مع الشمس فيسخن، ومع نسيم المساء فيبرد فجأة.

«أخيرًا، جئت لأعيش إلى جانبك، أيها المعبد الذهبي!» همست في قلبي، وتوقَّفت عن كنس الأوراق لفترة وجيزة. «لست على عجلة من أمري، لكنني أرجوك أن تصادقني يومًا ما، وتكشفَ لي سرَّك. أشعر بأن جمالك شيءٌ أنا قريب جدًّا من رؤيته، ومع

ذلك لا أستطيع أن أراه. أرجوك أن تسمح لي برؤية المعبد الذهبي الحقيقي رؤيةً أوضح من رؤيتي صورتَك في ذهني. أكثر من ذلك، إن كنت فعلًا من الجَمال، بحيث لا يمكن لأيّ شيء في هذا العالم أن يضارعك، فقل لي، أرجوك، لماذا أنت بهذا الجمال، ولماذا ينبغي لك أن تكون جميلًا؟»

في ذلك الصيف، بدا كأن المعبد الذهبي يستخدم أخبار الحرب السيئة التي تصلنا يومًا بعد يوم، كنوع من الرقاقة التي ينعكس عليها إشعاعُه بشكل أكثر حياة من أيّ وقت مضى. كان الأميركيون قد أنزلوا قواتهم في سايبان في حزيران، والحلفاء يكتسحون حقول النورماندي. نقص عدد الزوار نقصانًا جذريًا، وبدا المعبد الذهبي كأنه يستمتع بهذا الهَجْر؛ بهذا الصمت.

كان من الطبيعي جدًّا أن تؤدي الحروبُ والقلاقل، وأكداسُ الجثث والدم الغزير، إلى إغناء جمال المعبد الذهبي. ذلك أنه قد بُني عبر القلاقل؛ بناه كثيرون من المُلّاك من ذوي القلوب السوداء، الذين كان بينهم جنرال. فالتصميم غير المتَّسق لطوابقه الثلاثة، التي لا يسعُ مؤرخ الفن أن يرى فيها سوى خليط من الطُّرُز المعمارية، قد تطور تطورًا طبيعيًّا من البحث عن طراز تتبلور فيه جميع القلاقل المحيطة. ولو أن المعبد الذهبي بُني على غير ذلك وفق طراز ثابت واحد، لَما استطاع أن يحتضن القلاقل ولكان انهار بالتأكيد منذ أمد طويل.

بدا لي، مع ذلك، أمرًا شديدَ الغرابة أن يكون هذا البناء موجودًا

حقًّا أمامي، وأنا أقف، المَرَّةَ تلو المَرة، محدّقًا إلى المعبد الذهبي ويدي متكئة على المكنسة. فهذا المعبد، الذي رأيته حين أمضيت هنا ليلة واحدة فقط في إبّان تلك الزيارة الماضية مع والدي، لم يمنحني هذا الشعور. أما الآن، فأجد من الصعب تصديق أنه سوف يظلّ هنا أمام ناظري بينما السنون الطوال تمرّ.

بدا لي كأنَّ المعبدَ ينتصب، بصورة دائمة، في إحدى زوايا كيوتو، حين كنت أفكر فيه في أثناء إقامتي في مايزورو. أما وأني قَدِمْت للعيش هنا، فكان يظهر أمام عينَيَّ فقط عندما كنت أنظر إليه فعليًّا، ويكفّ عن الوجود حين أنام في القاعة الرئيسية. ثمّ دأبت على الذهاب عدة مرات في اليوم لإلقاء نظرة عليه، على نحو أثار شعورًا بالتسلية لدى زملائي مساعدي الكهنة. كنت أندهش دومًا من وجود المعبد هناك، وعندما عدت إلى القاعة بعد إطالة النظر إلى البناء، شعرت بأني لو التفتُّ ونظرتُ مرة أخرى لَتلاشت صورته تمامًا مثلما تلاشت صورة يوريديس(*).

ذهبت إلى التلَّة في الخلف لأتجنَّب شمس الصباح التي تشتدُّ

(*) من شخصيات الأساطير اليونانية؛ كانت إحدى حوريات السنديان، أو إحدى بنات أبولون. زوجة أورفيوس الذي عشقها وحاول إعادتها، بموسيقاه الساحرة، بعد موتها من العالم السفلي (هاذِس)، لكن بلوتون اشترط عليه أن يمشي أمامها ولا يلتفت إلى الوراء حتى يصل كلاهما إلى العالم العلوي. غير أن أورفيوس سرعان ما اعتراه شكّ في أن بلوتون قد خدعه. والتفت لرؤية وجه زوجته، عندما وصل إلى بوابات هاذِس، حيث ضياء النهار، لكن يوريديس لم تكن قد تجاوزت العتبة بعدُ، فتوارت مرة أخرى في العالم السفلي. (المترجم)

حرارتها رويدًا رويدًا، بعد أن انتهيت من الكنس حول المعبد الذهبي، فتسلَّقت الدرب صوب يوكاتي، أي غرفة الشاي. لم تكن ساعة الافتتاح قد حانت بعد، فكان المكان خاليًا من البشر تمامًا. مرَّ في السماء تشكيلٌ من المقاتلات، لعلَّها من سرب مايزورو للقوى الجوية، كانت تحلِّق فوق المعبد الذهبي على ارتفاع منخفض نسبيًّا، وما لبثت أن اختفت تاركة في أعقابها صوتًا تنقبض له الصدور.

ثمة بركة وحيدة، في التلَّة في الخلف، مغطّاةٌ بالأُشْن المائية، تُعرَف باسم ياسوتاميزاوا. وثمة جزيرة صغيرة جدًّا وسط البركة ينتصب فيها الشيراهِبيزوكا، وهو برج حجريّ من خمسة طوابق. كان الهواء الصباحي المحيط يضجّ بتغريد العصافير. صحيحٌ أنه لم يكن أيٌّ منها مرئيًّا، لكنّ الغابة برمَّتها كانت تغرّد معها.

عشبُ الصيف نما في تجمّعات كثيفة أمام البركة، والدرب مفصول عنه بسياج واطئ. كان يستلقي إلى جانبه فتًى صغير يرتدي قميصًا أبيض، ومجرفة من الخيزران متكئة بالقرب منه على شجرة قيقب واطئة.

رفع الفتى جسمه، بطاقة كبيرة بحيث بدا كأنه يحفر ثقبًا في هواء الصيف اللطيف الذي يهبّ حوالينا. لكنه اكتفى بالقول، حين رآني: «أوه، أهذا أنت؟»

عرَّفني أحدهم إلى هذا الفتى مساء اليوم السابق. اسمه تسوروكاوا، وقد جاء من معبد مزدهر في ضواحي طوكيو. وأجزلتْ له أسرتُه في نفقات المدرسة ومصروف الجيب والمؤن، وأودِعَ المعبد

الذهبي عن طريق صلة معيَّنة بالرئيس، بحيث يختبر شيئًا من التدريب الذي يخضع له مساعدو الكهنة العاديون. كان قد ذهب إلى منزله لقضاء عطلة الصيف، ثم عاد إلى كيوتو في وقت متأخر من عصر اليوم السابق. كان تسوروكاوا يتكلَّم بطلاقة بلهجة طوكيوية بديعة، ومن المفترض أن يلتحق بالمدرسة الإعدادية لأكاديمية ونزاي ذلك الخريف، في الصفّ نفسه الذي سألتحق به، وقد سبق أن أربكني أسلوبُه السريع والبهيج في الكلام، ليلةَ أمس.

جمد لساني في حلقي ما إن سمعته يقول: «أوه، إنه أنت!» بدا لي أنه فسَّر سكوتي بصفته نوعًا من النقد.

«لا بأس، كما تعلم. لستَ مضطرًّا إلى الحرص على كَنس ذلك كلّه. سيتَّسخ المكان، في أيّ حال، حين يأتي الزوار. وعدا ذلك، ليس هناك الكثير من الزوار هذه الأيام».

ندَّت عني ضحكةً قصيرة. من شأن ضحكتي هذه، التي كان من عادتي أن أُطلقها من دون وعي، أن تجعل بعض الناس ودودين تجاهي كما يبدو. لذا، لم أكن مسؤولًا دومًا عن الانطباعات المفصَّلة التي أتركها عند الآخرين.

تخطَّيت السياج وجلست إلى جانب تسوروكاوا. كانت ذراعه مثنية حول رأسه، فلحظت أن الجزء الداخليّ منها كان شديدَ البياض بحيث يمكن للمرء رؤية الأوردة عبر بشرتها، على الرغم من أن خارجها ملوَّح بالشمس نوعًا ما. كانت أشعة شمس الصباح تتسلَّل عبر الأشجار وتنثر ظلالًا خفيفة الخضرة على العشب. عرفت،

بالغريزة، أن هذا الفتى لن يعشق المعبد الذهبي كما أعشقه، فتعلُّقي به كان متجذّرًا، بكلّيته، في دمامتي أنا.

«سمعت أن أباك توفي،» قال تسوروكاوا.

«أجل».

وسرعان ما أدار عينيه جانبًا، وقال من دون أن يبذل جهدًا لكتم مدى استغراقه في تفكيره الصبياني: «إن سبب حبّك المعبدَ الذهبي إلى هذا الحدّ هو أنه يذكّرك بأبيك، أليس كذلك؟ أعني، مثلًا، أنك تتذكّر، حين تنظر إليه، كم كان أبوك يحبّه».

سُررتُ نوعًا ما بأن منطقه نصف الصحيح لم يسبّب أيَّ تغيير البتة على وجهي المثير للشفقة. اتضح أن تسوروكاوا كان يصنّف المشاعر البشرية تصنيفًا دقيقًا كما يرتّب الجوارير الصغيرة الأنيقة التي يحتفظ بها في غرفته، مثل الصّبْية الذين يصنّفون مختلف أنواع الحشرات؛ فكان بين الحين والحين يستمتع بإخراجها من تلك الجوارير لإجراء شيء من التجريب العملي.

«أنت حزين جدًّا لموت أبيك، ألستَ كذلك؟ لهذا ينمُّ مظهرك عن شيء من الوحشة. هذا ما ظننته منذ التقيتك للمرة الأولى، ليلة أمس».

لم تصدَّني ملاحظاتُه بأيِّ شكل. مَنَحني شعوره بأني أبدو مستوحشًا، نوعًا من الحرية وهدوء البال، فخرجت الكلمات بسلاسة من فمي: «ليس في الأمر ما يُحزن، كما تعلم».

نظر تسوروكاوا إليّ، رافعًا حاجبيه اللذين كانا من الطول بحيث ظهرا كأنهما يزعجانه.

«يا للأسف!» قال، «كنت تكره أباك، إذن. أليس ذلك؟ أو كنت على الأقل تنفر منه؟»

«لم يكن لديّ أيُّ شيء ضده، ولم أكن أنفر منه».

«طيب، إذن، لماذا لست حزينًا؟»

«لسبب أو لآخر، هذه هي الحال. أنا نفسي لا أفهم لماذا!»

أحسَّ تسوروكاوا بأنه يواجه مشكلة صعبة، فاستقام في جلسته على العشب.

«في هذه الحال»، قال، «لا بدَّ من أنك عشت تجربة محزنة أخرى معيَّنة».

«أنا حقًّا لا أعرف»، أجبت.

تساءلتُ، بعد أن تكلَّمتُ، لماذا أستمتع بإثارة الشكوك في أذهان الآخرين إلى هذا الحد. في ما يتعلق بي، لم يكن ثمة أدنى شكّ. كانت المسألة واضحة لي: أعاني بسبب التأتأة، فلا تظهر مشاعري في الوقت المناسب. وشعرت، نتيجة لذلك، كما لو أن واقعة موت والدي وواقعة كوني حزينًا أمران منفصلان، لا ارتباط بينهما، ولا تنتهك إحداهما الأخرى بتاتًا. يكفي أن يحدث تباين زمني أو تأخُّر طفيف حتى تعود المشاعر التي تنتابني، والأحداث التي أمرّ بها، إلى حال التفارق بينهما، التي هي ربما، في ما يخصُّني أنا بالذات،

حالها الأصلية. يداهمني الأسى فجأة، ومن غير سبب، حين أكون حزينًا: إنه غير مرتبط بأيّ حدث بعينه، ولا بأيّ دافع.

انتهى الأمر، مرة أخرى، بعجزي عن تفسير أيّ شيء من ذلك لصديقي الجديد الذي كان جالسًا قبالتي. وأخذ تسوروكاوا يضحك في النهاية.

«أنت حقًّا شخص غريب الأطوار، ألست كذلك»، قال.

تغضَّن بطنُه ذو القميص الأبيض من الضحك. جعلَتْني أشعة الشمس المنسكبة عبر غصون الأشجار المتمايلة أشعر بالسعادة. كانت حياتي متجعدة، مثل قميص الشاب المتجعد. ولكن، على الرغم من تجعّد قميصه الأبيض، كم كان بياضه ناصعًا في ضوء الشمس! لعلي أنا أيضًا مثله؟

واصل المعبد حياته، بحسب التقاليد النظامية لطائفة زِن، تاركًا العالم الخارجيَّ وشأنه. لم نكن نستيقظ بعد الساعة الخامسة صباحًا، بما أننا كنَّا في فصل الصيف. تُطلَق على النهوض صباحًا عبارةُ «افتتاح القواعد». وما إن ننهض حتى نبدأ «مهمة الصباح» بتلاوة السوترا. وهذه تُعرَف بتسمية «العودة المثلَّثة»، فكنَّا نتلوها ثلاث مرات. ونكنس، بعد ذلك، داخلَ المعبد ونمسح أرضيَّته. ثم يحين موعد وجبة الإفطار المعروفة باسم «جلسة العصيدة»، فنأكل عصيدتنا ونحن نستمع إلى تلاوة السوترا الخاصّة بجلسة العصيدة. ونشرع، بعد الإفطار في «مهمّات»، مثل اقتلاع الأعشاب الضارّة وتنظيف الحديقة وتقطيع الحطب، ثم يحين موعد انطلاقنا إلى مكان دراستنا في أيام دوام العام الدراسيّ.

كنَّا نتناول «دواءنا»، أو وجبة المساء، بعيد عودتنا من المدرسة. تلي ذلك، من حين إلى آخر، محاضرةٌ يلقيها الرئيس تخصُّ النصوص المقدسة. ويأتي، في الساعة التاسعة، «فتحُ الوسادة»، أي ميعاد النوم.

كان روتيني اليومي يجري على هذا النحو، وكانت إشارتي إلى الاستيقاظ، كلَّ يوم، صوتَ الناقوس حين يقرعه الكاهن المكلَّف أمورَ المطبخ وشعائرَ أوقات الطعام.

كان يُفترَض أصلًا أن يوجد نحو اثني عشر شخصًا ملتحِقًا بالمعبد الذهبي؛ أي الروكونجي. وإذا استثنينا المرشد (كان في السبعينات من عمره)، والمرأةَ التي تتولّى أمور الطبخ (كانت في الستينات من عمرها) والشمَّاسَ والقندلفت(*)، فإن نزلاءه الوحيدين، نتيجة التجنيد للخدمة العسكرية والعمل الإلزامي، كنّا نحن؛ مساعدي الكاهن الثلاثة. كان المسنُّون طاعنين في السن ونصفَ أحياء فحسب، بينما كنَّا نحن الشباب عمليًا أطفالًا. أما الشمَّاس فكان غارقًا في حسابات المعبد التي كانت تُعرَف بـ «المهمَّات الإضافية».

كلِّفتُ، بعد وصولي ببضعة أيام، واجبَ تسليم الصحيفة إلى مقرّ الرئيس (الذي كنَّا نسميه «كبير المعلّمين»). كانت الصحيفة تصل

(*) الشمَّاس والقندلفت: مصطلحان مسيحيان يشيران، على التوالي، إلى رتبة كهنوتية أدنى من رتبة الكاهن، وإلى خادم الكنيسة الذي يتولَّى حَمل الشموع وقرع الجرس وحفر القبور؛ أقرب مصطلحين إلى المصطلحين المقابلين في التراتبية الكهنوتية في بوذية زِن. (المترجم)

كلَّ يوم، تقريبًا في الوقت الذي نكون قد أنهينا فيه مهمَّاتنا الصباحية المتنوعة، بما فيها التنظيف. فمسح كلّ ممرّ في المعبد، الذي كان يحوي أكثر من ثلاثين غرفة، في الوقت القصير المخصَّص لنا، كان بالنسبة إلى فريقنا الصغير من المساعدين عملًا مضنيًا. ما إن أنتهي حتى أذهب إلى المدخل لآخذ الصحيفة، فأعبر الرواق الأمامي حيث تقع قاعة المبعوث، وأمشي حول الجزء الخلفي من قاعة الزوار، ثم أتابع طريقي على امتداد ممرّ متوسط إلى المكتبة الكبرى حيث يكون كبير معلّميَّ في انتظاري. لا تزال الممرّات كلُّها مبتلَّة من المسح، وحيث توجد فجوات في ألواح الأرضية كانت بريكات من الماء تلتمع في شمس الصباح وتبلّل قدميَّ حتى الكاحلين. وكان هذا الأمر يمنحني شعورًا لذيذًا كوننا في فصل الصيف. ثم أركع خارج المكتبة وأنادي: «هل لي أن أدخل، يا أبتِ؟»

«أجل!» يأتي الجواب.

جفَّفت ساقَيَّ المبتلَّتين بحاشية ثوبي الكهنوتي، قبل أن أخطو إلى داخل الحجرة. وهي حيلة تعلّمتها من رفاقي. كنت منتبهًا لرائحة العالم الخارجي القوية، المنعشة، الفائحة من طباعة الصحيفة. وما إن اختلست لمحة إلى العناوين الرئيسة، حتى قرأت: «هل ستكون العاصمة الإمبراطورية هدفًا لغارات جوية؟»

قد يبدو الأمر غريبًا، لكن لم يخطر في بالي قطّ، حتى ذلك الوقت، الربطُ بين المعبد الذهبي والغارات الجوية. غدت الغارات الجوية على البرّ الرئيسي حتميةً منذ أن سقطت سايبان، وكانت

السلطات ماضية قُدُمًا في تنفيذ خطط لإخلاء جزء من كيوتو. ومع ذلك، لم يبدُ لي، في ما يخصُّني أنا بالذات، أن ثمة صلة بين الوجود شبه الأبدي للمعبد الذهبي، وبين كارثة الغارات الجوية. شعرت بأن كلاًّ من المعبد، العَصِيّ بطبيعته على التدمير، والقوةِ النارية ذات الطبيعة العلمية حتمًا، على دراية تامّة بالفارق بين طبيعتيهما، وأنه إذا قُيّض لهما أن يلتقيا فلا بدَّ لكلّ منهما تلقائيًّا من أن يتملَّص من الآخر. كان المعبد الذهبي، في واقع الأمر، معرَّضًا لخطر الاحتراق عن آخره قريبًا في غارة جوية. فبالفعل، لو قُدّر للأمور أن تستمرّ على ما هي عليه، فمن المحتم أن يستحيل المعبد الذهبي إلى رماد. وازداد المعبد الذهبيّ، مرة أخرى، جمالًا مأسويًّا، منذ أن تجذَّرت هذه الفكرة في داخلي.

كان الوقت عصرَ يوم من أواخر الصيف، قبل الموعد المحدَّد لبدء المدرسة بيوم واحد. كان الرئيس قد ذهب إلى مكان ما لحضور شعائر تأبينية في صحبة القندلفت. دعاني تسوروكاوا إلى الذهاب معه لحضور فيلم، ولكن لأنني لم أكن مهتمًا كثيرًا للفكرة، فقد هو نفسه حماسته لمشاهدته: هكذا كانت طباعه.

غادرنا القاعة الرئيسية، بعد استلامنا إجازة تغيُّب لساعات قليلة، وكلٌّ منا يعتمر قبَّعة المدرسة الإعدادية لأكاديمية رنزاي، ويرتدي لفافة ساق حول سرواله الخاكي. كان المعبد مغمورًا بأوج حرارة يوم صيفي، ولم يكن ثمة زائر واحد.

«طيّب، أين سنذهب؟» قال تسوروكاوا.

أجبتُ بأني أودّ أن أتملّى النظر إلى المعبد الذهبي قبل الذهاب إلى أيّ مكان، لأنه لن يعود ممكنًا لنا أن نراه في مثل هذه الساعة من اليوم من الغد فصاعدًا، ولأنه من المحتمل جدًّا أن يحترق عن آخره، في غارة جوية، بينما نكون متغيّبين في أثناء عملنا في المصنع. تلعثمت وتأتأت كثيرًا، وأنا أشرح وجهة نظري، وكان تسوروكاوا يستمع إليَّ وعلى وجهه تعابير الدهشة ونفاد الصبر. سال العرق وانسكب على وجهي عندما أنهيت هذا الخطاب المقتضَب، كما لو أني قلت أمرًا مخجلًا. كان تسوروكاوا الشخصَ الوحيد الذي بحت له بتعلقي الغريب بالمعبد الذهبي. ومع ذلك، لم تظهر على وجهه إلا نظرة النكد المعتادة تلك، والتي دأبتُ على رؤيتها في عيون الناس الذين كانوا يحاولون فهم تأتأتي. تلك هي الوجوه التي تجابهني. حين أبوح بأسرار مهمّة؛ حين أناشد الناس وأبوح بالمشاعر المدوّية التي يملأني بها منظرُ الجَمال؛ حين أحاول أن أكشف عن أحشائي نفسها إلى العلن، فإن ما يجابهني هو وجه كهذا. هذا الوجه ليس من نوع الوجوه التي يبديها الناس عادة للآخرين. هذا الوجه هو استنساخ أمين تمامًا لنَكَدي الهزليّ أنا. إنه، إن جاز القول، مرآة مرعبة لذاتي. مهما بلغ حظ الوجه من الجَمال، في أوقات كهذه، فسينقلب حتمًا إلى دمامة مثل دمامتي تمامًا. وحالما أتبيَّن هذا، ينهار الأمر المهم الذي أودّ أن أعبر عنه، ويتحوّل إلى شيء غير ذي بال على الإطلاق، مثل قرميدة سقف.

كانت أشعة ضوء الصيف المباشرة القوية، تسري بيني وبين

تسوروكاوا. والتمع وجهُه الممتلىء بينما كان ينتظر أن تنتهي كلماتي. كان كلٌّ من حاجبيه يلتمع ذهبيًا في ضياء الشمس، واتَّسع منخراه من شدّة القيظ.

فرغت من الكلام. واستبدَّ بي الغيظ حالما انتهيت. لم يحاول تسوروكاوا، منذ أن قابلته، ولا حتى مرةً واحدة، أن يُغيظني بخصوص تأتأتي.

«لماذا؟» سألته، حاثًّا إيَّاه على أن يعلّل لي حلمه تجاهي. فكنت أُسَرُّ بالتهكم والإهانات أكثرَ من التعاطف، بأضعاف، كما بيَّنتُ مرارًا وتكرارًا.

ارتسمتِ ابتسامةٌ لا يوصف حنانها على وجهه.

«أنا من الصنف الذي لا يبالي على الإطلاق بهذا النوع من الأمور»، قال.

دُهشت كثيرًا. لم آلف هذا النوع من اللطف، ربما لأني نشأت في بيئة الريف الخشنة. علَّمني لطف تسوروكاوا أن في إمكاني، حتى وإن زالت التأتأة من حياتي، أن أبقى أنا نفسي. استمتعت أيَّما استمتاع بتعريتي التامة. تولَّت عيناه، برموشهما الطويلة المرتسمة حولهما، تصفيتي من تأتأتي، وتقبُّلي كما أنا تمامًا. كنت، حتى ذلك الوقت، فريسةَ وَهْم غريب، مفاده أن تجاهُل تأتأتي كفيل وحده بإلغاء ذلك الوجود المسمى «أنا».

انتابني إحساس بالسعادة، وبانسجام في المشاعر. لا عجب في

أني لم أتمكن من نسيان المعبد الذهبي، كما بدا في تلك اللحظة. مررنا معًا من أمام المكان الذي كان البواب العجوز غافيًا فيه، ثم سرنا على طول الدرب المقفر بمحاذاة الجدار، ووصلنا إلى واجهة المعبد الذهبي.

لا يزال المشهد حيًا في ذاكرتي. وقفنا، نحن الصبيَّين، هناك عند بركة كيوكو، كتفًا إلى كتف، بقميصينا الأبيضين ولفافتي ساقينا. وانتصب المعبد الذهبي أمام هذين الشخصين، لا يفصله عنهما شيء. كان شبابنا يحوّم دائخًا على الحافة، في هذا الصيف الأخير؛ في عطلة الصيف الأخيرة هذه؛ في اليوم الأخير منها بالذات. وكان المعبد الذهبي قائمًا على هذه الحافة نفسها؛ واجَهَنا، كلَّمنا. قرَّبتْ توقعاتُ الغارات الجوية بيننا وبين المعبد، إلى هذا الحدّ.

زيَّن نورُ شمس أواخر الصيف الخافت سقفَ الكوكيوتشو برقاقة ذهبية، وملأ الضوءُ المنسكب إلى الأسفل المعبدَ الذهبيَّ بظلمة ليلية. كان عصيان المعبد على الفناء قد قهرني حتى الآن، وباعد بيني وبينه، غير أن مصيره الوشيك بأن يحترق بقنبلة حارقة قرَّبه من قَدَرنا نحن. قد يكون مقيَّضًا له أن يزول قبلنا. بدا لي أن الحياة التي يعيشها المعبد كانت عينَها الحياةَ التي نعيشها نحن.

كانت التلال المحيطة، بأشجار صنوبرها الحُمر التي تضج بأصوات الزيزان، تبدو كما لو أن عددًا لا يحصى من الكهنة غير المرئيين ينشدون ابتهال إطفاء النيران: غيا غيا، غياكي غياكي، أُنْ نْ، شيفُرآ شيفُرآ، هاراشيفُرآ هاراشيفُرآ!(*)

(*) تعويذة من السوترا لإطفاء الحرائق. (المترجم)

«سيستحيل، قريبًا، هذا البناء الجميل رمادًا،» فكرت. راحت صورتي للمعبد الذهبي، نتيجة ذلك، تتركب رويدًا رويدًا فوق المعبد الحقيقي ذاته، بكلّ تفاصيله، تمامًا مثلما تتركب فوق اللوحة الأصلية نسخةٌ يرسمها المرء عبر قطعة من حرير الرسم: كان السقف في الصورة الخاصة بي مركبًا فوق السقف الحقيقي؛ والسوسي فوق السوسي الممتدّ فوق البركة؛ ودرابزين الكوكيوتشو ونوافذه على ذاك الدرابزين والنوافذ تلك. لم يعد المعبد الذهبي مبنًى راسخًا. استحال، إذا جاز القول، رمزًا لاندثار العالم. وصار المعبد الذهبي بفضل هذه العملية الفكرية الآن، لا يقلّ جمالًا عن جماله في صورتي الذهنية. كلٌّ ما كنّا نعرفه هو أن السماء قد تمطر غدًا نيرانًا، وسوف تستحيل رمادًا، إذ ذاك، تلك الأعمدةُ الرشيقة، المنحنيةُ السقف، والأنيقة، ولن يقع بصرنا عليها مرة أخرى. إنما كان المعبد، في الوقت الحاضر على الأقل، قائمًا بكلّ تفاصيله الدقيقة، ومغمورًا بذلك الضياء الذي كان أشبه بنار الصيف.

كانت تعلو، فوق حافة التلال، غيومٌ جليلة، مثل الغيوم التي رأيتها من زاويتَي عينَيَّ حين كانت السوترا تُتلى في أثناء جنازة والدي. كانت مشبعة بنوع من الضوء الراكد الذي يطلّ على بنية المعبد الدقيقة. وبدا المعبد الذهبي، تحت هذا الضوء الصيفيّ القويّ، فاقدًا تفاصيلَ شكله المتنوعة. كان يحتفظ بالعتمة الموحشة، الباردة، ملتفّةً داخلَ ذاته، ويتجاهل بخطوطه الغامضة، ببساطةٍ، العالَمَ الباهرَ المحيطَ به. كان طائر الفينيق على السقف، وحده،

يُطْبق بمخالبه الحادّة على قاعدته بإحكام، محاولًا ألا يترنّح تحت وطأة وهج الشمس.

ملّ تسوروكاوا من طُول تحديقي إلى المعبد، فالتقط حصاة، ورماها، بحركة رشيقة لا يأتيها إلا رماة البيسبول، إلى وسط ظلاله المنعكسة على بركة كيوكو. انتشرت التموجات عبر الأُشُن المائية، وما لبث المبنى الجميل، الدقيق، أن انهار متفتتًا.

شكّلتْ السنة التي تلت وحتى انتهاء الحرب انتهاءَ الحرب، الفترةَ التي كنت فيها أقرب ما يمكن من المعبد الذهبي؛ الفترة التي كنت في إبّانها مهتمًا أصلًا بسلامته، ومستغرقًا كليًا في جماله. وهي فترة، بدوت في أثنائها، كأني أُنزل المعبد إلى مستواي. وإذ صدَّقتُ هذا الأمر، استطعت أن أحبّه من دون أيّ شائبة من خوف. لم يكن قد تسرَّب إليَّ منه، بعدُ، أيٌّ من تأثيره الشرير، أو سُمّه.

ما كان يشجعني هو أني كنت أتقاسَم والمعبدَ خطرًا مشتركاً في هذا العالم. وجدت في هذا الخطر همزةَ وصل بيني وبين الجمال. شعرت بأن هناك جسرًا ممتدًا بيني وبين الشيء الذي بدا، حتى ذلك الوقت، أنه يتنكّر لي، ويُبقيني على مسافة منه.

كنت شبه ثمل من مجرَّد فكرة أن النار التي ستأتي عليَّ سوف تأتي على المعبد الذهبي أيضًا. فآلَ بنا الأمر، أنا والمعبد، إلى أن نُمسي كأننا نسكن عالمَين، بأبعاد متماثلة، بما أني كنت وإيّاه خاضعَين للّعنة ذاتها، وللمصير الناري المشؤوم نفسه. كان جسم

المعبد، على صلابته، يتكوَّن من الكربون القابل للاحتراق، تمامًا مثل جسمي الدميم الهشّ. كان يَلُوح لي، في بعض الأوقات، أن في إمكاني الفرار من هذا المكان، مصطحبًا معي المعبدَ مخبَّأً في بدني، في لحمي ذاته؛ تمامًا مثلما يبتلع السارق جوهرة نفيسة حين يلوذ بالهرب.

لم أحفظ سوترا واحدة، ولا قرأت كتابًا، طوال تلك السنة كلّها. وانشغلت، بدلًا من ذلك، يومًا بعد يوم، ومن الصباح حتى المساء، بالتربية الأخلاقية والتمرين والفنون العسكرية وعمل المصنع والتدرُّب على الإخلاء الإجباري. وطبيعتي، الميَّالة أصلًا إلى أن تكون حالمة، أصبحتْ أكثر نزوعًا إلى الحلم. وتقهقرت الحياةُ العادية، بسبب الحرب، وباتت أكثر بعدًا عني. كانت الحرب، في نظرنا نحن الصّبْية، نوعًا من التجربة التي تشبه الحلم والتي تفتقر إلى أيّ جوهر حقيقي؛ كانت شيئًا يشبه الجناحَ المخصَّص لعزل المرضى، والذي ينقطع فيه المرءُ عن معنى الحياة.

توقَّع الناس شنَّ غارات على كيوتو، في أيّ وقت، عندما شنَّت طائرات الـB-29 أُولى غاراتها على طوكيو في تشرين الثاني ١٩٤٤. أصبح حلمي السرّي، إذ ذاك، أن تلف ألسنةُ اللهب كيوتو بأسرها. كانت تلك المدينة شديدة الحرص على صون أشيائها القديمة، كما عادتها تمامًا. كانت المزارات والمعابد، من كلّ الأشكال والألوان، تتناسى ذكريات الجمر الملتهب، التي وُلدت من الداخل. وكنت

كلَّما تخيَّلتُ كيف تركتْ حربُ أونِنْ العظمى(*) هذه المدينةَ أثرًا بعد عين، شعرتُ بأن كيوتو أضاعت جزءًا من جمالها بعد أن تناست طويلًا محنة نيران الحرب.

ستكون النيران، غدًا، قد أتت على المعبد الذهبي قطعًا. وذلك الشكل، الذي ما انفكَّ يملأ الفضاء، سيضيع. حتى الطائر على قمة المعبد سينبعث من جديد، مثل طائر الفينيق الكلاسيكي، ويحلّق بعيدًا. وحتى المعبد الذهبي نفسه، الذي ما فتئ حتى ذلك الوقت مقيَّدًا بشكله، سينعتق من القواعد كافة، وينجرف بخفة هنا وهناك، ناثرًا ضوءًا باهتًا على البحيرة وعلى مياه البحر المظلم.

طال أمد انتظاري ولم تَنَل كيوتو قطُّ «شرَف» تعرّضها لغارة جوية واحدة، وظلت مغطّاة بسماء أوائل الربيع الصافية، حتى عندما قرأت، في التاسع من آذار من السنة التالية، أن حيَّ طوكيو التجاري استحال، بأسره، بحرًا من النيران، وأن الكارثة كانت تنتشر في طول البلد وعرضه. كدت أقنط، آنئذٍ، من طول الانتظار، وأنا أحاول إقناع نفسي بأن سماء أوائل الربيع الصافية هذه تُخفي بين ثناياها ضروبَ النار والدمار كلَّها، تمامًا كما يُخفي لمعان زجاج النافذة كلّ ما يقع خلفه. كنت فعلًا، كما قلت سابقًا، سقيمَ الشعور الإنساني إلى حدّ ميؤوس منه. بالكاد تأثرت بموت والدي وفقرُ والدتي في حياتي الداخلية

(*) حرب أهلية دامت من سنة ١٤٦٧ حتى سنة ١٤٧٧، في إبَّان فترة موروماتشي في اليابان. تفاقم الخلاف بين هاسكاوا كاتسوموتو ويامانا سوزِن حتى اندلع حربًا شاملة طالت حكم آل أشيكاغا العسكري وعددًا من أمراء الحرب في عدد من أنحاء البلد. افتتحت الحرب فترة سنغوكو، «فترة الدول المتقاتلة». (المترجم)

أساسًا. ما كنت أحلم به كان شيئًا أشبه بمكبس سماوي ضخم من شأنه أن يُنزل بالعالم كوارثَ ونكباتٍ ومآسيَ تفوق قدرة البشر، وأن يسحق تحته البشرَ أجمعين والجمادات كلَّها، بغضّ النظر عن قبحها أو جمالها. كان إشراق سماء أوائل الربيع الاستثنائي يظهر لي أحيانًا مثلَ ضوء النصل البارد لفأس هائلة، وضخمة بما يكفي لتغطية الأرض بأسرها. وكنت أنتظر، في تلك الأحيان، أن تهوي هذه الفأس فحسب؛ أن تهوي بسرعة لا تترك للمرء أيَّ وقت للتفكير، حتّى.

ثمة أمر لا تزال غرابته تصدمني حتى الآن. لم تكن تتملّكني في الأصل خواطرُ كئيبة. وحده الجمال كان همّي، على نحو يضعني وجهًا لوجه أمام مشكلتي. لكني لا أحسب أن الحرب أثّرت فيَّ بكونها ملأت ذهني بخواطر كئيبة. تُجابه الناسَ، من حيث لا يدرون، أحلكُ الخواطر الموجودة في هذا العالم، حين يركّزون على فكرة الجمال. فتلك، على ما أظنّ، هي جبلّة البشر.

أتذكر قصة حدثت في كيوتو عند نهاية الحرب تقريبًا. كان أمرًا لا يصدَّق مطلقًا، لكني لم أكن الشاهدَ الوحيد عليه. كان تسوروكاوا إلى جانبي.

ذهبت وتسوروكاوا معًا، حين انقطعت الكهرباء ذاتَ يوم، لزيارة معبد نانزِن(*). كانت تلك زيارتنا الأولى له. قطعنا الطريق العريضة

(*) معبد زِن بوذيّ في كيوتو، شيّده الإمبراطور كامِياما سنة ١٢٩١. يكتنفه موقع تاريخي وطني، حيث حدائق هوجو الفائقة الجَمال. (المترجم)

وتوجَّهنا صوب الجسر الخشبي الممتدّ فوق الرصيف المنحدر الذي كانت تُنزل منه قديمًا المراكبُ في الماء.

كان يومًا صافيًا من أيام أيار. لم يعد الرصيف المنحدر قيد الاستخدام، والقضبان المتدلّية عليه كانت صدئة، تكاد الأعشاب البرية تكسوها تمامًا. وتنمو، وسط هذه الأعشاب، زهورٌ صغيرة رهيفة، على شكل صلبان، ترتعش في الريح. كان الماء راكدًا وقذرًا، حتى النقطة التي يبدأ عندها الرصيف. وظلالُ صفوف أشجار الكرز المنتشرة حولنا تغطي الماء تمامًا.

وقفنا على الجسر الصغير، وحدَّقنا شاردين في الماء. تترك لحظاتُ الشرود القصيرة أكثر الانطباعات تأثيرًا في خضمّ تلاطم ذكريات المرء عن زمن الحرب. كانت تكمن في كلّ مكان تلك اللحظاتُ الوجيزة من الشرود الخامل، مثلَ رُقَع من سماء زرقاء تبزغ عبر الغيوم. غريب أن لحظة كهذه بقيت واضحة في ذهني، كما لو أنها كانت مناسبة للذَّة مؤثرة.

«ممتعة، أليست كذلك؟» قلت وابتسمت، بلا اكتراث.

«أوه»، أجاب تسوروكاوا، وابتسم هو الآخر. شعر كل منا، بقوة، بأن هذه الساعات القليلة مُلكٌ لنا.

تجري، إلى جانب الدرب العريض المحصَّب، قناةٌ تفيض بالماء الصافي، تتمايل فيها مع تدفقها نباتاتٌ مائية جميلة. وسرعان ما انتصبتْ أمامنا بوابة السَّنْمون الشهيرة. كان حَرَم المعبد خاليًا

تمامًا من أيّ بشر، وقطعُ قرميد سقفه تشعُّ مترَفة، وسط هذا الاخضرار النَّضِر، كما لو أن كتابًا كبيرًا بلون الفضة المدخَن قد وُضِعَ هناك. أيُّ معنى يمكن أن يكون للحرب في هذه اللحظة؟ بدا لي، في مكان معيَّن، في زمن معيَّن، أن الحرب صارت حادثة روحية عجيبة، لا وجود لها خارج وعي البشر.

لربما أسند قدميه إلى الدرابزين، من على قمَّة بوابة السَّنْمون هذه، لصُّ الأيام الخوالي، إيشيكاوا غويمون(*)، واستمتع بمنظر الزهور في الأسفل وهي في أوج تفتُّحها. كنّا في مزاج صِبْياني، وخطر في بال كلّ منا ضرورة أن نستمتع برؤية المشهد من موقع غويمون نفسه، على الرغم من أننا كنًا في الموسم الذي فقدت فيه أشجار الكرز أزهارَها، وتغطّت بالأوراق. دفعنا رَسم دخولنا الصغير، وتسلَّقنا السلَّم الشاهق الذي صار لون خشبه الآن أسودَ تمامًا. ارتطم رأس تسوروكاوا بالسقف الواطئ، في القاعة عند القمة، حيث كانت تؤدَّى الرقصاتُ الدينية في السابق. ضحكتُ، لكنني صدمت مباشرةً رأسيَ، أنا الآخر. فاستدار كلانا، مرة أخرى، وصعدنا إلى رأس السلَّم، وظهرنا على قمة البرج.

ولَّد فينا توترًا لطيفًا شعورُنا، فجأة، بأننا نقف بكلّيّتنا، وسط هذا الفضاء الواسع، بُعَيدَ صعودنا السلَّم، الذي كان ضيّقًا كالسرداب.

(*) (١٥٥٨-١٥٩٤): بطل أسطوري مارق شجاع، سرق الذهب وأشياء ثمينة أخرى ليعطيها للفقراء. أُعدِمَ علنًا هو وابنه غليًا، في «فترة الدول المتقاتلة»، بعد إخفاق محاولة اغتيال أمير الحرب تويوتومي هيديوشي. أسطورته حية في الثقافة الشعبية اليابانية المعاصرة، وغالبًا ما تُنسَب إليه مهاراتُ النينجا المبالغ فيها. (المترجم)

وقفنا هناك بعض الوقت نحدّق إلى أشجار الكرز والصنوبر؛ إلى غابة مزار هايان الممتدة متلويةً في المدى، أبعد من صفوف الأبنية؛ إلى شكل سلاسل جبال أراشِياما، وكيتانوكاتا، وكيفون، ومينورا، وكُمبيرا، وهي ترتفع، على نحو مبهم، عند أقاصي شوارع كيوتو. خلعنا حذاءينا، عندما اكتفينا من رؤية المشهد خارجًا، ودخلنا القاعةَ المعتمة باحترام، مثل اثنين من مساعدي الكهنة النموذجيين. كانت ممدودة على أرضيتها القاتمة أربعٌ وعشرون حصيرة قشّ، وفي وسطها تمثال لشاكاموني(*)، وتلمع في تلك العتمة العيونُ الذهبيّة الستُّ عشرة للأرهَنْت(**). وكان هذا يُعرَف باسم غوهورو، أو برج طيور الفينيق الخمسة.

ينتمي معبد نانزِن إلى فرقة رنزاي ذاتها التي ينتمي إليها المعبد الذهبي، ولكن بينما يعتصم الأخير بمدرسة سوكوكوجي، كان هذا هو المقر الرئيس لمدرسة نانزِنجي. كنّا، بكلام آخر، في معبد لفرقة معبدنا ذاتها، لكنه تابع لمدرسة أخرى. وقفنا هناك، مثلَ طالبَي مدرسة إعدادية عاديين، وبين أيدينا دليلٌ، نجيل ناظرينا في اللوحات المرسومة على السقف، وذات الألوان الزاهية، والمنسوبة إلى تانيو

(*) شاكاموني أو شاكيامُوني («متوحّد آل شاكيا»): هو نفسه الأمير سِدهارتا غوتاما (٥٦٣/٤٨٠-٤٨٣/٤٠٠ ق م) مؤسّس البوذية. (المترجم)

(**) تُعرّف بوذية الجنوب (ثيرافادا) الأرْهَة (بالسنسكريتية) أو الأرهَنْت (بالبالية) بأنه «الشخص النفيس» أو «الشخص المثالي» الذي بلغ مرتبة النيرڤانا أو الانعتاق التام. أما في بوذية الشمال، فيُطلَق هذا المصطلح على المتقدّمين في طريق الاستنارة قبل بلوغهم مرتبة التحقق الكامل. (المترجم)

مورينوبو من مدرسة كانو(*)، وإلى هوغان تاكويتسو من مدرسة توسا(**). وكانت، على أحد طرفي السقف، لوحاتٌ لملائكة يطيرون عبر السماء، ويعزفون الناي وقيثارة البيوا القديمة. وكان كالافِنكا (***)، في مكان آخر، يرفرف بجناحيه، وفي منقاره زهرة فوانيا بيضاء. وهذا هو الطائر الرخيم الصوت، الوارد ذكره في السوترا، بصفته يعيش على جبل سِسّان: الجزء الأعلى من جسمه على صورة فتاة بدينة، والجزء الأسفل على شكل طائر. وكان مرسومًا، في الوسط، ذلك الطائرُ الخرافيّ الذي يُفترَض به أن يكون رفيقًا للطائر على ذروة المعبد الذهبي، لكنه كان مثل قوس قزح بديع، مختلفًا كليًا عن الطائر الذهبيّ المهيب الذي كنت أعرفه حقَّ المعرفة.

ركعنا أمام تمثال شاكاموني، وجمع كلٌّ منّا راحتيه مصلّيًا، ثم غادرنا القاعة. كان من الصعب جرُّ نفسينا نزولًا من أعلى البرج، فاتكأنا على الدرابزين المواجه للجنوب عند أعلى السلَّم الذي

(*) كانو تانيو (١٦٠٢-١٦٧٤): من أهم رسّامي مدرسة كانو. اسمه الأصلي مورينوبو؛ كان الابن الأكبر لكانو تاكانوبو وحفيد كانو إيتوكو. عيَّنه حكم توكوغاوا العسكري أول رسام رسمي سنة ١٦١٧. (المترجم)

(**) تأسَّست مدرسة توسا للرسم الياباني في أوائل عصر موروماتشي (في إبّان القرنين الرابع عشر والخامس عشر)، مكرّسة ذاتها لرسم لوحات متخصّصة بالمواضيع والتقنيات المستمَدة من الفن الياباني القديم، على الضد من المدارس التي تأثرت بالفن الصيني، ولاسيما مدرسة كانو. (المترجم)

(***) مخلوق خياليّ خالد في البوذية، ذو رأس بشري وجذع طائر وذيل طويل متموّج. يقال إنه يسكن الأرض الطاهرة الغربية، ويشتهر بأنه يعظ بحكمة البوذية (دهرما)، وهو لا يزال في قشرة بيضه، بصوت رخيم يشبه صوت البوذا. (المترجم)

تسلّقناه. شعرت كما لو أني أبصر، في مكان ما، لولبًا ملوّنًا صغيرًا جميلًا يتراءى أمام ناظرَيّ. لا بدَّ من أنه كان طيفًا للألوان الرائعة التي أبصرتها لتوّي في لوحات السقف. والشعور، الذي انتابني بوجود تكثيف للألوان الغنية، دفعني إلى الإحساس كما لو أن طائر الكالافِنكا مختبئٌ في مكان ما، بين تلك الأوراق النضرة، أو على بعض أغصان أشجار الصنوبر الخُضر تلك، المنتشرة في كلّ مكان في الأسفل، وكما لو أنه كان يدعني ألمح زاوية من جناحيه الرائعين.

لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت صومعةُ تِنجو تقع أسفل الطريق الذي نمرّ فيه. ثمة درب، مرصوفٌ بحجارة مربّعة لا تتلامس إلا زواياها، يتعرّج عبر حديقة غُرستْ فيها أشجارٌ صغيرة، واطئة، ويُفضي إلى حُجرة واسعة ذات أبواب جرّارة مفتوحة على مصاريعها. كان في وسع المرء أن يبصر كلَّ تفصيل من تفاصيل التوكو(*)، والرفوف المتداخلة في الغرفة. ثمة سجادة قرمزية فاتحة اللون، منشورة على الأرضية: واضح أن الحجرة كانت تُستعمَل، على نحو متكرّر، للتكرس للشاي، وتؤجّر لأداء طقوسه. وهناك امرأة شابّة جالسة. هي التي انعكس طيفُها في عينيّ. لم يكن المرء يرى أبدًا، في إبّان الحرب، امرأةً مرتدية كيمونو زاهي الألوان، طويلَ الكمَّين، كالذي كانت تلبسه. من المؤكّد أن كلَّ مَن يخرج مرتديًا ثيابًا كثيابها، يعرّض نفسه للتوبيخ بتهمة نقص الرزانة الوطنية، فيضطر إلى العودة إلى المنزل

(*) توكو (اختصار «توكونوما»): مساحة مجوَّفة معزولة في غرفة استقبال يابانية، مرتفعة قليلًا عن الأرضية، وتُعرَض فيها أغراض ذات قيمة فنية وجمالية، كالأزهار المنسَّقة واللوحات والتماثيل والعبارات المخطوطة. (المترجم)

وتبديلها. لم أستطع أن أتبيَّن تفاصيل النقش، من فرط ما كان شكل لباسها بديعًا، لكنني لحظت زهورًا مرسومة ومطرَّزة على خلفية زرقاء شاحبة، وكان وشاحها القرمزي يبرق بخيط ذهبيّ: بدا الأمر تقريبًا كما لو أن الهواء المحيط مضاءٌ بألق زيّها. كانت الحسناء الشابّة جالسة على الأرضية في وضعية مثالية الأناقة، ومظهرها الشاحب يبرز نافرًا كأنه منحوتة. لم يسعني، للوهلة الأولى، إلا أن أتساءل إن كانت شخصًا حيًّا فعلًا.

«بحق السماء!» قلت، وأنا أتأتئ بشدة، «هل يُعقل أن تكون حيّة؟»

«هذا، بالضبط، ما خطر في بالي. ألا تشبه الدمية؟» أجاب تسوروكاوا الذي كان يقف متكئًا على الدرابزين، من دون أن يحوّل عينيه عن التحديق في المرأة.

ظهر، عندئذٍ بالضبط، من الجانب الخلفيّ للغرفة، ضابطٌ شابّ، في زيّه العسكري. جلس على الأرض، على بُعد بضع أقدام من المرأة، مواجهًا لها، ومراعيًا بصرامة آدابَ السلوك. جلس الإثنان، لوهلة، يواجه أحدهما الآخر، بهدوء.

نهضت المرأة، واختفت في صمت في عتمة الرواق. وعادت، بعد مرور بعض الوقت، حاملةً كوبَ شاي بيديها الاثنتين. كان كمّاها الطويلان يتمايلان إلى الأمام والخلف معَ النسيم. ركعتْ أمام الرجل مباشرةً، وقدَّمتْ إليه الشاي، ثمّ عادت إلى مكانها الأصلي بعد أن ناولته إيّاه وفقًا لآداب السلوك. قال الرجل شيئًا، ولم يكن قد شرب

الشاي بعدُ. وبدت اللحظة التي تلت كلامَه غريبةً في توتُّرها وطُول أمدها. كان رأس المرأة شديد الانحناء.

حدث، إذ ذاك، الأمرُ الذي لا يصدَّق. كانت المرأة لا تزال جالسة مستقيمة الظهر تمامًا حين فكّت فجأة ياقة الكيمونو. تناهى إلى سمعي حفيفُ الحرير، وهي تسحب قماش ثوبها من تحت الوشاح المشدود، ثمّ رأيت ثدييها الأبيضين وحبست أنفاسي أخذَتْ أحدَهما وفركته بكلتا يديها. أمسك الضابط بكوب الشاي القاتم الغامق اللون، وركع أمامها.

لا أستطيع أن أقول إني شاهدت كلَّ شيء، لكنني شعرت، بوضوح، كأن كلَّ شيء قد حدث أمام عينَيَّ مباشرة: كيف انبجس الحليب الأبيض الدافئ من ثديها وتدفّق إلى الشاي الأخضر الغامق، الذي أرغى داخل ذلك الكوب؛ كيف رسب في السائل، تاركاً قطراتٍ بيضاءَ على السطح؛ كيف عكَّر ذلك الثديُ الأبيض، بالرغوة، سطحَ الشاي الساكن.

رفع الرجل الكوب إلى فمه، وشرب كلَّ قطرة من ذلك الشاي الغامض، وأخفت المرأة ثديها الناهد في الكيمونو.

حدَّقتُ وتسوروكاوا إلى المشهد متوتِّرين. وقرّرنا، في وقت لاحق، عندما فحصنا المسألة فحصًا منهجيًّا، أن ما جرى كان، أغلبَ الظن، حفلَ وداع بين ضابط مغادر إلى الجبهة، والمرأةِ التي حبلت بطفله. لكنّ انفعالاتنا، في تلك اللحظة، جعلت أيَّ تفسير منطقي للأمر أمرًا مُحالًا؛ لم يتسنَّ لنا الوقت كي نلحظ أن الرجل والمرأة قد

خرجا من الحجرة تاركَين، فقط، السجادةَ الكبيرة الحمراء، لأننا كنَّا نحملق، حينها، بكلّ إمعان.

بيد أني رأيت مظهرها الأبيض ذاك، مجسَّمًا نافرًا، ورأيت ثديها الأبيض الرائع. وفكّرتُ، بإصرار، بعد أن غادرتِ المرأة، في أمر واحد، في إبَّان الساعات المتبقّية من ذلك اليوم، وكذلك خلال اليوم التالي، واليوم الذي أعقبه. فكرتُ في أن هذه المرأة لم تكن سوى أويكو، وقد بُعِثَتْ إلى الحياة من جديد.



الفصل الثالث

كان ذلك اليوم هو الذكرى السنوية لوفاة والدي، وخطرت لوالدتي فيه فكرةٌ غريبة. خطر في بالها أن تأتي بنفسها إلى كيوتو لأنَّ من الصعب عليَّ العودةَ إلى المنزل بسبب عملي الإلزامي، وأحضرت معها لوح والدي الجنائزيَّ، لعلّ الأب دوسِن ينشد عليه بعض السوترا في الذكرى السنوية لوفاة صديقه، ولو لبضع دقائق. لم تكن تملك، طبعًا، ما يكفي من المال لدفع أجرة الصلاة، فكتبتْ إلى الرئيس، معتمدةً كليًّا على إحسانه. واستجاب الأب دوسِن لالتماسها، وأعلمني بالأمر.

لم أُسَرَّ بالنبأ. ثمة سبب خاص جعلني أتفادى، حتى الآن، الكتابةَ عن أمّي. لذا، تراني لا أشعر برغبة خاصة في التطرّق إلى ما يتعلّق بها، فلم أوجّه إليها، قطُّ، كلمةَ توبيخ واحدة في ما يخصُّ حادثة بعينها. لم أتكلّم عن الأمر أبدًا. ولعلّها لم تكن تدري حتى أني على

علم بالموضوع. ولكني لم أستطع حمل نفسي على مسامحتها، منذ أن وقعت تلك الحادثة.

وقعت الحادثة في إبّان عطلتي الصيفية حين ذهبت إلى المنزل للمرة الأولى بعد التحاقي بمدرسة شرق مايزورو الإعدادية، وبعد أن عُهِدَ إلى عمّي العناية بي. كان أحد أقرباء والدتي، ويدعى كوراي، قد عاد، في تلك الفترة، إلى ناريو من أوساكا، حيث آلت أعماله إلى الإخفاق، فلم ترضَ زوجته، التي كانت وريثة أسرة ميسورة، بإعادته إلى بيت الزوجية، فاضطرّ إلى الإقامة بمعبد والدي إلى أن حُلّت القضية.

لم يكن لدينا كثيرٌ من الناموسيّات في معبدنا. وكان من العجب حقًّا أنني لم أُصَبْ ووالدتي بعدوى السلّ من والدي، بما أننا كنّا جميعًا ننام تحت الناموسية ذاتها. وها قد انضمّ إلينا، الآنَ، هذا الرجلُ؛ كوراي. أتذكرَ كيف تطاير زيزٌ بين أشجار الحديقة، في وقت متأخر من إحدى ليالي الصيف، مطلِقًا صرخاتٍ قصيرةً. ولعل تلك الصرخات هي التي أيقظتني. كان صوت الموج يصدر صدى مرتفعًا، وأسفلُ الناموسية الخضراء الفاتح لونها يرفرف مع نسيم البحر. لكنّ ثمة أمرًا غريبًا يتعلّق بالطريقة التي كانت الناموسية تهتزّ بها؛ كانت تبدأ بالانتفاخ مع الريح، ثم لا تلبث أن تهتزّ بصعوبة وهي تدع الهواء يتسرّب عبرها. لم تكن الطريقة التي تنتفخ فيها الناموسيةُ طيّاتٍ، انعكاسًا صادقًا لكيفية هبوب الريح. وبدت، بدلًا من ذلك، كأنها تتجاهل هبوبَها، وتمتصّ منها قوةَ اندفاعها. كان ثمة صوت

يشبه حفيف الخيزران وهو يحتكُّ بحَصائر القش؛ كان صوت أسفل الناموسية وهو يحتكُّ بالأرضية. ثمة حركة محدَّدة ليست صادرةً عن الريح تنتقل إلى الناموسية؛ حركة أرق من هبوب الريح؛ حركة تنتشر مثل التموّجات على امتداد الناموسية بطولها كلّها، حاملةً القماش الخام على التقلُّص متشنجًا، وجاعلةً امتدادَ الناموسية الضخم يبدو من الداخل مثل سطح بحيرة يتورَّم مضطربًا. فهل كان مقدّمةَ موجةٍ شكّلتْها سفينةٌ وهي تمخر طريقها كأنها تحرثه حرثًا، مبتعدةً عبر البحيرة؟ أم كان الانعكاسَ البعيد لبقية موجة في أعقاب سفينة سبق أن عبرت هذا المكان؟

التفتُّ، بخوف، إلى مصدرها. وشعرتُ، حينها، كما لو أن مثقابًا يحفر حفرًا في قلب كلّ من مقلتَيّ، وأنا أحدّق عبر الظلمة بعينين مفتوحتين على اتساعهما.

كنت مستلقيًا إلى جانب والدي. الناموسية أصغر من أن تتَّسع لأربعة أشخاص، ولا بدَّ من أني تقلّبت في أثناء نومي ونحّيته في اتجاه إحدى الزوايا. ونشأ، بسبب ذلك، امتدادٌ أبيض واسع من ملاءة مجعَّدة يفصل بيني وبين الشيء الذي رأيته الآن. ووالدي، الذي كان يستلقي متكومًا خلفي، يتنفَّس أسفل رقبتي تمامًا.

إيقاع تنفُّسه المتقطّع والمتوثّب على ظهري، جعلني أدرك أنه كان مستيقظًا فعلًا. واستنتجت أنه كان يحاول أن يكتم سعاله. غطّى عينَيَّ المفتوحتين، بغتةً، شيءٌ عريضٌ ودافئٌ، فلم أعد أرى شيئًا. وفهمتُ فورًا أن والدي قد مدَّ يديه من الخلف ليحجب عني الرؤية.

حدث هذا منذ عدة سنوات، ولم أكن يومذاك قد تجاوزت الثالثة عشرة من عمري، لكن ذكرى هاتين اليدين لا تزال حية فيَّ. يدان كبيرتان بما لا يقاس؛ يدان غطّتا عينَيَّ من الخلف، ماحيتَين في ثانية واحدة منظرَ ذاك الجحيم الذي شهدتُه؛ يدان من عالم آخر. أكان الأمر نابعًا من محبة، أم من إشفاق، أم من خِزي؟ لا أدري. لكن تينك اليدين حجبتا فورًا العالَم المرعب الذي جابهَني، ودفنتاه في الظلمة.

أومأت برأسي وهو محاطٌ بتينك اليدين. واستنتج والدي فورًا، من تلك الإيماءة من رأسي الصغير، أني فهمت، وأني جاهز للرضوخ، فرفع يديه. وأصررتُ، بعدئذٍ، على إبقاء عينيَّ مغمضتين، بالضبط كما أمرتْ تلك اليدان، وظللتُ هكذا مستلقيًا هناك بلا نوم حتى انبلج الصبح، وشقَّ الضوءُ المبهرُ الآتي من الخارج طريقَه عبر أجفاني.

تذكَّر، أرجوك، أنني، بعد ذلك بسنوات، لم أذرف دمعة واحدة، حين كان نعش والدي يُحمَل خارج البيت، من شدة انشغالي بالنظر إلى الوجه الميّت. تذكَّر، أرجوك، أني تحرَّرتُ، بموته، من أصفاد يديه، وتمكّنتُ من تأكيد وجودي من خلال الإمعان في النظر إلى وجهه. تذكَّرتُ، إلى هذا الحدّ فحسب، أن أُوقع ثأري الملائم على تينك اليدين؛ أي على ما يسمّيه أناس هذا العالم: الحبَّ. لكنّي لم أفكّر، ولا مرّة واحدة، في الانتقام من والدتي، بصرف النظر عن حقيقة أنني لم أستطع مسامحتها على تلك الذكرى.

تقرَّر أن تأتي والدتي إلى المعبد الذهبي، عشيةَ إقامة الشعائر

التذكارية، وسُمِحَ لها بأن تُمضي الليلة فيه. وبعث الرئيس برسالة إلى مدرستي يستأذن فيها تغيُّبي يومَ الذكرى السنوية. لا يقيم الملزَمون منَّا بالعمل الإجباريّ بمكان عملهم، بل يحضرون إليه في الوقت المعيَّن، ثم يعودون إلى المكان المحدَّد لهم العيشُ فيه. أما أنا، فكنت ممانعًا للعودة إلى المعبد عشيةَ يوم الذكرى السنوية.

كان تسوروكاوا، بقلبه الصافي البسط، مسرورًا من أجلي، لأني سأرى أمّي من جديد بعد طول غياب، وكان رفاقي المساعدون شديدي الفضول لرؤيتها. لكنني كرهت أنّ لي أمًّا على هذا القَدْر من الفقر والرثاثة. كنت في حيرة من أمري: كيف أفسّر لتسوروكاوا، الطيّب القلب، لماذا لم أرد رؤية أمّي.

ما زاد الطين بِلَّة أن تسوروكاوا أمسك بذراعي حالما أنهيت وإياه دوام عملنا في المصنع، وقال: «هيّا، فلنسرع في العودة!»

أبالغ إن قلت إني لم أكن أريد رؤيتي والدتي إطلاقًا. ليس الأمر أني كنت عديم المشاعر تجاهها. لعل الحقيقة أني كنت أنفر من مواجهة التعبير الصريح عن الحب الذي يلقاه المرء من أقربائه بالدم، وأني كنت أحاول، ببساطة، تسويغَ هذا النفور بطرق عدة. ذاك كان مَكمن سوء شخصيتي. لم يكن لديّ مانع من محاولة تبرير مشاعري الصادقة بجميع صنوف التسويغ، إنما كان من شأن الدوافع متعددة الأوجه التي يغزلها دماغي أن تُكرِهَني، في بعض الأحيان، على مشاعر بعينها، حتى أنا، نفسي، أجدها صادمة. وتلك المشاعر لم تكن أصلًا مشاعري.

فقط في كراهيتي كان ثمة شيء أصيل؛ فأنا، نفسي، كنت شخصًا قابلًا لأن تحرّكه الكراهية.

«لا داعي للعجلة»، أجبت. «إنها لا تسبّب للمرء غيرَ التعب. دعنا نأخذ وقتنا في العودة!»

«فهمت»، قال تسوروكاوا. «فأنت تريد أن تستميل أمَّك، وتنال تعاطفها بالتظاهر بأنك أكثر إرهاقًا من أن تسير بسرعة».

كان تسوروكاوا يؤوّل، على هذا النحو، سلوكيَ على الدوام، ويخطئ في تأويله دومًا. لكنه لم يكن يزعجني إطلاقًا، بل صار لا غنًى عنه، في واقع الأمر؛ إذ بات مترجمي الطيّبُ النية صديقًا لا بديل عنه حقًّا، وفي وسعه أن يترجم لي كلماتي إلى لغة العالم الواقعي.

أجل، بدا لي تسوروكاوا أحيانًا مثل خيميائيّ في مستطاعه تحويل القصدير إلى ذهب. كنت الصورةَ السالبة، وهو الصورة بعد تظهيرها. ما أكثر ما أدهشني أن أرى كيف تصير مشاعري العَكِرة، القاتمة، صافيةً ومشرقةً، بمجرّد أن تتصفّى عبر قلب تسوروكاوا! فكان يأخذ مشاعري بنفسه بينما كنت أتردّد وأتأتئ، فيقلبها ويعيد بثّها إلى العالم الخارجي. ما تعلّمته من هذه العملية المدهشة، في ما يخصُّ مشاعري حصرًا، أنّه لم يكن ثمة فارق بين أجود المشاعر في هذا العالم وأسوأها. إن تأثيرهما كان ذاتَه، ولا يوجد فارق مرئيّ بين نيّة القتل ومشاعر الرحمة العميقة. ما كان في مقدور تسوروكاوا أن يصدّق أمرًا كهذا، حتى لو تمكّنت من شرحه له بكلمات. لكنه كان،

في نظري، اكتشافًا مرعبًا. وإن وصل بي الأمرُ الآن إلى ألاّ أمانع أن يظنّني تسوروكاوا منافقًا. فلأن النفاق بات في ذهني مجرَّد إساءة نسبية.

لم أشهد في كيوتو غارةً جوية قطُّ، لكن حدث أن وقع هجوم، ذات مرة، حين أُرسِلتُ إلى المصنع الرئيسي في أوساكا حاملًا بعضَ الطلبيات لقطع الغيار الخاصة بالطائرات. وشاهدت حينها أحد عماله محمولًا على نقالة، وكانت أمعاؤه مندلقة من بطنه.

ما هو المروّع جدًّا في منظر أمعاء مبقورة؟ ما الذي يدفعنا إلى أن نغطّي أعيننا مرعوبين، حين نرى أحشاء إنسان؟ لماذا يُصدَم الناس، إلى هذا الحدّ، بمرأى الدم المتدفّق؟ لماذا أمعاء الإنسان قبيحة؟ أليست خواصّها هي عينها خواصُّ جمالِ بشرةٍ فتيّةٍ نضِرة؟ كيف سيظهر وجه تسوروكاوا لو قلت له إني تعلَّمت منه، بالذات، هذه الطريقة في التفكير؟ طريقة تفكير تستحيل بها دمامتي عدمًا. لماذا يبدو، فعلًا، أن ثمة شيئًا غير إنسانيّ يتعلّق باعتبار البشر كالزهور، ورفض إجراء أيّ تمييز بين باطن أجسامهم وخارجها؟ ألا ليت في وسعهم أن يعكسوا أرواحهم وأجسادهم، وأن يقلبوا داخلها خارجًا، مثل بتلات الورد، ويعرّضوها لنسيم الربيع، وللشمس...

كانت والدتي قد وصلت وهي تكلّم الرئيس في حجرته. ركعتُ وتسوروكاوا في الرواق خارجها، في غسق أوائل الصيف، وأعلنّا عن عودتنا.

دعاني الرئيس إلى الحجرة وحدي، وقال أمام والدتي شيئًا مفاده

أني أُحسِنُ البلاء في أداء واجبات المعبد. أبقيت رأسي مطأطئًا، وأنا لا أنظر إلى أمّي إلا لمامًا. كان في وسعي أن أرى، من زاويتَي عينَيَّ، القطنَ الأزرق الباهت اللون لسروالها الفضفاض المخصَّص لزمن الحرب، وأصابعَ يديها القذرة المسبلة عليه.

أخبرنا الأب دوسِن بأننا نستطيع أن نأوي إلى مهاجعنا. انحنينا تكرارًا وخرجنا من الغرفة. كنت أسكن في غرفة ضئيلة الحجم ذات خمس حصائر، جنوبيّ المكتبة الصغيرة قبالة فِناء. وما إن انفردنا بنفسينا هناك حتى أجهشتِ الوالدة بالبكاء. وكنت قد توقعت الأمر فتمكنت من الحفاظ على رباطة جأشي.

«أنا الآن تحت رعاية الروكونجي»، قلت لها، «وأتمنى عليك ألا تزوريني مستقبلًا حتى أصير كاهنًا تامَّ الأهلية».

«فهمت، فهمت»، قالت والدتي.

سرَّني أني أفلحت في استقبال أمي بمثل هذه الكلمات القاسية، وإنما ضايقني أنها لم تُظهِر أيَّ علامة على الشعور أو المقاومة، تمامًا كما في الأيام الخوالي. وشعرت بالرعب، في الوقت ذاته، عندما تخيَّلت مجرَّد إمكان أن تجتاز العتبةَ، وتنفذ إلى ذهني.

نظرت إلى وجهها الذي لوَّحتْه الشمس، فرأيت عينيها الغائرتين، الماكرتين، الصغيرتين. كانت شفتاها، وحدهما، حمراوين ولامعتين، كما لو أنهما تمتلكان حياة تخصُّهما. أمّا أسنانها، فكانت كأسنان نساء الريف، كبيرةً وقوية. كانت في عُمر يبيح لها، لو أنها من سكّان

المدن، أن تتبرّج من دون أن يبدو ذلك مستغرَبًا. غير أن والدتي لم توفِّر جهدًا في إظهار وجهها كأقبح ما يكون. وكنت أعي تمامًا أن خاصية شهوانية باقية في ذلك الوجه، مثل الرواسب، وكرهت ذلك.

أخرجت والدتي فوطة أحضرتها معها من منزل القرية، وأخذت تمسح بها صدرها العاريَ الذي لوَّحته الشمس، بعد أن انسحبت من حضرة الأب دوسِن وبكت ما تيسَّر لها البكاء. كانت الفوطة من النوع الذي يستلمه المرء مع حصّة الطعام؛ قماشها مصنوع من ألياف التيلة، وله لمعة حيوانية، ويزداد لمعانًا عندما يبتلّ بالعَرق.

أخرجت والدتي من جرابها بعض الأرُزّ. قالت إنها ستقدِّمه إلى الرئيس، فلم أنبس ببنت شفة. استخرجتْ، بعد ذلك، لوح والدي الجنائزيَّ، الذي كان ملفوفًا، بعناية، بقطعة من القماش الرمادي البالي، ووضعتْه على رفّ كتبي.

«كم أنا مسرورة بهذا كلِّه»، قالت. «سيهنأ والدك حقًّا حين يعلم بأن الرئيس سيتلو الصلاة لراحة نفسه».

«وهل ستعودين إلى ناريو بعد الذكرى السنوية، يا أمّي؟» سألت.

فاجأتني إجابتها. تبيَّن أنها تنازلت أصلًا عن حقوق معبد ناريو لشخص آخر، وباعت قطعة الأرض الصغيرة. كانت قد سدَّدت جميع نفقات والدي الطبية، ورتَّبت الأمور، بحيث تذهب وتعيش بمفردها في بيت خالها في كاساغي قرب كيوتو. لذا، فإن المعبد الذي كنت

أنوي العودة إليه، لم يعد معبدنا! ولم يتبقَّ لي أيُّ شيء يرحّب بي في تلك القرية على الرأس المهجور.

لم أدرِ كيف فسَّرتْ والدتي نظرة الانعتاق التي ظهرت على وجهي، لكنها انحنت قريبًا مني، وقالت: «لم يعد لديك، كما ترى، يا عزيزي، معبدٌ يخصُّك. الأمر الوحيد الذي في وسعك أن تفعله الآن هو أن تصبح رئيس المعبد الذهبيّ هنا. عليك أن تفعل كلَّ ما تستطيعه كي يولَع بك الأبُ فعلًا، بحيث يمكن لك أن تخلفه متى حان أوان رحيله. هل تفهم، يا عزيزي؟ هذا هو كلُّ ما ستعيش أمُّك في سبيله الآن».

أذهلني هذا التطوّر، فحاولت أن أبادل والدتي التحديق فيها، لكنني كنت أشدَّ جزعًا من أن أقوى على النظر إليها كما ينبغي لي.

كانت الحجرة الخلفية الصغيرة مظلمةً الآن. قرَّبَت «أمّي الحنون» فمَها من أذني مباشرة وهي تكلّمني، ففاحت رائحة عرقها في منخرَيَّ. تذكرت أنها كانت تضحك آنذاك. ذكريات نائية من أيام الرضاعة؛ ذكريات ثدي داكن البشرة. راحت الصور تتسابق تسابقًا غير مستحَبّ في دماغي. ثمة نوع من القوة المادية في لهيب حرائق الحقول المتواضعة، وهذا الأمر بالذات هو ما بدا أنه يُخيفني. لحظتُ وجود يعسوب يُريح جناحيه على الحوض الحجريّ المغطّى بالطحالب في الفِناء الغسقي، حين لامستْ خصلات شعر والدتي الجعداء خدّي. كانت سماء المساء منعكسة على صفحة بقعة الماء المستديرة الصغيرة في الحوض. لم يكن ثمة أيُّ صوت مسموع، وبدا الروكونجي، في هذه اللحظة، معبدًا مهجورًا.

تمكّنت أخيرًا من النظر إلى وجه والدتي مباشرة. كان ما يشبه الابتسامة يلهو عند زاويتَي شفتيها اللامعتين، فاستطعت أن أرى أسنانها الذهبية البرّاقة.

«نعم»، أجبت وأنا أتأتئ بشدّة، «إنما كلُّ ما أعلمه هو أني ربما سأُستدعى وأُقتل في المعركة».

«يا لك من أحمق!» قالت. «إذا جنَّدوا المتأتئين أمثالك في الجيش، فاليابان هالكة لا محالة!»

جلست هناك متوترًا، ممتلئًا بالكراهية تجاه أمّي. لكن الكلمات التي تأتأتها كانت مجرَّد مراوغة. «قد يحترق المعبد الذهبي عن آخره في غارة جوية»، قلت.

أجابت: «توحي طريقة سير الأمور بأن ليس هناك أدنى خطر من وقوع غارة جوية على كيوتو. الأميركيون يتركونها وشأنها».

لم أجب. كانت الظلمة المخيّمة على الفِناء قد أمست من لون قاع البحر. غرقت الحجارة في العتمة، وقد يُخيَّل إلى المرء، إن نظر إلى شكلها، أنها كانت تتصارع بشراسة. نهضت والدتي، متجاهلةً صمتي، وحدَّقت، بلا تكلُّف، إلى باب غرفتي الصغيرة الخشبي.

«ألم يَحِنْ بعدُ وقتُ وجبة المساء؟» قالت.

أدركتُ أن زيارة والدتي، حين عدت لاحقًا بذاكرتي إليها، كان لها تأثيرٌ كبير في تفكيري. لقد فهمتُ، في هذه المناسبة بالذات، أنها

تعيش في عالم مختلف كليًا عن عالمي، في هذه المناسبة عينها بدأ أسلوبها في التفكير يؤثّر فيَّ للمرة الأولى.

كانت والدتي، في طبيعتها، من نمط الأشخاص الذين لا يكترثون لجمال المعبد الذهبي. وامتلكَت، بدلًا من ذلك، حسًّا واقعيًا غريبًا عني. قالت إنَّ لا خوف على كيوتو من وقوع غارة جوية. وعلى الرغم من أحلامي كلّها، فإنّ هذا الأمر كان على الأرجح صحيحًا: إذا لم يكن هناك أيُّ خطر من شنّ هجوم على المعبد الذهبي، فإني قد أضعت، موقّتًا، هدفي من العيش. والعالم الذي كنت أسكن فيه لا بدَّ من أن يتحطَّم.

في المقابل، إن المطمح الذي كانت والدتي تصبو إليه، ونطقت به على هذا النحو غير المتوقَّع، أَسَرَني، بقدر ما مَقَتُّه. لم يَفُهْ والدي بكلمة واحدة، قطُّ، بشأن هذا الأمر، لكنه ربما كان يضمر مطمح والدتي نفسه حين قرَّر إرسالي إلى هذا المعبد. كان الأب دوسِن عازبًا. فعلى فرض أنه هو نفسه قد بلغ منصبه الحالي بناءً على توصية من سلف علَّق عليه آماله، لم يكن ثمة سبب يَحُول بيني وبين خلافته رئيسًا للروكونجي في آخر المطاف، ما دمت أتفانى في مهمَّاتي على الوجه الصحيح. ولو حدث هذا الأمر، فإن المعبد الذهبي سيصبح مُلكي!

تشوشت أفكاري. عدت إلى حلمي الأول (بأن المعبد الذهبي سوف يُقصَف بالقنابل) حين أصبح مطمحي الثاني مرهِقًا. ورجعتُ إلى المطمح الثاني عندما حطمتْ واقعيةُ منطق والدتي الواضحة

ذلك الحلمَ، حتى أنهكتُ في النهاية نفسي بالتنقل المستمر بين أفكاري جيئة وذهابًا، وظهر، نتيجةَ ذلك، ورمٌ أحمر ضخم عند أسفل عنقي.

تركتُه وشأنه. أصبح الورم راسخ التجذُّر، وراح يضغط عليَّ من مؤخّرة عنقي بقوة ثقيلة، ساخنة. حلمت، في نومي المتقطّع، بأن نورًا ذهبيًّا خالصًا كان ينمو على عنقي، محيطًا مؤخرة رأسي بنوع من الهالة الإهليلجية، ومتمدّدًا بالتدريج. لكن تبيَّن لي، حين استيقظت، أن سبب الأمر كان مجرَّد الألم من الورم الفتاك.

أصابتني أخيرًا حمّى حتى اضطررت إلى لزوم الفراش، فأرسلني الرئيس لعيادة جرّاح. والجرّاح، الذي كان يرتدي زيًّا وطنيًّا، وينتعل جرمقًا، شخَّص ورمي باسم بسيط هو «دمَّل». وعقَّم مشرطه بوضعه فوق لهب، لأنه لم يشأ استخدام أيّ كحول، ثم أَعْمَلَه في عنقي. تأوَّهتُ. انفجر العالم الساخن المرهق مفتوحًا في أسفل رأسي، فشعرت به ينكمش على نفسه وينهار.

وضعتِ الحربُ أوزارَها. كلُّ ما خطر في بالي، وأنا أستمع في المصنع إلى الفرمان الإمبراطوي الذي أعلن نهاية القتال، هو المعبدُ الذهبيّ، فهرعت إلى واجهته حالما عدت من المصنع. كانت الحصى، في الدرب المخصَّص لزوّاره، تضطرم بلهب شمس منتصف الصيف، فأخذتْ واحدةٌ تلو الأخرى تَعْلَقُ بنعلَي حذائي الرياضي، المطاطيَّين الخشنين.

لعلّ أهالي طوكيو ذهبوا ووقفوا طوابيرَ أمام القصر الإمبراطوري، بعد أن سمعوا الفرمان. أما هنا، فقد تجمهرت أعداد كبيرة من الناس، وأخذوا ينوحون أمام بوّابات قصر كيوتو غير المأهول. فكيوتو مليئة بالمزارات والمعابد، بحيث يمكن للناس أن يذهبوا ويبكوا في مناسبات كهذه. لا بدَّ من أن جميع الكهنة قد أحسنوا البلاء نوعًا ما. وعلى الرغم من منزلة المعبد الذهبي العظيمة، فإن أحدًا لم يأتِ لزيارته يومذاك.

ما حدث هو أن ظلّي كان مرئيًا، وحده، على الحصى الملتهبة. وإن أردت وصف الموقف، بشكل ملائم، فيمكنني القول إني كنت واقفًا في جانب، بينما كان المعبد الذهبيّ ينتصب في الجانب الآخر. واستشعرت أن علاقتنا طرأ عليها تغيُّر منذ اللحظة التي وقع فيها بصري على المعبد يومذاك. فالمعبد الذهبي يكون على سجيَّته حينما يتعلّق الأمر بأشياء مثل صدمة الهزيمة أو الحِداد الوطني. يبدو متعاليًا في أوقات كتلك، أو يتظاهر بالتعالي على الأقل. وهو لم يبدُ، في أيّ وقت مضى، في مثل حالته اليوم. إن نجاته، في النهاية، من الاحتراق في غارة جوية، ووجودَه الآن خارج دائرة الخطر، قد ساعداه، من دون شكّ، على استرجاع شكله السابق، وهو شكلٌ لسانُ حاله يقول: «لقد كنت هنا منذ قديم الزمان، وسوف أبقى هنا إلى الأبد».

كان قائمًا هناك في صمت مطبق، مثلَ قطعة أثاث، أنيقة لكنها عديمة الفائدة؛ برقائق الذهب العريقة التي تغطي داخله، يحميها

تمامًا طلاءُ شمس الصيف الذي يبطّن الجدران الخارجية. ثمة رفوفٌ للعَرْض عظيمة، فارغة، موضوعةٌ أمام خضرة الغابة الملتهبة. أيّ أغراض للزينة يمكن للمرء أن يضعها على رفوف كهذه؟ لا شيء في إمكانه أن يليق بمقاييسها سوى مبخرة هائلة الحجم، أو عَدَم ضخم للغاية. غير أن المعبد الذهبي كان قد فقدَ كليًّا أشياء كهذه؛ كان قد اغتسل متجرّدًا من جوهره فجأة، وهو الآن يعرض صورة فارغة على نحو غريب. وأعجبُ ما في الأمر أنه بدا في هذه المرّة الأجملَ، بين جميع المرّات التي كشف لي فيها عن جَماله. لم يسبق للمعبد قطُّ أن كشف عن جمال بهذه الصلادة؛ جمال يتعالى عن صورتي؛ أجل، يتعالى عن عالم الواقع بأسره؛ جمال لا يمتُّ بصِلة إلى أيّ شكل من أشكال الاندثار! لم يسبق لجَماله أن تجلّى ساطعًا هكذا، نابذًا صنوف المعنى كلّها.

لا أبالغ إن قلت إن قدمَيّ راحتا ترتجفان، وشرع جبيني يتغطّى بحبّات من العَرق البارد، وأنا أحدّق إلى المعبد. عندما عدتُ، بعد أن رأيته، في مناسبة سابقة، إلى الريف، كان مبناه، ككيان مكتمل - كما كلُّ جزء من أجزائه - يصدح بنوع من التناغم الموسيقي. غير أن ما سمعته هذه المرة كان سكوتًا تامًّا؛ صمتًا مطبقًا. لا شيء كان يجري هناك؛ لا شيء يتغير. انتصب المعبد أمامي، وتعالى، مثل وقفة مرعبة في مقطوعة موسيقية؛ مثل صمت رنّان.

«ها قد انقطعت الصّلة بين المعبد الذهبي وبيني»، فكرت. «وتبدّدت الآن الرؤية التي تراودني، ومفادها أني والمعبد الذهبي

نعيش في العالم نفسه. سأعود الآن إلى حالي السابقة، لكنها ستكون أكثر يأسًا حتى من ذي قبل؛ حال سأكون فيها موجودًا في جانب، ويكون الجَمال موجودًا في الجانب الآخر؛ حال لن تتحسَّن أبدًا ما بقي هذا العالم».

كانت هزيمة البلد، في نظري، تجربة يائسة مهولة فحسب. في وسعي الآن حتى أن أُبصر ضوء الصيف الشبيه باللهب في يوم الهزيمة ذاك؛ يوم الخامس عشر من آب. قال الناس إن جميع القيم قد انهارت؛ إنما ما عشته في داخلي هو العكس، فقد أفاقت الأبدية، وانبعثتْ من جديد، وأعدت أحقياتها؛ تلك الأبدية التي أخبرتني بأن المعبد الذهبي باق هناك إلى الأبد؛ الأبدية التي هبطت من السماء، عالقةً بخدودنا، بأيدينا، بأحشائنا، ودافنة إيانا أخيرًا. ما ألعن ذلك الأمر! أجل، كان في وسعي أن أسمع، في أصوات الزيزان التي تصدر صدى من التلال المحيطة، هذه الأبديةَ التي كانت مثل لعنة فوق رأسي، والتي انغلقت في قالب الجصّ الذهبي.

أطلنا الصلاة، ذاك المساء، في أثناء تلاوة السوترا قبل أن نأوي إلى الفراش، وخصوصًا من أجل سلامة جلالة الإمبراطور وراحة نفوس الذين قضوا في الحرب. أضحى من العُرف لدى مختلف الفِرَق، منذ أن نشبت الحرب، ارتداءُ أثواب بسيطة، غير أن الرئيس كان يرتدي، هذه الليلةَ، الثوبَ الكهنوتيَّ القرمزيَّ الذي احتفظ به في خزانته طوال سنوات. كان وجهه المكتنز، والخالي من العيوب، والذي يبدو كما لو أن تجاعيده قد مُسِحَت، يشعُّ اليوم متورِّدًا بالعافية،

ويظهر طافحًا بالرضا عن أمر ما. كان حفيف ثوبه البارد يتردَّد واضحًا في المعبد، في تلك الليلة الحارّة.

دُعي كلُّ مَن كان في المعبد، بعد تلاوة السوترا، إلى حُجرة الرئيس، لسماع محاضرة. كانت مسألة الزّن الوعظية التي اختارها، هي حكاية «نانسِن يقتل هرّة»، المأخوذة من القضية الرابعة عشرة من الـمُمونكان(*). وما فتئت حكاية «نانسِن يقتل هرّة» (الواردة أيضًا في القضية الثالثة والستين من الهكغانزوكو(**) بعنوان «نانسِن يقتل هريرة»، ووردت في القضية الرابعة والستين بعنوان «جوشو ينتعل زوجَي صندل») تُعَدُّ، منذ أقدم الأزمنة، واحدةً من أصعب مسائل الزّن.

يُحكى عن عهد تانغ في الصين أن كاهن تشان(***) شهيرًا، اسمه

(*) كتاب حول التعاليم البوذية جمعه وعلق عليه معلم طائفة الزن حمون إيكاي (١١٨٣-١٢٦٠) وهو مؤلف من ٨٤ «كوان»، أي قصة، حوار، مسألة، أو عبارة مستعمَلة في رياضة الزّن، للتحريض علي «شك كبير» واختبار تقدُّم الطالب في سلوكه الذهني ـ النفسي. استُعمِلَ التفكر في هذه المفارقات الذهنية الغريبة في رياضة الزّن لمساعدة المريدين على اختبار الإدراك المباشر للحقائق الوجودية العميقة، التي يتعذّر التعبير عنها بكلمات. ومن المصنَّفات التي ضمَّت، في إبّان عهد أسرة سونغ في الصين، مختاراتٍ من قصص الزّن، كتابُ الـمُمونكان («الحاجز العديم البوابة»، فخصَّ كلَّ قضية منها بشرح ذيَّله بقصيدة قصيرة.

(**) «سجل الجُرف الأزرق»، ويضم ٨٢ قضية تولّى جمعَه إنغو (١٠٦٣-١١٣٥) واستُكمِلَ وضعُه في صيغته الحالية سنة ١٢٢٨.

(***) كلمة زِنْ هي في الأصل تحوير ياباني لكلمة تشان الصينية التي تعود بأصلها إلى كلمة دهِيانا السنسكريتية التي تعني «التأمل»، بمعنى استغراق الذهن التام في الموضوع الذي يتفكر فيه. (المترجم)

بو يوان، كان يعيش في معبد على جبل نان جوان، فيُلقَّب بنان جوان (نانسِن، بحسب القراءة اليابانية) تيمُّنًا بالجبل. وظهرت، ذاتَ يوم، هريرةٌ في المعبد الجبلي المسالم، بعد أن خرج جميع الرهبان لجزّ العشب، فتعجَّب كلّ مَن كان حاضرًا من وجودها، فطاردوا الحيوان الصغير حتى أمسكوا به، ثم صار موضع خلاف بين قاعة المعبد الشرقية وقاعته الغربية. نشب خصام بين الفريقين، سببُه مَن منهما ينبغي له أن يحتفظ بالهريرة حيوانًا أليفًا.

بادر الأب نانسِن، الذي كان يشاهد ما يجري، من فوره، إلى إمساك الهريرة من مؤخَّر عنقها، وقال وهو يضع منجله عليه الآتي: «إذا استطاع أيٌّ منكم أن يقول كلمةً(*) فستنجو هذه الهريرة. أما إذا لم تستطيعوا فستُقتَل». ولم يستطع أحد أن يجيب، فقتل الأب نانسِن الهريرة، وألقى بها بعيدًا.

عاد جوشو، كبيرُ التلاميذ، إلى المعبد، بحلول المساء، فأخبره الأب نانسِن بما جرى، وسأله عن رأيه، فما كان من جوشو إلاّ أن خلع نعليه من فوره ووضعهما على رأسه وغادر الحُجرة. تباكى الأب نانسِن، حينها، بمرارة، قائلًا: «آه، لو كنتَ اليوم حاضرًا هنا لَنجت الهريرة بحياتها».

كانت هذه فحوى الحكاية بإيجاز. ويُجمِع أهلُ الزّن على أن الجزء الذي يضع فيه جوشو نعليه على رأسه مسألةٌ صعبة جدًّا، لكنه

(*) المقصود هنا: «عبارة تنمُّ عن عمق فهمكم للزِنّ». (المترجم)

لم يكن على هذا القَدْر من الصعوبة، بحسب ما جاء في محاضرة الرئيس.

سببُ قتل الأب نانسِن للهرّة أنه كان قد وضع حدًّا لخداع الذات، واستأصل من ذهنه جميع الخواطر والخيالات غير المناسبة. وقطع رأس الهريرة نتيجة انعدام الإحساس لديه، ووضع بذلك حدًّا لكلّ تناقُض وتعارُض وخصام بين الذات والآخرين. ويُعرَف هذا بـ«السيف القاتل»، بينما يُدعى عمل جوشو - «السيفَ المُحْيي». فهو قد أتى ببرهان عمليّ على طريقة البوذِسَتْفا(*)، وخصوصًا بعد أن قام بعملٍ بهذه الشهامة اللانهائية، حدَّ اعتمار غرض قذر وحقير كالنعل، ووضعه على رأسه.

اختتم الرئيس محاضرته، بعد أن فسَّر المسألة على هذا النحو، من دون أن يتطرَّق، مرّةً واحدة، إلى قضية الهزيمة التي مُنيت بها اليابان. شعرنا كما لو أن ثعلبًا قد أصابنا بالسحر. لم تكن لدينا أدنى فكرة عن الداعي إلى اختيار حكاية الزّن هذه بعينها يومَ هزيمة بلدنا. أفضيت بشكوكي إلى تسوروكاوا ونحن نذرع الرواق في طريق عودتنا إلى غرفنا. كان هو الآخر مندهشًا، وهزَّ برأسه.

«لا أفهم»، قال. «لا أحسب أن في وسع أحد أن يفهم ما لم يعش الحياة التي عاشها ككاهن. إنما أظنّ أن مؤدَّى محاضرة الليلة

(*) بوذِسَتْفا: في البوذية، مصطلح سنسكريتي يُطلَق على أيّ إنسان انبثقتْ في نفسه ذهنيةٌ يكتنفها شوقٌ لافح ورحيم إلى الاستنارة وتحقيق مرتبة البوذا في سبيل خير جميع الكائنات الحية، وتُترجَم إلى نذر شخصي. والبوذِسَتْفا موضوع شائع في الفن البوذي، سواء في الرسم أو النحت. (المترجم)

الحقيقيّ هو أنه ما كان ينبغي له، في يوم هزيمتنا، أن يتفوّه بكلمة عن الهزيمة، وأنه كان يجب أن يتحدَّث عن قتل قطّة».

لم أشعر، أنا نفسي، بأدنى تعاسة بخصوص خسارة الحرب، غير أن نظرة الرئيس الفيَّاضة بالحبور أشعرتْني بالضّيق. احترامُ المرء رئيسَه هو ما يحفظ النظام في معبد، بطبيعة الحال. لكنْ، لم أشعر بأيّ حبّ أو تقدير لرئيسنا هذا، طوالَ السنة المنصرمة التي مكثت فيها تحت رعاية هذا المعبد. ذلك الأمر، في حدّ ذاته، لم يكن مهمًا. إنما منذ أن أوقدَت والدتي لهبَ الطموح في داخلي، أخذتُ أنظر إلى الرئيس، من حين إلى آخر، بكلّ ما يعتمل من حسّ نقديّ في نَفْس فتى مثلي في السابعة عشرة من عمره.

كان الرئيس مُنصِفًا ونزيهًا، لكنهما إنصاف ونزاهة في وسعي أن أتخيَّل نفسي أمارسهما بسهولة، لو قُيّض لي أن أصبح رئيسًا. كان هذا الرجل يفتقر إلى حسّ الفكاهة الذي يتصف به كاهن الزّن. وهذا أمر مستغرَب، كون الفكاهة والظرف من الخصال الملازمة عادة لمن هم في مثل بدانته.

كان قد تناهى إلى سمعي أن الرئيس استمتع بالنساء أيَّما استمتاع. ووجدتُ الأمر مسليًا حين تخيَّلتُه منغمسًا فعلًا في هذه الملذَّات، لكني شعرت، في الوقت ذاته، بالضّيق. بِمَ تشعر المرأة، يا ترى، حقًّا، حين يطوّقها بدنٌ أشبه بفطيرة مربَّى الفول، وردية اللون؟ لعلَّها تشعر كأن ذلك اللحم الطريّ، الورديّ، يتمدَّد حتى أقاصي العالم؛ كأنها تُدفَن في قبر من اللحم؟

تعجَّبت من أن يكون كاهن زِن، أيضًا بهذه البدانة. قد يكون السبب الذي دفع الرئيس إلى التمادي في الانغماس في الملذّات مع النساء، أنه شاء أن يُظهِرَ مدى احتقاره اللحم عن طريق رميه بعيدًا عن ذاته. إنما لو صحَّ هذا الأمر، لبات من المستغرَب أن يلتهم هذا الجسد، الذي يزدريه صاحبُه بهذا القدر، كلَّ هذا الطعام الوفير، ولوجب أن يغلِّف روحه بجسد أنيق. جسد طيّع، وديع، مثل حيوان أليف مدرَّب جيدًا؛ جسد كان تمامًا مثل محظية لروح الرئيس.

يجب عليَّ أن أصرّح بما عنتْه الهزيمة، في نظري، حقًّا. لم تكن تحريرًا. لا، لم تكن تحريرًا أبدًا، ولا بأيِّ شكل من الأشكال. لم تكن سوى عودة إلى الروتين البوذيِّ الثابت، الأبديّ، المدغَم في حياتنا اليومية. وهذا الروتين أُعيدَ الآن توطيدُه بصرامة، واستمرّ من دون تغيير منذ اليوم الذي تلا الاستسلام: «افتتاح القواعد»؛ مهمّات الصباح؛ «جلسة العصيدة»؛ التأمل؛ «الدواء»، أي وجبة المساء؛ الاستحمام؛ «فتح الوسادة». حرَّم الرئيس في المعبد، تحريمًا باتًّا، استخدامَ أرزِّ السوق السوداء. وفي النتيجة، فإن الأرزّ الوحيد الذي كنَّا، نحن المساعدين، نجده طافيًا في الأوعية الضئيلة لعصيدتنا، هو ما ساهم فيه بعض أفراد الرعيّة، أو ما تيسَّر للشمَّاس أن يشتريه من السوق السوداء، من كميات صغيرة؛ فقد كان يتحصَّل لنا على الأرزّ، مراعاةً لكوننا الآن، نحن المساعدين، في عمر يُعتبَر أسرعَ أطوار نموّنا، ونحتاج فيه إلى التغذية، لكنه كان يتظاهر دومًا بأن أرزَّ السوق السوداء هذا، كان جزءًا من المساهمة المقدمة إلى

المعبد. كنا، أحيانًا، نخرج ونشتري لأنفسنا حبّات بطاطا حلوة. لم تكن العصيدة نصيبَنا عند وجبة الفطور فحسب، بل كان طعام غدائنا وعشائنا، أيضًا، عبارة عن العصيدة والبطاطا الحلوة. وفي النتيجة، كنًّا دومًا جياعًا.

أوصى تسوروكاوا والديه بأن يزوّداه بالحلوى؛ إذ كانا، بين الحين والآخر، يُرسلان إليه، من طوكيو، طرودًا منها. كان يجلب مؤونته منها إلى غرفتي، في ساعة متأخّرة من الليل، ونأكلها معًا. كان البرق يومض، من وقت إلى آخر، في السماء المظلمة.

سألت تسوروكاوا لماذا يقيم هنا، في حين أن لديه منزلًا موسرًا، ووالدين حنونين.

«هذا كلُّه نوعٌ من ترويض النفْس على الزهد،» شرح لي. «في كلّ حال، سأرث معبد الوالد منه عندما يحين الوقت».

بدا تسوروكاوا كأنه عصيٌّ على الإزعاج. كان متطابقًا تمامًا مع نمط حياته، مثلَ عيدان الأكل في علبتها. تابعتُ المحادثة بإخباره بأن فترة جديدة؛ فترة يتعذّر تخيُّلها، قد تحلُّ ببلدنا. وتذكَّرتُ القصة التي سمعتُ الجميع يناقشونها في المدرسة بعد بضعة أيام على الاستسلام، وكانت تدور حول ضابط مأمور كان مسؤولًا عن أحد المصانع، فقام، بعد انتهاء الحرب مباشرة، بتكديس حمولةِ شاحنةٍ من البضائع، وساق بها إلى منزله، موضحًا بكلّ صراحة: « سأرتزق من تجارة السوق السوداء، من الآن فصاعدًا».

تخيَّلت هذا الضابط الأصلع، القاسي، الحاد النظر، وهو واقف هناك، وعلى وشك الاندفاع المتهوّر صوب الشرّ رأسًا. فالدرب الذي يزمع أن يجري عليه بحذائه العسكري، النصفي الرقبة، يُفصح بدقة عن خصوصية الموت في المعركة. إنه يتَّصف بشكل من أشكال الفوضى يذكّرني بالألق القرمزي فجرًا. ويكون وشاحه الحريريّ الأبيض مرفرفًا على صدره، حين ينطلق، وخدَّاه عرضة لريح الليل الباردة، التي لا تزال باقية في الصباح الباكر. ظهرُه محني بشدة تحت وزن البضائع المسروقة. فلا بدَّ من أن يستنفد نفسه بسرعة مذهلة. إنما كان في وسعي، بعيدًا أكثر، وبخفة أكثر، أن أسمع ناقوس الفوضى يطنُّ في برج الناقوس.

كنت منفصلًا عن كلّ ما يشبه هذه الأمور. لم يكن لديّ مال، ولا كنت أحس بأي حرية، أو انعتاق. إنما كان مؤكدًا أن عبارة «مرحلة جديدة» تنطوي على عزيمة راسخة على اتّباع مسار بعينه، على الرغم من أنه لم يتَّخذ بعدُ أيَّ شكل ملموس.

فكّرت: «إذا كان أهل هذا العالم ينوون تذوُّق الشر بواسطة حياتهم وأفعالهم، فسوف أغوص أعمق ما في وسعي في عالمٍ باطنيّ من الشرّ».

غير أن نمط الشرّ الذي كنت أتصوره لنفسي، في البداية، لم يتعدَّ أن يكون خطةً للفوز بحظوة الرئيس من خلال احتيالي عليه، للاستيلاء، تاليًا، على المعبد الذهبي، أو حلم سخيف، كتسميم الرئيس وأخذ مكانه. بل إن خططي هذه عملتْ على التخفيف من

وخز ضميري بمجرَّد أن تأكدتُ من أن تسوروكاوا لم يكن يبيّت المطمح ذاته.

سألته: «أليس لديك أيُّ هموم أو آمال بخصوص المستقبل؟»

«لا، لا شيء من هذا على الإطلاق. أيّ خير سأجنيه منها؟»

لم يكن ثمة كآبة مطلقًا في النبرة التي نطق بها عبارته، كما أنه لم يتكلَّم عشوائيًّا. أضاءت، في تلك اللحظة بالضبط، ومضةُ برقٍ حاجبيه الضيّقين المائلين بلطف، واللذين كانا أرقَّ ما في ملامحه. من الواضح أن تسوروكاوا ترك للحلاق أن يفعل ما يحلو له، فحلق له أعلى حاجبيه وأسفلهما، فجعل حاجبيه، الضيّقين أصلًا، أضيقَ، حتى إن في وسع المرء أن يتبيَّن ظلًّا أزرقَ باهتًا عند أطرافهما التي مرّت عليها الشَّفرة.

انتابني شيءٌ من الضيق وأنا ألمح هذه الزُّرقة. كان الفتى، الجالس قبالتي، يشتعل على طرف الحياة النقيّ. كان مختلفًا عني. مستقبله مستتر إلى درجة إنه كان يشتعل. وفتيلة مستقبله طافيةٌ في زيت بارد نقي. مَن في هذا العالم كان مضطرًّا إلى التنبُّؤ ببراءته ونقائه؟ إن افترضنا، طبعًا، أن البراءة والنقاء بقيا من صفاته في المستقبل.

لم أستطع النوم، ذاك المساء، بعد أنه عاد تسوروكاوا إلى غرفته، بسبب موجة حرّ أواخر الصيف. وسلبني النومَ إصراري على مقاومة انغماسي في ممارسة العادة السرية، بصرف النظر عن درجة الحرارة.

كنت أحسّ ببلل أحيانًا وأنا نائم. ولم يكن سبب هذا الأمر الاحتلام بصورة جنسية. على سبيل المثال، كلب أسود يجري في شارع مظلم: يمكنني أن أرى، أنفاسَه اللاهثة ينفثها كألسنة اللهب من فمه، وتتنامى إثارتي مع رنين الجرس المتدلي من رقبته، ثم يأتيني القذف مع وصول صوت الجرس إلى أَوْجِهِ.

كان ذهني يمتلئ بصور شيطانية حين أستمني. أستحضر نهدَي أويكو، ثم لا تلبث فخذاها أن تظهرا أمامي. وأكون قد تحوَّلتُ، في هذه الأثناء، إلى حشرة ضئيلة، دميمة، ليس لها شبيه.

... قفزت من سريري، وتسلَّلت إلى خارج البناء، من باب المكتبة الصغيرة الخلفي. ينتصب، خلف الروكونجي وشرق اليوكاتي (بيت الشاي)، جبلٌ يدعى فودوسان، كانت تغطيه بكثافة أشجارُ الصنوبر الأحمر، وتنمو زهور الدوتزية البيضاء والأزاليا البنفسجية وغيرهما من النباتات متناثرةً بين أعشاب الخيزران الكثيفة، الممتدّة بين الأشجار. كنت أعرف كلَّ شيء عن هذا الجبل، بحيث أستطيع تسلُّقه ليلًا حتى من دون أن أتعثَّر. وكان في وسع المرء أن يبصر، من قمته، أعلى كيوتو ووسطها. وإن امتدَّ بصره بعيدًا، يرَ جبلَي إيزان ودايمونجي.

تسلَّقت السفح مشدوهًا بصوت الطيور التي تصفق بأجنحتها من فرط خوفها وأنا أمرّ. لم أنظر إلى جانبي، وتمكنت من تجنُّب جميع جذوع الأشجار المقطوعة. شعرت بأني قد شُفيت فورًا بتسلُّقي على هذا النحو، من دون أيّ خاطر يجول في رأسي. وهبَّتْ ريحٌ ليليةٌ منعشةٌ على جسمي المتعرّق، حين بلغت القمة.

فوجئت بالمنظر أمامي. توقّف انقطاع الكهرباء منذ فترة طويلة، فكان بحر من الأضواء ممتدًّا الآن على مدى النظر. أذهلني ما أرى كما لو أن له مفعول المعجزة، بحيث لم أكن قد صعدت إلى هذا المكان ليلًا منذ نهاية الحرب.

كانت الأضواء تشكّل جسمًا صلبًا واحدًا وهي مبعثرة فوق المساحة المسطّحة، فلا تعطي انطباعًا بأنها قريبة أو بعيدة. ما برز أمامي في الليل كان بنيةً هائلة، شفّافة، مكوَّنة من الأضواء، فبدت كأنها تمدُّ برجها المجنَّح، وكأنّه قد نما لها قرنان معقَّدان. كانت تقبع هنا مدينةً فعلًا. والغابة الممتدّة حول القصر الإمبراطوي كانت وحدها غيرَ مضاءة، وتبدو مثل كهف أسود عظيم. والبرق يومض في عتمة السماء، بين الفينة والفينة، في اتجاه جبل إيزان.

فكّرت: «هذا هو العالم الدنيويّ. أمّا وإن الحرب قد انتهت، فإن دافع الناس إلى التحرّك تحت ذلك الضوء هو الأفكار الشريرة. عدد لا يحصى من الأزواج، يحدّق بعضهم إلى بعض، تحت هذا الضوء، وفي أنوفهم رائحة الفعلة التي تشبه الموت، والتي تضغط عليهم أصلًا ضغطًا مباشرًا. يتعزّى قلبي عندما يخطر في بالي أن هذه الأضواء، التي لا تحصى، هي كلُّها أضواء حاجبة. فليزدَدِ الشرُّ الذي في قلبي – رجاءً – وليتكاثرْ إلى ما لا نهاية، بحيث يتوافق، في جميع حالاته، مع هذا الضوء الشاسع والساطع أمام عينَيّ! فليعادلْ ظلامُ قلبي، المحبوسُ فيه ذاك الشرُّ، ظلامَ الليل، المحبوسة فيه تلك الأضواء التي لا تحصى!»

تزايد عدد زوّار المعبد الذهبي تزايدًا عظيمًا. ورفع الرئيس كتابًا إلى البلدية، فسُمِحَ له برفع رسوم الدخول لمواكبة هذه الزيادة.

كان الزوار المتفرقون، الذين رأيتهم حتى الآن، قومًا بسطاء يرتدون البزّات العسكرية، أو ثياب العمل، أو السراويل الفضفاضة المخصّصة لزمن الحرب. لكن قوات الاحتلال قد وصلت الآن، وسرعان ما أخذت شيم العالم الدنيوي الفاسقة تزدهر حول المعبد الذهبي. بيد أن ليس كل التغيرات كانت تنحو إلى الأسوأ؛ إذ إن عرف التكريس للشاي قد أعيد إحياؤه، وكثيرات من الزائرات صرن يأتين إلى المعبد لابساتٍ ثيابًا زاهية الألوان، كنَّ احتفظن بها مخزَّنة في إبّان سنوات الحرب. أما نحن الكهنة، بأثوابنا القاتمة، فقد أخذنا نقف على النقيض: كان الأمر كما لو أننا نمثّل دور رجال الدين على سبيل المتعة، أو كما لو كنّا سكّان منطقة ما، يتجشّمون مشقّة المحافظة على تقاليد قديمة غريبة من أجل إرضاء سيّاح جاؤوا لمشاهدتها. كان الجنود الأميركيون أكثر مَن يتعجبون منّا: كان من عادتهم أن يشدُّوا، بلا حياء، أكمام أثوابنا ويهزأون بنا. وكانوا يعرضون علينا المال أحيانًا كي يستعيروها، ثمّ يلتقطون لأنفسهم صورًا فوتوغرافية تذكارية، لمّا يرتدونها. هذا كان من الأمور التي تحدث كلما أُرسِلَ في طلبنا، أنا أو تسوروكاوا، لنستخدم إنكليزيتنا المكسّرة لإرشاد الزوّار الأجانب بدلًا من الاستعانة بالأدلّاء الرسميين الذين لا يفقهون الإنكليزية بتاتًا.

كان هذا أول شتاء بعد الحرب. بدأ الثلج بالهطول مساء الجمعة،

وواصل الانهمار يوم السبت. أحسست بفيض من الشوق، في أثناء وجودي في المدرسة صباحًا، إلى العودة ظهرًا، ورؤية المعبد الذهبي يرتدي حلّة من الثلج.

هطل الثلج عند العصر أيضًا. تنحّيت عن درب الزوّار، وسرت حتى حافة بركة كيوكو وأنا منتعلٌ حذائيَ المطاطيَّ وحاملٌ حقيبتي المدرسية معلّقةً على كتفي. كان الثلج ينهمر في سرعة وغزارة. كثيرًا ما رَدَدْتُ رأسي عاليًا إلى الخلف حين كنت طفلًا، مستقبِلًا الثلج بفمي المفتوح على اتساعه. فعلت ذلك الآن، فكانت ندف الثلج تلامس أسناني، مُصدِرَةً صوتًا طفيفًا كأنها تصطدم بقطعة رقيقة جدًّا من رقائق القصدير. شعرت بأن الثلج يتبعثر في جميع أنحاء تجويف فمي الدافئ، ويذوب عندما يبلغ السطح الأحمر للَّحم. تخيَّلت، حينها، فمَ طائر الفينيق على قمة الكيوكوتشو؛ الفم الساخن، الأملس، لذلك الطائر الغامض الذهبي اللون.

يمنحنا الثلج جميعًا شعورًا بالشباب. أيكون غير صحيح قولي إني، أنا الذي لم أبلغ ذكرى ميلادي الثامنة عشرة. شعرت في داخلي الآن بشيء من تململ الشباب؟

لا يُضارَع جمالُ المعبد الذهبي، وهو قائم هناك مغلّفًا بالثلج. كانت منعشه القشرة العارية لهذا البناء الجاف، بأعمدته الهيفاء المرفوع بعضها قرب بعض، فيما كانت الرياح تذروا الثلج طليقًا في داخله.

«لماذا لا يتأتى الثلج؟» تساءلت. تراه أحيانًا يسقط على الأرض

مُحْدثًا صوتًا كأنه يتأتئ، حين كان يلامس برفق أوراقَ الياتسودِه(*). لكني نسيت النزوات في قلبي حين شعرت بنفسي أستحمُّ بالثلج وهو يهطل لطيفًا من السماء من دون أيّ انقطاع، وبدا كأني عائد إلى إيقاعٍ روحيّ ألطف، كما لو أني أستحمُّ بالموسيقى...

أمسى المعبد الذهبيّ الثلاثيُّ الأبعاد، بفضل الثلج، شكلًا مسطّحًا فعلًا؛ شكلًا ضمن صورة، ولم يعد يبيّت تحديًا لما يوجد خارجه. فالأغصان العارية لأشجار القيقب، الممتدة على كلّ من جانبَي البركة، تكاد تكون غير قادرة على حمل أيّ ثلج، فبدت الغابة أكثر عريًا من المعتاد. كان الثلج مكوّمًا، هنا وهناك، على أشجار الصنوبر، ومهيبًا. وكان أيضًا ينبسط كثيفًا على سطح البركة الجليدي؛ إنما الغريب كان وجود أماكن ليس فيها ثلج على الإطلاق، حيث البركة ملطخة بجسارة ببقع بيضاء كبيرة تبدو كالغيوم في لوحة مزخرفة. كانت صخرة كيوسنهاكاي وجزيرة أَواجي متصلتين بالثلج على سطح البركة الجليدي، وأشجار الصنوبر الصغيرة التي نمت هناك بدت تمامًا كما لو أنها نبتتْ مصادفةً في وسط سهل من الثلج والجليد.

ثلاثة أجزاء من المعبد الذهبي كان بياضها لافتًا للنظر، هي: سقفا الكيوكوتشو والتشوندو والسقف الصغير للسوسي. أما بقية

(*) جنس نباتي مزهر لامع الأوراق (يسمّى أحيانًا «نبتة زيت الخروع الكاذبة» و«حشيشة الملوك اليابانية»). موطنه الأصلي جنوب اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان؛ اسمه العلمي Fatsia japonica. (المترجم).

البناء غير المأهول فكانت قاتمة، وثمة ما يوحي بالانتعاش في سواد المبنى الخشبي، المعقَّد، البارز نافرًا على خلفية الثلج. جعلني افتتاني بسحر ذلك الخشب الأسود القديم أمامي أشعر بأني أودُّ التأكد من أن المعبد ليس مأهولًا فعلًا، تمامًا كما هي الحال عندما ينظر المرء إلى قلعة ترخم بين الجبال، في بعض لوحات مدرسة الجنوب (*)، فيقرّب وجهَه من قماش اللوحة ليتأكد مما إذا لم يكن أحدهم يعيش خلف تلك الجدران. لكن، حتى لو قرّبت وجهي من المعبد الذهبي، فسأصطدم حتمًا بقماشة الثلج الحريرية الباردة. ولم أستطع أن أدنو أقرب من ذلك.

كانت أبواب الكوكيوتشو قد شرَعَتْ، اليوم أيضًا، للسماء الثلجية. راقبتُ بدقة وأنا أرفع بصري محدّقًا إلى الثلج، كيف تشكل ندفه المتساقطة زوابع في الفضاء الصغير، حيث لم يكن هناك شيء من

(*) نشأت مدرسة الجنوب في الرسم الصيني، والتي كثيرًا ما يُطلَق عليها اسمُ «رسم المثقفين»، في عهد أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧) وازدهرت في عهد أسرة سونغ (٩٦٠-١٢٧٩). يُستعمَلُ المصطلح للدلالة على الفنانين الذين يعارضون مدرسة الشمال الرسمية وفنَّها. والتميز بين المدرستين ليس جغرافيًا، بل يتعلّق بالأسلوب: ففي حين تضم مدرسة الشمال الرسّامين الذين يُؤْثِرون هيكلية واضحة المعالم في تكويناتهم باستعمال تقنيات منظور صريحة، فإن مدرسة الجنوب تعتمد أسلوبًا أكثر حميمية يتحدى الأساليب الاتباعية في رسم الصخور والأشجار... إلخ، وذلك برسم المشاهد الطبيعية غارقة في الغيم والضباب. اهتم الرسام من مدرسة الجنوب بالتأثيرات البعيدة، بينما أولى زميلُه من مدرسة الشمال اهتمامًا أكبر لوسائل التكوين التي تحقِّق وهم الجمود وتركز في إتقان واقعية التفاصيل والزخرف التعبيري. سعى رسّامو مدرسة الجنوب، بعبارة أكثر فلسفية، للتعبير عن الحقائق الداخلية وحقنوا أعمالهم باختبارهم الوجداني للأشياء، بينما اكتفى زملاؤهم برسم مظهرها الخارجي فحسب. (المترجم)

الكوكيوتشو، وكيف تستقر بعدئذٍ على رقائق ذهب جدرانها القديمة الباهتة، وتبقى هناك إلى أن تشكل بقعًا صغيرة من الندى الذهبي.

كان اليوم التالي يوم أحد. جاء في الصباح الدليل العجوز بناديني. واتضح أن جنديًا أجنبيًا قد وصل لمشاهدة المعبد قبل ساعة الافتتاح العادية. كان الدليل قد استعمل لغة الإشارة ليطلب من الجندي أن ينتظر، ثم جاء يناديني لأني، على حدّ قوله، أعرف الإنكليزية. أعجب ما في الأمر أن إنكليزيتي كانت أفضل من إنكليزية تسوروكاوا، كما أني لا أتأتئ أبدًا وأنا أتكلّمها.

كانت سيارة جيب واقفة عند المدخل، وثمة جندي أميركي متعتع سُكْرًا يتكئ على واحد من الأعمدة، فنظر إليَّ شزرًا عندما ظهرتُ، وضحك بازدراء.

كانت الحديقة الأمامية باهرة من جراء تساقُط الثلوج مؤخرًا. وبدا على الخلفية الباهرة وجهُ الجندي الشاب، بطيّاته السمينة، ينفث نحوي سحبًا بِيضًا من البخار، ممتزجة بأبخرة الويسكي. شعرت، كالعادة، بالضيق وأنا أحاول أن أتصوّر ماهية المشاعر التي تعتمل داخل شخص يختلف عني حجمًا إلى هذا الحد الهائل.

وافقت الآن على اصطحابه حول المعبد، بما أني جعلت من عادتي عدم معارضة الناس، مع أن وقت الافتتاح لم يحِنْ بعد. طالبتُه برسم الدخول وبأجر الدليل، وفوجئت، نوعًا ما، بأن الرجل الضخم المخمور لم يفتعل أيَّ مشكلة بشأن الدفع، ثم نظر إلى داخل سيارة الجيب وقال شيئًا بما معناه: «هيَّا اخرجي!»

لم أستطع إلى الآن، بسبب الثلج الباهر، رؤية ما في داخل الجزء المظلم من الجيب، لكني لحظت الآن شيئًا أبيض يتحرك خلف النافذة في سقف السيارة القابل للطيّ. شعرت كما لو أن أرنبًا يتحرك هناك.

قدمٌ تنتعل حذاءً أهيف عالي الكعب تطأ درجة الجيب. فوجئت بأنها لم تكن مغطاة بجورب على الرغم من البرد. وحزرت، من لمحة واحدة، أن الفتاة كانت مومسًا تقدّم خدماتها إلى الجنود الأجانب، إذ إنها كانت ترتدي معطفًا قاني الحمرة، وأظافر أصابع كلّ من يديها ورجليها مطلية باللون القاني عينه. ولحظت أنها تلبس تحت معطفها، عندما انفتح أسفله، قميصَ نوم متسخًا، مصنوعًا من البشكير. الفتاة، هي الأخرى، كانت في حالة سُكْر مرعبة، وعيناها كانتا ثابتتين في محجريهما. كان الرجل مرتديًا بزَّته كما ينبغي له. أما هي، فقد اكتفت بإلقاء معطف ووشاح فوق قميص نومها، فبدا واضحًا أنها آتية مباشرة من السرير.

كان وجه الفتاة، في انعكاس الثلج، رهيب الشحوب. وبرز اللون القرمزي لأحمر الشفاه بروزًا صفيقًا على البشرة البيضاء، التي تكاد لا تبدي أيَّ أثر للون. عطستِ الفتاة حالما وطئت الأرض، فتجمَّعتْ غضونٌ طفيفةٌ حول قصبة أنفها المرهفة، وراحت عيناها المخمورتان المتعبتان تشخصان بعيدًا للحظة، قبل أن تعودا إلى الغرق في نظرة رصاصية عميقة. ثم نادت الرجل باسمه.

«جاك، جاك!» قالت. «تسوو كورودو، تسوو كورودو!»[*] هامَ صوتُ الفتاة حزينًا عبر الثلج، وهي تعلن كم أنها تشعر بالبرد. أما الرجل فلم يُجب.

كانت تلك أول مرة أجد فيها مومسًا محترفةً كهذه جميلةً فعلًا إلى هذا الحد. ليس لأنها تشبه أويكو؛ إذ كانت أشبه بصورة شخصية رُسمت بأقصى ما يمكن من العناية كي لا تشبه أويكو في أيِّ ملمح من ملامحها. اتَّسمتْ هذه الفتاة بجمال جديد، جريء، بدا على نحوٍ ما كأنه ظهر إلى حيز الوجود كردّ فعلٍ على صورة أويكو في ذاكرتي. وكان ثمة أمر ينطوي على إطراء في هذه المقاومة لرغباتي الجسدية؛ تلك التي انتابتني في أعقاب اختباري الأول للجمال تحديدًا.

بيد أنها كانت تشبه أويكو في أمر واحد فحسب، ألا وهو أنها، مثل أويكو، لم تعبأ حتى بالنظر إليَّ وأنا واقف هناك. كنت قد تركت ثوبي الكهنوتي وارتديت كنزة قذرة وانتعلت حذاءً مطاطيًّا.

كان جميع مَن في المعبد قد خرجوا منذ الصباح الباكر لجرف الثلج، لكنهم لم يتمكنوا إلا من إخلاء مسار الزوار فحسب. والآن، حتى لو اتفق لفريق كامل من الزوار أن يأتوا، لَظلَّ الأمر صعبًا، إنما كان هناك حيز كافٍ لعدد صغير، على أن يسيروا في رتل واحد. لذا فقد تقدَّمتُ الجندي الأميركي والفتاة.

رفع الأميركي يديه وأطلق هتافًا بكلمات لم أفقه منها شيئًا عندما

(*) تقصد بالإنكليزية عبارة: So cold! («يا للبرد!») ملفوظةً بلكنة يابانية. (المترجم)

بلغ البركة وانفتح المنظر أمامه. ثم هز الفتاة بعنف، فعقدت حاجبيها وكرَّرت ببساطة: «جاك، تسوو كورودو!»

سألني الأميركي عن توت الأووكي(*) الأحمر اللامع المرئي خلف الأوراق المثقلة بالثلج، إنما لم يخطر في بالي شيء أقوله سوى «أُووكي». لعل شاعرًا غنائيًّا كان يكمن داخل جسمه الضخم ذاك، لكنني شعرت بأن ثمة قسوة في عينيه الزرقاوين الصافيتين. تشير أغاني «البجعة الأم» للأطفال في الغرب إلى العيون السود بصفتها قاسية وخبيثة. وواقع الأمر أن الناس عندما يتخيَّلون القسوة، فإنهم يجسّدونها، بطبيعة الحال، في شخصية أجنبية.

طفقت أشرح المعبد الذهبي، بحسب ما جاء عنه في الدليل النظامي. كان الجندي لا يزال تحت مفعول السُّكْر الشديد، لا يقوى على الاستقرار على قدميه. استخرجتُ بأصابعي الخَدِرَة من جيبي النصَّ الإنكليزي عن المعبد الذهبي الذي أقرأه عادة في هذه المناسبات، غير أن الأميركي اختطف مني الكتاب وراح يقرأ بنبرة هزلية. كان واضحًا أنه مستغنٍ عن شروحي، اتكأتُ على درابزين الهوسوي - إنْ ونظرتُ إلى صفحة البركة المتلألئة بصورة رائعة. لم يحدث قط أن انكشف الجزء الداخلي من المعبد الذهبي للضوء إلى هذا الحد، إلى حدّ يجعل المرء، من شدة البهاء، يشعر بالضيق.

(*) نبتة دائمة الخضرة يتراوح طول شجرتها بين مترين وخمسة أمتار، تثمر توتًا أحمر جميلًا يدوم طوال فصل الشتاء وتبث أوراقها لمعانًا قد يبدو من بعيد مزرقًا، وهو ما يفسّر اسمها الياباني: «الشجرة الزرقاء»؛ اسمها العلمي Aucuba japonica. (المترجم)

لحظتُ، عندما حوَّلتُ نظري، أن شجارًا نشب بين الرجل والمرأة اللذين كانا الآن يسيران نحو السوسي. صار الشجار تدريجيًا أكثر شراسة، لكنني لم أتمكن من التقاط كلمة واحدة. ردَّت الفتاة على كلام ما بنبرة قاسية. فلم أستطع أن أتبيَّن إن كانت تتكلَّم بالإنكليزية أم باليابانية. سار كلاهما عائدَين إلى الهوسوي - إنْ وهما لا يزالان يتشاجران. وبدا أنهما نسيا أمر وجودي.

اندفع الأميركي صوب الفتاة مكشِّرًا وأخذ يشتمها، فصفعت خدَّه بكلِّ قوتها، ثم التفتت وراحت تركض بكعبيها العاليين في اتجاه مدخل الزوار. لم أفهم ما كان يحدث، لكني، أنا الآخر، غادرت المعبد الذهبي وأخذت أجري بمحاذاة حافة البركة. وانتبهت، عندما لحقتُ بالفتاة، أن الأميركي الطويل الساقين كان قد لحق بها قبلي، ويهمُّ بالإمساك بها من صدر معطفها الأحمر.

وقع بصر الرجل الشابّ عليّ، بينما كان واقفًا هناك ممسكًا بها، فأرخى قبضته عن صدر معطف الفتاة. لا بدَّ من أن قوة هائلة كانت تكمن في يده تلك؛ إذ إنه حين أفلتَ الفتاة سقطتْ برفق على الثلج، وانفتح أسفل معطفها الأحمر، فانفرجت فخذاها البيضاوان العاريتان على الثلج.

لم تحاول الفتاة النهوض. وطفقت، من حيث كانت ممدَّدة، تحملق بعينين متقدتين في عيني العملاق الشامخ عاليًا فوقها. لم أستطع، تفادي الركوع لمساعدتها على الوقوف على قدميها. وصاح الأميركي: «هيه!» بينما كنت أهمُّ بذلك، فالتفتُّ، وإذا به يقف

هناك فوقي، وساقاه منفرجتان على اتساعيهما. أشار إليَّ بأصابعه أن أدنو منه، ثم قال بالإنكليزية، بصوت آخر تمامًا، لطيف، ودافئ: «دُسْ عليها، من فضلك! حاول أن تدوس عليها!»

لم أستطع فهم قصده، لكن عينيه الزرقاوين كانتا تشيان بتعبير آمِر وهو ينظر إليَّ من عليائه. كان في وسعي من وراء كتفيه العريضتين، أن أرى معبد غوين المغطى بالثلج لامعًا تحت سماء الشتاء الزرقاء الشاحبة والباهتة. لم تكن تشوب عينيه أدنى قسوة. لم أعرف لماذا، لكنني شعرت في تلك اللحظة، من دون أن أدري السبب، بأنهما كانتا فائقتي الشاعرية.

هبطتْ يدُه الضخمة فقبضتْ عليَّ من مؤخرة عنقي وأوقفتْني على قدميَّ، لكن النبرة التي أمرني بها كانت لا تزال دافئة، ولطيفة.

«دُسْ عليها!» قال. «عليك أن تدوس عليها!»

لم أقوَ على مقاومته، فرفعتُ رِجلي بحذائها المطاطي. ربَّتَ على كتفي. هبطتْ رجلي ودستُ على شيء في مثل طراوة طين الربيع. كان بطن الفتاة، فأغمضت عينيها وتأوَّهت.

«استمرَّ في الدَّوس عليها! لا تتوقفْ!»

أنزلتُ رجلي على الفتاة. أثار في داخلي نوعًا من الفرح إحساسُ النشاز الذي شعرت به عندما دُسْتُ عليها أول مرة. «هذا بطن امرأة»، فكرت. «هذا ثديها». ما كنت لأتخيَّل أن بإمكان لحم شخص آخر أن يتجاوب هكذا، في مثل هذه الطواعية المذعنة.

«كفى»، قال الأميركي بوضوح. ثم رفع الفتاة بكياسة على قدميها، ونفض عن ثيابها الطين والثلج، وساعدها على العودة إلى الجيب. سار أمامي من دون أن ينظر في اتجاهي. والفتاة ذاتها لم تلتفت بعينيها، ولا مرة واحدة، نحوي. وتركها تركب أولًا عندما وصلا إلى الجيب. بدا أن آثار الويسكي قد تلاشت. التفت إليَّ وقال بعبارة رزينة: «شكرًا لك». أراد أن يعطيني بعض المال لكني رفضت. فأخذ، إذ ذاك، من مقعد الجيب علبتين من السجائر الأميركية، ودفع بهما إليَّ.

وقفتُ عند المدخل، بوجنتين ملتهبتين، في وهج الثلج الشديد. تسارع خبب الجيب وهي تبتعد مثيرةً زوبعةً من الثلج حتى اختفت عن الأنظار. كان جسمي ينتفض من فرط الإثارة.

فكَّرتُ في مخطط يتيح ممارسة تمرين ممتع على النفاق، عندما همدت الإثارة في آخر المطاف. كان الرئيس مولعًا بالسجائر. كم سيُسَرُّ لتلقّي هذه الهدية! مع التظاهر بالجهل التام!

لم أكن أحتاج إلى الاعتراف بأيّ شيء مما حدث. كنت قد تصرفت كما فعلت فقط لأني أُمِرتُ به وأُجبِرت عليه. ولو تصديت للأميركي فلا أدري أيَّ مأزق كنت سأواجهه بنفسي.

ذهبت إلى ديوان الرئيس في المكتبة الكبرى. كان قد كلَّف الشمَّاس حلاقةَ رأسه، إذ كان الأخير بارعًا جدًّا في مثل هذه الأمور. لبثتُ عند حافة الشرفة حيث كانت شمس الصباح تشعُّ بضيائها كله. كان الثلج في الحديقة متكدسًا على شجرة الصنوبر الشبيهة

بمركب شراعي، ويتلألأ ساطعًا، فبدا تمامًا مثل شراع مطويّ جديد تمامًا.

أبقى الرئيس عينيه مغمضتين بينما كان رأسه يُحلَق. كان ممسكًا بصفحة جريدة لالتقاط الشعر المتساقط من رأسه. فبرزت، رويدًا رويدًا، خطوطُ رأسه الخام، الحيوانية. مع استمرار الشمَّاس في عملية الحلق. ولفَّ رأسه بمنشفة ساخنة، عندما أنجز مهمَّته. وما هي إلا هنيهات حتى نزعها، فبرز رأسٌ وليد، متورّد، بدا كأنه قد تمَّ سَلْقُه.

تمكَّنتُ من تبليغ رسالتي، وناولتُ علبتي سجائر التشسترفيلدز مع انحناءة.

«ها!» قال الرئيس. «شكرًا على المشقة التي تكلَّفتها».

ابتسم ابتسامة خفيفة، كما لو أنه يضحك بطرف وجهه فحسب. هذا كلُّ ما في الأمر. ثم أخذ العلبتين، في منتهى الجدية، ووضعهما عشوائيًّا على مكتبه الذي تكدَّست عليه أبراجٌ من الجرائد والرسائل من كلِّ الأصناف. وأغمض عينيه مرة أخرى. بينما راح الشمَّاس يدلك كتفيه.

لم يكن لديَّ خيار سوى الانسحاب. كان جسمي حارًّا من فرط الاستياء. الفعلة الشريرة، الغامضة، التي اقترفتُها؛ السجائر التي قبلتُها مكافأةً عليها؛ الرئيس الذي قَبِلَها متجاهلًا السبب الذي حدا بي إلى قبولها. هذا كلُّه كان ينبغي له أن يتضافر ليغدو أمرًا أكثر درامية

وعنفًا. وغدا لي عدمُ الدراية المطلقة الذي أظهره رجلٌ من قامة الرئيس بما قد حدث سببًا وجيهًا آخر لاحتقاره.

كنت على وشك مغادرة الغرفة حين استوقفني الرئيس قائلًا:

«أنظر! أنا أخطّط لإرسالك إلى جامعة أوتاني حالما تتخرج من المدرسة. عليك الآن، يا بني، أن تجدَّ في الدراسة حتى يكون سجلُّك مشرّفًا عندما يحين أوان القبول في الجامعة. ذاك ما كان والدك الراحل ليتمنّاه لك. لو كان حيًّا لكان جلُّ همّه أن تنال علامات جيدة في المدرسة».

وسرعان ما سرى النبأ في المعبد على لسان الشمّاس. ذلك أن نيل مساعد كاهن منحةً جامعيةً بتزكيةٍ من رئيسه لَدليلٌ على أنه فتى واعد للغاية. كثيرًا ما حدث في ما مضى أن دأب مساعد كاهن على الذهاب إلى غرفة الرئيس، الليلة بعد الليلة، لتدليك كتفيه، آمِلًا أن يحصل منه على تزكيةٍ بمتابعة تحصيله الجامعي، وقد تحقّقتْ هذه المطامح في عدة حالات. وتسوروكاوا، الذي كان من المتوقع أن يدخل جامعة أوتاني على نفقة والديه، ربّت على كتفي مسرورًا عندما سمع الخبر. لكن ثمة شخصًا آخر من المساعدين، لم يقل له الرئيس شيئًا بخصوص دخول الجامعة، امتنع من الحديث معي بعد ما حدث.



الفصل الرابع

حان وقت التحاقي بالدورة التحضيرية التي بدأتها جامعة أوتاني في ربيع العام ١٩٤٧. لكن دخولها لم يكن حدثًا مظفَّرًا اهتمَّتْ به فقط مودةُ الرئيس الراسخة وحسدُ زملائي في المعبد. ربما بدا للناظر من الخارج أن هذا الحدث مدعاة فخر لي، لكن واقع الأمر أن ترقيتي إلى الجامعة قد عكَّرها ظرفٌ، حتى التفكير فيه كان بغيضًا.

في أحد الأيام، وبعد أسبوع من الصباح المثلج الذي أَذِنَ لي فيه الرئيسُ بالذهاب إلى الجامعة، كنت عائدًا من المدرسة ورأيت ذلك المساعد الآخر الذي لم يَحْظَ بأيّ كلمة بخصوص الذهاب إلى الجامعة، وهو ينظر إليَّ نظرة في غاية السعادة. حتى ذلك الوقت، لم يكن هذا الشاب قد توجَّه إليَّ بكلمة واحدة. بدا لي أيضًا أن موقف كلّ من القندلفت والشمَّاس قد تغير نوعًا ما، غير أنني استشففت أنهما، في معاملتهما الخارجية تجاهي، كانا يتظاهران بأنهما لم يتغيّرا قط.

ذهبت ذلك المساء إلى غرفة تسوروكاوا وشكوت إليه التغيير الذي طرأ على موقف الناس منّي في المعبد. أدار في البداية رأسه إلى جانب واحد، وحاول أن يحملني على تصديق أن الأمور كانت على ما يرام، لكنه لم يُحسِنْ إخفاء مشاعره، وسرعان ما أخذ يحدجني بنظرة مَن ارتكب ذنبًا.

«سمعتُ بالأمر من الصبي الآخر»، قال، مسمّيًا زميلنا المساعد، «وهو لا يعرف بالأمر إلا من الإشاعة لأنه كان هو الآخر في المدرسة عندما حدث. ومهما يكن من أمر، يبدو أن أمرًا غريبًا قد حدث وأنت متغيّب».

شعرت بتخوُّف مبهم وتابعتُ استجوابي له، فجعلني تسوروكاوا أَعِدُه بإبقاء القصة سرًّا بيننا، ثم ثبَّت نظره في عينيَّ وبدأ يتكلَّم.

زارت المعبدَ عصر اليوم المقصود فتاةٌ، وطلبت أن تكلّم الرئيس. كانت ترتدي معطفًا أحمر، وبدا واضحًا أنها مومس تبيع خدماتها للأجانب. جاء الشمّاس لمقابلتها عند المدخل نيابةً عن الرئيس، لكنها شتمته قائلة له إنه يَحسُنُ به أن يدعها تقابل الرئيس إنْ كان يعرف مصلحتَه. واتفق أن الرئيس كان يعبر الرواق في تلك اللحظة، لسوء الحظ. وإذ خرج إلى المدخل لحظ الفتاة. فأخبرته بأنها زارت المعبد بصحبة جندي أجنبي، قبل ذلك بنحو أسبوع، صبيحة اليوم بعد هطول الثلج. وكان الجندي قد أوقعها أرضًا، فحاول أحد مساعدي المعبد أن يتملَّقه ويكسب وُدَّه بالدَّوْس على بطنها. وأجهضت في ذلك المساء. ورأت، في ظل هذه الظروف، أن

من حقِّها أن تطالب المعبد بتعويض مالي. فإذا أحجموا عن إعطائها مالًا فسوف تفضح الفاحشة التي وقعت في الروكونجي، وتدَّعي عليه علانية.

أعطاها الرئيس بعض المال من دون أن ينبس ببنت شفة، وأمَرَها بالعودة إلى بيتها. كان الجميع يعلمون بأني أنا مَن قام بدور الدليل يومذاك، لكن الرئيس قال إنه يجب طيُّ القضية نظرًا إلى عدم وجود شهود في المعبد رأوا سوء سلوكي، ودعا إلى عدم مفاتحتي بها أبدًا. وهو نفسه ينوي غضَّ نظره عن الأمر برمَّته. لكن كلَّ شخص آخر في المعبد اشتبه على الفور في أني كنت الجاني لدى سماعه القصة من الشمَّاس.

أخذ تسوروكاوا يدي. كان في مقدوري أن أرى أنه يكاد يجهش بالبكاء. حدَّق إليَّ بعينيه الصافيتين، وناشدني بصوته الصبياني الصريح: «أحقًّا، فعلتَ أمرًا كهذا؟»

واجهتُ مشاعري الكئيبة. حملني تسوروكاوا حملًا على مواجهتها بالإلحاح عليَّ بهذا السؤال. لماذا سألني عن الأمر؟ أكان ذلك بحكم الصداقة؟ هل كان يدرك أنه يتملَّص من واجبه الحقيقي، بطرحه عليَّ سؤالًا كهذا؟ هل كان يعلم بأنه يطعنني بهذا السؤال في أعمق جزء من كياني؟

لا بدَّ من أنني سبق أن صرَّحت بالأمر مرارًا وتكرارًا: كان تسوروكاوا صورتي المظهَّرة. لو أنه أوفى بواجبه بإخلاص لما ضغط عليَّ بأيِّ سؤال، لَما سألني شيئًا، بل تلقَّى، بدلًا من ذلك، مشاعري

الكثيبة كما هي تمامًا، وترجمَها إلى مشاعر بهيجة. لو أنه فعل ذلك لاستحالت الكذبةُ حقيقةً، ولأمست الحقيقةُ كذبة. لو أنه اتَّبع نهجه المميَّز، نهجه في تحويل الظلال كلّها إلى نور، والليل كلّه إلى نهار، ونور القمر كلّه إلى ضياء الشمس، ورطوبة طحالب الليل كلّها إلى حفيف أوراق وضح النهار الغضَّة اللامعة، لربما حملتُ نفسي على الاعتراف مع التأتأة. لكنه لم يفعل في هذه المناسبة بالذات. وعليه، اكتسبتْ مشاعري الكثيبة قوةً إضافية.

ضحكتُ ضحكةً ملتبسة. ليل بهيم في معبد بلا نار. ركبتان باردتان. أعمدة المعبد القديمة العظيمة ترتفع حوالينا ونحن جالسان هناك مُكَنْكِنَين في محادثتنا السرية.

لم أكن أرتدي شيئًا سوى ملابس النوم، ولعلّي كنت أرتعش بسبب البرد. إلا أن لذة الكذب الصريح على صديقي للمرة الأولى، كانت كافية تمامًا لجعل ركبتيَّ ترتجفان.

«لم أفعل شيئًا»، قلت.

«حقًّا؟» قال تسوروكاوا. «كانت تلك الفتاة تكذب، إذن. عليها اللعنة! والأنكى أن الشمَّاس حتى صدَّق الكذبة!»

سرعان ما احتدم صدر تسوروكاوا غيظًا تقيًّا، حتى إنه أعلن أن في نيَّته قطعًا أن يكلِّم الرئيس في أمري في اليوم التالي، ويشرح له ما حدث. التمعتْ في تلك اللحظة في ذهني صورةُ رأس الرئيس الحليق، الذي بدا كأنه حبَّة خضار مسلوقة، ثم رأيت وجنتيه

المتورّدتين اللدنتين. واستبدَّ بي فجأةً، لسبب ما، اشمئزازٌ شديد من هذه الصورة.

كان من الضروري أن أدفن غيظ تسوروكاوا التقيَّ في التراب قبل أن يُفتضَح أمرُه.

«ولكن، هل تعتقد حقًّا أن الرئيس يصدّق أني فعلت ذلك؟» سألت.

«يعني...»، قال تسوروكاوا وقد انتابتْه فورًا حيرةٌ من هذه الفكرة الجديدة.

«في وسع الآخرين أن يغتابوني من وراء ظهري بقدر ما يحلو لهم. فما دام الرئيس يعرف مغزى القصة، أشعر بارتياح تام. هذا رأيي في الأمر».

أفلحت، بهذه الطريقة، في إقناع تسوروكاوا بأنه إذا حاول أن يحامي عني، فإنه سيجعل الناس أكثر ارتيابًا مما هم عليه فعلًا. قلت أن الرئيس اختار أن يظل هادئًا، بالضبط لأنه مؤمن ببراءتي، وارتأى أن يتجاهل المسألة برمَّتها. تصاعد السرور في قلبي وأنا أتكلَّم، وترسَّخ هذا السرور في داخلي رويدًا رويدًا. كان سرورًا، لسان حاله يقول: «ليس هناك أي شاهد عيان. لا أحد يمكن أن يُستدعى إثباتًا للتهمة عليَّ».

لم أصدّق لحظة واحدة أن الرئيس كان واثقًا وحده ببراءتي. كان العكس، بالحري، هو الأصح: كان هو وحده متأكدًا من إدانتي. إن

واختياره تجاهُل المسألة من أساسها هو في حدّ ذاته دليل على صحة هذا الافتراض. ولعلَّه كان قد استشفَّ الأمر كلَّه أصلًا عندما ناولتْه علبتي سجائر التشسترفيلدز إيَّاهما. أو لعلَّ السبب الذي حدا به إلى التغاضي عن الأمور في صمت، هو أنه كان ينتظر هادئًا عن بُعد أن آتي بنفسي وأعترف له طوعًا. ليس ذلك فحسب، بل لعل تزكيته لي إلى دورة جامعية كانت مجرَّد طُعم لاستخلاص اعترافي: فإذا لم أعترف، فسيسحب تزكيته عقوبةً على عدم صدقي. أما إذا اعترفت، وكان مقتنعًا بأني قد تبت توبةً نصوحًا، فقد يكون في نيَّته فعلًا، كعلامة تفضيل خاصة، أن يستمر في تزكيته لي بالقبول في الجامعة.

كان أكبر الفخاخ جميعًا يكمن في أن الرئيس أمر الشمَّاس بعدم مفاتحتي بالقضية. فلو كنت بريئًا حقًا، لأمكنني عندئذٍ أن أعيش هانئًا يومًا بعد يوم من غير أن أعرف، ولا أن أشعر بأن أيَّ شيء خاص قد وقع. أما إذا كنت قد ارتكبت الجريمة فعلًا، فيجب عليَّ (على فرض أني احتفظت برباطة جأشي) أن أتمكّن من إتقان التظاهر بأني أحيا في حالٍ من النقاء السَّلامي الذي يشي بالبراءة؛ أي بعبارة أخرى، كحال شخص ليس لديه ما يعترف به. كان من الخير لي، في هذه الحالة، أن أتظاهر. كان ذاك أفضل نهج أتَّبعه، وتلك كانت الطريقة الوحيدة التي في وسعي أن أثبت بها براءتي. كان الرئيس يلمّح بهذا المقدار. هذا هو الفخ الذي نصبه لي. استشطتُّ غضبًا عندما خطر في بالي هذا الخاطر؛ إذ إني لم أكن عديم الحيلة في اختلاق ذريعة لفعلتي. فلو لم أدُسْ على تلك الفتاة فلربما خطر في

بال الأميركي فعلًا أن يتناول مسدَّسه ويهدّدني. ففي الحاصل، ليس في مقدور المرء مقاومة قوات الاحتلال. ما فعلتُه، كنتُ مكرهًا على فعله.

غير أن الإحساس ببطن الفتاة تحت نعل حذائي المطاطي؛ الإحساس بجسمها الذي بدا، بلدانته، كأنه يتودّد إليّ؛ تأوُّهاته؛ الطريقة التي بدا بها كأنه زهرة مسحوقة من لحم وعلى وشك أن تتفتح؛ ذلك الإحساس بعينه بأن حواسي تتمايل أو تترنح؛ الإحساس الذي سرى في تلك اللحظة، كومضة برق غامضة، من جسم الفتاة إلى جسمي؛ هذه الأحاسيس كلّها، لا أستطيع أن أزعم أن الإكراه هو الذي جعلني أستمتع بها. ما زلت لا أقوى على نسيان حلاوة تلك اللحظة. ويدري الرئيس ما شعرت به حتى اللب؛ أجل، كان يدري تلك الحلاوة حتى اللب!

كنت كعصفور محبوس في قفص طوال السنة التي تلت. كان القفص أمام ناظريّ باستمرار. ولما كنت مصرًّا على عدم الاعتراف أبدًا، لم أَخبَر ارتياحًا قطُّ في أثناء حياتي اليومية. كان الأمر غريبًا. أخذت فعلتي تلك، التي لم تُثِرْ فيَّ وقتذاك أيَّ مشاعر بالذنب؛ أخذت تلتمع في ذاكرتي رويدًا رويدًا فعلةَ دَوْسي على بطن الفتاة تلك. لم يحدث هذا بسبب علمي بأنها عانت إجهاضًا من جراء ذلك؛ إذ إن فعلتي رسبتْ في ذاكرتي مثل غبار الذهب، وراحت تبثُّ ضوءًا براقًا يخترق عينيَّ باستمرار. بريق الشر. أجل، هو ذاك. ربما كان شرًّا طفيفًا جدًّا، لكني حُبيتُ الآن وعيًا حادًّا بأني

اقترفت شرًّا بالفعل. وهذا الوعي كان معلّقًا كوسامٍ على صدري من الداخل.

لم يعد ثمة ما أفعله الآن في ما يخصُّ الأمور العملية، سوى أن أعيش في حال من الحيرة إلى أن يحين موعد تقدُّمي لامتحانات القبول في جامعة أوتاني، محاولًا جهدي أن أحزر ما قد تكون عليه نيات الرئيس الحقيقية نحوي. فهو لم يتفوه قطُّ بأيِّ شيء من شأنه أن يعاكس وعده بشأن انتسابي إلى الجامعة. ولم يتلفَّظ، من ناحية أخرى، قطُّ بأيِّ شيء يتعلّق بوضع ترتيبات خاصة بامتحانات قبولي. لَكَم انتظرت منه أن يقول لي شيئًا، مهما يكن! لكنه ظل على سكوته المطبق والخبيث، وأخضعني لتعذيب مديد. وتردَّدت من جهتي، ربما عن خوف، وربما عن معاندة، في سؤاله عن نياته. كنت في السابق قد نظرت إلى الأب دوسِن نظرة احترام عادية، ونظرت إليه نظرة ناقدة في بعض الأحيان. لكنه الآن راح تدريجيًّا يتلبَّس حجمًا مهولًا، حتى لم يعد في إمكاني أن أصدّق أن هيئته تؤوي قلبًا بشريًّا سويًّا. ومهما تكرَّرتْ محاولتي تفادي النظر إلى هذه الهيئة، فقد كانت تشخص أمامي مثل قلعة عجيبة.

حدث في أواخر الخريف أن طُلِبَ من الرئيس أن يحضر جنازة أحد أفراد الرعية القدماء، وبما أن الوصول إلى المكان يستغرق مدة ساعتين، أعلن عشية ذلك اليوم أنه سيغادر المعبد في الساعة الخامسة والنصف صباحًا يرافقه الشمَّاس. ووَجَبَ علينا أن ننهض في الساعة الرابعة للقيام بالتنظيف وتحضير الفطور حتى نستعدّ

لمغادرة الرئيس. وما إن نهضنا حتى باشرنا «مهمَّتنا الصباحية» بتلاوة السوترا، بينما كان الشمَّاس يساعد الرئيس في تحضيراته. كان يأتي من الفِناء البارد المعتم، بلا انقطاع، صوتُ صرير دلو البئر. غسلنا وجوهنا على عجل. واخترق صياحُ الديك في الفِناء عتمةَ فجر الخريف. كان الصوت يوحي بنضارةٍ وبياض.

شمَّرنا أكمام أثوابنا عن سواعدنا وهرعنا متجمّعين حول المذبح في قاعة الزوار. كانت حُصُر القش في القاعة الكبرى، التي لم يَنَمْ عليها أحد قط، توحي بإحساس خاص، في برودة مطلع الفجر، كما لو أنها تصدُّ مَن يودُّ لمسَها عن المحاولة. كانت شموع الهيكل تومض. أدَّينا انحناءات التبجيل. انحنينا أولًا وقوفًا، ثم ركعنا على الحُصُر وانحنينا على صوت الناقوس. وكرَّرنا العملية ثلاث مرات.

كنت دومًا أحسُّ بنضارةٍ في أصوات الذكور وهي تتلو السوترا متناغمةً في إبَّان مهمة الصباح. كان صوت تلك السوترا الصباحية أقوى ما في النهار كلّه. كان يبدو أن الأصوات القوية تبدّد الخواطر الشريرة كلَّها التي تجمَّعتْ في أثناء الليل، كما لو أن رذاذًا أسود يتدفق من الحبال الصوتية للمنشدين ويُرَشُّ في المحيط. عن نفسي، لا أدري. إنما كان يشدُّ من أزري على نحوٍ غريب أن أفكر في أن صوتي كان مثل أصوات الآخرين يبعثر الخواطر الشريرة الذكورية إيَّاها.

كان الرئيس على أهبة المغادرة قبل أن ننتهي من «جلسة العصيدة». اصطففنا جميعًا عند المدخل لوداعه بحسب العرف.

كان الوقت لا يزال ليلًا، والسماء مليئة بالنجوم. وامتدَّ في ضوء النجوم الرصيف الحجري باهتًا حتى بوابة السَنْمون، لكن ظلال أشجار السنديان العظيمة، وأشجار الخوخ والصنوبر، تطاولت على الأرض، يذوب ظلُّ الواحدة منها في الذي يليه، بحيث احتلَّت السطح بأكمله. كانت كنزتي مليئة بالثقوب، وهواء الفجر البارد يعضُّ مرفقيَّ.

كان كلُّ شيء يجري في صمت. انحنينا أمام الرئيس من دون أن ننبس بكلمة، فهَمْهَمَ جوابًا يكاد لا يُسمَع. ثم ما لبث صوتُ وقع قباقيب الرئيس والشمَّاس أن تلاشى بهدوء وهما يسيران مبتعدَين عنَّا على امتداد الرصيف الحجري. فمن العرف عند فرقة الزِّنْ الانتظارُ ريثما يبتعد الشخص الذي يودّعه المرء ويختفي عن الأنظار تمامًا، لم نستطع أن نرى الهيئتين المبعدتين بكاملهما، بينما كنَّا نحدّق إليهما. كلُّ ما في وسعنا رؤيته كان حواشي ثوبيهما وجواربهما البيض. وبدا، عند نقطة معينة، كأنهما اختفيا تمامًا. لكن ذلك كان فقط لأن الأشجار كانت تحجب عنَّا مرآهما. ظهر بعد حين، الثوبان الأبيضان والجوارب البيض مرة أخرى، ولسبب ما، سُمِعَ صدى خطواتهما بالفعل أعلى من السابق. وقفنا هناك نحدّق إليهما بثبات وهما يغادران، فبدا كأن دهورًا انقضت قبل أن تعبر الهيئتان البوابة الرئيسية وتختفيا أخيرًا.

وُلِدَ فيَّ، عند ذلك الوقت بالضبط دافعٌ غريب. كان هذا الدافع كالجمرة المتقدة العالقة في حلقي، تمامًا مثلما حين تحاول كلماتٌ

هامَّةٌ معيَّنةٌ أن تفلت من فمي فتعرقلها تأتأتي. كان الدافع رغبة مفاجئة في الإفلات. في هذه اللحظة، كفَّت عن الوجود مطامحي السابقة، رغبتي في دخول الجامعة، لا بل أكثر؛ الأمل الذي أوحتْ إليَّ به الوالدة بأني قد أُفلح في خلافة الرئيس في رئاسة المعبد. أردت أن أفلت من قبضة هذه القوة الصامتة التي تسيطر وتفرض ذاتها عليّ.

لا أستطيع القول أني كنت أفتقر إلى الشجاعة في تلك اللحظة. الشجاعة المطلوبة للاعتراف كانت أمرًا تافهًا. فلِمَن عاش مثلي ملتزمًا الصمت طوال السنوات العشرين الماضية، كانت قيمة الاعتراف ضئيلة فعلًا. قد يحسب الناس أني أبالغ. لكن واقع الأمر أنني، بمواجهتي صمت الرئيس ورفضي الاعتراف، كنت حتى ذلك الوقت أختبر المشكلة الوحيدة: «هل الشر ممكن؟» لو قُيِّضَ لي أن أصر حتى النهاية على عدم الاعتراف، فإن ذلك من شأنه أن يبرهن أن الشر، وإن يكن مجرَّد شر تافه، ممكن بالفعل. إلا أن القوة المتقدة في حنجرتي، وأنا أسترق عبر الأشجار لمحاتٍ من جوربَي الرئيس الأبيضين وحاشية ثوبه البيضاء المتوارية في ظلام الفجر، صارت تكاد لا تقاوم، فأردت أن أدلي باعتراف كامل. أردت أن أركض وراء الرئيس وأتشبَّث بكمّه، وأخبره بصوت عالٍ بكلّ ما حدث ذلك الصباح المثلج. قطعًا، لم يكن ما ألهمني هذه الرغبة أي شعور بالاحترام للرجل. كانت قوة الرئيس أشبه بنوع من القدرة البدنية القوية.

بيد أن فكرة أني لو ركنتُ إلى الاعتراف لَانهار أول شرّ تافه

أقترفه في حياتي، هي التي ودعتني، فشعرت بأن شيئًا ما يشدني بقوة من ظهري. عبرتْ هيئةُ الرئيس، إذ ذاك، من تحت البوابة الرئيسية، وتوارتْ تحت السماء التي لم تزل معتمة.

تنفَّس الجميع الصعداء فجأةً، وهرعوا في صخب إلى الباب الأمامي للمعبد. ربت تسوروكاوا على كتفي وأنا أقف هناك شاردًا. استيقظتْ كتفي. استعادت كتفي الرثة تلك كبرياءها.

دخلت فعلًا جامعة أوتاني في النهاية، كما سبق لي أن ذكرت، على الرغم من هذه التعقيدات كلّها. لم أضطر إلى الإدلاء بأيّ اعتراف، استدعاني الرئيس أنا وتسوروكاوا بعد ذلك ببضعة أيام، وأخبرنا بإيجاز بأن علينا التأهب لامتحاناتنا، وأنه قد تقرَّر إعفاؤنا من واجباتنا في المعبد طوال مدة انشغالنا بالدراسة لهذه الغاية.

أفلحت في دخول الجامعة. بيد أن هذا لم يُجْدِ شيئًا في تسوية المصاعب كلّها؛ إذ إن مسلك الرئيس لم يفصح في الواقع شيئًا عمّا يجول في خاطره بشأن واقعة النهار المثلج، ولا أنا استطعت أن أستخلص نياته بخصوص خلافته.

مثَّلتْ جامعة أوتاني نقطة انعطاف في حياتي. فههنا، للمرة الأولى في حياتي، أصبحت ملمًّا بالأفكار؛ بأفكار أختارها بنفسي بكلّ تروّ. كانت أوتاني تعود في أصلها إلى زمن يقرب من ثلاثمئة سنة قبلئذٍ، عندما نُقِلَ في العام ١٦٦٣ المهجع الجامعي لمعبد تشيكوشي كانزكون إلى دارة كيكوكو في كيوتو. وأصبح منذ ذلك

الحين بمثابة الدير لأتباع فرقة أوتاني من طائفة الهونغانجي. وتبرَّع أحد مريدي المعبد، ويدعى سوكِن تاكاغي ويقيم في نانيوا، بمساهمة جزيلة، في عهد الأب الخامس عشر من آباء الهونغانجي. وقد استقروا على الموقع الحالي عند كاراسومارو-غاشيرا في الجزء الشمالي من العاصمة. وأقاموا الجامعة هناك. كانت أرض الحَرَم تتألف من عشرة أفدنة فقط. وأصغر من أن تتسع لجامعة. ومع ذلك، فإن هذا المكان هو الذي جاء إليه الكثيرون من الشبان، ليس من فرقة أوتاني وحدها فحسب، بل من جميع فروع البوذية، للدراسة والتدرُّب على أساسيات الفلسفة البوذية.

كانت بوابة قديمة من طوب الآجرّ تفصل حَرَم الجامعة عن الشارع وعن خطوط الترامواي. كانت البوابة تواجه الغرب صوب جبل هايي. من البوابة، كانت ثمة درب حصى تؤدي إلى المدخل الكبير المفضي إلى فِناء البناء الرئيسي، وهو مبنى مظلم كئيب من طابقين. وكان برج نحاسي عظيم يتطاول في الجو على قمة السقف عند المدخل. ولم يكن برج ساعة ولا برج ناقوس؛ وتحت مانعة صواعق نحيلة، كانت نافذة مربعة عديمة الفائدة تقتطع زاوية من السماء الزرقاء.

نَمَتْ في جوار المدخل شجرةُ ليمون معمّرة، كانت أوراقها البديعة تتوهج في ضياء الشمس كالنحاس الأحمر. لقد تم توسيع الجامعة، التي كانت تتكون في الأصل من المبنى الرئيسي فقط، مرة تلو الأخرى، وجُمِعَ بين مختلف الأجزاء دونما ترتيب معيَّن.

كان في معظمه مبنى خشبيًا قديمًا من طابق واحد. لم يكن مسموحًا لأحد انتعال حذائه داخل البناء، وتصل بين مختلف الأجنحة أروقة لا نهاية لها، أرضيتها مصنوعة من ألواح الخيزران. كانت الأرضية قد بدأت تتصدَّع مع مضيّ الزمن. وكان يجري من حين إلى آخر إصلاح الأجزاء المكسورة، فكان المرء حين يمشي من جناح إلى آخر تطأ قدماه فسيفساء كاملة من الخشب المتراوح بين الغامق والفاتح، بحيث كان لوح أرضية بالغ القِدَم متبوعًا بلوح جديد للغاية.

كلما دخل المرء في مدرسة أو جامعة جديدة يبقى الأمر هو هو: مع أن المرء يصل كلَّ يوم بشعور جديد، فإنه يعي وجود خاصية ما في الأشياء مبهمة، وغير متلاحمة. هذا ما حدث لي الآن في إبَّان أيامي الأولى في جامعة أوتاني. وبما أن تسوروكاوا كان الشخص الوحيد الذي أعرفه، فقد وجدت نفسي، طوعًا أو كرهًا، أكلّمه هو من دون سواه. غير أني أخذت، بعد بضعة أيام، أفكر في أن خروجنا إلى هذا العالم الجديد، بعد كلّ ما مررنا به من مشقات، يكاد يصير غير مُجْدٍ لو اكتفينا برؤية واحدنا الآخر فحسب. شعر تسوروكاوا بهذا أيضًا كما هو واضح، فحرصنا بعدئذٍ على عدم البقاء معًا في إبَّان ساعات الترويح عن النفس، وحاول كلٌّ منَّا أن يستميل إليه أصدقاء جددًا. بيد أني، مع تأتأتي، كنت مفتقرًا إلى شجاعة تسوروكاوا. وأضحيتُ أكثر فأكثر عزلة بينما راح عدد أصدقائه يتكاثر.

كانت دروس السنة التحضيرية في الجامعة تشتمل على عشر موادّ، الأخلاق، اليابانية، الصينية، الإنكليزية، التاريخ،

النصوص الدينية البوذية، المنطق، الرياضيات، الرياضة البدنية. استصعبتُ منذ البداية المحاضرات في المنطق. وقرّرت، ذات يوم، في إبّان استراحة الظهيرة التي أعقبتْ إحداها، أن أطرح على أحد الطلاب بعض الأسئلة. كنت أتمنى منذ مدة أن أتعرف إلى هذا الشاب. كان دأبه أن يجلس دومًا بمفرده، ويتناول ما في علبة غدائه إلى جانب أحواض الزهور في الحديقة الخلفية. كانت عادته هذه مثل ضرب من الطقوس، وما من أحد من الطلاب كان يقترب منه، وخصوصًا أن ثمة بغضًا شديدًا للبشر تشي بِهِ الطريقة التي كان ينظر بها إلى طعامه مشمئزًّا وهو يأكل. أما هو فلم يكن يكلّم أبدًا أيًّا من زملائه الطلاب، ويبدو عليه أنه رافض فكرة عقد أواصر صداقة مع أيّ أحد.

كنت أعلم بأنه يدعى كاشيواغي. كانت أكثر سماته لفتًا للنظر أنه كان صاحب رِجلين معوجّتين قويتَي المظهر نوعًا ما. كانت طريقته في المشي مدروسة بتأنٍ. كان دائمًا يبدو كأنه يمشي في الطين: عندما يتمكن أخيرًا من سحب رِجل واحدة من الطين، تبدو الأخرى كأنها عالقة. وكان ثمة حيوية ما، في الوقت نفسه، تفيض من جسمه كلّه. كانت مشيته عبارة عن نوع من الرقص المبالغ فيه، يفتقر كلَّ الافتقار إلى أيّ شيء مألوف.

كان من البديهي أن ألحظ كاشيواغي منذ أول يوم لي في الجامعة. شعرت بالارتياح عند رؤية عاهته. ودلَّتْ رِجلاه المعوجّتان، منذ البداية، على توافق مع الحال التي وجدت فيها نفسي.

كان كاشيواغي قد فتح علبة غدائه وجلس فوق بقعة من العشب

في الحديقة الخلفية. تقع هذه الحديقة في جوار مبنى خَرِب يضم الغرف حيث كنَّا نتمرَّن على رياضة الكاراتيه للدفاع عن النفس، وعلى كرة الطاولة أيضًا. ويكاد يخلو من أيّ ألواح زجاجية باقية في النوافذ. ونمت فيها بعض أشجار الصنوبر الضئيلة، وغطّت بعض الإطارات الخشبية الصغيرة أحواضَ المشتل الفارغة. كان الطلاء الأزرق للإطارات قد أخذ يتقشر؛ كان خشنًا ومتجعدًا مثل زهور صناعية ذابلة. وفي جوار أحواض المشتل، كان ثمة منصة ذات بضعة رفوف لترتيب أشجار قزمة(*) موضوعة في آنية فخارية، وكومة من قرميد الآجر والحصى، بالإضافة إلى حوض من زهر بخور مريم وحوض من زهر الياقوتية.

لذَّ لي الجلوس على أعشاب البرسيم. كانت أوراقه الطرية تمتصُّ الضوء، وكان سطح البرسيم مليئًا بظلال صغيرة، بحيث بدا كأن البقعة بأكملها تطفو برفق فوق الأرض. لم يكن كاشيواغي مختلفًا عن سواه من الطلاب وهو جالس هناك؛ كان تشوهه البدني يظهر للعيان فقط حين يمشي. كان ثمة مسحة من جمال صارم على وجهه الشاحب. كان كسيحًا بدنيًّا. ومع ذلك، كانت هيئته توحي بجمال جريء، مثل جمال امرأة حسناء. فالكسيحون والحسناوات جميعًا متعَبون من كثرة الحملقة فيهم، سَئِمون من حياة تنطوي باستمرار

(*) بونساي: فن ياباني يعود إلى أكثر من ألف سنة، ويستعمل تقنيات زراعية خاصة لإنتاج أشجار قزمة في أوانٍ تحاكي شكلَ الأشجار السوية وتَناسُبَ أبعادها. توجد ممارسات مماثلة في الثقافات الأخرى، بما في ذلك تقليد بِنْساي في الصين، التي نشأ منها هذا الفن. (المترجم)

على استباحتهم بالنظر. يشعرون بأنهم محاصَرون، وهم يردون على النظرة بواسطة ذلك الوجود بالذات. ومن ينظر حقًّا هو الفائز. كان كاشيواغي ينظر إلى الأسفل وهو يأكل طعام غدائه، لكني شعرت بأن عينيه كانتا تتفحصان العالم حواليه بدقة.

كان مكتفيًا بذاته وهو جالس هناك في الضوء. ذاك كان الانطباع الذي لفت نظري. من مجرَّد التفرُّس فيه في ضوء الربيع بين الزهور، كان في وسعي أن أستنتج أنه لا يعاني شيئًا من ذاك الخجل، ولا يعاني شيئًا من ذاك الشعور السري بالذنب الذي أشعر به. كان ظلًّا يؤكد ذاته، أو بالأصح، كان هو الظل الموجود بالذات. ومن المؤكَّد أن الشمس ما كان في وسعها أبدًا أن تخترق جلده القاسي ذاك.

كانت فقيرة علبةُ الغداء التي يأكلها بكلّ هذا الانهماك وبكلّ هذا البغض، لكنها لم تكن أقل عن العلبة التي أداب على تحضيرها لنفسي كلَّ صباح من بقايا طعام فطور المعبد. كنَّا في سنة ١٩٤٧، ومَن لم يكن بمستطاعه شراء الطعام من السوق السوداء، كان من المحال عليه أن يأكل كما يجب. وقفت إلى جوار كاشيواغي ممسكًا بدفتري وعلبة غدائي. وقع ظلّي على طعامه فرفع بصره نحوي. نظر إليَّ، ثم حوَّل بصره إلى الأسفل واستأنف مضغه الرتيب، مثل دودة قز تمضغ أوراق التوت.

«عفوًا»، قلت وأنا أتأتئ بشدة، «وددت أن أسألك بخصوص نقطتين لم أفهمهما في تلك المحاضرة الأخيرة». تكلَّمت بلكنة

طوكيو المعتمدة، بحيث إني كنت قد قررت ألا أستعمل لهجة كيوتو بعد دخولي الجامعة.

«لم أفهم كلمة واحدة مما تقول»، قال كاشيواغي. «كلُّ ما سمعته هو الكثير من التأتأة».

شعرت بوجهي يحمرّ. لعق كاشيواغي طرف عودَي طعامه وتابع: «أعلم جيدًا لماذا بادأتني بالكلام، يا ميزوغوتشي. أليس هذا هو اسمك؟ حسنًا، إذا كنت تظن أنه ينبغي لنا أن نصير صديقين فقط لأن كلينا ذو عاهة، فتراني لا أمانع. إنما هل تراك حقًّا تظن أن تأتأتك، بالمقارنة مع عاهتي، أمر ذو شأن؟ أراك تغالي في أخذ نفسك على محمل الجد، أليس كذلك؟ ونتيجة لذلك، تغالي في أخذ تأتأتك على محمل الجد فضلًا عن نفسك.»

عندما اكتشفت، في وقت لاحق، أن كاشيواغي سليل أسرة زِن تنتمي إلى فرقة رنزاي نفسها، أدركت حينها أن في أسئلته وأجوبته الأولية هذه كان، إلى حدّ ما، يتخذ النهج المميز لكاهن زِن؛ إنما لا سبيل إلى إنكار الانطباع القوي الذي تركتْه فيَّ ملاحظاتُه وقتذاك.

«تأتِئْ!» قال. «هيا، تفضَّلْ وتأتِئْ!»

أصغيت بدهشة تامة إلى طريقته العجيبة في التعبير عن نفسه.

«صادفتَ أخيرًا شخصًا في وسعك أن تتأتئ أمامه كما يحلو لك. أليس صحيحًا ما أقول؟ ولعلمك، الناس كلُّهم هكذا. إنهم جميعًا يبحثون عن قرين لهم في النّير. حسنًا الآن، أما زلت بتولًا؟»

أومأت برأسي موافقًا من غير أن أبتسم. كانت طريقة كاشيواغي

في طرح الأسئلة أشبه بطريقة الأطباء، الأمر الذي جعلني أشعر بأنه يَحسُنُ بي ألا أكذب.

«نعم، خمَّنتُ ذلك»، قال. «أنت بتول. لكنك لست بتولًا جميلًا. بل ليس فيك ما يوحي بالجمال على الإطلاق. لا حيلة لك مع البنات، ولا تملك الشجاعة للحصول على مومسات. هذا كلُّ ما في الأمر. لكنك إن ظننت أنك ستصادق بتولًا آخر حين بادرتني بالكلام، فأنت مخطئ جدًا. هل تود أن تسمع كيف فقدت عذريَّتي؟»

وواصل كاشيواغي كلامه من دون أن ينتظر جوابي.

«أنا ابن كاهن زِن في سَنومِيا، وقد وُلدت معوجّ الرّجلين. أظن أنك، وأنت تسمعني مندفعًا هكذا، ستتخيَّل أني رجل مسكين، مختلُّ العقل، لا يهمُّه مَن يكلّم ما دام يستطيع أن يبوح عن نفسه بكلّ ما يعتمل في قلبه. لا، لستُ من هذا الصنف من الرجال. ما كنت لأكلّم، على هذا النحو، أيَّ شخص يتفق له أن يأتيني. أنا نوعًا ما محرَجٍ من قولي ذلك، لكن واقع الأمر أني اخترتك قصدًا منذ البداية لأسمِعَك قصتي. ولعلمك، خطر في بالي أن من المحتمل أنك ستستفيد أكثر من أيّ شخص آخر من معرفة ما فعلت. قد يكون أفضل شيء لك هو أن تفعل أنت ما فعلته أنا بالضبط. فهذه هي، كما تعلم، الطريقة التي يشمُّ بها المتديّنون رائحة إخوانهم المؤمنين، وهذه هي الطريقة التي يشمُّ بها الممتنعون من المسكرات رائحة نظرائهم.

«حسنًا، إذن، كان من عادتي أن أخجل من ظروف حياتي. وظننت أن تصالُحي مع تلك الظروف، وتقبُّلها على علّاتها، هما من قبيل الهزيمة. لو أردت بالطبع أن أبدأ بحمل الضغائن لما عدِمت الحجّة. كان على والديَّ أن يرتّبا أمر إجراء عملية جراحية لِرجليَّ وأنا صغير. أما الآن، فقد فات الأوان. لكني لا أبالي بخصوص والديَّ على الإطلاق، وتصيبني بالضجر فكرة الحقد عليهما ليس إلّا.

«كنت في السابق أعتقد أن النساء لا يمكن لهنَّ أبدًا أن يحببنني. فكما تعلم بنفسك على الأرجح، هذا الاعتقاد أكثر راحةً وسلميةً نسبيًّا مما يتصوره أغلب الناس. ولم يكن ثمة أيُّ تناقض بالضرورة بين هذا الاعتقاد ورفضي التصالح مع ظروف حياتي. ولعلمك، لو أني اعتقدت أنه يمكن للنساء أن يحببنني على الرغم من مظهري، أي ضمن ظروف حياتي الفعلية، فأكون قد تصالحت مع تلك الظروف، بمقدار ما أعتقد ذلك. أدركت أن نوعي الشجاعة، شجاعة الحكم على الواقع كما هو بالضبط، وشجاعة مكافحة ذلك الحكم، يمكن التوفيق بينهما بكلّ سهولة. كان في وسعي، بسهولة، ومن غير أن أحرك ساكنًا، أن أحصل على شعور بأني أكافح.

«لما كانت هذه حال ذهني، فمن الطبيعي أن أحاول فقد عذريّتي عن طريق معاشرة مومسات كما فعل العديد من أصدقائي. وما صرفني عن ذلك، بالطبع، هو واقع أن المومسات لا يضاجعن زبائنهنَّ حبًّا بهم. إنهن يقبلن أيَّ أحد زبونًا، رجالًا مسنّين خرفين، شحاذين، رجالًا عُورًا، رجالًا وسيمين، وحتى مجذومين، ما دمن لا يعرفن أنهم

مجذومون. ومن شأن هذا النهج القائم على المساواة أن يُشعِرَ أكثر الشباب العادين بالارتياح، فيُقْدموا بسعادة بالغة ويستأجروا أول امرأة يصادفونها. لكني لم أستحسن البتة مذهب المساواة هذا. ما كان في وسعي أن أحتمل فكرة أن المرأة ينبغي لها أن تعامل رجلًا سويَّ الخلقة وشخصًا مثلي أنا على قدم المساواة. بدا لي الأمر كأنه تدنيس ذاتي فظيع. فلعلمك، كنت مسكونًا بالخوف من أنه إذا تم التغاضي عن حال رجلي المعوجّتين أو تجاهُلها، فسوف أكفُّ، بمعنى ما، عن الوجود. كان هو بعينه الخوف الذي تعانيه أنت الآن. أليس هو؟ كان من الضروري ترتيب الأمور لي ترتيبًا أكثر ترفًا بكثير مما يتطلَّبه أكثر الناس، كي يُعترَفَ بحالتي اعترافًا تامًّا ويوافَق عليها موافقةً تامة. ومهما حدث، فكرت، فهكذا ينبغي للحياة أن تتكشَّف لي.

«لا شك في أنه كان من الممكن التغلُّب على شعوري الرهيب بعدم الرضا؛ عدم الرضا من أن العالم وأنا قد وُضِعْنا على طرفَي نقيض في علاقة عداوة. كان يمكن أن يكون هذا ممكنًا، إما بتغيير ذاتي وإما بتغيير العالم. لكني كنت أمقت الحلم بمثل هذه الأمور. كنت أنفر من الأحلام الخرقاء، من هذا النوع. ومفاد الخلاصة المنطقية التي توصَّلتُ إليها بعد كثير من إعمال الفكر، أنه إذا تغير العالم فلن يعود وجودي ممكنًا، وإذا تغيرتُ فلن يعود وجود العالم ممكنًا. ومن قبيل المفارقة، أن هذه الخلاصة كانت تمثِّل ضربًا من المصالحة، وضربًا من التسوية. فلعلمك، حتى يمكن للعالم أن يتعايش مع فكرة

أن يكون مظهري كما هو، فإنه لا يمكنني أن أكون محبوبًا، فالفخ الذي ينتهي الشخص صاحب العاهة إلى الوقوع فيه، لا يكمن في حَلّه حالةَ العداوة بينه وبين العالم، وإنما يتخذ بدلًا من ذلك شكل موافقته على هذا العداوة موافقةً كاملة. ولهذا، لا يمكن للشخص صاحب العاهة أن يُشفى أبدًا.

«حسنًا، حدث لي ذلك الأمر الذي لا يُصدَّق، في تلك الفترة من حياتي، بالضبط حين كنت في ريعان شبابي، وأستعمل العبارة عن قصد. كانت هناك فتاة من أسرة ثرية من أبناء رعية معبدنا، تخرجت لتوّها من مدرسة كوبي للإناث، وقد ذاع صيت جمالها. حدث أن باحت لي، ذات يوم، بأنها تحبني. لم أستطع لوهلة، تصديق أذني. فبفضل حالتي التعسة كنت خبيرًا بسبر أغوار النفوس. لهذا السبب لم أصرف النظر بشكل معاند عن القضية برمَّتها، كما قد يفعل الكثيرون، وذلك بأن أعزو حبَّها هذا إلى محض التعاطف. كنت مدركًا تمامًا أنه ما من بنت ستحبني عن تعاطف فحسب. وخمَّنتُ بدلًا من ذلك، أن علَّة الحب الذي تكنُّه لي هذه الفتاة هو حسُّها الاستثنائي بالكبرياء. كانت هذه الفتاة مدرِكة تمامًا جمالها وقيمتها بصفتها أنثى، فكان من المحال عليها أن تقبل أيَّ خاطبٍ لودّها يُظهِرُ علاماتٍ تدلّ على الثقة بالنفس. ما كان في وسعها أن تحتمل فكرة وضع عزة نفسها في كفة ميزان في مقابل غرور شاب واثق بنفسه. كانت قد حظيت بعدة فرص تقدَّم فيها لخطب ودّها شبانٌ أكفاء جمالًا وثروة، كما يقال، لكن كلَّما كان واحدهم أفضل ازداد نفورها منه. ورفضتْ، في

النهاية، بعناد، أيَّ حبّ ينطوي على شكل ما من التوازن، وكانت مخلصة تمامًا بخصوص هذه النقطة، ووضعتني نصب عينيها.

«كنت أعلم مسبقًا بما سأجيبها به. قد تسخر مني، لكنني قلت لها بكلّ بساطة: أنا لا أحبك. ماذا كان في وسعي أن أقول غير ما قلت؟ كان هذا الجواب صادقًا وغير متكلّف على الإطلاق. فلو قرَّرتُ، بدلًا مما فعلت، ألا أفوّت على نفسي فرصةً سانحةً، ورددتُ على بوحها بقولي: أنا أيضًا أحبك، لَبدوتُ أسوأ من أضحوكة؛ لَبدوتُ شبه مأسوي. إن أمثالي من الناس أصحاب المظهر الهزلي بارعون للغاية في تفادي خطر الظهور في مظهر مأسويّ، عن طريق الخطأ. كنت أدرك جيدًا أنني إذا بدأتُ مرة بالظهور بمظهر مأسوي فلن يعود الناس يشعرون بالارتياح إليَّ حين يتعاملون معي. كان من الأهمية بمكان، من أجل نفوس الآخرين، ألا أظهر أبدًا في مظهر الشخص البائس. لذا، وضعت حدًّا نهائيًا للأمر، وقلت: أنا لا أحبك.

«لم يردع الفتاة، جوابي. قالت بلا أيّ تردُّد إني أكذب. كانت منظرًا حقيقيًا للفرجة محاولتُها عندئذٍ أن تستهويني لتظفر بي، وهي في الوقت نفسه حذرة للغاية لئلا تجرح كبريائي. ما كان يمكن هذه البنت أن تتصور احتمال وجود رجل في هذا العالم لا يقع في حبّها إذا أُتيحت له الفرصة. وإذا صادف أن وُجِدَ مثل هذا الشخص، فلا بدَّ من أنه يخدع نفسه. وهكذا، شرعتْ في تحليلي تحليلًا دقيقًا، وتوصّلتْ في النهاية إلى نتيجة مفادها أني كنت أحبُّها في الواقع منذ بعض الوقت. كانت بنتًا ذكية. فعلى فرض أنها كانت حقًّا تحبني

فعلًا، فلا بدَّ من أنها أدركت أنها تحب شخصًا صعب المنال على نحوٍ استثنائي. إن صح هذا، فإن أيَّ شيء تقريبًا قد تقوله سيكون خطأً. فلو زعمتْ أن وجهي جذَّاب، بينما هو في الواقع ليس كذلك، لأغاظتني. ولو قالت إن رِجليَّ المعوجّتين جميلتان، لأغاظني ذلك أكثر حتى. ولو أبدت ملاحظةً ما بخصوص عدم حبّها لي من أجل مظهري الخارجي، وإنما بسبب ما شعرتْ به في داخلي، لأثارت غضبي حقًّا. لقد أخذتْ هذا كلَّه بالحسبان في أيّ حال، لأنها ذكية، وراحت ببساطة تقول: «أحبك». واكتشفتْ شعورًا في داخلي يقابل حبَّها هذا، وفقًا لتحليلها، بالطبع.

«ما كان في وسعي أن أتقبَّل هذا النوع من اللّامنطق. وكانت تطغى عليَّ تدريجيًا، في الوقت نفسه، رغبةٌ جامحة في البنت، لكني لم أعتقد أن هذه الرغبة سوف تقرّب يومًا بيني وبينها. وخطر في بالي، حينها، أنها إذا كانت تحبني حقًّا أنا من دون غيري، فهذا قطعًا يعني أني أتصف حتمًا بمزايا فردية ما تميزني عن غيري من الناس. وماذا يمكن لهذا الفارق أن يكون غير رِجليَّ المعوجّتين؟ كان الأمر يتلخص، إذن، مع أنها لم تصرّح بذلك، في أنها أُغرِمَتْ برِجليَّ المعوجتين. بيد أن هذا الأمر كان غير مقبول بتاتًا من وجهة نظري. فلو أن تفرُّدي لم يكمن في الواقع في رِجليَّ المعوجّتين، فلربما غدا هذا الحب مقبولًا. إنما لو اتفق لي أن أقرّ بأن تفرُّدي، علّة وجودي بالذات، يكمن في مكان ما غير رِجليَّ المعوجّتين، لَاستلزم الأمرُ نوعًا من الإقرار الإضافي. فلا مناص لي عندئذٍ من إقرار علّة وجود

أشخاص آخرين بهذه الطريقة الإضافية عينها، وهذا سيؤدي بدوره إلى إقراري بوجود ذاتٍ مستترةٍ كليًّا ضمن العالم. لذا، كان الحب مستحيلًا. وكان ظنُّها أنها تحبني مجرَّد وهم، ولم يكن في وسعي إطلاقًا أن أحبَّها. لذا، ظللت أكرر: أنا لا أحبك.

«أغرب ما في الأمر أنني كلَّما أصررت على قولي لها إني لا أحبُّها، زادت هي انصياعًا لوهم أنها تحبني. وأخيرًا، لم يعد لها إلا أن ترتمي عليَّ ذات مساء، عرضتْ عليَّ جسمها، وفي وسعي القول إنه كان جسمًا باهر الجمال. لكن، عندما حانت اللحظة الحرجة، كنت عاجزًا تمامًا.

«حلَّ فشلي الذريع هذا الأمور كلَّها بكلّ بساطة. بدا أخيرًا أنها حصلت على برهان مقنع بأني حقًّا لم أحبها، فتركتني.

شعرت بالخزي من عجزي إنما ما من شيء آخر كان يستحق الذكر بالمقارنة مع خجلي من رِجليَّ المعوجّتين. ما أغاظني حقًّا كان أمرًا آخر. كنت أعرف السبب الذي أدَّى إلى عجزي. كان، عندما حان الوقت، فكرة رِجليَّ المعوجّتين المشوهتين وهما تلامسان قدميها العاريتين الجميلتين. لقد حطَّم هذا الاكتشاف تمامًا سلامًا في داخلي ما فتئ يمثِّل جزءًا من اعتقادي أن من المحال أن تحبني امرأة يومًا.

«شعرتُ، في تلك اللحظة، لعلمك، بنوع مخاتل من الفرح عندما خطر في بالي أني برغبتي، بإشباعي رغبتي، سأبرهن على استحالة الحب. لكن جسدي خذلني. ما أردت أن أفعله بروحي قام

به جسدي عوضًا عنها. وواجهني نتيجة ذلك تناقضٌ آخر. بعبارة أخرى مبتذلة نوعًا ما. لطالما حلمتُ بالحب في اعتقادي الثابت بأني لا يمكن أن أكون محبوبًا، لكني استبدلتُ بالحب الرغبةَ في الشوط النهائي، وشعرتُ بنوع من الارتياح. إلا أني فهمت في النهاية أن الرغبة نفسها تستوجب لقضائها أن أتناسى ظروف حياتي، وأن أتخلَّى عمَّا كان يشكّل في نظري العائقَ الوحيد أمام الحب، ألا وهو الاعتقاد أني لا يمكن أن أكون محبوبًا. فلطالما فكرت في الرغبة بصفتها أمرًا أوضح مما هي عليه في الواقع، فلم أدرك أنها تتطلَّب من الناس أن يروا أنفسهم بطريقة حالمة، وواهمة بعض الشيء.

«أخذ جسدي منذ ذلك الحين يجتذب انتباهي أكثر من روحي. إنما لم يكن في وسعي أن أصبح تجسيدًا للرغبة الصرف. لم يسعني إلا أن أحلم بها. أصبحتُ مثل الريح. أصبحتُ شيئًا لا يمكن للآخرين رؤيتُه، لكنه يبصر بذاته كلَّ شيء، فيدنو من هدفه برفق، ثم يلامسه من أنحائه كلّها، وينفذ أخيرًا إلى لبّه. إذا تكلَّمتُ على الوعي الذاتي للجسد، أتوقع منك أن تتخيَّل وعيًا ذاتيًّا يتصل بغرضٍ ما حازم، هائل، ومبهم. لكن الأمر لم يكن هكذا. إدراكي ذاتي بصفتي جسمًا مفردًا، ورغبةً مفردة، كان يعني في نظري أني غدوت شفافًا، غير مرئيّ، وأضحيت، بكلمات أخرى، مثل الريح.

«لكن رِجليَّ المعوجّتين أثبتتا على الفور أنهما العقبة الكبرى. هما وحدهما لن تغدوا شفافتين أبدًا. بَدَتا أقل شبهًا بقدمين من

شبههما بزوجين من الأرواح العنيدة. وها هما غرضان أكثر صلادة بكثير من جسدي نفسه.

«يظن الناس ربما أنهم لا يستطيعون رؤية أنفسهم ما لم تكن لديهم مرآة. لكن أن يكون المرء كسيحًا هو أن تكون لديه دومًا مرآة أمام ناظريه. كان جسدي بكامله منعكسًا في تلك المرآة كلَّ ساعة من ساعات النهار. لم يكن التناسي واردًا إطلاقًا. وبالنتيجة، فإن ما يُعرَفُ في هذا العالم بالضّيق، لا يمكن له أن يصيبني إلا كلهوِ الأطفال. لم يكن ثمة مجال لعدم ارتياح في حالتي. فوجودي بهذا الشكل هو واقعة محددة مثل وجود الشمس والأرض، أو وجود الطيور الجميلة والتماسيح الدميمة. كان العالم جامدًا كشاهدة قبر.

«لا أدنى شعور بالضيق، لا أدنى موطئ قدم. ههنا يقوم أساس طريقة حياتي الأصلية. ما الغاية من حياتي؟ عندما تخطر في بال الناس خواطر كهذه يشعرون بالضّيق، بل ينتحرون حتى. لكن الأمر ما كان ليزعجني. امتلاك رِجلين معوجّتين؛ ذاك كان شرط الحياة فيما يخصُّني؛ ذاك كان سببها، وهدفها، ومثلها الأعلى؛ ذاك كان الحياة بالذات. مجرّد أن أكون موجودًا كان أكثر من كافٍ لإرضائي. ألا ينبع شعور المرء بالضّيق، في المقام الأول، من عدم الارتياح حيال وجوده، وبالضبط من نوع من عدم الرضا المترف كلّما خطر له أنه لا يحيا ملء حياته؟

«بدأتُ ألحظ أرملة كهلة في قريتنا كانت تعيش وحدها. قيل إنها بلغت الستين، أو بحسب بعضهم، كانت أسنَّ حتى. عندما

حانت شعائر ذكرى وفاة أبيها، كلُفتُ تلاوة السوترا في بيتها نيابةً عن أبي. لم يكن أحدٌ من أقاربها قد جاء لحضور الشعائر، فكنت والكهلة وحدنا عند المذبح. صبَّتْ لي بعض الشاي في غرفة أخرى حين انتهيت من السوترا. وسألتها إن كان يجوز لي الاغتسال لأننا كنَّا في يوم صيفي حار. خلعتُ ثيابي، وأخذت الكهلة تصبُّ الماء البارد على ظهري. لحظتُ نظرتها المتعاطفة إلى رِجليَّ، وخطرت في بالي خطة في الحال.

«انتهيت من الاغتسال وعدت إلى الغرفة حيث كنَّا جالسَين من قبل. قلت لها بنبرة كلها جد، وأنا أجفف جسمي، إنني حين ولدتُ ظهر البوذا لأمّي في المنام، وأعلن أنه إذا قُدّر لهذا الطفل أن يكبر ويغدو رجلًا، فإن المرأة التي تتعبَّد لرِجليه سوف تُبعَثُ في الجنَّة. طفقت الكهلة التقية وأنا أتكلَّم، تحدّق إلى عينيَّ بإمعان وهي تتحسَّس سبحتها. استلقيت عاريًا على ظهري كالجثة. كانت يداي مضمومتين على صدري، وممسكتين بسبحة، وأنا أهمهم ملفقًا آياتٍ من السوترا. وأغمضت عينيَّ بينما استمرت شفتاي في تلاوة السوترا.

«لك أن تتخيَّل كيف كتمت ضحكتي! كنت مفعمًا بالضحك. ولم أكن أحلم بنفسي بتاتًا. كنت واعيًا بأن الكهلة كانت منهمكة في التعبُّد لرِجليَّ وهي تتلو آياتها بأشد ما أوتيتْ من حرارة. كان ذهني بأسره مشغولًا برِجليَّ، وكنت أختنق من فرط اللهو بهذا الوضع المضحك. رجلان معوجّتان، رجلان معوجّتان! هذا كلُّ ما استطعت

أن أفكر فيه؛ هذا كلُّ ما استطعت أن أراه في ذهني. هذا التكوين البشع لِرجليَّ. هذه الحال القصوى من القبح التي وُجِدْتُ فيها. ويا لها من مهزلة مجنونة! وما جعل الأمر أظرف، أن خُصَل شعر الكهلة المتناثرة كانت تلامس أخمص رِجليَّ وهي تسجد في صلاتها المرة تلو المرة، وتدغدغني.

«لاح لي أني كنت مخطئًا بخصوص شعوري بالشهوة منذ الوقت الذي لمستُ فيه قدمَي تلك الفتاة الجميلتين وصرت عاجزًا؛ إذ إني أدركت، وسط هذه الشعائر القبيحة، أنني كنت مستثارًا جسديًّا. أجل، من غير أن أحلم بنفسي بتاتًا! أجل، تحت أقسى الظروف قاطبة!

«استقمت جالسًا ودفعت الكهلة بغتة إلى الوراء. لم يتسنَّ لي الوقت حتى للاستغراب من أنها لم تُبْدِ أيَّ مفاجأة من تصرُّفي. كانت الأرملة الكهلة ممدَّدة هناك حيث دفعتُها، وعيناها مغمضتان بإحكام، وهي لا تزال تتلو آيات السوترا. وأغرب ما في الأمر أن السوترا التي كانت تتلوها، كما أتذكر بوضوح، هي جزء من دارَني الرحمة العظمى(*): «إيكي إيكي. شينو شينو. أوراسَن. فوراشآري. هآزآ هآزآن. فوراشآيآ». أنت تعرف، بالطبع، كيف يفسَّر هذا المقطع في الشرح: «نضرع إليك، نضرع إليك، بحقّ الجوهر النقي الذي

(*) باليابانية، دايهيشن داراني: نصٌّ من نصوص بوذية الشمال، عبارة عن ابتهال مرفوع إلى بوذِسَتْفا (باليابانية: بوساتسو) الرحمة كانزوكون؛ وباعتبار أن هذه الصورة الإلهية مؤنثة فقد ارتبطت بالولادة والأمومة. (المترجم)

لا يشوب طهارتَه عيبٌ والذي يُبيد شرور الجشع والغضب والغباء الثلاثة جميعًا».

«بدا أمام عينيَّ وجه امرأة كهلة في الستينات من عمرها، وجهٌ لوَّحتْه الشمس بلا تبرُّج، كأنه يرحّب بي. لم تخف إثارتي بتاتًا. وههنا مكمن العبثية القصوى للمهزلة برمَّتها، لكنني كنت مستدرَجًا إليها تمامًا عن غير وعي مني؛ أو بالأصح، لم أكن فاقد الوعي. كنت أرى كلَّ شيء. إن خاصية الجحيم الواسمة هي رؤية كلّ شيء بوضوح وصولًا حتى آخر التفاصيل، ورؤية ذلك كلّه في ظلام دامس!

«كان وجه الكهلة المتغضن خاليًا من أيّ سمة من سمات الجمال؛ من أيّ سمة قدسية. ومع ذلك، بدا كأن قبحها وعمرها يوفران تأكيدًا ثابتًا على حالتي الداخلية تلك التي تخلو من الأحلام. وما أدراك أنه إذا كان للمرء أن ينظر من دون حلم إلى أيّ امرأة، مهما كان نصيبُها من الجمال، فلن يتحول وجهُها إلى وجه هذه الكهلة؟ رِجلاي المعوجّتان وهذا الوجه. نعم، هذا لبُّ الموضوع. كان النظر إلى الواقع ذاته، يحافظ على حالة إثارتي الجسدية. استطعت للمرة الأولى آنذاك أن أعتنق شهوتي بشعور من الود. وأدركت أن المشكلة لا تكمن في محاولة اختصار المسافة بيني وبين الغرض، وإنما في الحفاظ على هذه المسافة، كي يتسنى للغرض أن يبقى غرضًا.

«حَسَنٌ أن ينظر المرء إلى غرضه. اكتشفت في تلك اللحظة منطقَ إثارتي الجنسية اعتبارًا من منطق الكسيح، الذي يفيد بأنه بينما يكون في حالة جمود يكون أيضًا قد وصل، من منطق أنه لا يمكن

للشعور بالضّيق أن يأتيه أبدًا. اكتشفت هول الادّعاء في ما يدعوه الناس عادةً بالافتتان. كانت الرغبة الجسدية مثل الريح أو مثل نوع من العباءة السحرية التي تخفي لابِسَها. والاتحاد وليد هذه الرغبة لم يكن أكثر من مجرَّد حلم. يجب أن أُخضِعَ نفسي، في الوقت نفسه الذي أنظر فيه، لأن يُنظَرَ إليَّ بتفاصيلي كلّها. طردتُ، من فوري من عالمي، في آنٍ معًا، رِجليَّ المعوجّتين ونسائي. بقيتْ رِجلاي المعوجّتان ونسائي جميعًا على مسافة واحدة مني. الواقع موجود؛ أما الرغبة فمجرَّد طيف. وشعرت بنفسي أتعثر إلى ما لا نهاية بهذا الطيف، بينما كنت أنظر وأُلفَظُ في الوقت نفسه على سطح الواقع الذي كنت أنظر إليه. رِجلاي المعوجّتان ونسائي لن يلامس بعضُها بعضًا أبدًا، ولن يجتمع بعضُها مع بعض قطٌّ. إلا أنها سوف يُلقى بها معًا خارج العالم. تصاعدت الرغبة فيَّ إلى ما لا نهاية، لأن رِجليَّ المعوجّتين وهاتيك الأقدام الجميلة لن تتلامس إلى أبد الآبدين.

«هل تجد صعوبة في فهم ما عشته وما أعنيه؟ هل يتطلَّب كلامي بعض الشرح؟ غير أني واثق بأنك فهمت أنني بعد أن تمكنت من أن أؤمن بكلِّ راحة بال بأن الحب مستحيل، أصبحتُ طليقًا من الضّيق. خرجتُ طليقًا من الحب. كان العالم قد بلغ حالة من الجمود الدائم، وفي الوقت نفسه قد وصل. هل أنا مضطر إلى توضيح هذا بقوليَ عالمنا؟ بذا، يمكنني بجملة واحدة تعريف الوهم العظيم المتعلّق بالحب في هذا العالم. إنه الجهد المبذول للجمع بين الواقع وبين الطيف. توصَّلتُ في الوقت الحاضر إلى أن قناعتي، اليقين بأني

لا يمكن أن أكون محبوبًا أبدًا، هي في حدّ ذاتها الحالة الأساسية للوجود البشري. وها أنت الآن تعرف كيف فقدت عذريَّتي!»

أنهى كاشيواغي حديثه. أصغيت إليه بإمعان. تنفست الصعداء آنذاك، أخيرًا. لقد تأثرت عميقًا بحديثه، ولم أستطع التخلُّص من الإحساس الموجع بأن ضربًا من التفكير لم يخطر لي في بال أبدًا حتى ذلك الحين، قد مسَّني في الصميم. استيقظتْ شمس الربيع حولي بعد أن انتهى كاشيواغي ببضع لحظات، وأخذ البرسيم الزاهي يتلألأ. انطلق أيضًا من جديد صوت صياح من ملعب كرة السلَّة في الجزء الخلفي من البناء. ولكن، على الرغْم من أننا كنَّا لا نزال في وقت الظهيرة من نفس النهار الربيعي، فإن معاني هذه الأشياء كلّها بدا كأنها قد تغيَّرت كليًّا.

لم أستطع أن أبقى ساكتًا. أردت أن أثنّي على ما قال؛ أن أزيد على كلماته. نطقت متأنِّيًا ملاحظة خرقاء: «لا بدَّ من أنك شعرت بوحدة شديدة منذ ذلك الحين».

تظاهر كاشيواغي مرة أخرى، بغير لطف، بأنه لم يفهمني، وطلب مني تكرار ما قلته. لكنه أبدى في ردّه هذه المرة علامةً طفيفةً ما من الود.

«وحدة، تقول؟ ولِمَ أشعر بالوحدة؟ لا بدَّ من أن تتبيَّن كيف تطورتُ بعد ذلك عندما تعرفني أكثر».

قُرِعَ الجرسُ يدعونا إلى محاضرات العصر. كنت على وشك النهوض عندما شدَّني من كمّي بخشونة كاشيواغي الذي كان لا

يزال جالسًا على العشب. كانت بزّتي الجامعية هي عينها البزّة التي استعملتُها في مدرسة الزّن. وحدها الأزرار كانت جديدة. أما القماش فكان مرقعًا ورثًا. وكانت فوق ذلك، ضيقة للغاية عليَّ، فجعلتْ جسمي النحيل يبدو أصغر حتى مما هو عليه في الواقع.

«الحصة التالية هي اليابانية - الصينية، أليس كذلك؟ هذا مملَ إلى حدّ لا يطاق. دعنا نذهب في نزهة بدلًا من ذلك». وقف منتصبًا عند نُطقه بهذه الكلمات. كان الأمر يستلزم جهدًا فظيعًا: بدا أولًا كأنه يفكّك أعضاء جسمه بالكامل، ثم يقوم بتجميعها من جديد. ذكّرني الأمرُ بالجَمل الذي شاهدتُه ذات مرة في فيلم وهو ينهض.

لم أكن قد فوتُّ محاضرةً واحدة حتى ذلك الحين، لكنني لم أشأ أن أضيّع هذه الفرصة في سماع المزيد عن كاشيواغي. انطلقنا صوب البوابة الرئيسية.

انتبهت فجأة، بعد أن اجتزنا البوابة الرئيسية، إلى طريقة كاشيواغي في المشي العجيبة حقًّا، واستبدَّ بي شعور أقرب إلى الارتباك. كان من الغريب أن أذعن هكذا لمشاعر العالم المبتذلة، وأن أخجل من المشي مع كاشيواغي.

كاشيواغي هو الذي دلّني بوضوح على مكامن خجلي. وكان هو، في الوقت نفسه، الذي حثّني على اقتحام معمعة الحياة البشرية. الجانب الخجول من طبيعتي بأكمله، وكلّ اللؤم في قلبي، شُفيا بكلماته، وتحوّلا إلى شيء جديد نَضِر. وربما تراءى لي بسبب ذلك، وأنا أسير على درب الحصى متخطيًا البوابة الرئيسية، جبلُ

هايي الذي كان بعيدًا أمامي، ضبابيًا في شمس الربيع، كما لو أنني أراه للمرة الأولى. كما بدا أيضًا كأنه ظهر أمامي من جديد بعد تجديد معناه بالطريقة ذاتها التي جدَّدتْ بها معانيها الآن أشياءُ كثيرةٌ تخصُّني كانت هاجعة فيَّ. كانت ذروة الجبل مستدقَّة، لكن التلال السفحية حول قاعدته راحت تنبسط إلى ما لا نهاية، تمامًا مثل جملة موسيقية تتلكأ في الجو. وحدها الطيّات في جوانب جبل هايي كانت تبرز واضحةً وتبدو قريبةً جدًا؛ وأنا أحدّق إليه في ما وراء صفوف السقوف المنخفضة. أما الظلال الربيعية لبقية الجبال العظيمة، فكانت غارقة في زرقة كثيفة داكنة.

لم يكن ثمة كثيرون من الناس يسيرون خارج البوابة الرئيسية لجامعة أوتاني، والشارع يكاد يخلو من السيارات. كان في وسع المرء فحسب بين الفينة والفينة أن يسمع صوت قرقعة الترامواي على طول الخط الممتد من أمام محطة كيوتو إلى أمام هنغار الترامواي. وعلى الجانب الآخر من الشارع، كان عمودا البوابة القديمة للجامعة قائمين أمام البوابة الرئيسية الحالية على جانبنا، ويمتد إلى اليسار صفٌّ من أشجار الجنكة(*) ذات الأوراق الربيعية النضرة.

(*) شجرة معروفة أيضًا باسم «شجرة شعر البِكْر». هي النوع الحي الوحيد المتبقي من جنسها. وُجِدَتْ في أحافير يعود تاريخها إلى ٢٧٠ مليون سنة. موطنها الأصلي الصين، وتُزرَعُ على نطاق واسع منذ وقت مبكر من تاريخ البشرية؛ إذ إن لها استعمالات متعددة في الطب التقليدي، وهي مصدر غذائي. اسم «الجنكة» خطأ إملائي في كتابة اسم جِنْ كيو الياباني، الذي يعني «المشمش الفضي»؛ اسمها العلمي Ginkgo biloba. (المترجم)

«دعنا نتجول حول الحَرَم بعض الوقت!» قال كاشيواغي.

تقدَّمتُ المسير فوق مسارات الترامواي إلى الجانب الآخر من الشارع. أخذ كاشيواغي يترنح بشدة عبر الشارع شبه المقفر، وجسمُه برمَّته يتشنج مع الحركة العنيفة. كان الحَرَم الجامعي واسعًا جدًّا. وكان يتقاذف الكراتِ، على مبعدة، رهطٌ من الطلاب الذين لم تكن لديهم محاضرات يحضرونها، أو قرروا أن يتغيَّبوا عنها. وأقرب إلينا، كان بضعة صبيان يتمرَّنون على العَدْو استعدادًا لسباق ماراثون. كانت الحرب قد وضعت أوزارها قبلئذٍ بحوالى سنتين فقط، لكن الشباب كانوا يفكرون من جديد في وسائل لاستهلاك طاقتهم. فكرت في الطعام الزهيد الذي يُقدَّم إلينا في المعبد. جلسنا على أرجوحة نصف متآكلة، ونظرنا شاردين إلى زملائنا الطلاب وهم يَعْدُون نحونا، ثم طفقوا يَعْدُون مبتعدين عبر الميدان البيضاوي وهم يتمرَّنون على ماراثونهم. كان إحساس المرء بالتغيُّب هكذا عن الصف شبيهًا بالإحساس بقميص جديد على جلده. ضوء الشمس المحيط والنسيم الخفيف هما اللذان ولَّدا فيَّ هذا الانطباع. تحركتْ صوبنا ببطء مجموعةٌ من العدَّائين وهم يتنفسون بشدة، وتثاقلتْ خطواتُهم عندما نال منهم التعب، ثم راحوا يبتعدون وهم يثيرون بأرجلهم سحابةً من الغبار.

«حمقى!» قال كاشيواغي. «هذا ما هم عليه!» لم تَشِ كلماتُه بأدنى أثر للحسد. «بحقّ الجحيم، لأيّ غرض يقيمون هذه الفرجة؟ يقولون إن الأمر مفيد لصحتهم، على ما أحسب. ولكن أي نفع ممكن

قد يجنيه المرء من استعراض علني لصحته كهذا؟ إنهم يقيمون الاحتفالات الرياضية في كلّ مكان، أليس كذلك؟ إنها حقًّا علامة على بلوغنا أيام الفسق الأخيرة. ما يجب استعراضه، على مرأى من الناس، هو أمر لا يُعرَض أبدًا. ما يجب أن يراه الجمهور حقًّا هو - تنفيذ أحكام الإعدام! لماذا لا يقيمون عمليات إعدام علنية؟»

توقف كاشيواغي لحظة، ثم واصل كلامه في نغمة حالمة: «كيف تظن أنهم أفلحوا في حفظ السلام والنظام في إبّان الحرب إنْ لم يكن بواسطة ترتيب عروض علنية للموت العنيف؟ إن السبب الذي جعلهم يكفّون عن تنفيذ عمليات الإعدام علنًا، على ما أحسب، هو أنهم خشوا أنها قد تجعل الناس متعطشين إلى الدم. منتهى الغباء اللعين، إذا سألتني رأيي! الأشخاص الذين أزالوا جثث القتلى بعد الغارات الجوية كانوا جميعًا ذوي ملامح لطيفة، جذلة. إن رؤية بشر يعانون، رؤيتهم مضرَّجين بدمائهم وسماع أنين احتضارهم، تجعل الناس متواضعين. إنها تجعل أرواحهم مرهفة، مشرقة، مسالمة. ليس أبدًا في أوقات كهذه نصير قساة القلوب أو متعطشين إلى الدم. لا، ينقلب الناس فجأة قساة في عصر ربيعي جميل كهذا؛ ألا تظن أنه في لحظة كهذه، بينما يشاهد المرء الشمس شاردًا وهي تتلصَّص عبر أوراق الشجر فوق مرج مجزوز العشب بإتقان، يتجسد في الوجود كلّ كابوس ممكن في العالم؛ كلّ كابوس محتمَل في التاريخ لكن بينما يجلس المرء هناك في وضح النهار فإن فكرة هيئات ملطخة بالدماء يغمى عليها تحت وطأة العذاب هي التي ترسم معالم الكابوس

واضحةً وتساعد على تجسيد الحلم في الواقع. فالكابوس لا يعود عذابنا نحن، بل المعاناة البدنية العنيفة لأشخاص سوانا. ونحن لسنا مجبَرين على الشعور بأوجاع الآخرين. آه، ويا لها من راحة!»

كان لعقيدة كاشيواغي الدموية هذه سحرها بنظري، بلا ريب، لكن ما أردت أن أسمع عنه الآن هو رحلة الحج التي قام بها بعد فقد عذريَّته. إذ إني، كما سبق أن ذكرت، كنت أتطلَّع إلى كاشيواغي بجدية التماسًا للحياة. أفلحتُ في مقاطعته وفي التلميح إلى اهتمامي.

«تقصد النساء؟» قال. «ممم... لقد بلغت درجة أستطيع فيها، في هذه الأيام، أن أحدس بدقة إن كانت امرأة ما من النمط الذي يُعجَبُ برجل ذي رجلين معوجّتين، أم لم تكن. ولعلمك، ثمة أنماط من هذا القبيل! ومن المحتمل لمثل هذه المرأة أن تكتم ولعها بالرجال ذوي الأرجل المعوجّة طوال عمرها. وقد لا تتردَّد حتى في حمل سرّها معها إلى قبرها. قد يكون هذا هو العيب الوحيد في الذوق الذي يتصف به هذا الجنس من النساء، قد يكون هذا هو حلمهنَّ الوحيد. حسنًا، فلنرَ... مِمَّ يمكنك أن تعرف نمط المرأة المولعة بالرجال ذوي الأرجل المعوجّة؟ إنها، عمومًا، جميلة من الطراز الرفيع. لها أنف أقنى، مستدقُّ الطرف. لكن فمها يشي برخاوة طفيفة...»

أقبلت، عندئذٍ بالضبط، فتاةٌ تمشي صوبنا.



الفصل الخامس

لم تكن تمشي في الحَرَم الجامعي. فثمة طريق خارجه تمر بمحاذاة مجموعة من البيوت السكنية. كانت الطريق أكثر انخفاضًا من مستوى الحَرَم بنحو قدمين. هنا، كانت تمشي.

كانت الفتاة قد خرجت من بيت فخم، إسباني الطراز، يخلّف لدى الناظر إليه انطباعًا بالهشاشة، بمدختنيه، ونوافذه المائلة المزودة بشعريات، وسقفه الزجاجي الذي يغطي دفيئة زراعية كبيرة. لكن التصميم الإجمالي كان مشوبًا، نوعًا ما، بسياج السلك العالي المرفوع بمحاذاة الحَرَم الجامعي على الجانب الآخر من الطريق، والذي أقيم هناك بلا ريب بناءً على إلحاحٍ من مالك البيت.

كنتُ وكاشيواغي جالسَين على الأرجوحة خارج السياج. نظرت إلى وجه الفتاة فأصابتني دهشة عارمة. كانت ملامحها النبيلة مطابقة تمامًا للملامح التي وصفها كاشيواغي في حديثه عن نمط النساء

«المولع بالرجال ذوي الأرجل المعوجّة». شعرت بشيءٍ من الحمق عندما عدت بالذاكرة لاحقًا إلى المفاجأة التي اعترتني في تلك اللحظة، متسائلًا عمّا إذا لم يكن كاشيواغي قد أَنِسَ ذلك الوجه منذ أمد طويل، وعمّا إذا لم يكن قد حلم به.

جلسنا هناك في انتظار الفتاة. تعالت، تحت وهج أشعة شمس الربيع، ذروةُ جبل هايي الزرقاء الداكنة على مدى البصر، بينما، أقرب إلينا، كانت الفتاة مقبلة تدريجيًا صوبنا. لم أكن قد تعافيت بعدُ من حسّ الإثارة الذي اعتراني من ملاحظات كاشيواغي الأخيرة؛ ملاحظته بأن رِجليه المعوجّتين ونساءه كانت منثورة كالنقاط حول عالم الواقع، كنجمتين في السماء، من دون أن تتلامسا يومًا، وكلماته الغريبة بشأن قدرته على قضاء رغبته بينما يبقى هو نفسه مدفونًا باستمرار في عالم من الأطياف. تغطّت الشمس بسحابة عندئذٍ بالضبط: كنت وكاشيواغي مغلّفين بظلّ رقيق، وبدا كأن عالمنا قد عرض فجأة ذلك الجانب من ذاته المكوَّن من أطياف. كان كلٌّ شيء مبهمًا ورماديًا. ووجودي، أنا الآخر، بدا مبهمًا. بدا كما لو أن قمة جبل هايي الأرجوانية وتلك الفتاة الرشيقة الماشية صوبنا، كانتا وحدهما مشرقتين في عالم الواقع، وتتصفان بوجود حقيقي ما.

كانت الفتاة بالتأكيد تمشي نحونا. لكن، بمرور اللحظات، أمسى الزمن مثل عذاب مُتَنام، وكلّما ازداد اقترابها منّا توضّحت أكثر ملامح وجهٍ آخر؛ وجهِ شخصٍ لا يمتُّ إليها بأيّ صلة.

انتصب كاشيواغي واقفًا وهمس في أذني: «ابدأْ بالمشي! افعلْ ما أقول لك بحذافيره».

كنت مجبرًا على المشي كما أمرني. سار كلانا بمحاذاة الجدار الحجري، فوق مستوى الطريق بنحو قدمين، وبالتوازي مع خطّ سير الفتاة وفي الاتجاه ذاته.

«اقفزِ الآن إلى الأسفل هناك!» قال كاشيواغي، وهو يهمزني في ظهري بأصابعه المدبَّبة. خطوتُ من فوق الجدار الحجري الواطئ، وقفزتُ على الطريق. لم ألقَ صعوبة البتة في أداء قفزة القدمين. لكني ما إن قفزت حتى انهار كاشيواغي في جواري مُحدِثًا ضوضاء رهيبة. سقط فعلًا سقطة مروّعة عندما حاول أن يقفز على رِجليه المعوجّتين. خفضت بصري، فرأيت ظهر بزّته الأسود يتلوّى على الأرض. لم يكن يشبه إنسانًا حين كان مستلقيًا هناك على وجهه؛ بدا لي، للحظة، كأنه لطخة سوداء ضخمة عديمة المعنى، مثل واحدة من المستنقعات العَكِرَة التي يبصرها المرء في الطريق بعد المطر.

وقع كاشيواغي أرضًا مباشرة أمام المكان الذي كانت الفتاة تسير فيه. وقفتْ هناك مسمَّرةً في مكانها. رفعتُ بصري نحوها، عندما ركعتُ لأعاونه على الوقوف على رِجليه. وحين رأيت أنفَها الأقنى، المستدقَّ الطرف، وفمَها والرخاوةَ الطفيفة التي توحي بها شفتاها، وعينيها الغائمتين؛ حين رأيت جميع ملامحها، ظهرت أمامي، في لمحة خاطفة، الهيئةُ التي أبصرتها من قبلُ تحت ضوء القمر؛ هيئة أويكو.

تلاشى الوهم على الفور، فكنت الآن أرى بنتًا لم تتخطَّ في الغالب العشرين من عمرها بعدُ، وهي تنظر إلى وجهي من علٍ نظرةَ ازدراء. حدستُ أنها كانت على وشك أن تتخطانا. كان كاشيواغي أرهف حساسيةً منّي استشعارًا لهذا الأمور. وطفق يصرخ، فتردَّد صراخُه الرهيب عبر الشارع السَّكَني المقفر.

«أنت، أيتها المخلوقة القاسية القلب! هل ستتركينني هنا في هذه الحال؟ أنا في هذه الحالة بسببك أنت!»

التفتت الفتاة. كانت ترتجف. وبدت، بأصابعها الممشوقة، الجافة، كأنها تفرك وجنتيها الشاحبتين. التفتت إليَّ، بعد مدة، وقالت: «ماذا عليَّ أن أفعل؟»

رفع كاشيواغي بصره وحملق فيها بإمعان. ثم نطق، مشدّدًا على كلِّ كلمة تشديدًا ملحوظًا:

«هل تقصدين أن تقولي إنه لا يوجد لديكم أيُّ دواء في منزلكم؟»

ظلت الفتاة للحظة واقفة هناك بصمت، ثم استدارت وبدأت تمشي في الاتجاه الذي أتت منه. ساعدتُ كاشيواغي على الوقوف، إلى أن انتصب على رِجليه، كان ثقيلًا للغاية، لاهثَ الأنفاس في شهقات موجعة. لكني لما عرضت عليه كتفي عندما أخذنا نمشي، رأيت أنه يتحرك إلى الأمام بسهولة فائقة.

ركضتُ إلى موقف التراموای أمام هنغار كاراسوما وقفزت داخل

عربة. لم أستطع التنفس بحرية حتى انطلقتْ عربة الترامواي في اتجاه المعبد الذهبي. كانت يداي تنضحان عرقًا.

انتابني رعبٌ شديد، حالما ساعدتُ كاشيواغي على عبور بوابة ذلك المنزل الإسباني الطراز. كنت قد تركته واقفًا هناك والفتاة أمامه، وهربت من دون حتى أن أنظر إلى الخلف. لم يتسنَّ لي الوقت للتوقف عند الجامعة، بل اندفعت سائرًا في الشوارع المقفرة، بمحاذاة صيدليات، ومحالّ سكاكر، ومتاجر كهربائيات. أتذكر أني رأيت من زاوية عيني شيئًا أرجوانيًا وقرمزيًا يرفرف في النسيم. فلعلّي، حين مررت من أمام كنيسة كوتوكو لطائفة التِنْريكيو(*)، لحظت الفوانيس وعليها شارة زهرة الخوخ بارزةً على خلفية الجدار الأسود، وربما رأيت الستائر الأرجوانية المعلّقة فوق البوابة وعليها شارة زهرة الخوخ إيّاها. لم يكن لديَّ أدنى فكرة توضح لي إلى أين كنت مندفعًا. وأدركت أن قلبي المضطرب، الحائر، كان يعيدني إلى المعبد الذهبي، عندما اقتربت عربة الترامواي تدريجيًا من موراساكينو.

كنّا الآن في عزّ الموسم السياحي. وعلى الرغم من أن اليوم

(*) كنيسة يابانية جديدة، مذهبها ليس توحيديًا صرفًا، ولا هو حلولي، يستند إلى تعاليم امرأة من القرن التاسع عشر تدعى ناكاياما ميكي، ومعروفة عند أتباعها باسم أوياساما. ويعتقد أتباع التِنْريكيو أن «اللّه الأصل» أو «اللّه الحق» الذي له أسماء عدة، منها «تسوكيهي» و«أوياغاميسايا» («اللّه الوالد»)، أوحى بقصده الإلهي بواسطة ناكاياما ميكي بصفتها محلًا للتجلّي الإلهي. وهدف التِنْريكيو الدنيوي هو تعليم مفهوم «فرح الحياة» الذي يتحقق عن طريق الأعمال الخيرية والتركيز الذهني. (المترجم)

وقع في بحر الأسبوع، فإن ثمة حشودًا هائلة تزور المعبد الذهبي. حدجني الدليل العجوز بنظرة مرتابة وأنا أشقُّ طريقي بين الناس وأهرع إلى المعبد.

وها قد وجدتُني هناك. واقفًا أمام المعبد الذهبي الذي كانت تحيط به عصر هذا الربيع دوَّاماتُ الغبار والحشود الشنيعة. وظل المعبد يبدو كأنه يخفي نصف جماله ويتصنَّع جهلًا معيَّنًا بينما كان صوت الدليل يدوّي مبتعدًا. وحدها الظلال على البركة كانت لامعة. لكن لو نظر إليها المرء من زاوية معيَّنة، لَبَدَتْ سحبُ الغبار كالغيوم الذهبية التي تغلّف البوذِسَتْفا في لوحة نزول القديسين تلك التي يظهر فيها البوذا أميدا(*) نازلًا إلى الأرض ومحاطًا بجميع البوذِسَتْفا؛ وكان شكل المعبد الذهبي، بالطريقة ذاتها، وهو قائم هناك، أغبش وسط الغبار، مثل صباغ قديم باهت ورسم مهترئ. لم يكن من المستغرب بتاتًا أن يتخلَّل الضجيج والبلبلة المحيطَين شكلُ أعمدة المعبد الهيفاء، وأن تمتصهما السماء الضاربة إلى البياض التي يتطاول صوبها الكوكيوتشو الصغير وطائر الفينيق على قمة السقف وهما يحلّقان في الجو، فيصيران تدريجيًّا أرقّ. كان هذا المعبد، بمجرَّد وقوفه هناك في هيئته الجليلة، قوةً مسيطرة؛ قوةً ضابطة. فكلَّما تزايد الضجيج

(*) أميتابها، المعروف أيضا باسم «أميدا» و«أميتايو»، هو بوذا سماويّ بحسب نصوص بوذية الشمال. وأميدا هو البوذا الرئيسي في بوذية «الأرض الطاهرة»، وهو فرع من البوذية منتشر في اليابان. يتصف أميتابها بمزايا لانهائية أثمرتْ عنها أعمالُه الصالحة على مدى عدد لا يحصى من الأعمار في الماضي بصفته البوذِسَتْفا دهرماكارا. يعني أميتابها «النور اللانهائي»، ويعني أميتايو «الحياة اللانهائية». ولهذا يلقَّب أميدا بـ«بوذا النور والحياة اللّامحدودين». (المترجم)

المحيط أدّى المعبدُ الذهبي، ذلك المبنى الأهيف اللّامتناظر، مع السوسي على أحد الجانبين، وفوقه الكوكيوتشو الذي يستدقّ بغتة في الأعلى، دورَ مصفاةٍ تحوّل الماء الموحل إلى ماء صاف. لم يلفظ المعبد ثرثرة المتفرجين المرحة، بل قام بدلًا من ذلك بتصفية تلك الأصوات، بحيث تتسلّل بين تلك الأعمدة التي تسمح بالنفاذ لتصير في النهاية جزءًا من السكون والصفاء. وبذلك، كان ينجز على الأرض بالضبط ما تنجزه ظلالُ البركة الساكنة على الماء.

أصبح قلبي هادئًا وتبدّد خوفي أخيرًا. يجب أن يكون الجمال، في نظري، شيئًا من هذا القبيل. جمال كهذا كان من شأنه أن يفصلني عن الحياة، وأن يحميني منها.

بينما كنت أقف أمام المعبد، كدت أتلو صلاة من نوع: «يا رب احمني، إذا كانت حياتي ستكون مثل حياة كاشيواغي. لأني لا أظن أن بإمكاني تحملها».

ما لـمَّح به كاشيواغي في حديثه إليَّ، وما فعله مباشرة أمامي، لا معنى لهما إلا أن الحياة والتدمير هما الأمر الواحد ذاته. حياة كهذه تفتقر إلى كلّ ما هو طبيعي، كما أنها تفتقر إلى جمالِ بناءٍ مثل المعبد الذهبي؛ فهي فعلًا لم تكن أكثر بكثير من نوع من التشنُّج الموجع. صحيح أني كنت شديد الانجذاب إلى حياة كهذه، وأني تعرفت فيها إلى منحاي الخاص، ومع ذلك، كان من المرعب أن يعتقد المرء أن أول ما يجب عليه فعله هو أن يُدمي يديه بشظايا الحياة الشائكة. كان كاشيواغي يحتقر الغريزة والفكر، على حدّ سواء. كانت حياته، مَثَلُها

كمثل كرة ما عجيبة الشكل، تتدحرج وتتدحرج محاولةً تحطيم جدار الواقع. لم تكن حتى تستوجب عملًا واحدًا. كانت الحياة التي لـمَّح بها لي، باختصار، محاكاة خطرة يحاول فيها المرء، بوساطة قناع مجهول، أن يحطم الواقع الذي انخدع به، فينظف به العالم، بحيث لا يحوي أبدًا من جديد أيَّ شيء مجهول.

أعرف هذا كلَّه من بعد أن رأيت لاحقًا إعلانًا ملصقًا في غرفة كاشيواغي، في دار السَّكَن التي استأجر فيها. كان عبارة عن مطبوعة حجرية جميلة من إصدار وكالة سفر تظهر عليها جبالُ الألب اليابانية. وعلى القمم الجبلية البيضاء المحلَّقة في السماء الزرقاء، طُبِعَت الكلماتُ التالية: «نحن ندعوك إلى عالم مجهول!» كان كاشيواغي قد شطب هذه الرسالة بضرباتِ فرشاةٍ بحبرٍ أحمرَ مسموم، وبخطّه الفارق المميَّز المتراقص الذي يذكّر المرء بمشيته المعوجّة، خَربَش: «لا أطيق حياة مجهولة».

كنت قلقًا بشأن كاشيواغي عندما ذهبت إلى الجامعة في اليوم التالي. باستعادة ما حدث، لم يكن فراري وتركه من الودّ في شيء، ومع أني لم أشعر بأيّ مسؤولية معيَّنة، إلا أني كنت غير مرتاح إلى احتمال عدم قدومه إلى قاعة المحاضرات ذلك الصباح. لكن عندما كانت المحاضرة على وشك أن تبدأ، رأيت كاشيواغي يتبختر داخلًا في الغرفة بمشيته الشاذة المعتادة.

أخذتُ كاشيواغي من ذراعه على الفور في أثناء الفرصة بعد

المحاضرة. كانت هذه اللفتة المرحة، في حدّ ذاتها، غير معتادة مني. فابتسم من زاوية فمه، ورافقني إلى الرواق.

«عساك لم تتأذّ كثيرًا؟» قلت.

«أتأذّى؟» قال كاشيواغي وهو يحدجني بنظرة إشفاق. «متى حدث أني تأذّيت؟ إيه؟ بحقّ الجحيم، ما الذي أدخل في رأسك أني تأذّيت؟»

اعتراني ذهول من كلماته. وباح لي بسرّه، بعد أن شوّقني كثيرًا: «كان الأمر كلُّه تمثيلًا. لقد تمرّستُ على السقوط على هذا الطريق عشرات المرات، حتى إني أستطيع الآن أن أقدّم أداءً للسقوط، على نحو سقطة مؤذية مقنعة، إلى حدّ أن أيَّ مُشاهِد سيظن أن عظمًا لي انكسر. يجب أن أعترف بأني لم أعوّل على الفتاة التي أخذت تمشي بموازاتنا وترتسم نظرة اللّامبالاة التامة على وجهها. لكن ليتك رأيت ما حدث. فالفتاة بدأت بالفعل تقع في حبي، أو بالأصح، ينبغي لي أن أقول إنها واقعة في حبّ رِجليَّ المعوجّتين. ولعلمك، لقد دهنتْ ساقيَّ باليود بنفسها».

شمّر عن ساق سرواله وأراني قصبة ساقه مطليّة بالأصفر. شعرت بأني لحظتئذٍ استشففت مكيدته. كان طبيعيًا بما يكفي أن يسقط على الطريق، عامدًا متعمّدًا، من أجل لفت نظر الفتاة. ولكن، ألم يحاول أيضًا إخفاء رِجليه المعوجّتين بالتظاهر بأنه تأذّى؟ لكن ريبتي هذه، هيهات أن تجعلني أحتقره، بل أدّت بالعكس إلى زيادة مشاعري بالصداقة، بل اعتراني شعور، شعور مراهق جدًا، بلا

ريب، بأن فلسفته كلّما امتلأتْ بالمكائد أثبتتْ أكثر صدقَه تجاه الحياة.

لم يبارك تسوروكاوا علاقتي بكاشيواغي، وقد أسدى إليَّ بعض النصائح الودِّية للغاية بخصوص هذا الموضوع، لكنها أزعجتني فحسب. وقد ذهبتُ حتى الإجابة عن اعتراضاته بقولي إن إيجاد أصدقاء جيدين أمر متاح تمامًا لشخص مثله، لكن، في حالتي، كان كاشيواغي صاحبًا مناسبًا. بأيّ أسفٍ عنيفٍ كان لي أن أتذكر لاحقًا النظرة الحزينة التي لا توصف، والتي لاحت في عيني تسوروكاوا في تلك اللحظة.

خطَّط كاشيواغي في أيّار لرحلة إلى أراشِياما في ضواحي كيوتو. وقرَّر، من أجل تفادي ازدحام عطلة نهاية الأسبوع، أخذ يوم عطلة من الجامعة في بحر الأسبوع. وكما هو متوقع من شخص مثله، أعلن أنه لن يذهب إذا كان الطقس صحوًا، وأنه سيذهب فقط إذا كان اليوم كئيبًا مكفهرًّا. كان في نيَّته أن يصطحب الشابة من المنزل الإسباني الطراز، وقد تدبَّر أمر اصطحاب بنت من دار سَكَنه من أجلي.

اتفقنا على اللقاء عند محطة كيتانو على خط كيفوكو الكهربائي. ولحسن الحظ جاء النهار غير مألوف في ذلك الوقت من السنة؛ فيه من الغيم والغمّ بقدر ما تمنّى كاشيواغي.

صادف هذه المرة أن تسوروكاوا كان يعاني مشكلة عائلية، وأنه أخذ إجازة لمدة أسبوع للذهاب إلى طوكيو. وقد ناسبَني هذا نوعًا ما كثيرًا. فمع أنه لم يكن قطعًا من صنف الوشاة الذي قد يفضحني

في المعبد، كان من دواعي سروري أني أُعفيتُ من التهرُّب منه بعد القدوم معه إلى الجامعة في الصباح.

حسنًا، ذكرياتي عن تلك الرحلة ذكريات مريرة. كنَّا أربعتنا، الذين انطلقنا إلى أراشِياما، شبابًا، وبدا كما لو أن النهار بأسره تلوَّن بالغمّ والنزق والضيق والعدمية التي تخصُّ الشباب. لا ريب في أن كاشيواغي توقع هذا كلَّه، فاختار عن قصد يومًا كان الطقس فيه بهذه الكآبة. كانت الريح جنوبية غربية. وحين يتوقع المرء بالضبط أنها ستهبُّ بكامل قوتها، يجدها قد خمدت فجأة، لتتبعها هبَّاتٌ قلقة. كانت السماء ملبَّدة بالغيوم، لكن نور الشمس يتسلَّل عبرها بين الفينة والفينة. كان بعض الغيوم مشرقًا بالبياض مثل ثدي امرأة أبيض، في وسع المرء أن يتبيَّنه تحت عدة طبقات من الثياب. ولكن أبعد في المدى، كان البياض يصير مُمَغمَغًا. ومع أنه يظل في وسع المرء تحديد مكان الشمس، إلا أن البياض كان يمتزج بلون السماء الموحَّد الباهت.

لم يكن كاشيواغي يكذب عندما أخبرني عن الرحلة. ظهر في موعده عند شبّاك التذاكر في المحطة يتوسط شابتين. إحداهما كانت، فعلًا، الفتاة التي رأيناها. فتاة جميلة، ذات أنف أقنى، مستدقّ الطرف، وفم رخوّ؛ كانت تحمل زجاجة ماء فوق كتف فستانها المصنوع، كما تبيَّن لي، من قماش مستورد. وكانت، إلى جوارها، الفتاة الممتلئة من دار السَّكن، وبدت أقل شأنًا من حيث الملبس والمظهر معًا. وكان يهبها جاذبية نسائية فقط ذقنها الصغير وشفتاها، اللتان بدتا كما لو كانتا مزرَّرتين.

أخذ بالفعل يتهافت في القطار مزاجُ العطلة الذي كان ينبغي له أن يكون عذبًا لطيفًا. لم أستطع أن أسمع بوضوح جدال كاشيواغي وفتاته، لكنهما كانا يتشاجران طوال الوقت. وكانت بين الفينة والأخرى تعضُّ على شفتيها كأنما لتكبح دموعها. أما الفتاة الآتية من دار السَّكَن فكانت غير مكترثة بتاتًا لأي شيء وهي تجلس هناك تدندن بعذوبة أحد الألحان الشعبية. ثم التفتت فجأة نحوي وأخبرتني بالقصة التالية: «ثمة امرأة جميلة جدًّا تعيش على مقربة منَّا، وهي تعلِّم تنسيق الزهور. قصَّتْ عليَّ منذ بضعة أيام حكايةً محزنةً حقًّا. كان لها عشيق في أثناء الحرب. كان ضابطًا في الجيش، وحان أخيرًا أوان سفره إلى ما وراء البحار. لم يكن الوقت المتاح لهما ليتسع لغير وداع قصير في معبد نانزِن. لم يقرّ أهلهما بعلاقتهما، لكن هذا لم يباعد بينهما، وحملت الفتاة من صاحبها قبل ذلك بوقت وجيز، لكنها وضعت مولودًا ميتًا. المسكينة! اغتمَّ الضابط للأمر بشدة. وحين رآها يوم الوداع قال إنه إذا لم يقدَّر لهما إنجاب طفلهما، فهو على الأقل يودُّ أن يشرب الحليب من ثديها. لم يكن الوقت يتيح لهما أن يذهبا إلى أيِّ مكان آخر، فقامت من فورها بعصر الحليب من ثديها، وصبَّتْه في كوب شاي وناولتْه له ليشرب. قُتل الرجل في الحرب بعدئذٍ بنحو شهر. وما فتئتْ منذ ذاك الحين تعيش وحدها من دون أن تتخذ عشيقًا واحدًا. إنها حقًّا امرأة فاتنة، ولا تزال في ريعان شبابها».

كدت لا أصدّق أذنيَّ. وثب إلى ذهني في الحال ذلك المشهد

غير المعقول الذي شهدتُه مع تسوروكاوا في أواخر الحرب من أعلى بوابة معبد نانزِن. حرصت على ألا أروي ذكرياتي للفتاة؛ إذ شعرت بأني لو قصصتُها عليها فإن الانفعال الذي اختبرتُه الآن عند سماع حكايتها من شأنه أن يفضح ذلك الشعور بالسرّ الذي استبدَّ بي يومذاك في المعبد. بعدم إخبارها، بدا وكأن قصتها، هيهات أن تحلَّ لغز ذلك السر، بل ستعززه في الواقع وتوغل فيه عمقًا.

كان القطار يمر بالقرب من بستان الخيزران الكبير عند بركة ناروتاكي. وبما أننا كنًّا في شهر أيَّار فإن أوراق سيقان الخيزران كانت آيلة إلى الاصفرار. كانت الريح تُحدِثُ حفيفًا عبر الأغصان، نازعةً عنها الأوراق اليابسة التي تتساقط منها متبعثرةً بكثافة على سطح البستان، غير أن الأجزاء الدنيا من سيقان الخيزران بدت كأنها لا تمتُّ بصلة إلى هذا كلِّه، فتقف منتصبةً هناك بغير اكتراث، غائصةً في ذواتها بهدوء، ومفاصلُها العظيمة متواشجة بإباحية. فقط عندما اندفع القطار عابرًا من أمام سيقان الخيزران القريبة، تظاهرتْ هذه بالانحناء والاهتزاز. وبرزت ساق واحدة فتية لامعة من بين سيقانها جميعًا، وأوحت إليَّ طريقة انحنائها الموجعة بأنها تقوم بحركة إغواء غريبة خلَّابة. التقطتُها بعينيَّ، ثم ما لبثْ أن توارتْ بعيدًا حتى اختفت.

أخذنا نسير صوب جسر توغتسو بعد أن بلغنا أراشِياما، وزرنا قبر السيدة كوغو، الذي لم يكن أحد منَّا قد لحظه يومًا من قبل. كانت هذه السيدة، منذ مئات السنين، قد اختبأت في ساغانو خوفًا من تكبُّد نقمة كِيوموري آل تاييرا، وكان ناكاكوني آل ميناموتو قد شرع

في البحث عنها عملًا بأوامر الإمبراطور، فاكتشف مخبأها من صوت القيثارة الخافت الذي سمعه ذات ليلة خريفية مقمرة. كان اللحن الذي تعزفه هو «خواطرُ عشق لزوج». وفي مسرحية «النو» لكوغو كُتِب: «حين خرج في جنح الليل، مفعَمًا بالشوق إلى نور القمر، جاء إلى هورِن، فإذا به يسمع هنا صوت القيثارة. لم يتبيَّن إن كان صوت العاصفة التي تتكسر على قمم الجبال، أو صوت الريح تصفر بين أشجار الصنوبر. وعندما استفسر عن اللحن الذي تعزفه هذه السيدة، قيل له إنه «خواطرُ عشق لزوج»، فابتهج كثيرًا. فهذا إن دلَّ على شيء، فهو يدلُّ على أن العازفة كانت تفكر في زوجها بحب».

قضت السيدة كوغو الجزء الأخير من حياتها في ساغانو وهي تصلّي بحرارة من أجل نجاة الإمبراطور تاكاكورا في الآخرة(*).

(*) حكاية السيدة كوغو من فصول سيرة آل هيكه، وهي رواية ملحمية جُمِعَتْ قبل سنة ١٣٣٠، ويقال عنها «إلياذة اليابان». تروي الملحمة الصراع الذي احتدم بين عشيرة تايرا (يشير لقب هيكه إلى هذه العشيرة) وعشيرة ميناموتو، للسيطرة على اليابان في نهاية القرن الثاني عشر، في حرب غنبي (١١٨٠-١١٨٥) الضروس. وأسفر الصراع عن هزيمة آل تايرا وتأسيس حكم كاماكورا العسكري بزعامة يوريتومو آل ميناموتو سنة ١١٩٢. واستمدَّ مسرح النو من فصول سيرة آل هيكه ثيماته الأثيرة.
أمّا كلمة نو، فمشتقة من كلمة صينية يابانية تعني «مهارة» أو «موهبة»، وتشير إلى أهم أشكال الدراما الموسيقية اليابانية الكلاسيكية منذ القرن الرابع عشر، حين وضع قواعده كانامي وابنه زيامي. وهو غالبًا ما يقوم على حكايات من السير التراثية يتخذ فيها كائنٌ خارقٌ للطبيعة صورةً بشريةً، ويؤدي دور الراوية في الحكاية. يستعمل النو الأقنعة والأزياء والموسيقى وغيرها، لتقديم عرض راقص بطيء يتطلَّب ممثلين وعازفين على سوية عالية من الدربة والمهارة. ويتم إيصال المشاعر والعواطف في المقام الأول عن طريق إيماءات اصطلاحية منمَّقة، بينما تمثل الأقنعة النمطية الرمزية مختلف الأدوار، كالأشباح والنساء والأطفال والشيوخ. (المترجم)

كان القبر الواقع عند آخر درب ضيق مجرَّدَ عمود حجري مغروس بين شجرة قيقب عملاقة وشجرة خوخ مسنَّة ذاوية. رحت وكاشيواغي نتلو السوترا تذكارًا خاشعًا عن نفس السيدة الراحلة. كان ثمة شيء موغل في الكفر في الأسلوب الاحتفالي الوقور الذي كان كاشيواغي ينطق به الكلمات المقدسة. وأصابني أسلوبه بالعدوى، فطفقت أتلو السوترا بالطريقة الحماسية ذاتها التي يدندن بها الطلاب الألحان عبر أنوفهم. وقد أعانني هذا القليل من التدنيس على التفريج عن معنوياتي إلى درجة فائقة، وجعلني أشعر بحيوية بالغة.

«ثمة هالة من الرثاثة تحيط بقبر نبيل كهذا، أليس كذلك؟» قال كاشيواغي. «يصنع تحالُف النفوذ السياسي وقوة الثروة قبورًا بديعة؛ قبورًا مذهلة حقًا، كما تعلم. لم تعرف هذه المخلوقات الخيال في إبَّان حياتها قط؛ فبطبيعة الحال لا تترك قبورهم أيضًا أيَّ متسع للخيال. أما النبلاء فيحيون فقط على ما تُصوّره لهم مخيّلاتهم عن أنفسهم وعن الآخرين، فيتركون قبورًا كهذا القبر؛ قبورًا تحرّض المخيّلة حتمًا. وهذا أجده أكثر غثاثة حتى. أناس كهؤلاء، لعلمك، مجبَرون حتى بعد موتهم على الاستمرار في استجداء الناس كي يستعملوا قوة مخيّلتهم».

«تعني أن النبل موجود فقط في قوة الخيال؟» قلت مشاركاً بمرح في المحادثة. «كثيرًا ما تتكلّم على الواقع. ما هو في اعتبارك واقع النبل؟»

«إنه هذا!» قال كاشيواغي، وهو يخبط بكفّه على رأس أعلى

العمود المغطّى بالطحالب. «إنه حجر أو عظم؛ البقايا غير العضوية التي يتركها الناس بعد موتهم».

«أنت بوذيّ حتى العظم في آرائك، أليس كذلك؟» سألت.

«ما علاقة الأمر بالبوذية أو أيّ شيء من هذا القبيل؟» قال كاشيواغي. «النبل، الثقافة، ما يعتبره الناس من الجماليّات؛ واقع هذه الأمور كلّها عقيم وغير عضوي. إن ما تراه ليس معبد رِيُوانجي(*)، بل مجرّد كومة من الحجارة. الفلسفة، الفن؛ هذا كلُّه ليس سوى كمٌ كبير من الحجارة. أمّا هَمُّ الناس العضوي الحقيقي الوحيد فهو السياسة. إنه حقًّا لَأمرٌ مُخْزٍ، أليس كذلك؟ يكاد المرء يجزم بأن البشر ليسوا أكثر من مخلوقات تنجّس ذاتها بذاتها».

«وماذا عن الرغبة الجنسية؟ ما موقعها من هذه الرُّؤية؟»

«الرغبة الجنسية؟ أقول إن موقعها في منتصف الطريق، بين بين. إنها عبارة عن دوران متواصل في حلقة مفرغة، من البشر إلى الحجر، ومنه عودًا إلى البشر؛ مثل لعبة غُمّيضة».

أردت أن أضيف في الحال شيئًا لدحض مفهوم الجمال في

(*) («معبد التنين المسالم»): معبد زِن يقع في شمال غرب كيوتو، حديقته واحدة من أمْيَز الأمثلة الباقية من فن كارِه_سنسوي («المناظر الطبيعية الجافة»)، وهو ضرب رفيع من تصميم حدائق الزّن يتميز عمومًا بتكوينات صخرية كبيرة منثورة وسط بساط من الحصى الصغيرة الصقيلة، مخطّط بالشوكة وفق خطوط متوازية ومنحنية تيسّر التأمل. المعبد وحدائقه من المعالم التاريخية في كيوتو القديمة، ووارد في قائمة اليونسكو للتراث العالمي. (المترجم)

أفكاره، لكن الفتاتين كانتا قد ضاقتا ذرعًا بمناقشتنا وشرعتا في العودة من الدرب الضيق، فاستدرنا وتبعناهما. كان نهر هوزو مرئيًّا من الدرب. كنّا ملاصقين للسدّ، إلى الشمال من جسر توغتسو. كانت تلال رنزان، على الضفة الأخرى، مثقلة بالأخضر القاتم، ولكن، عند هذه النقطة بالضبط، امتدَّ عبر النهر خطّ أبيض، مفعم بالحيوية، من الرغوة البيضاء، وكان الجو صاخبًا بهدير الماء.

سرنا بمحاذاة النهر حتى بلغنا متنزَّه كامِياما عند آخر الطريق. كان هناك عدد كبير من القوارب على النهر، لكننا وجدنا أن الشيء الوحيد المتناثر في كلّ مكان هو مهملات الورق، عندما دخلنا بوابة المتنزَّه: كان واضحًا أن عدد الزوار قليل جدًّا يومذاك.

التفتنا عند البوابة ونظرنا مرة أخرى إلى نهر هيزو وأوراق الشجر الخضراء في أراشِياما. كان شلال صغير مرئيًّا على الجانب الآخر من النهر.

«المناظر الجميلة جحيم، أليس كذلك؟» قال كاشيواغي.

شعرت بأنه يتحدث عشوائيًا كلَّما تكلَّم على هذا النحو. وحاولت، مع ذلك، أن أنظر إلى المشهد بعينيّ كاشيواغي، وأن أتبيَّن إن كان، كما قال، «جحيمًا». ولم يذهب جهدي سدى؛ إذ إني استطعت آنذاك أن أرى أن الجحيم كان يختلج فعلًا في ذلك المشهد العَرَضي، الهادئ، المنبسط أمامي ملفوفًا بأوراقه النَّضِرَة. لاح لي أن الجحيم قد تظهر نهارًا أو ليلًا، في أيّ وقت، في أيّ مكان، كاستجابةٍ محض لخواطر المرء أو رغباته. ولاح

لي أن بوسعنا أن نستدعيها على هوانا، وأنها تظهر في الحال متى استدعيناها.

كانت أشجار الكرز في أراشِياما، والتي قيل إنها غُرِسَتْ في القرن الثالث عشر سلسلةً من أشجار جبل يوشينو الشهيرة، قد فقدت أزهارها كلَّها واكتست بأوراقها. وما كان لهذه الأشجار بعد انتهاء موسم إزهار الكرز، أن تسمَّى إلا بالاسم الذي يطلقه المرء على الحسناوات الميتات.

كانت أغلبية الأشجار في متنزَّه كامِياما أشجار صنوبر، ولم تكن الألوان تتغير مع الفصول. كان متنزَّهًا كبيرًا كثير التلال. وكانت الأشجار جميعًا طويلة، ليس عليها أوراق إلا بدءًا من ارتفاع كبير نسبيًّا. كان ثمة ما يوحي بالقلق في منظر هذا المتنزَّه، بكلّ ما فيه من جذوع أشجار عارية لا تُحصى، تتقاطع تقاطُعًا غير منتظم. كان درب عريض يطوّق المتنزَّه مليئًا بالمنحدرات المتفاوتة الارتفاع، وكلَّما ظنَّها المرء سترتفع فإنها تنخفض بدلًا من ذلك. لحظتُ هنا وهناك جذوع أشجار مبتورة وشجيرات وأشجار صنوبر صغيرة. وتفتحتْ أزهار الأزاليا بغزارةٍ من اللون الأرجواني بالقرب من المكان الذي تبرز فيه الصخور البيضاء الضخمة من الأرض المدفونة فيها حتى النصف. وبدا لونها تحت السماء الغائمة كأنه يبيّت تصميمًا شريرًا ما. تسلَّقنا تلَّة صغيرة وجلسنا لنستريح تحت تعريشة على شكل مظلَّة. وكان تحتنا على منحدر ثمة أرجوحة يجلس عليها زوجان شابان. كان في مقدورنا من حيث كنَّا أن نرى المتنزَّه بأسره ممتدًّا

إلى الشرق، وكان حسبنا أن نخفض أبصارنا، في الغرب، كي نلمح عبر الأشجار مياه نهر هوزو. وكان يتناهى إلينا صرير الأرجوحة في التعريشة بانتظام، كأنه صرير أسنان.

فتحت صاحبة كاشيواغي الصُّرة التي كانت تحملها. كان على حق إذ قال إننا ما كنّا في حاجة إلى الذهاب طلبًا للغداء. فالصُّرة كانت تحوي من الشطائر ما يكفي أربعة أشخاص، بالإضافة إلى البسكويت المستورد، والذي كان الحصول عليه لا يزال صعبًا، وحتى زجاجة من ويسكي سانتوري(*) الذي لم يكن شراؤه وقتذاك ممكنًا إلا في السوق السوداء، طالما كان مخزونه رسميًا حكرًا على قوات الاحتلال. فكيوتو كانت، على ما يقال، تتبوّأ صدارة أنشطة السوق السوداء في منطقة أوساكا - كيوتو - كوبي.

كان شرب المسكرات صعبًا عليَّ، لكن عندما قدَّمتْ الفتاة إليَّ وإلى كاشيواغي كأسينا الصغيرتين، ضممتُ يديَّ بوقار وقبلت كأسي. شربت الفتاتان الشاي من ثرموس. كنت لا أزال مرتابًا بشأن الكيفية التي توثقت بها العلاقة بين كاشيواغي ورفيقته إلى هذا الحد. لم أقدر أن أفهم لماذا اتفق لهذه الفتاة، التي لا يعجبها العجب، أن تأنس إلى طالب مُعدَم معوجّ الرّجلين، مثل كاشيواغي وبدأ يتكلَّم. بعد أن شرب بضع كؤوس من الويسكي، كما لو كان يجيب عن السؤال الذي كان يجول في بالي.

(*) أُنشِئتْ شركة سانتوري القابضة المحدودة سنة ١٨٩٩. وهي واحدة من أقدم الشركات اليابانية التي تنتج المشروبات الروحية، وتوزعها في اليابان. تشتهر بإنتاجها ويسكي ممتازًا. (المترجم)

«أما تذكر أننا كنّا نتشاجر سابقًا في القطار؟» قال. «ذاك لأن عائلة هذه الفتاة تلحُّ عليها أن تتزوج برجل لا يعجبها على الإطلاق. يبدو أنها سترضخ للأمر الواقع وتنصاع لأهلها في أيّ لحظة. لذلك، كنت أواسيها، مؤكدًا لها أني سأناضل بكلّ ما أوتيت من حيلة للحيلولة دون هذا الزواج».

ما كان ينبغي أن يقول هذا أمام الفتاة نفسها، لكنه كان يتكلّم بلا مبالاة تامة، كأنها لم تكن حاضرة على الإطلاق. لم تبدّل الفتاة تعبير وجهها بتاتًا. كانت تضع حول عنقها اللدن قلادةً من خرز خزفي أزرق. كانت قسماتها بارزة بروزًا يكاد يكون واضحًا جدًّا على خلفية السماء الغائمة، لكن شعرها الأسود الغزير لطّف من هذا البروز. لاحت عيناها عميقتين للغاية، ووحدهما كانتا تتركان لدى المرء انطباعًا نَضِرًا، عاريًا. وكان فمها الرخو مفتوحًا قليلًا كالعادة. وبدت أسنانها الدقيقة، الحادة، في المساحة الضيقة بين شفتيها نَضِرَةً وجافة وبيضاء كأسنان حيوان صغير.

«أوّاه، كم هذا موجع، كم هو موجع!» صرخ كاشيواغي على حين غرة، وهو يثني جسمه، ممسكًا بساقيه. هرعتُ منفعلًا وحاولت مساعدته، لكنه دفعني بعيدًا، وهو يبتسم لي ابتسامة متهكّمة، فسحبت يدي.

«آخ، كم هو موجع!» تأوّه بنبرة مقنعة تمامًا. حدث، في تلك اللحظة، أن نظرت إلى الشابة إلى جانبي. كان تغيير ملحوظ قد طرأ على وجهها. فقدت عيناها رزانتهما، وراح فمها يرتجف برعونة.

وحده أنفها ذو القصبة المرتفعة، المستدقّ الطرف، بدا كأنه غير مبالٍ بما كان يجري، في تباين عجيب مع باقي قسماتها، وتحطم تناغم وجهها وتوازنه تمامًا.

«أوه، أنا آسفة!» قالت. «أنا آسفة! غير أني سأجعلك تتحسّن. سأجعلك تتحسّن حالًا!» كانت هذه أول مرة أسمعها تتكلّم بهذا الصوت الحاد، الخالي من الحياء، وكأنها كانت وحدها مع الرجل. رفعتْ عنقَها الطويل الرشيق، وجالت ببصرها بشكل غامض للحظة. ثم ركعت من فورها على الحجر في العريشة، وعانقت ساقَي كاشيواغي. وضعت خدّيها على رِجليه وراحت أخيرًا تقبّلهما.

أصابني رعب شديد كما حدث لي مرة واحدة من قبل. التفتُّ إلى الفتاة الآتية من دار السَّكَن. كانت تنظر إلى اتجاه آخر، وهي تدندن لحنًا لنفسها.

بدا في تلك اللحظات كأن الشمس شقت لها طريقًا عبر الغيوم، إنما قد يكون ذلك أني توهّمت الأمر فحسب. بيد أن تركيبة المتنزّه برمّتها كانت قد فقدت انسجامها. شعرت بأن صدوعًا ضئيلة أخذت تنفتح في جميع أنحاء سطح اللوحة التي كانت تحتوينا؛ تلك اللوحة الشفيفة التي تضم غابة الصنوبر، والانعكاس اللامع للنهر، والتلال البعيدة، وأسطح الصخور البيضاء، وأزهار الأزاليا المتناثرة هنا وهناك.

حدثت المعجزة المتوقعة بكلّ وضوح، وكفّ كاشيواغي عن التأوُّه تدريجيًّا. رفع رأسه، ورماني مرة أخرى، وهو يرفعه، بابتسامة متهكّمة.

«أنا الآن أحسن حالًا»، قال. «لقد شفيتِني. عجيب، أليس كذلك؟ كلّما بدأ الوجع وفعلتِ لي ذلك، فإنه يتوقف دومًا».

أخذ شعرَ الفتاة بيديه الاثنتين ورفع وجهها. رفعت بصرها إليه، ورمقته بنظرة كلبٍ وفيّ وابتسمت. جعل الضياء الأبيض الغائم، في تلك اللحظة، وجه هذه الفتاة الجميل يبدو بالضبط مثل وجه تلك الكهلة الستينية التي كان كاشيواغي حدَّثني عنها ذات مرة.

صار كاشيواغي في حالٍ معنوية عالية بعدما اجترح كاشيواغي معجزته. كان فعلًا في حالٍ معنوية لامس علوّها الخبل. وطفق يضحك بصوت عالٍ، ورفع الفتاة ووضعها على ركبتيه ثم راح يقبلها. وتردَّدتْ ضحكتُه بين أغصان أشجار الصنوبر عند أسفل التل.

«لم لا تذهب وتضاجع تلك الفتاة؟» قال لي وأنا جالس هناك بهدوء. «لقد اصطحبتُها خصيصًا من أجلك، كما تعلم. أم أنك خجول لأنك تظنُّ أنها ستسخر منك إذا تأتأت؟ هيًا. تأتِئ، تأتِئ! ولعلمك، قد تُغرَم بمتأتِئ».

«هل تتأتئ؟» قالت لي الفتاة كأنها المرة الأولى التي تنتبه فيها لذلك. «طيب، طيب، هناك ممثلون عن معظم العاهات اليوم!»

صدمتني كلماتُها بعنف، وجعلتْني أشعر بأني لم أعد أستطيع البقاء حيث كنت. لكن أغرب ما في الأمر أن الكراهية التي شعرت بها تجاهها، تحوَّلتْ إلى رغبة مفاجئة فيها، فاعتراني نوع من الدوار.

«لمَ لا نفترق؟» قال كاشيواغي وهو يخفض بصره في اتجاه

الزوجين الشابين اللذين كانا لا يزالان جالسين على الأرجوحة. «فليصطحب كلٌّ منّا صاحبته إلى مكان منعزل ما ولنلتقِ هنا من جديد بعد ساعتين».

تركتُ كاشيواغي ورفيقته، بصحبة الفتاة الآتية من دار السَّكَن، فهبطنا التلَّ، ثم مشينا صعودًا صوب رابية خفيفة الانحدار نحو الشرق.

«لقد فعلها، وجعل تلك الفتاة تظن نفسها قديسة. إنها حيلته المعتادة».

«وكيف لكِ أن تعرفي؟» قلت، متأتئًا بشدة.

«حسنًا، لقد سبق لي أن كنت على علاقة غرامية بكاشيواغي، كما ترى».

«لقد انتهى ما بينكما الآن، أليس كذلك؟» قلت. «ومع ذلك، تستطيعين أخذ الأمر بكلّ هذا الاستخفاف!»

«أجل، آخذه باستخفاف طبعًا. لا مفرَّ من ذلك مع شخص صاحب عاهة مثله».

ملأتني بالشجاعة كلماتها، هذه المرة، بدلًا من إثارة غضبي، فخرج سؤالي سلسًا: «أوَكنتِ مغرمة برِجليه المشوَّهتين؟»

«كفَّ عن ذلك!» قالت. «لا أود الحديث عن رِجليه الضفدعيَّتين. لكني أعتقد فعلًا أن له عينين فتَّانتين».

فقدتُ ثقتي بنفسي مرة أخرى عند سماعي كلامها هذا. أيًّا ما قد يكون رأي كاشيواغي، فقد أحبَّتْ هذه الفتاة فيه صفةً طيّبةً هو نفسه لم يلحظها. وكما أدركت الآن، فإن اقتناعي الفظ بأنه لا يوجد شيء يخصُّ نفسي لا أعلم به نجم عن اصطفائي ذاتي بوصفي الشخص الذي من المحال أن تكون لديه مثل هذه الصفات الطيبة على الإطلاق.

وصلنا إلى حقل صغير وادع عندما بلغنا قمّة الرابية. كان في مستطاع المرء بعيدًا، عبر أشجار الصنوبر والأرز، أن يتبيَّن جبلي دايمونجي ونيويكاتاكي وغيرهما من الجبال. امتد دغل خيزران من الرابية حيث كنَّا، نازلًا المنحدر المؤدي إلى البلدة. وانتصبت على حافة الدغل شجرة كرز واحدة متأخرة الإزهار، لم تكن قد سقطت عنها أزهارها بعدُ. كانت هذه فعلًا أزهارًا متأخرة، وقد تساءلتُ عمّا إذا لم يكن تأخُّرها على هذا النحو ناجمًا عن استمرارها في التأتأة عند أول تفتُّحها.

اعتراني انقباضٌ في صدري وشعرت بثقلٍ في معدتي. لكن هذا العارض لم يكن بسبب ما شربت. والآن مع اقتراب اللحظة الحاسمة ازدادت رغبتي ثقلًا، فصارت بِنْيةً مجرَّدةً مفصولة عن جسمي وهبطتْ على كتفيَّ. شعرت بها قطعةً سوداءَ ثقيلةً من قطع ماكينة حديدية.

كنت ممتنًّا لكاشيواغي، كما سبق لي أن ذكرت عدّة مرات، لأنه، سواء عن طيبة أو عن خبث، حثَّني على اقتحام الحياة. أدركت

منذ مدة طويلة أنني، أنا الذي خدشت عامدًا متعمّدًا غمد سيف زميلي في المدرسة أيام كنتُ في المدرسة الإعدادية، لم أكن مؤهلًا لدخول معترك الحياة من وجهها المشرق. كان كاشيواغي أول مَن دلّني على الطريق الفرعي المظلم الذي تمكنت بواسطته من مباغتة الحياة من الخلف. بدا للوهلة الأولى أن هذا نهج لا يؤدي إلا إلى الدمار، ومع ذلك، كان مليئًا بأحابيل غير متوقّعة، من شأنها تحويل الخسّة إلى شجاعة، بل يجوز أن تسمّى نوعًا من الخيمياء التي تعيد ما يُعرَفَ بقلة الأخلاق إلى حاله الأصلية بوصفها طاقة صرف. وهذه كانت فعلًا حياة من نوع ما. كانت حياة تتقدّم؛ حياة مغرية، حياة تتغير؛ حياة يمكن أن تضيع. يكاد لا يجوز أن تُطلَق عليها تسميةُ حياة نمطية، لكنها كانت مع ذلك تتمتع بوظائف الحياة كلّها. وعلى فرض أننا في مكان غير مرئي ما تواجهنا مسلّمة مفادها أن أشكال الحياة جميعًا لا معنى لها، فإن هذه الحياة التي أراني إياها كاشيواغي لا بدَّ من أن تتخذ على نحوٍ متزايد قيمةً مكافئةً لأكثر أنماط الحياة شيوعًا.

لا يجوز أن يقال، كما فكرت، إن كاشيواغي نفسه كان خاليًا من السُّكْر. كنت منذ مدة طويلة أدركت أن السُّكْر بالمعرفة ذاتها يكمن في أيّ شكل من أشكال المعرفة، مهما يكن كئيبًا. غير أن ما كان يعمل على إسكار الناس في الحاصل هو الكحول!

جلست والفتاة إلى جوار سوسنات ذابلة مدوّدة. لم أستطع أن أفهم لماذا تقبّلت معاشرتي بهذه الطريقة. لم أستطع أن أفهم، وأنا

أستعمل هذه العبارة القاسية عن قصد، أيَّ نزوة ساقتْها إلى هذه الرغبة في اللوثة. لا بدَّ من وجود إذعان مفعم بالحياء والرفق، في عالمنا هذا. لكن هذه الفتاة، استسلمت ببساطة، ليديَّ تتهافتان على يديها الصغيرتين، الممتلئتين، مثل ذباب يتهافت على شخص أخذتْه غفوة. بيد أن القبلة المطوَّلة والإحساس بذقن الفتاة الطريّ أيقظا شعوري بالشهوة. هذا كان ما يفترض أن أكون قد حلمت به مدة طويلة، لكن الشعور إيَّاه كان هزيلًا وضحلًا. لم يبدُ على شهوتي أنها تتقدَّم مباشرة، بل كأنها تدور على مسار دائري. السماء الغائمة البيضاء، حفيف بستان الخيزران، جهد الخنفساء الصغيرة المنقطة المضني وهي تزحف إلى ذروة ورقة سوسنة؛ هذه الأشياء كلُّها بقيت كما كانت من قبل، متناثرةً وغير منتظمة.

حاولت أن أهرب بالتفكير في الفتاة أمامي بصفتها موضع شهوتي. يجب أن أفكر في هذا الأمر بصفته الحياة. يجب أن أفكر في هذا الأمر بصفته العائق الأوحد في سبيل تقدُّمي واغتنامي الفرصة. إذ إنيْ لو فوتُّ على نفسي هذه الفرصة لما أتت الحياة لزيارتي حتى أَجَل غير مسمًّى. راحت تتسابق في ذهني ذكرياتُ مراتٍ لا تحصى لجمتْ فيها التأتأةُ كلماتي، فلم تتمكن من الإفلات من فمي. كان عليَّ في هذه اللحظة أن أفتح فمي بعزم وأنطق بشيء، حتى لو أدَّى ذلك إلى التأتأة. لو حدث ذلك لاستطعت امتلاك الحياة. إيعاز كاشيواغي الوحشي. صرخته الحادة تلك: «تأتِئ، تأتِئ!»، تردَّدت في أذنيَّ ووضعتْني على المحك. دسست أخيرًا يدي تحت تنورة الفتاة.

ظهر إذ ذاك أمامي المعبد الذهبي.

بِنْية رهيفة، كئيبة، كلُّها اعتزاز. بنْية قد تقشَّرت منها رقائق الذهب في أماكن وبدت كأنها هيكل أُبَّهتها السابقة. أجل، تراءى لي المعبد الذهبي؛ ذلك البناء الغريب الذي كلَّما ظنَّه المرء قريبًا أصبح بعيدًا. ذلك البناء العائم دومًا بوضوح في نقطة ما غامضة من الفضاء، يبدو حميمًا إلى الناظر، لكنه بعيد تمامًا. هذه البِنْية هي التي أتت الآن وحالت بيني وبين الحياة التي كنت أتطلَّع إليها. كان في البداية صغيرًا كلوحة منمنمة، لكنه ما لبث أن أخذ يكبر ويكبر حتى دفن العالم المحيط بي تمامًا، وملأ كلَّ زاوية وركن من زوايا هذا العالم، بالضبط مثلما أخذ المعبد الذهبي، انطلاقًا من ذلك النموذج الدقيق الذي رأيته ذات مرة، يكبر ويكبر حتى اكتنف كلَّ شيء آخر. لقد ملأ العالم مثل موسيقى عارمة، وهذه الموسيقى نفسها صارت كافية لاحتلال معنى العالم بأسره. كان المعبد الذهبي، الذي بدا أحيانًا غير مهتم بي كليًّا، شامخًا في الجو خارج ذاتي، قد اخترقني تمامًا وسمح لي بالتموضع ضمن بِنْيته.

طارت الفتاة الآتية من دار السَّكَن بعيدًا في المدى مثل هباءة ضئيلة. فكما رفض المعبد الذهبي الفتاة، رفض كذلك جهودي في العثور على الحياة. كيف لي أن أمدَّ يديَّ نحو الحياة وأنا مغلَّف بالجمال على هذا النحو؟ ربما كان من حقّ الجمال أيضًا أن يطالبني بالتخلّي عن هدفي السابق. فمن الواضح أن لمس الأبدية بيدٍ، ولمس الحياة باليد الأخرى، من المحال. إذا افترضنا أن معنى تلك

الأعمال التي نسدّدها صوب الحياة هو أن نتعهّد بالإخلاص للحظة معيّنة، وأن نجعل تلك اللحظة جامدة، فربما كان المعبد الذهبي واعيًا هذا الأمر كلّ الوعي، فعلّق لوهلة من الزمن موقفه المعتاد أو لامبالاته تجاهي. بدا كما لو أنه اتخذ شكل لحظة زمنيةٍ واحدةٍ، وزارني ههنا، في هذا المتنزّه، كي يتيح لي أن أعرف مقدار خواء شوقي إلى الحياة. ففي الحياة من شأن لحظة تتخذ شكل الأبدية أن تُسكِرنا. لكن المعبد الذهبي كان يعلم، تمام العلم، بأن لحظة كهذه تافهةٌ بالمقارنة مع ما يحدث حين تتخذ الأبدية شكل لحظة زمنية، مثلما فعل المعبد نفسه الآن. فيمكن لواقع أبدية الجمال، في مثل هذه الأوقات حصرًا، أن يشلّ حياتنا ويسمّم وجودنا حقًّا. إن الجمال الآني الذي تدعنا الحياة نلمحه لمحًا، عاجزٌ كلّ العجز عن أن يُبطِلَ مفعول سُمّ كهذا السم. فالسمُّ يسحقه ويدّمره في الحال، ويفضح الحياة ذاتها في الآخِر تحت وهج الخراب البنيّ الفاتح.

راودتني تمامًا رؤيا المعبد الذهبي هذه برهة وجيزة فقط. وكان المعبد قد استتر عندما عدت إلى نفسي. كان مجرّد بناء لا يزال قائمًا بعيدًا إلى الشمال الشرقي في كينوغاسا، وليس في وسعي أن أبصره من هنا. انقضتْ لحظةُ الوهم التي تخيّلتُ نفسي فيها وقد تقبّلني المعبد الذهبي واعتنقني. كنت مستلقيًا على قمة رابية في متنزّه كامِياما. لم يكن بالقرب مني شيء سوى فتاة مستلقية هناك، متمدّدة بخلاعة فوق العشب وبين الزهور ورفرفة أجنحة الحشرات الرتيبة. استقامت جالسةً، لدى إظهاري المفاجئ للحياء، ونظرت إليّ

مشدوهة. رأيت وركيها يتحركان وهي تدير لي ظهرها، وتُخرِجُ من حقيبتها مرآة جيب. لم تتفوه بكلمة واحدة، لكن احتقارها اخترق جلدي، المرة تلو المرة، مثل النبتات الشائكة التي تلتصق بالثياب في الخريف.

كانت السماء منخفضة. أخذت قطرات مطر صغيرة تضرب على العشب المحيط وعلى أوراق السوسن، فنهضنا على عجل وعدنا من الدرب ذاته إلى العريشة.

لم يخلّف هذا اليوم انطباعًا موحِشًا للغاية كهذا بسبب انتهاء النزهة على ذلك النحو البائس فحسب. ففي ذلك المساء، قبيل «فتح الوسادة»، تلقَّى الرئيس برقية من طوكيو، أُعلِنَ فحواها مباشرة لكلّ مَن في المعبد.

مات تسوروكاوا. اكتفت البرقية بالقول إنه مات في حادث، لكننا سمعنا التفاصيل في وقت لاحق. كان قد ذهب، عشية ذلك اليوم، في زيارة لأحد أخواله في أساكوسا، وأفرط في شرب الساكي. لم يكن متعودًا الشراب، ولا بدَّ من أن المسكر صعد إلى رأسه. صدمته في طريق عودته شاحنةٌ خرجت فجأة من شارع جانبي قرب المحطة. أصيب بكسر في الجمجمة ومات على الفور. صُعِقَتْ عائلته من هول الصدمة، فلم يخطر في بال أيّ من أفرادها أنهم يجب أن يبرقوا إلى المعبد إلا عصر اليوم التالي.

بكيت الآن مع أني لم أبكِ عند موت والدي؛ إذ بدا أن وجود

تسوروكاوا كان أوثق صلةً من وجود أبي بالمشكلات التي كانت تشغل اهتمامي. لطالما أهملتُ تسوروكاوا منذ تعرُّفي إلى كاشيواغي، لكنني الآن، وقد فقدتُه، أدركت أن موته قطع الخيط الوحيد الذي لا يزال يربطني بعالم ضوء النهار المشرق. فقد كنت أبكي بسبب ضوء النهار المفقود، الإشراق المفقود، الصيف المفقود.

على الرغم من أني أردت أن أسرع إلى طوكيو لأقوم بواجب التعزية تجاه عائلة تسوروكاوا، فإني لم أكن أملك المال. كنت أتسلّم من الرئيس مبلغ خمسمئة يِنْ فقط كلَّ شهر على سبيل مصروف الجيب. أما أمّي، فكانت فقيرة طبعًا. وأقصى ما كان في وسعها أن تفعله هو أن ترسل إليّ مئتين أو ثلاثمئة يِنْ، مرتين في السنة. والسبب الذي حملها أصلًا على الذهاب والعيش مع خالها في كاساغن، بعد تسوية الأمور في معبد والدي، هو أنها لم تستطع أن تتدبر العيش على خمسمئة يِنْ، التي يتصدَّق بها شهريًّا أبناء الرعية، وعلى المنحة الضئيلة التي تقدّمها المحافظة.

كيف يمكن لي أن أتأكد من موت تسوروكاوا في ذهني من دون أن أرى جثمانه، ومن دون أحضر جنازته؟ لوَّعتني المشكلة. استحال رمادًا بطنُه ذاك، ذو القميص الأبيض، الذي رأيته ذات يوم يومض في أشعة الشمس وهي تنسكب عبر الأشجار. من يستطيع أن يتخيَّل هذا الصبي، الذي صُنِعَ فقط من أجل الضياء، والذي كان مناسبًا فقط للضياء، ممدَّدًا، جسدًا وروحًا، ومدفونًا في قبر؟ لم يحمل أدنى علامة دالَّة على أنه مقدَّر لموت سابق لأوانه، وكانت جبلّته خالية

من كلّ ضيق وحسرة، ولا يحمل أيَّ عنصر فيه شَبَهٌ بالموت ولو من بعيد. فربما كان هذا تحديدًا هو سبب موته المفاجئ هكذا. ربما كان إنقاذ تسوروكاوا من الموت محالًا، لا لشيء، إلا لأنه كان يتألَّف من مقوّمات الحياة النقية فقط، ويتصف بهشاشة حيوان كريم النسب. إن صحَّ هذا فيبدو أنني، على النقيض، مقضيٌّ عليَّ أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر.

كانت البنية الشفافة للعالم الذي عاش فيه دائمًا سرًّا عميقًا بنظري، إنما أمسى السرُّ أرهب الآن مع موته. سحقت تلك الشاحنة عالمَه الشفاف تمامًا كما لو أنها ارتطمت بلوح زجاجي، غير مرئيّ لأنه شفاف. إن واقع أن تسوروكاوا لم يمت من جراء مرض لَيتناسب مع هذه الصورة كلَّ التناسب. كان من المناسب أن يكابد، هو الذي كانت حياته بِنْية لا يضاهى نقاؤها، موتًا نقيًّا كالموت في حادثة. حدث تَماسٌ مفاجئ في ذلك الاصطدام الذي لم يَدُمْ أكثر من ثانية، واندمجتْ حياتُه في موته. عملية كيميائية خاطفة. فقط بمثل هذه الطريقة العنيفة، أمكن لهذا الشاب الغريب، عديم الظل، بلا ريب، أن يلتحق، في آنٍ معًا، بظلّه وبموته.

كان العالم الذي سكنه تسوروكاوا عالـمًا يفيض بالمشاعر المضيئة والنيّات الطيبة. وفي وسعي، مع ذلك، أن أؤكد جازمًا أنه لم يحيا في هذا العالم بفضل حالات سوء فهمه أو أحكامه اللطيفة الوديعة. قلبه المضيء ذاك، الذي لا ينتمي إلى هذا العالم، كانت تدعمه قوة ومرونة قديرة، وهاتان، القوة والمرونة، هما اللتان تقومان

بضبط أفعاله. كان ثمة عنصر بديع الدقة في الطريقة التي استطاع بها ترجمة كلّ من مشاعري القاتمة إلى مشاعر مضيئة. كنت أشتبه في بعض الأحيان أن تسوروكاوا قد اختبر بالفعل مشاعري، لا لشيء إلا لأن ضياءه يتقابل بدقة عالية مع قتامتي؛ لأن التفاوت بين مشاعرنا كان بكلّ هذا الكمال. ولكن لا، لم يكن الأمر على هذا النحو! كان ضياء عالمه نقيًّا وأحادي الجانب، في آنٍ معًا. ولقد أوجد هذا الضياء نظامه المفصَّل الخاص به؛ وامتلك دقة لعلَّها تقارب هي الأخرى دقة الشرّ. فلو لم يكن عالم ذلك الشاب المشرق والشفاف يتلقَّى دعمًا مستمرًّا من قدرته البدنية التي لا تكلُّ لربما كان انهار في الحال. كان يركض إلى الأمام في أسرع ما يمكن. والشاحنة قد دهست جسمه الراكض ذاك.

نظرات تسوروكاوا الاحتفالية وجسمُه الرغيد، اللذان كانا مصدر الانطباع الايجابي الذي يتركه في الآخرين، قاداني، بعد أن تواريا عن هذا العالم، إلى الخوض في أفكار عويصة تتعلَّق بالجانب المرئي من البشر. فكرت في مدى غرابة أن شيئًا ما من شأنه أن يمارس علينا قوةً مضيئة إلى هذا الحد، بمجرَّد وجوده ووصوله إلى أعيننا. فكرت في مقدار ما يجب تعلُّمه من الجسم حتى يتاح للروح أن تمتلك مجرَّد حسّ بسيط بوجودها. يقال إن جوهر الزّنْ هو غياب الخواص كلّها، وأن مَلكة الرؤية الحقيقية عبارة عن معرفة المرء أنه ليس لقلبه شكل ولا صفة. ومع ذلك، فإن على مَلَكة الرؤية، وهي القادرة كما يجب على تصوُّر غياب الصفات، أن تكون راغبة للغاية في مقاومة

سحر المظاهر الشكلية. كيف لشخص ليس قادرًا على رؤية الأشكال أو الصفات برغبة متفانية، أن يرى انعدام الأشكال والصفات ويحيط به بكلّ وضوح؟ لذا، يجوز للشكل الصافي العائد إلى شخص مثل تسوروكاوا، محض وجوده كان يبثُّ الضياء؛ شخصٍ كان الوصول إليه ممكنًا بكلتا اليدين وكلتا العينين؛ شخص كانَ يمكن بالفعل أن يُدعى الحياة من أجل الحياة، أن يصبح، بحُكم أنه قد مات، بمثابة أوضح مجاز ممكن لوصف انعدام الشكل الغامض. وقد يصير إحساسه هو بوجوده أكثرَ النماذج المتاحة واقعيةً للعدم البلا شكل. لقد بدا فعلًا كما لو أنه هو نفسه لم يعد الآن شيئًا أكثر من مثل هذا المجاز. على سبيل المثال، كانت ملاءمةُ القِران بين تسوروكاوا وزهور أيَّار ومناسبته، هما بالضبط ملاءمه ومناسبةَ تلك الزهور التي أُلقِيَتْ على نعشه نتيجة لموته المفاجئ في أيَّار.

لم تكن حياتي الخاصة تمتلك رمزية ثابتة كحياة تسوروكاوا. ولهذا السبب، كنت في حاجة إليه. وكان أكثر ما حسدته عليه هو أنه تمكن من بلوغ نهاية حياته من دون أدنى وعي بأنه يحمل عبء فرادة خاصة، أو بأنه مبعوث برسالة متفردة بعينها مثل رسالتي. هذا الإحساس بالتفرُّد سلب حياتي رمزيَّتها، أي قدرتها على أن تصبح، مثل حياة تسوروكاوا، مجازًا عن شيء خارج ذاتها. وعليه، فقد حرمني مشاعرَ اتساع الحياة وتضامُنها، وأصبح مصدر ذلك الإحساس بالعزلة الذي بات يلاحقني إلى أجل غير مسمًّى. كان الأمر غريبًا. لم يكن لديّ حتى شعور بالتضامن مع اللاشيء.

بدأت عزلتي مرة أخرى. لم أرَ الفتاة الآتية من دار السَّكَن ثانية، وأصبحت علاقتي بكاشيواغي أقل ودًّا من ذي قبل. ما فتئت طريقته في الحياة تبهرني بقوة، لكنني شعرت بأن أفضل وسيلة للقيام بواجباتي الأخيرة تجاه تسوروكاوا هي أن أبذل جهدًا طفيفًا لمقاومة هذا الانبهار، فحاولت، ولو رغمًا عني، أن أبقى على مسافة منه. كتبتُ إلى أمّي، بصريح العبارة، موصيًا إياها بألا تأتي لزيارتي ثانية حتى أغدو مستقلًّا. سبق لي أن قلت لها هذا مشافهة، لكنني لم أشعر بأنه يمكن لبالي أن يهدأ حتى أكتبه بأشد العبارات تعبيرًا. كانت إجابتها مصوغة بعبارات خرقاء. أخبرتني عن مدى مشقة عملها في مزرعة الخال، وأتبعتْ ذلك ببضع جمل تذكّر بنصائح بدائية، ثم ذيَّلت الرسالة بالجملة التالية: «لا أريد أن أموت حتى أراك بعينيَّ هاتين كاهنًا في المعبد الذهبي». كرهت هذا الجزء من الرسالة، وشعرت بالضيق منه طوال بضعة أيام بعد ذلك.

لم أَزُر، حتى في أثناء الصيف، مرةً واحدة المكان الذي كانت والدتي تتخذه منزلًا. وكانت حرارة الصيف مرهقة جدًّا لي بسبب رداءة الطعام في المعبد. ووصل، في منتصف أيلول تقرير عن إعصار محتمل. كان على أحد ما أن يسهر طوال الليل حارسًا، وقد تطوَّعت للمهمَّة.

أحسب أن بدء حصول تغيير دقيق في مشاعري تجاه المعبد الذهبي يعود إلى ذلك الوقت تقريبًا. لم يكن الأمر كراهية، بل ثمة توجُّسٌ بأنه سوف يطرأ في وقت ما بعينه، موقف يصير فيه الشيء

الذي ما انفك ينبت ببطء في داخلي، متضاربًا كلَّ التضارب مع المعبد الذهبي. ما فتئ هذا الشعور يظهر منذ تلك الحادثة في متنزَّه كامِياما، لكنني خشيت تسميته. وسُعِدْتُ، مع ذلك، حين علمت بأن المعبد سيكون في عهدتي طوال ليلة الحراسة الواحدة هذه، ولم أُخفِ سروري.

أُعطيتُ مفتاح الكوكيوتشو. هذا الطابق الثالث من المعبد بالذات كان يُعَدُّ قيِّمًا بصفة خاصة. وفوق الأرضية ببضع أقدام كان لوح بديع من نقش الإمبراطور غو-كوماتسو(*) معلَّقًا على إحدى العوارض الخشبية.

أبلغ جهاز اللاسلكي بأن الإعصار سيصل منطقتنا فورًا، إنما لم تكن ثمة أيُّ علامة تدلُّ عليه بعدُ. هطل المطر متقطعًا طوال العصر، لكن الجو كان الآن صحوًا، وأطلَّ البدر ساطعًا في سماء الليل. كان مختلف نزلاء المعبد قد طافوا في أنحاء الحديقة وهم يتفحَّصون السماء. وسمعت أحدهم يقول إن هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

غفا المعبد الذهبي. كنت الآن وحدي فيه. انتشيت، عندما تجولت في جزء من البناء لا يدخله نورُ القمر، من فكرة أن ظلمة المعبد الثقيلة، الفاخرة، تغلِّفني. وغمرني، ببطء، وبعمق، هذا الشعور الحقيقي جدًّا، إلى أن تناهى إلى نوع من الهلوسة. وأدركت

(*) غو-كوماتسو (١٣٧٧-١٤٣٣): الإمبراطور الياباني المئة بحسب الترتيب التقليدي. (المترجم)

فجأة أنني قد دخلت الآن فعليًا تلك الرؤيا التي فصلتني عن الحياة عصر ذلك اليوم في حديقة كامِياما.

كنت هناك وحدي، والمعبد الذهبي، المعبد الذهبي المطلق، الحقيقي، قد غلَّفني. هل كنت أمتلك المعبد، أم أنه هو الذي يمتلكني؟ أم أليس الأصح قولنا إن توازنًا غريبًا قد نشأ تلك اللحظة؛ توازنًا من شأنه أن يتيح لي أن أكون المعبدَ الذهبي، ويتيح للمعبد الذهبي أن يكون أنا؟

ازدادت الريح قوة بعد نحو الساعة الحادية عشرة والنصف. أشعلت مصباحي اليدوي وتسلَّقت درج المعبد. ووضعت مفتاحي في باب الكوكيوتشو حين وصلت إلى القمة.

كنت متكئًا على درابزين الكوكيوتشو. كانت الريح تهبّ من الجنوب الشرقي. مع ذلك، بقيت السماء حتى الآن بلا تغيير. كان القمر منعكسًا على صفحة الماء في الفجوات بين أُشْن الماء. وكان الجو مليئًا بسقسقة الحشرات ونقيق الضفادع.

سَرَتْ في جسمي رعشةٌ تكاد تكون شهوانية أولَ ما صفعتني الريح القوية رأسًا على خدي. صارت الريح أقوى فأقوى، حتى تحولت إلى شبه عاصفة هوجاء. بدا عند ذاك أن ثمة نوعًا من نذير بأني والمعبد الذهبي سندمر معًا. كان قلبي يقيم ضمن ذلك المعبد، ويركب الريح في الوقت ذاته. لم يكن في المعبد الذهبي الذي كان يرسم بِنْية عالمي بالذات أيُّ ستائر تهتزّ مع الريح، لكنه كان واقفًا هناك بهدوء، مستحمًا

في نور القمر. ومع ذلك، ما كان ثمة شك في أن الريح الهوجاء، نيَّتي الشريرة تلك، ستهزّ المعبد لا محالة، توقظه، وتسلبه غطرسته في لحظة التدمير.

كذا كان الأمر. كنت مغلَّفًا بالجمال، كنت قطعًا ضمن هذا الجمال؛ ومع ذلك، أشك في ما إذا كنت، متغلّفًا بالجمال إلى حدّ أستغني فيه عن تأييد إرادة تلك الريح الشرسة التي ما انفكت تلملم المزيد من القوة. وكما أمرني كاشيواغي: «تأتِيءْ! تأتِيءْ!» كذلك حاولت الآن همز الريح، بأن صَحْتُ بالكلمات التي يشجِّع بها حصان يعدو: «أقوى، أقوى!» صُحْت. «هيَّا، أَسرِع! ابذلْ مزيدًا من القوة!»

أخذ حفيفٌ يتعالى من الغابة. راحت أغصان الأشجار حول البركة تتلامس ويحتكُّ بعضها ببعض. كانت سماء الليل قد فقدت لونها النيلي المعتاد، واتخذت مسحةً عَكِرَةً من الرمادي الأرجواني. لم تكن سقسقة الحشرات قد خفَّت، وكانت تضفي جوًّا حيويًّا على المشهد المحيط. كان صوت الريح المبهم، الشبيه بصوت الناي، يدنو من بعيد، وقد بدا أنها تفقد شيئًا من هياجها السابق.

رحت أشاهد أعدادًا لا تحصى من الغيوم وهي تندفع عبر القمر. كانت، واحدةً تلو الأخرى، تطلع من وراء التلال في الجنوب مثل فيالق عظيمة. كانت هناك غيوم كثيفة؛ غيوم رقيقة؛ غيوم ضخمة منتشرة. كان هناك عدد لا يحصى من خُصل الغيم الصغيرة. كانت تظهر كلُّها من الجنوب، ثم تعبر وجه القمر، تمر فوق المعبد الذهبي،

ثم تهرع إلى الشمال كأنها تسارع إلى بعض شؤونها. ولاح لي أني أسمع زعيق طائر الفينيق الذهبي فوق رأسي.

كانت الريح تهمد فجأة، ثم لا تلبث أن تستعيد قوتها، وتتجاوب الغابة بحساسية مع هذه التغيرات: تهدأ، ثم لا يلبث حفيفها أن يتعالى بجنون. كذلك كان يتغير انعكاس القمر على البركة، فيتقلَّب على التوالي بين الداكن والفاتح؛ ويلملم أشعة نوره المبعثرة، في بعض الأحيان، ويكنس بها حثيثًا صفحة الماء. ترامى ركام السحب العظيمة ملتويًا في ما يتعدَّى التلال، ممتدًّا مثل يد ضخمة عبر السماء. كان من المرعب رؤيتها تتلوَّى وتتدافع، ويحتكُّ بعضها ببعض وهي تقترب. وكانت تظهر من حين إلى آخر، بقعة صغيرة صافية في السماء من خلال الغيوم، لكنها سرعان ما تتغطى ثانية. ويمكنني، بين الفينة والفينة، كلَّما مرت سحابة رقيقة جدًّا، أن ألمح القمر عبرها محاطًا بهالة خافتة.

كذا تحركت السماء الليل بطوله. لم يكن ثمة مؤشر على أن هبوب الريح سيزداد قوة. نمت إلى جانب الدرابزين. وجاء القندلفت، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وكان صباحًا صافيًا، مشرقًا، وأبلغني بأن الإعصار قد غادر المنطقة بعد أن أخطأ كيوتو، لحسن الحظ.



الفصل السادس

مضى الآن ما يقرب من سنة على حِدادي على تسوروكاوا. ما إن بدأتْ عزلتي، حتى أدركتُ من جديد أن من السهل عليَّ أن أعتاد هذه الحال، وأن الحياة الأقل تطلُّبًا للجهد، في نظري، كانت في الواقع حياةٌ لم أكن مضطرًا فيها إلى الكلام مع أحد. ولَّى موقفي النَّكِد من الحياة. كان لكلّ يومٍ لا أفعل فيه شيئًا سحره.

كانت مكتبة الجامعة ملاذ متعتي الوحيد. لم أقرأ كتبًا عن الزّنْ، وإنما ترجمات لروايات ومؤلَّفات فلسفية، اتفق لها أن تكون متوفرة. متردّد أنا في أن أذكر أسماء أولئك الكتّاب والفلاسفة. فأنا مدرك تأثيرهم فيَّ، ومدركٌ أيضًا أنهم هم الذين ألهموني الفعلة التي اقترفتها. ومع ذلك، يلذّ لي أن أعتقد أن الفعلة نفسها هي من ابتكاري الأصلي الخاص. لا أريد لها تحديدًا أن تفسَّر تفسيرًا مبسَّطًا، كأنما حملتْني على ارتكابها إحدى الفلسفات القائمة.

كان عدم فهم الآخرين لي، كما سبق لي أن شرحت، مصدرَ اعتزازي الأوحد منذ شبابي المبكر، ولم يكن لديَّ أدنى دافع إلى التعبير عن نفسي بطريقة من شأنها أن تيسّر على الآخرين أن يفهموني. عندما حاولت توضيح أفكاري وأفعالي كنت أفعل ذلك من دون أيّ اعتبار مهما كان نوعه. لا أدري إن كان هذا لرغبةٍ مني في معرفة نفسي، أم لا. فمثل هذا الدافع يتوافق مع طباع الشخص الحقيقية، ويأتي تلقائيًّا لتشكيل جسر بينه وبين الآخرين. لقد أدى السُّكْر الذي كنت أستمدُّه من المعبد الذهبي إلى جعل جزء من شخصيتي مبهم. ولأن هذا السُّكْرُ بالذات، يحرمني أشكال السُّكْر الأخرى كلّها، كنت أجدني مجبرًا على مقاومته، ببذل جهد مقصود حفاظًا على الأجزاء الواضحة من شخصيتي. لا أدري شيئًا عما يخصُّ الآخرين، إنما في ما يخصُّني فقد كان الوضوح، في حدّ ذاته، هويتي، وبالعكس، لم تكن الحال حالًا أنا فيها مالك هذه الهوية.

كنًا الآن في وقت عطلة الربيع سنة ١٩٤٨، وهي سنتي الثانية في الجامعة. خرج الرئيس في إحدى الأمسيات. وبما أنه لم يكن لديّ أصدقاء فإن الطريقة الوحيدة التي أستطيع الاستفادة بها من غيابه هي أن أتمشى وحدي. غادرت المعبد وخرجت عبر بوابة السَّنْمون. كانَ يحدُّ البوابة خندقٌ تنتصب إلى جانبه لوحةُ إعلانات. وكنت أرى هذه اللوحة القديمة منذ مدة طويلة، لكنني توقفت الآن أمامها، وأخذت أقرأ بتكاسل الحروف التي كان يغمرها نور القمر:

تنويه

١. لا يجوز القيام بأي تعديلات على هذه المباني من دون إذن خاص.

٢. لا يجوز القيام بأي عمل من شأنه أن يؤثر، في أي شكل من الأشكال، في المحافظة على هذه المباني.

يُلفت نظر الجمهور إلى هذه اللوائح. وأي خرق لها يعاقَب عليه وفقًا لما ينص عليه القانون.

وزارة الداخلية ٣١ آذار ١٩٢٨

كان التنويه يشير بوضوح إلى المعبد الذهبي. ومع ذلك، كان من المتعذر استنباط أيّ تلميح معيَّن من الكلمات المجرَّدة نفسها. لم أستطع إلا أن أشعر بأن لوحة إعلانات كهذه موجودة في عالم مختلف تمامًا عن العالم الذي يسكنه المعبد الثابت، المنيع على الدمار. كان التنويه، في حدّ ذاته، يتوقع فعلةً ما غامضةً أو متعذرة. والرجل الذي كان قد خطّ هذه اللوائح وأعطى بذلك وصفًا موجزًا لهذا النوع من الفِعال، كان في الغالب شخصًا فقد صوابه؛ إذ إن هذه فعلة لا يسع إلا مجنون أن يخطّط لها. وكيف يمكن لأحد أن يخيف مجنونًا بالتهديد سلفًا بمعاقبة فعلته؟ لعل الحاجة كانت إلى شكلٍ خاصّ من الكتابة يمكن للمجانين وحدهم أن يفهموها.

كنت منشغلًا في مثل هذه الخواطر الفارغة عندما لحظتُ وجود هيئة تقترب من الطريق العريض أمام البوابة. في هذه الساعة، ما

كان ثمة أثرٌ باقٍ من حشود الزوار الذين أتوا إلى هنا طوال ذلك اليوم. وكانت تملأ الليل فقط أشجار الصنوبر التي ينيرها القمرُ وألق المصابيح الأمامية كلَّما مرت السيارات ذهابًا وإيابًا على امتداد الطريق السريع أبعد من حيث كنت واقفًا.

تعرفت بغتة إلى صورة كاشيواغي. أمكنني أن أحزر أنه هو من مشيته. قررت من فوري أن أُنهي الجفاء بيننا الذي كنت قد اخترته طوال السنة الماضية برمَّتها، فلم أفكر إلا في الامتنان الذي أكنُّه له على شفائه لي في الماضي؛ فقد شفاني فعلًا آنذاك. شفى أفكاري الكسيحة، منذ أول يوم التقيته فيه، بواسطة رِجليه المعوجّتين الخرقاوين القبيحتين؛ شفاها بصريح كلامه الجارح، باعترافه الكامل. كان ينبغي لي أن أدرك – إنصافًا له – أيَّ فرح كان مقدَّرًا لي أن أحظى به من مجرَّد قدرتي للمرة الأولى على إجراء محادثة مع أحدهم على قدم المساواة. كان ينبغي لي أن ألتذَّ بذلك الفرح (الذي كان أشبه بارتكاب فاحشة) المتمثّل في الغوص في أعماق المعرفة الراسخة بأني، كاهن ومتأتئ في آنٍ معًا، غير أن هذا كلّه كان قد شُطِبَ بسبب علاقتي بتسوروكاوا.

استقبلت كاشيواغي بابتسامة. كان يرتدي بزَّة الطلاب، ويحمل صرَّة طولانية ضيقة.

«هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟» قال.

«لا».

«حسنٌ أني لقيتك»، قال. واقتعد إحدى الدرجات الحجرية وفضّ صرَّته.

«كما ترى»، قال وهو يريني أنبوبين داكنين لامعين يشكلان معًا نايًا من طراز شاكوهاتشي(*). «مات أحد أخوالي في مسقط رأسي مؤخرًا، وترك لي هذا الناي تذكارًا منه. لكنني لا أزال أحتفظ بالناي الذي أعطانيه منذ مدة طويلة حين كان يعلّمني العزف. يبدو أن هذا الناي آلة أَجْوَد نسبيًا، لكنني أفضل ذلك الذي تعوَّدته، وبما أنه لا معنى لامتلاك نايين، تراني أحضرت هذا معي لأعطيك إياه».

كان فرحي عظيمًا بتلقّي شيء ما، مهما يكن هذا الشيء. كوني لم أتلقَّ هدية من أحد قط. أمسكت بالناي وتفحَّصته. كانت فيه أربعة ثقوب من أمام، وواحد من خلف.

«أنا أنتمي إلى مدرسة كينكو في العزف على الناي»، تابع كاشيواغي. «وبما أن القمر ساطع هذا المساء على سبيل التغير،

(*) ناي ياباني طولاني من الخيزران، يُدَوزَنُ على السلَّم الخماسي الأنغام الصغير. استُقدِمَ في الأصل من الصين في القرن السادس، وخضع لتحديث في أوائل فترة إيدو (١٦٠٣-١٨٦٨) في عهد آل توكاغاوا. استعمله رهبان مذهب فوكي من فرقة الزّنْ في ممارسة سويزن («تأمُّل النفخ»). أسَّس الراهب كوروساوا كينكو من الفرقة إيّاها مدرسة كينكو للعزف، في القرن الثامن عشر، بعد قيامه بجولات طويلة في جميع أنحاء اليابان بقصد جمع قطع موسيقى الشاكوهاتشي الروحية من زملائه الرهبان المتسوّلين. تضم المجموعة التي جمعها ٣٦ هونكيوكو («قطعة أصلية») هي ذخيرة مدرسة كينكو ريو للشاكوهاتشي، التي ينتمي إليها كاشيواغي، كما سيتبيَّن. (المترجم)

خطر لي أن أحضر إلى المعبد الذهبي وأعزف عليه هنا. وفكرت، في الوقت نفسه، في أني ربما أعطيك درسًا».

«لقد اخترتَ وقتًا مؤاتيًا»، قلت. «فقد خرج الرئيس كما ترى. وفضلًا عن ذلك، لم ينتهِ الناظر العجوز الكسول من مسحه حتى الآن. إنهم لا يغلقون بوابات المعبد حتى يتم المسح».

جاء مباغتًا ظهوره عند البوابة، وكذلك جاء أيضًا اقتراحه بأن يعزف على الناي في المعبد، لأن القمر كان جميلًا جدًّا تلك الليلة. هذا كلُّه كان يشي بكاشيواغي كما عرفته. وفضلًا عن ذلك، ففي الحياة الرتيبة التي أعيشها، مجرَّد أن أتلقَّى مفاجأة كان لذة ما بعدها لذة. قدت كاشيواغي ممسكًا بنايي الجديد، إلى المعبد الذهبي.

لا أتذكر بوضوح ما ناقشناه تلك الليلة. لا أظن أننا تحدثنا عن أيِّ شيء ذي بال. لم يُبدِ كاشيواغي أدنى إشارة إلى رغبته في الاسترسال في فلسفته الغريبة ومفارقاته الشائكة المعتادة. لعلَّه قد جاء عمدًا ليكشف لي عن جانب من ذاته لم أشتبه في وجوده حتى الآن. ففي تلك الليلة، بالفعل، أراني ذلك الشاب ذو اللسان السليط اللَّاذع، الذي بدا عادةً مهتمًّا بالجمال بمقدار ما يستطيع تدنيسه فحسب، جانبًا رقيقًا حقًّا من جوانب طبيعته. كانت لديه نظرية عن الجمال أدق كثيرًا من نظريتي. لم يصارحني بها بالكلمات، بل بإيماءاته وبعينيه، وبالموسيقى التي عزفها على الناي، وبجبينه الذي برز في نور القمر.

اتكأنا على درابزين التشوندو، الطابق الثاني من المعبد الذهبي.

كان الرواق تحت حواف السطح ذات الانحناء اللطيف محمولًا من الأسفل على ثماني ركائز على الطراز الهندي القديم، وبدا كأنه يرتفع من على صفحة البركة حيث كان يأوي القمر. عزف كاشيواغي أولًا مقطوعة قصيرة بعنوان «عربة القصر». أذهلتْني براعتُه. حاولت أن أقلّده فوضعت شفتيَّ على المنقار، لكني لم أستطع أن أُخرِجَ صوتًا. لقَّنني عندئذٍ بأناةٍ كيف أمسك بالناي من الأعلى بيدي اليسرى، وكيف أضع أصابعي على الفتحات المناسبة. أراني أيضًا الحِيَل التي يفتح بها المرء فمه لتثبيت المنقار ونفخ الهواء على الصفيحة المعدنية العريضة. ومع ذلك، وعلى الرغم من محاولاتي المتكررة، لم يخرج أيُّ صوت. توتَّرتْ وجنتاي وعيناي. ومع أن الريح كانت غافية، انتابني شعور بأن القمر على صفحة البركة كان يتهشَّم إلى ألف شظية.

شعرت، بعد برهة قصيرة، بأني أُنهِكْت. واشتبهت للحظة في أن كاشيواغي ربما فرض عليَّ هذه الكفَّارة عمدًا كي يسخر من تأتأتي. غير أن الجهد المبذول في محاولة قسرية لاستخراج صوت يأبى الخروج، بدا كأنه يطهّر طاقتي الذهنية المعتادة تلك، التي كنت أحاول من خلالها كلَّ ما في وسعي لتجنب التأتأة بدفع الكلمات الأولى إلى الخروج، بسلاسة من فمي. شعرت كأن تلك الأصوات التي تأبى الخروج أصلًا موجودة فعليًّا في مكان ما من هذا العالم الهادئ المستحم بنور القمر. كنت لأرضى تمامًا فقط لو تمكنت من الوصول إلى هذه الأصوات، ومن إيقاظها بعد جهود مطوَّلة متنوعة.

كيف لي أن أصل إلى ذلك الصوت؛ ذلك الصوت الغامض مثل الذي كان كاشيواغي ينفخه خارج نايه؟ وحده الإتقان من شأنه أن يجعل ذلك ممكنًا. الجمال هو الإتقان. طرأ في بالي خاطر فملأني بالشجاعة: كما كان في مستطاع كاشيواغي أن يبلغ أصواتًا صافية جميلة كهذه على الرغم من رِجليه المعوجّتين، كذلك أستطيع أن أبلغ الجمال بواسطة الإتقان. لكنني أدركت أيضًا أمرًا آخر: كان عزف كاشيواغي لمقطوعة «عربة القصر» يُسمَعُ بهذا الجمال، ليس بسبب جمال الخلفية التي ينيرها القمر فحسب، بل بسبب رِجليه المعوجّتين الشنيعتين أيضًا.

تبيَّن لي، في وقت لاحق، أن كاشيواغي يكره الجمال الدائم، حين تسنَّت لي معرفته معرفةً أكثر حميمية. كانت ميوله تقتصر على أشياء، كالموسيقى التي تتلاشى على الفور، أو تنسيق الزهور التي تذوي في غضون أيام. كان يمقت من العمارة والأدب، وواضح أنه ما كان ليفكر في زيارة المعبد الذهبي إلا في ليلة مقمرة كهذه.

ومع ذلك كم كان، جمال الموسيقى أمرًا غريبًا! إن الجمال الوجيز الذي يولِّده العازف يحوّل فترة معيَّنة من الزمن إلى استمرارية صرفة. وهو جمال من المؤكد أنه لن يتكرر أبدًا. الجمال، مثلُه كمثل حياة فراشات النهار وغيرها من المخلوقات المشابهة القصيرة الأَجَل، هو تجريد كامل وإبداع للحياة نفسها. ما من شيء أشبه بالحياة كالموسيقى. وعلى الرغم من أن المعبد الذهبي كان يشترك في النمط ذاته من الجمال، فإن ما من شيء كان أبعد عن العالم وأكثر

ازدراء له من جمال هذا المبنى. ما إن انتهى كاشيواغي من عزف «عربة القصر»، حتى انقضت الموسيقى، تلك الحياة المتخيَّلة، ولم يبقَ ثمة شيء سوى جسمه الدميم بأفكاره الموحشة، من دون أن يتأذى أو يطرأ عليه تبديل.مكتبة .. سُر مَن قرأ

لم يكن العزاء قطعًا هو أن كاشيواغي يسعى إلى الجمال. فهمت هذا تمامًا من دون أدنى نقاش. ما كان يحبُّه، بعد فترة وجيزة من توليد أنفاسه للجمال في الهواء، أن تبقى رِجلاه المعوجّتان، وتفكيره الكالح قائمين، وأشد وضوحًا واتقادًا من ذي قبل. عدم جدوى الجمال؛ حقيقة أن الجمال الذي تخلَّل جسمَه لم يترك أيَّ أثرٍ على الإطلاق، أنه لم يغير شيئًا البتة. هذا ما كان كاشيواغي يحبُّه. ولو أن الجمال، في نظري أنا أيضًا، كان شيئًا من هذا القبيل، فلكم كانت حياتي قد غدت خفيفة!

واصلتُ محاولاتي المرة تلو الأخرى وفقًا لتعليمات كاشيواغي. صار وجهي أحمر وأنفاسي لاهثة. ثم كما لو أني صرت فجأة طائرًا، وكما لو أن صيحة طائر أفلتت من حنجرتي، أصدر الناي نغمةً وحيدةً جريئة.

«هو ذاك!» صاح كاشيواغي وهو يطلق ضحكة. لم تكن قطعًا نغمةً جميلةً، لكن الصوت نفسه راح يخرج مرة بعد مرة. ثم تراءى لي أن هذا الصوت الغامض الذي لم يبدُ أنه صادر مني، كان صوت طائر الفينيق النحاسي المذهَّب فوق رأسينا.

استعملت بعدئذٍ دليل التعليمات الذي أعطاني إياه كاشيواغي، ورحت كلَّ مساء أشتغل بجدّ على تحسين سوية عزفي. وتمكنت مع الوقت من عزف بعض الألحان، مثل «شروق الشمس المصطبغ بالأحمر على خلفية بيضاء»، فبُعِثَتْ من جديد مشاعر الصداقة التي كنت أكنُّها سابقًا لكاشيواغي.

خطر في بالي في شهر أيّار أن من واجبي أن أهدي كاشيواغي شيئًا أعرب له به عن امتناني على الناي. إنما لم يكن لديّ مال لشراء هدية. لذا كلمته بصراحة بشأن ورطتي، فقال لي إنه لا يريد أيَّ شيء يكلّف مالًا. ثم أضاف، وهو يلوي فمه بطريقة غريبة: «حسنًا، بما أنك لم توفر جهدًا لذكر هذه المسألة، فهناك فعلًا شيء أتمنّاه عليك. كنت راغبًا هذه الأيام في القيام في تنسيق الزهور(*)، لكن الأزهار باهظة الثمن عليّ. إلا أني أعتقد أن هذا الوقت هو بالضبط أوان إزهار السوسن وعود الوج في المعبد الذهبي. فهل تظن أن في إمكانك أن تجلب لي بعض السوسن؟ اجلب سوسنة أو اثنتين مبرعمتين، واثنتين بدأتا لتوّهما بالتفتح، واثنتين اكتمل تفتُّحهما.

(*) إيكِبانا («الزهور الحية»): فن تنسيق الزهور الياباني، ويُعرَف أيضًا باسم كادو («طريقة الزهور»). ويعود التقليد إلى القرن السابع، حين كانت الزهور تقدَّم قرابينَ على المذابح، وأصبحت الزهور في وقت لاحق، توضع في توكونوما المنزل. وبلغ إيكِبانا ذروته الأولى في القرن السادس عشر، بتأثير أساتذة طقس الشاي البوذيين، وتطور على مرّ القرون حتى بلغ عدد مدارسه أكثر من ١٠٠٠. يُعَدُّ كادو واحدًا من الفنون اليابانية الكلاسيكية الثلاثة، إلى جانب كودو (تقدير البخور) تشادو (للشاي وطقس الشاي). وتستعمل مدرسة كانسي لتنسيق الزهور الأسلوب «العاكس للماء». (المترجم)

لعلَّك تستطيع أيضًا أن تؤمّن لي بعضًا من نبتات التيفا. هذه الليلة هي أنسب وقت لذلك. فهل لك أن تجلبها لي إلى دار سَكَني هذا المساء؟

لم أدرك أنه كان يحضُّني فعليًا على السرقة إلا بعد أن وافقت على اقتراحه باستخفاف. فكان من الضروري، في الواقع، أن أصير سارق زهور حتى لا أريق ماء وجهي.

لم نتناول أرزًّا عند العشاء ذلك المساء؛ أكلنا فقط خضارًا مسلوقة وخبزًا ثقيلًا أسود. ولحسن الحظ كنَّا يوم سبت، فكان عدد من أهل المعبد قد خرجوا بالفعل عصرًا. كان السبت يُعرَفُ باسم «ستارة الافتتاح الداخلية»، بحيث يجوز لنا أن نغادر المعبد في وقت مبكر من دون أن نكون مضطرين إلى الإياب حتى الساعة الحادية عشرة. وإلى جانب ذلك، كانت صبيحة اليوم التالي تسمَّى «الاندثار في النوم»، بحيث كان يجوز لنا البقاء في الفراش حتى وقت متأخر. أما الرئيس فكان قد خرج بالفعل.

غربت الشمس أخيرًا في الساعة السادسة والنصف، ثم أخذت الريح تهب. انتظرت صوت جرس الليل الأول. وصدح، عند الساعة الثامنة، صوت جرس أوجيكيتشو الصافي عاليًا إلى يسار البوابة المركزية، معلنًا عن الهزيع الأول من الليل. رنَّ ثماني عشرة مرة، وظل صداه معلَّقًا مدة طويلة في الجو.

كان شلال صغير، بالقرب من السوسي، نصفُه محاطٌ بسدّ غاطس، يحمل الماء من بركة صغيرة محاطة بالأزهار إلى بركة الكيوكو

الكبيرة. ينمو السوسن ههنا بأكبر قدر من الغزارة، وكان استثنائي الجمال في ذلك الوقت. سمعت وأنا أقترب حفيف شتلات السوسن مع رياح الليل. كانت البتلات الأرجوانية الشمّاء ترتجف وسط خرير الماء الهادئ. وكان الظلام دامسًا في ذلك الجزء من الحديقة، فبدا لونُ الأزهار الأرجواني وخضرةُ الأوراق الداكنةُ سوداوين على حدّ سواء. حاولت أن أقطف بضع سوسنات، لكن الريح مكّنت الأزهار والأوراق من تجنُّب يديَّ، حتى إن إحدى الأوراق جرحت إصبعي.

كان كاشيواغي يقرأ كتابًا، عندما وصلت أخيرًا إلى دار يسكنه، والسوسن والتيفا ملءُ ذراعي. خشيت أن أصادف الفتاة المقيمة هناك، والتي صحبتْنا في النزهة، لكنها كانت، على ما يبدو، متغيّبة لحسن الحظ.

كنت مبتهجًا بما غنمت من سرقتي الصغيرة. كان أول الأمور المتولّدة دومًا عن احتكاكي بكاشيواغي، أفعالًا فاسدة صغيرة؛ انتهاكاتٍ صغيرةً؛ شرورًا صغيرة. وهذه كانت تبهجني دومًا، لكنني لم أكن أعلم إن كان من شأن زيادة مطّردة في مقدار هذا الشر، أن تؤدي إلى زيادة مقابلة في انشراحي.

سُرَّ كاشيواغي بهديتي. ذهب إلى غرفة صاحبة الدار ليستعير دلوًا وسائر الأدوات المتنوعة اللّازمة لتنسيق الزهور. دارُ السَّكَن عبارة عن بناء ذي طابق واحد، وكان كاشيواغي يقيم بغرفة صغيرة في مبنى ملحق به.

تناولت نايه الذي كان مسنودًا إلى التوكو، (الفجوة داخل الجدار)

فوضعت شفتيَّ على المنقار وحاولت عزف قطعة موسيقية قصيرة. أفلحت في ذلك أيَّما إفلاح، وهو ما فاجأ كاشيواغي الذي كان عائدًا لتوِّه إلى غرفته. غير أن كاشيواغي الذي التقيته ذاك المساء، لم يكن كاشيواغي نفسه الذي زار المعبد الذهبي.

«من أين لك عدم التأتأة بتاتًا حين تعزف الناي؟! كنت آمل سماع صوت الموسيقى تتأتئ حين لقَّنتُك العزف!»

جرَّنا القهقرى بهذه الملاحظة وحدها إلى الموقف الذي حدث حين التقينا أول مرة. استردَّ موقعه. انتهزتُها فرصةً، عند ذاك، متظاهرًا بعدم الاكتراث، للسؤال عما جرى للشابة من البيت الإسباني الطراز.

«أوه، تلك البنت؟» أجاب ببساطة. «لقد تزوجت منذ دهر. مع أني لم أوفر حيلة إلا وأشرتُ بها عليها لتخفي أمر كونها لم تعد عذراء. لكن زوجها من نمط الرجال الأصحاء، الأبرياء، ويبدو أن الأمور جرت على ما يرام».

وأخرج السوسنات، وهو يتكلَّم، واحدة بعد الأخرى، من إناء الماء الذي كانت منقوعة فيه، وراح يتفحَّصها بأناة. ثم وضع المقص في الإناء وأخذ يقطع سيقانها في الماء. كان ظل الزهرة الضخم يتحرك عبر أرضية الغرفة المغطاة بحصير القش في كلِّ مرة يمسك بسوسنة بيده. ثم قال فجأة: «هل تعرف العبارات الشهيرة في فصل «استنارة العامَّة» من الرنزايروكو؟ «حين تلتقي البوذا اقتلِ البوذا! حين تلتقي سَلَفكَ اقتلْ سَلَفك!»...» أكملت:

«حين تلتقي أحدَ تلاميذ البوذا اقتلِ التلميذ! حين تلتقي والدَيكَ اقتلْ والدَيك! حين تلتقي نسيبَك اقتلْ نسيبَك! بذا فقط تبلغ الخلاص»(*).

«صحيح. وهذا ما كان عليه الوضع كما ترى. تلك الفتاة كانت من تلاميذ البوذا».

«وبذلك خلصت نفسك؟»

«مممم...»، قال كاشيواغي وهو ينسّق بعض السوسنات التي قصَّها ويحدّق إليها. «لعلمك، القتل مسألة أعمق من ذلك كثيرًا».

كان إناء الزهور مليئًا بماء رائق؛ كان مطليًّا من الداخل بلون فضي. تفحَّص كاشيواغي حامل الزهور، وثبَّت بعناية واحدةً من السنابل كانت منحنية قليلًا. شعرت بضيق في الصدر، فحاولت أن أملأ الصمت بالدردشة.

«تُرى، هل تعرف المسألة عن الأب نانسِن والهريرة؟ استدعانا الرئيس مجتمعين فور انتهاء الحرب، وألقى علينا موعظة عنها».

«أوه، «نانسِن يقتل هريرة»؟» قال كاشيواغي وهو يعيّن طول نبتة تيفا ممسكًا بها أمام حوض الزهور. «تلك مسألة يقع عليها المرء

(*) لِنجي يِشوان (باليابانية: رنزاي غيغن؛ توفي سنة ٨٦٦): مؤسّس مدرسة لِنجي (رنزاي) من بوذية تشان (زن) في إبّان عهد أسرة تانغ الصينية. تستند المعلومات التي وصلتْنا عن لِنجي إلى الرنزايروكو، «مدوَّنة أحاديث رنزاي». لم يكتمل الشكل النهائي لهذه الأحاديث إلا بعد مرور ٢٥٠ سنة على وفاة صاحبها، ولعلَّها تعكس تعليم مدرسة لِنجي للتشان في بداية عهد أسرة سونغ، وليس تعليم لِنجي على وجه الحصر. (المترجم)

بغتة عدة مرات في حياته، وكلَّ مرة في صورة مغايرة بعض الشيء. إنها مسألة مرعبة نوعًا ما، كما تعلم. وكلَّما وقعتَ عليها عند منعطف ما من منعطفات حياتك، تراها تتغير في مظهرها ومعناها معًا، مع أن المسألة نفسها تبقى هي هي. دعني أولًا أخبرك بأن الهريرة التي قتلها الأب نانسِن كانت مخلوقًا عفريتًا! ولعلمك، كانت جميلة، بل لا يضاهي جمالها. عيناها ذهبيتان، وفراؤها لامع. لذَّات هذا العالم ومفاتنه كلُّها كانت مثنيَّة ومشدودة كالرفاص في جسمها الصغير الطري ذاك. لقد نسي معظم المعلقين أن يذكروا أن الهريرة كانت صرَّة من الجمال، ما عداي، طبعًا. قفزت الهريرة بغتة من أجمة من الحشائش. عيناها الوادعتان، الماكرتان، كانتا تشعَّان، وقد أمسك بها أحد الكهنة؛ بالضبط كأنَّما فعلت الأمر كلَّه عن قصد. وهذا ما تسبَّب بالشجار بين قاعتَي المعبد. لأن الجمال ليس ملكًا لأحد مع أنه يبيح ذاته للجميع. دعني أفكر...

«كيف أعبِّر عن الأمر؟ الجمال – أجل، الجمال مثل ضرس مسوّس. إنه يحتكُّ بلسانك، يعتصم هناك، فيوجعك، مصرًّا على وجوده. يتفاقم الأمر أخيرًا حتى إنك لا تطيق الوجع أكثر، فتذهب إلى طبيب الأسنان ليقتلع لك الضرس. وأنت تنظر، إذ ذاك، إلى الضرس الصغير، القذر، البني، المبقَّع بالدم، هامدًا في راحة يدك، تنحو خواطرك على الأرجح إلى التسلسل كما يلي: «أهذا هو؟ أهذا كلُّ ما كان في الأمر؟ ذاك الشيء الذي سبَّب لي كلَّ هذا الوجع؛ الذي جعلني أقلق من وجوده على الدوام؛ الذي كان متجذِّرًا فيَّ

بعناد، هو الآن مجرَّد شيء ميت. ولكنْ هل هذا الشيء هو عينه ذاك الشيء حقًّا؟ إذا كان هذا الشيء ينتمي أصلًا إلى وجودي الخارجي، فلماذا، عبر أيّ نوع من التدبير الكوني، صار مرتبطًا بوجودي الداخلي، وأفلح في أن يسبّب لي كلَّ هذا الوجع؟ على أيّ أساس كان وجود هذا المخلوق قائمًا؟ هل كان هذا الأساس فيَّ أنا؟ أم أنه كان منطويًا ضمن هذا المخلوق إيَّاه؟ بيد أن هذا المخلوق الذي اقتُلِعَ من فمي، والهامد الآن في يدي، هو شيء مغاير كليًّا. لا يمكن قطعًا أن يكون ذاك؟»

«كذلك، كما ترى، هو الجمال»، قال كاشيواغي متابعًا. «لذلك، فإن قتل الهريرة بدا بالضبط مثل اقتلاع ضرس مسوّس، مثل اجتثاث الجمال. بيد أن من المشكوك فيه إن كان هذا حقًّا حلًّا نهائيًّا أم لم يكن. إذ إن جذر الجمال لم يُجتَثّ. وعلى الرغم من أن الهريرة ماتت، فإن جمال الهريرة لم يزل حيًّا على الأغلب. إذًا، كما ترى، فمن أجل أن يهجو جوشو استخفافَ هذا الحلّ، وضع ذينك النعلين على رأسه. كان يعلم، إذا جازت العبارة، بأنه ما من حلّ ممكن ثمة غير مكابدة وجع الضرس المسوّس».

جاء تأويل كاشيواغي هذا للقصة مبتكرًا تمامًا، لكني لم أملك إلا أن أتساءل إن لم يكن هو نفسه، وقد استشفّ ما في قلبي حتى الصميم، الذي يهجو على حسابي أنا. صرت حقًّا، للمرة الأولى، خائفًا منه. خشيت البقاء ساكتًا فعاجلتُه بالسؤال: «مَن منهما أنت؟ الأب نانسِن أم جوشو؟»

«حسنًا، دعني أفكر. كما هي الأمور عليها الآن، أنا نانسِن وأنت جوشو. لكنك ذات يوم قد تصبح نانسِن وقد أصبح جوشو. هذه المسألة تتقلَّب بطريقة تشبه عينيّ قطة».

كانت يدا كاشيواغي تتحركان برهافة بينما يتكلَّم، تعدّلان أولًا موضع حامل الزهور الصدئ الصغير في الإناء، ثم تغرسان نبتة التيفا التي شغلت دور السماء في النسق، ثم تضيفان السوسنات التي سوَّاها على تشكيلةٍ من ثلاث أوراق، تشكّل رويدًا رويدًا نسق زهور من مدرسة كانسوي. كانت كومة من الحصى الضئيلة، المغسولة جيدًا، بعضها أبيض وبعضها الآخر بني، تنتظر إلى جانب الإناء أن تُستعمَل لوضع اللمسات النهائية.

لا يمكن لحركة يديّ كاشيواغي أن توصف إلا بأنها كانت بديعة. وراحت مفاعيلُ التضاد والتناظر تتلاقى، قرارًا صغيرًا بعد قرار، وتتشكَّل ببراعة فنيَّة لا تعرف الزلل. وجيء بنباتات الطبيعة، ووُضِعَتْ بحيوية تحت سطوة ترتيب مصطنع، وجُعِلَتْ متناسقة في نغمة أصيلة. الأزهار والأوراق التي كانت موجودة سابقًا كما هي عليه، تحوَّلت الآن إلى أزهار وأوراق كما يجب أن تكون. لم تعد التيفا والسوسنات نباتات فردية، مجهولة، تنتمي إلى جنس كلّ منها، لكنها أصبحت تجلّياتٍ مختزلة، مباشرة، لما يجوز أن يسمَّى جوهر السوسن والتيفا.

كانت حركة يديه، مع ذلك، توحي بشيء من القسوة. كانتا تتصرفان كما لو أنهما تتمتعان بامتياز موحِش، مزعج، في ما يتصل

بالنباتات. وربما بسبب هذا كان يلوح لي أن في وسعي أن أستبين دمًا يقطر في كلّ مرة كنت أسمع فيها صوت المقص وأرى ساق إحدى الأزهار وهي تُقَصُّ.

اكتمل نسق زهور الكانسوي الآن. كانت إحدى الأزهار متفتحة، والزهرتان الأخريان برعمين وعلى وشك التفتح، إلى الجانب الأيمن من الإناء، حيث يندمج الخط المستقيم للتيفا مع الانحناء الخالص لأوراق السوسن. وضع كاشيواغي الإناء في تجويف الحائط فكاد يملأ الفضاء بأسره. وسرعان ما سكن الماء في الإناء. كانت الحصى تخفي حامل الزهور وتترك في الوقت نفسه بدقة انطباعًا شفيفًا بوجود حافة للماء.

«بديع!» قلت. «أين تعلّمت هذا الفن؟»

«ثمة امرأة تقيم على مقربة من هنا وتعطي دروسًا في تنسيق الزهور. إنها قادمة هنا في أيّ دقيقة الآن، على ما أتوقع. لقد ضربتُ صحبة مع هذه المرأة، وراحت تعلّمني في الوقت نفسه، تنسيق الزهور. ولكن، ما دمت أستطيع الآن صنع هذا النوع من التنسيق بمفردي، فقد بدأت أضيق ذرعًا من الأمر برمّته. إن هذه المعلمة لا تزال في ريعان شبابها، وفاتنة. عرفت منها أنها صاحبت في أثناء الحرب ضابطًا في الجيش وحملت منه. وُلد الطفل ميتًا، وقُتِلَ العشيق في الحرب. وهي ترتمي على الدوام في أحضان الرجال منذ ذلك الحين. لديها مدخرات مريحة من حرّ مالها تنفق منها، ومن الواضح أنها تعطي هذه الدروس على سبيل الهواية فقط. في

أيّ حال، لو أحببت، يمكنك اصطحابها إلى مكان ما هذا المساء. ستذهب إلى أيّ مكان».

استبدَّت بي مشاعر شديدة التشويش وأنا أسمع هذا الكلام. كان تسوروكاوا إلى جانبي، حين رأيتُها من أعلى بوابة معبد نانزِن. والآن، بعد انقضاء ثلاث سنوات، مقيَّض لها أن تظهر أمامي، ومقيَّض لي أن أراها، بدلًا من ذلك، عبر عينَيّ كاشيواغي. ما فتئتُ حتى الساعة أنظر إلى مأساة هذه المرأة بنظرة مشرقة يكتنفها غموض؛ إنما سأراها بالنظرة القاتمة لشخص لا يؤمن بشيء. من الآن فصاعدًا. فالواقع الصارخ كان أن ثديها الذي رأيته من بعيد مثل قمرٍ أبيضَ في وضحِ النهار، قد لمسَتْه منذ ذلك الحين يدا كاشيواغي، وأن ساقيها المغلّفتين يومذاك بذلك الكيمونو الوهّاج البديع قد لمستهما رِجلا كاشيواغي المعوجّتان. يمكن القول، عن معرفة، أن كاشيواغي قد دنّسها بالفعل.

عذّبني هذا الخاطر كثيرًا، وجعلني أشعر بأني لم أعد أستطيع البقاء حيث كنت. ومع ذلك، فقد منعني الفضول من المغادرة. كنت أنتظر في الواقع بفارغ الصبر وصولَ هذه المرأة التي رأيتها في الأصل بصفتها تجسيدًا لأويكو، إنما التي كانت الآن على وشك الظهورِ بصفتها العشيقة المنبوذة من طالب معوق. وكنت على استعداد للتلذُّذ الموهومِ بتدنيس ذكرياتي النفيسة بيديَّ هاتين، بما أني قد صرت الآن شريكًا لكاشيواغي.

لم أشعر، عندما وصلت المرأة، بأدنى رعشة من الإثارة. لا أزال

أتذكر تلك اللحظة بوضوح. صوتها المبحوح قليلًا ذاك؛ سلوكها المولع بالمراسيم وطريقتُها الرسمية في الكلام، اللذان يناقضان مناقضةً صارخةً تلك النظرةَ الوحشية الملتمعة في عينيها؛ الحزن المنبعث من نبرة صوتها كلَّما كلَّمت كاشيواغي، على الرغم من شعورها الواضح بالحرج من حضوري. رأيت هذا كلَّه ثم فهمت، للمرة الأولى، لماذا دعاني كاشيواغي إلى غرفته ذلك المساء: كان في نيَّته أن يستخدمني حاجزًا.

لم تكن ثمة صلة بين هذه المرأة وبين بطلة رؤياي. أعطتْني انطباعًا بأنها فرد مختلف كليًا أراه للمرة الأولى. وعلى الرغم من أنها لم تبدّل طريقة كلامها المهذَّبة، فإني تبيَّنت أنها كانت تدخل تدريجيًا في حالة اضطراب شديد. لم تولِني أدنى انتباه.

بدا، أخيرًا، أن شقاءها أضحى لا يطاق، واعتراني انطباع بأنها قررت أن تتخلَّى عن جهودها، لفترة وجيزة، لحمل كاشيواغي على تغيير رأيه. تظاهرتْ بأن حدَّة انفعالها قد هدأت فجأة، وجالت بطَرفها في الغرفة. وبدا واضحًا أنها لحظت نسق الزهور المنصوب جليًّا في التوكو للمرة الأولى، مع أنها كانت هناك منذ نصف ساعة.

«هذا تنسيق كانسوي رائع»، قالت. «لقد أتقنتَ حقًّا صنعَه».

لم يكن كاشيواغي ينتظر منها أن تقول غير هذا، فانتهزها فرصة لوضع حدّ نهائي للأمور.

«ليس سيئًا جدًّا، أليس كذلك؟» قال، ثم أردف: «لا يوجد

حقًّا شيء أكثر من ذلك في وسعكِ أن تعلّميني إيَّاه. بما أني قد بلغت هذا المستوى من الإتقان. لم أعد في حاجة إليك. نعم، أنا أعني ما أقول!»

نطق كاشيواغي ذلك مشددًا على كلامَه. لحظتُ اللون ينضب من وجه المرأة، وأشحتُ بوجهي عنها. بدا أنها تضحك ضحكة خفيفة، لكنها لم تتخلَّ مع ذلك عن مسلكها المولع بالرسميات، وهي تتقدَّم على ركبتيها نحو التوكو. سمعتُها عندئذٍ تقول: «ماذا؟ أيُّ جنس من الزهور هي هذه؟ نعم، ما هي؟» وكان الماء في لحظة واحدة، مدلوقًا كلُّه على الأرضية، ووقعتْ نبتات التيفا أرضًا، ومُزِّقَتْ أزهار السوسن المتفتحة أشلاء: أمست هامدة جميعُ الأزهار التي غنمتُها بسرقتي، يختلط بعضها ببعض في فوضى عارمة. كنت راكعًا على الأرضية، لكني قفزت الآن تلقائيًا واقفًا على قدميَّ. واتكأت على النافذة إذ لم أدرِ ما أفعل. رأيت كاشيواغي يقبض على المرأة من معصميها المرهفين. ثم شدَّها بشعرها وصفعها على وجنتها. كشفتْ سلسلةُ الأفعال الخشنةُ التي أتاها كاشيواغي، عن تلك القسوة الهادئة بعينها التي لحظتها قبل ذلك بقليل وهو يقصُّ أوراق الزهور وسيقانها. بدت بالفعل كأنها امتداد طبيعي لحركاته السابقة.

غطَّت المرأة وجهها بكلتا يديها، وركضت خارج الغرفة. أما كاشيواغي، فقد رفع بصره إليَّ، وأنا واقف هناك، وعلى وجهي تعبير ينمُّ عن الذهول. رمقني بابتسامة طفولية غريبة، قائلًا: «حانت فرصتك الآن. الحقْ بها! حاول أن تواسيها! هيَّا، بسرعة!»

أخذت ساقاي بالتحرك على الفور، وتعقَّبت المرأة. لم أدرِ إن كان ما دفعني إلى ذلك هو سطوة ما أمرني به كاشيواغي، أم هو نوع من التعاطف معها شعرت به في قلبي. لحقت بها على بعد بضعة بيوت من دار السَّكن. كان ذلك في إحدى زوايا إيتاكوراماتشي خلف هنغار كاراسوما للتراموای. كان في وسعي، تحت السماء الغائمة، أن أسمع قرقعة الترامواي وهو يدخل الهنغار، وأرى الشرارات الأرجوانية الصغيرة تقدح متلاشيةً في الظلمة. سارعت المرأة إلى الابتعاد عن إيتاكوراماتشي، ومضت في اتجاه الشرق، وانعطفت في أحد الأزقة الفرعية. سايرتُها في المشي من دون أن أتفوَّه بكلمة واحدة. كانت تبكي، ثم طفقتْ، بصوت بات أشد بُحَّةً من المعتاد بسبب دموعها، تشكو إليّ بإسهاب سيئات كاشيواغي.

لَكَم طال بنا المشي معًا عبر الشوارع، تلك الليلة! وهي تقرع أذنيَّ بسيئات كاشيواغي وتُفشي لي بكلّ الدناءة المقزَّزة في سلوكه تجاهها، كانت الكلمة الواحدة التي سمعتُها تتردَّد في هواء الليل هي: «الحياة». خسَّته؛ أحابيله الوضيعة؛ خياناته؛ قسوته العديمة القلب؛ - حيله لابتزاز المال من النساء؛ لم ينفع هذا كلُّه إلا في تفسير سحره الحاذق. الأمر الوحيد الذي كنت أنا في حاجة إلى تصديقه هو صدق كاشيواغي بخصوص رِجليه المعوجّتين.

عشت مدة طويلة من دون ملامسة الحياة ذاتها، بعد موت تسوروكاوا المفاجئ. ثم تنشطت أخيرًا عن طريق ملامسة شكل جديد من الحياة؛ حياة أكثر قتامة، لكنها أقل تعاسة، كانت تقتضي

باستمرار إيذاء أناس آخرين ما دام المرء حيًّا. انبعثْ حيةً مرة أخرى واستهوتْني كلماتُ كاشيواغي البسيطة: «القتل مسألة أعمق من ذلك بكثير!». وممّا تذكرتُه أيضًا في تلك اللحظة هو الدُّعاء الذي نطقتُ به حين تسلَّقتُ الجبل خلف المعبد عند نهاية الحرب، وأنا أنظر شزرًا إلى أضواء المدينة التي لا تحصى: «فليعادلْ ظلامُ قلبي ظلامَ الليل الذي يحيط تلك الأضواء التي لا تُحصى!»

لم تكن المرأة عائدة سيرًا إلى بيتها. وراحت، بدلًا من ذلك، تهيم بلا هدف عبر الأزقة، حيث لم يكن هناك سوى القليل من المارة، وفي وسعها أن تتحدث بحرية. ولم أدرِ البتة في أيِّ جزء من المدينة نحن، عندما وصلنا أخيرًا أمام البيت الذي تقيم به بمفردها.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف. أردت العودة إلى المعبد، لكن المرأة أقنعتني بألا أتركها؛ فدخلت البيت معها. تقدَّمتْني وأشعلت الضوء.

«هل سبق لك يومًا أن لعنت أحدهم وتمنيت له الموت؟» قالت بغتة.

«أجل»، أجبت في الحال. استغربتُ أن الأمر لم يخطر في بالي حتى تلك اللحظة، بحيث اتضح لي أني ما فتئت أترجَّى موت فتاة دار السَّكَن؛ الفتاة التي كانت شاهدةً على عاري.

«إنه أمر رهيب»، قالت وهي تتهالك على الأرضية المغطاة بحصير من القش، متخذةً وضعيةً جانبية. «أنا أيضًا فعلت».

كانت غرفتها مضاءةً إضاءةً استثنائيةَ السطوع في أيام تقنين الكهرباء تلك. لا بدَّ من أن قدرة المصباح كانت نحو مئة واط، أقوى من المصباح في غرفة كاشيواغي بثلاث مرات. رأيت للمرة الأولى جسم المرأة مضاءً بوضوح. كان ناصع البياض ومشاحها من طراز ناغويا، وكانت بارزة بوضوح الغشاوةُ الأرجوانية لتعريشات أزهار شجر الوستارية التي كانت تشكل نقشة الكيمونو الذي ترتديه والمصبوغ بطريقة تمنع تحلل الألوان.

كانت قمة البوابة في معبد نانزِن تبعد عن قاعة صومعة تنجوان المخصصة للزوار مسافةً لا يقطعها إلا طائر، لكني شعرت الآن بأني ما فتئت أعبُر هذه المسافة تدريجيًا طوال كل تلك السنين، وبأني كنت أدنو الآن من مقصدي أخيرًا. منذ ذلك العصر على البوابة، وأنا لا أنفك أقطِّع الزمنَ جزيئات ضئيلة، وقد لاح لي الآن أني أقترب فعليًّا من معنى ذلك المشهد الغامض في تنجوان. «كان لا بدَّ للأمر من أن يحدث»، فكرت. لقد تحتَّم على هذه المرأة أن تتغير، تمامًا مثلما يتحتَّم على معالم الأرض أن تتغيَّر في غضون الوقت الذي يستغرقه الضوءُ القادم من نجم قصيّ للوصول إليها أخيرًا. لو أني وإيَّاها، تَواكبنا في ترقُّب لقائنا اليوم منذ رأيتُها عند بوابة معبد نانزِن، لَربما أمكن لتغيرات كالتي طرأت عليها مذ ذاك أن تمَّحي. لأَمكن بقليلٍ من التعديلات الطفيفة فقط استعادة الأمور إلى حالتها السابقة، ولأَمكن لـ«أنا» السابق أن يقف وجهًا لوجه مع «هي» السابقة.

رويت، لها القصة بسبب ذلك. رويتُها متقطّع الأنفاس، متأنّيًا بلا توقف. أخذت الأوراق الخضر تبرق مجددًا وأنا أتكلّم؛ وانبعثتْ حيةً من جديد والملائكةُ وطائر الهو الرائع(*) المرسومة على سقف المعبد. وسرى لون نضر في وجنتَي المرأة، وانقلب إلى نظرة ملتبسة مشوَّشة البريقُ الوحشي السابق في عينيها.

«أهذا ما حدث، إذن؟» قالت. «ربّاه! هذا ما حدث حقًّا، أليس كذلك؟ يا له من كارما(**) عجيب! أجل، هذا ما تعنيه عبارة كارما عجيب!»

اغرورقت عيناها بدموع فرح فخور، وهي تتكلّم. تناست مذلّتها مؤخرًا، وارتمت القهقرى في كنف الذكريات عوضًا عن ذلك. انتقلتْ مباشرة من انفعالٍ إلى انفعالٍ آخر، فاعتراها ما يشبه المَسّ. وأسفل الكيمونو، بنقشة أزهار الوستارية عليه، ألـمَّتْ به فوضى عارمة.

«ليس لديَّ أيُّ حليب الآن»، قالت. «أوَّاه، يا طفلي الصغير

(*) هو عينه طائر الكالافِنكا (انظر الفصل الثاني، الهامش ٩). (المترجم)

(**) كارما: كلمة مشتقة من الجذر السنسكريتي كر، وتعني «الفعل» أو «العمل»، وتشير إلى مبدأ العلة والمعلول الروحي، بحيث تؤثّر نيات الفرد وأفعاله (العلّة) في مستقبل ذلك الفرد (المعلول). يطلق عليه أحد الفلاسفة «قانون انحفاظ الطاقة الأخلاقية»، إذ تساهم النيّة الطيبة والعمل الصالح في رصيد الكارما الإيجابي والسعادة المستقبلية، بينما تساهم النيّة السيئة والأفعال الطالحة في رصيد الكارما السلبي والشقاء المستقبلي. ويرتبط قانون كارما ارتباطًا وثيقًا بفكرة العودة إلى الجسد أو التقمُّص ودورة الولادة والموت (سَمْسارا) في عدد من مدارس أديان الهند والشرق الأقصى، ومنها البوذية، بحيث يعود الأفراد المتوادّون والمتباغضون في عمر سابق، ويتلاقون في العمر اللاحق. (المترجم)

المسكين! لا، ليس لديَّ أيُّ حليب، لكنني سأفعل من أجلك الآن ما فعلتُه وقتذاك، سأعتبر أنك ذلك الرجل بعينه، بما أنك قد أحببتَني منذ ذاك الحين. وما دام في وسعي أن أعتقد ذلك، فليس لديَّ ما أخجل منه. أجل، حقًّا، سأفعل ما فعلتُه وقتذاك بحذافيره».

تكلَّمتْ كأنها تنطق بحُكم جسيم. وفعلتُها التي تَلَتْ، بَدَتْ ناجمةً، إمَّا عن فيض من النشوة، وإمَّا عن فيض من اليأس. أحسب أنها كانت، عن وعي، مقودةً بالنشوة إلى تلك الفعلة المشبوبة بالعاطفة، لكن القوة الحافزة الحقيقية كانت اليأسَ الذي أصابها به كاشيواغي، أو كانت على الأقل بقيةً ملحاحًا من مذاق ذلك اليأس.

وهكذا، كان أنها حلَّت لَفاع مَنطقتها أمام عيني، وفكَّت عُقَدَ مختلف الحبال. انفضَّت المنطقة، إذ ذاك، بصيحة حريرية. وإذ أفلتَ عنقُ عنق من قيده انفتح تلقائيًا. استطعت أن أتبيَّن بغموض ثديي المرأة الأبيضين. دسَّت يدها في الكيمونو، فغرفت بها ثديها الأيسر وأباحتْه لي.

لن أُصدَّقَ إن قلت إني لم أشعر بالدوار. نظرت إلى ثديها. نظرت إليه بإمعان شديد. بيد أني لبثت في دور الشاهد. تلك النقطة البيضاء الغامضة التي رأيتُها من بعيد من أعلى بوابة المعبد، لم تكن كرةً ماديةً من اللحم كهذه. فالانطباع ما انفك يختمر فيَّ، وكان الاختمار من الطول، بحيث إن الثدي الذي رأيتُه الآن بدا مجرَّد لحم؛ بدا غرضًا ماديًا فحسب. لم يكن هذا اللحم، في حدِّ ذاته، يتصف بالقدرة على الإغراء أو الغواية. وكان، مكشوفًا

أمامي، ومفصولًا عن الحياة تمامًا، بمثابة برهان على وحشة الوجود فحسب.

غير أني لا أريد أن أقول شيئًا غير صحيح. فما من شك في أن مرأى ثديها الأبيض أصابني بالدوار. مشكلتي أن ما رأيته، من فرط إمعان النظر وتمامه، تخطّى مرحلة كونه ثدي أنثى، فتحول تدريجيًا إلى قطعة عديمة المعنى.

حصلت العجيبة في تلك اللحظة بالذات. صعقني أخيرًا ثدي المرأة بجماله، بعد أن كابد هذه السيرورة الموجعة. أصبح متّسمًا بخصائص الجمال العقيمة والقارسة. وبينما ظل الثدي أمامي راح ينغلق ببطء على نفسه ضمن مبدأ ذاته. بالضبط كما تنغلق الوردة على نفسها ضمن مبدأ ماهية الوردة. يصل الجمال متأخرًا لديّ. يفطن غيري من الناس إلى الجمال بسرعة، ويكتشفون الجمال والرغبة الحسّية في اللحظة عينها. أما لديَّ، فهو يأتي دومًا في وقت لاحق جدًّا. والآن، استردَّ ثديُ المرأة ارتباطَه بالكل، في آنةٍ واحدة، وتغلَّب على حال كونه مجرَّد لحم، وأصبح جوهرًا ماديًّا فاقد الحس، خالدًا، متصلًا بالأبدية.

أرجو أن يكون ما قلته مفهومًا. ظهر المعبد الذهبي مرة أخرى أمامي؛ أو بالأصح، ينبغي لي أن أقول إن الثدي تحوَّل إلى المعبد الذهبي.

تذكرتُ ليلة الإعصار عند أول الخريف حينما تولَّيت الحراسة ساهرًا في المعبد. مهما يكن مقدار انكشاف البناء لنور القمر،

فقد خيَّمتْ فوقه ظلمةٌ ثقيلة، وارفة، وتوغَّلتْ في المعبد الليلي؛ في المصاريع؛ في الأبواب الخشبية؛ تحت السقف برقائق ذهبه المتقشرة. وكان هذا طبيعيًّا للغاية. إذ إن المعبد الذهبي ذاته كان محض عَدَم صُمّم وشُيّد بعناية فائقة الرفعة. وبالمثل، على الرغم من أن ظاهر هذا الثدي يبثُّ إشعاع اللحم البهيّ، فإن باطنَه كان مترعًا بالظلمة. كان جوهر قوامه الحقيقي من تلك الظلمة الثقيلة الوارفة عينها.

لم يُسكِرْني فهمي قطعًا. كان فهمي مَداسًا للأقدام، ومسخرة؛ فالحياة والرغبة الحسّية، بطبيعة الحال، تكابدان السيرورة نفسها. لكن شعوري العميق بالنشوة لازَمَني، فلبثتُ فترة طويلة كأني مشلول قبالة ثدي المرأة العاري.

كنت لا أزال جالسًا هناك عندما واجهت نظرةَ المرأة الباردة، المزدرية. أعادت ثديَها إلى داخل الكيمونو. أخبرتُها بأني يجب أن أنصرف، فتبعتْني إلى المدخل وصفقتْ الباب ورائي ليحدث جلبة.

ظللت مستغرقًا في نشوة الوَجْد حتى عودتي إلى المعبد. كان في وسعي، في عين عقلي، أن أبصر المعبد الذهبي وثدي المرأة مُقبِلَين ومُدْبِرَين، واحدهما في إثر الآخر. طغى عليَّ شعورٌ عاجز بالفرح.

خمدتْ معنوياتي تدريجيًّا، مع ذلك، حين بدأت ملامح المعبد بالظهور مرتسمةً عبر حلكة غابة الصنوبر التي كانت تئنُّ مع الريح. وطغى شعوري بالعجز، وانقلبتْ نشوتي إلى كراهية؛ كراهية لأمر لا أعرفه.

«جافتْني الحياة، مرة ثانية، سُلِخْتُ عنها!» فكرت. «لماذا يحاول المعبد الذهبي أن يحميني؟ لماذا تراه يحاول أن يفصلني عن الحياة من دون أن أسأله ذلك؟ قد يكون أنه يحفظني طبعًا من السقوط في الجحيم. لكنه يجعلني بذلك أَشَرَّ حتى من أولئك الناس الذين يسقطون فعليًا في الجحيم، إنه يجعل مني الرجل الذي خَبِرَ الجحيم أكثر من أي أحد».

كانت بوابة المعبد الرئيسية سوداء وهادئة. أما الضوء الذي لا يُطفَأ قط قبل قرع ناقوس الصباح فكان يشعُّ خافتًا عند البوابة الجانبية. دفعتُ البوابة الجانبية. كان في وسعي، في الداخل، سماعُ صوت السلسلة الحديدية القديمة الصدئة وهي تشدُّ الوزنَ إلى الأعلى. انفتح الباب. كان حارس البوابة قد ذهب بالفعل إلى النوم. وثمة لافتةٌ في الجانب الداخلي من البوابة تقول إن إقفال البوابة من مسؤولية آخر شخص يعود بعد الساعة العاشرة. وتدلّ اثنتان من لوحات الأسماء الخشبية على أن صاحبيهما لم يعودا بعد. كانت إحداهما لوحة الرئيس، والثانية لوحة البستاني العجوز.

لمحتُ، وأنا أسير نحو المعبد عددًا من الألواح الخشبية بطول خمس أذرع تقريبًا، كانت قيد الاستعمال في بعض أعمال الترميم. كان في وسع المرء أن يبصر، حتى ليلًا عروق الخشب الخفيفة. رأيت، عندما اقتربت أكثر، نشارةَ الخشب متناثرة حول المكان، مثل زهور صفراء صغيرة. كانت رائحة الخشب الآسرة تسري في ثنايا العتمة. عدت أدراجي قبل دخول المطبخ، وذهبت لإلقاء نظرة

أخيرة على المعبد الذهبي. سرت في الدرب المتجه صوبه. أخذ البناء يظهر للعيان، رويدًا رويدًا. كان محاطًا بحفيف الأشجار، قائمًا هناك لا يحرك ساكنًا، إنما كان يقظًا تمامًا في خضم الليل، كما لو أنه كان حارس الليل بالذات. على الرغم من أن القسم السَّكَني من الروكونجي كان يخلد إلى النوم ليلًا، فإنه لم يسبق لي أن رأيت المعبد الذهبي نائمًا. كان هذا المبنى غير المسكون قادرًا على نسيان النوم. فالظلمة الثاوية ضمنه كانت في حِلٍّ من قوانين البشر.

خاطبتُ المعبد الذهبي بفظاظة إذ ذاك، بنبرة أشبه باللعنة، للمرة الأولى في حياتي: «سأحكمك بالتأكيد يومًا ما. أجل، ستخضع لسلطاني في يوم من الأيام، بحيث لا تتمكن أبدًا من عرقلة طريقي مرة أخرى».

وكانت ظلال الليل على صفحة بركة كيوكو تردّد صدى صوتي.



الفصل السابع

يبدو أن نوعًا من الشيفرات كان يعمل في تجربتي العامة في الحياة. تنعكس الصورة الواحدة مرارًا وتكرارًا، إلى عمق لا نهاية له كما هي الحال في دهليز المرايا. الأشياء التي رأيتها في الماضي راحت تنعكس بوضوح على الأشياء التي أصادفها للمرة الأولى، فشعرت بأني مقود بواسطة تشابهات كهذه إلى باطن تجاويف هذا الدهليز الداخلية؛ إلى باطن حجرة داخلية لا يُسبَر غورها. نحن لا نصطدم بقَدَرنا فجأة. فالرجل المقدَّر له أن يُعدَمَ في وقت لاحق من حياته لا ينفك في ذهنه، كلَّما رأى عمودًا تلغرافيًا وهو في طريقه إلى العمل، وكلَّما مرَّ بتصالب للسكك الحديدية، يرسم صورةً لموقع الإعدام، ويصبح متآلفًا مع تلك الصورة.

لم يكن ثمة في خبرتي، بالتالي، أيُّ شيء يمتُّ إلى طبيعة التراكم بصلة. لم يكن ثمة ثخانة من النوع الذي يمكن له أن يشكل

مع الوقت جبلًا بتكديس طبقة فوق طبقة أخرى. لم أشعر بحميمية مع أيّ شيء في العالم باستثناء المعبد الذهبي؛ فبالفعل لم أكن حتى على صلة فيه حميمة بتجاربي الماضية. بيد أن هناك أمرًا واحدًا كنت أعرفه، وهو أنه من بين هذه الخبرات كلّها توجد عناصر صغيرة معيَّنة، عناصر لم يبتلعها بحر الزمن المظلم؛ عناصر لم تَسْتَكِنْ للتكرار العقيم إلى ما لا نهاية، سوف يرتبط بعضها ببعض، وسوف تؤول إلى تشكيل صورة معيَّنة مشؤومة وبغيضة.

ما كانت، إذًا، هذه العناصر المحدَّدة؟ تفكَّرت في الأمر من وقت إلى آخر. ومع ذلك، كانت هذه الشظايا من الخبرة، المتناثرة البرَّاقة، أكثرَ افتقارًا حتى إلى النظام والمعنى، من الشظايا البرَّاقة لزجاجة بيرة مكسورة يلمحها المرء إلى جانب الطريق. لم أقوَ على تصديق أن هذه الشظايا كانت القطع المهشَّمة لشيء قد تشكّل في الماضي بصفته أنموذجًا للجمال الكامل؛ إذ إن كلًّا من هذه الشظايا المرذولة، في خلوّها من المعنى، في افتقارها التام إلى النظام، في بشاعتها الفريدة، ما انفكت تبدو كأنها تحلم بالمستقبل. أجل، على الرغم من كونها مجرد شظايا، فإن كلًّا منها كان لابثًا هناك، ببسالة، بغرابة، بهدوء، حالمًا بالمستقبل! بمستقبل لن يُشفى أو يرمَّم أبدًا ولا يمكن المساس به؛ بمستقبل غير مسبوق بحق!

كانت خواطر ضبابية من هذا النمط تنفحني أحيانًا بنوع من الإثارة الشاعرية ما كنت أستطيع أن أجدها إلا غير لائقة بي. في مثل هذه المناسبات، كنت آخذ نايي وأعزف عليه إلى جانب المعبد الذهبي، إذا جاء الحظ مؤاتيًا وأطلّ القمر. كنت آنذاك قد بلغت

مرحلةً أقدر فيها على عزف لحن كاشيواغي «عربة القصر» من دون أن أنظر إلى الموسيقى. الموسيقى أشبه بالحلم. غير أنها في الوقت نفسه، بالعكس، أشبه بشكل من الوعي أوضح من وعينا، إبّان ساعات يقظتنا العادية. «أيُّهما الموسيقى حقًّا؟» كنت أتساءل. كانت للموسيقى القدرة، في بعض الأوقات، على قَلْب هذين الشيئين المتضادين. وكنت أتمكن بسهولة، في بعض الأحيان، من التجسُّد، إذا جاز القول، في لحن «عربة القصر» الذي أعزفه. كانت روحي تستأنس بفرح التجسُّد في الموسيقى. وكانت الموسيقى عزاءً بحق في حالي، بعكس حال كاشيواغي.

كنت أتساءل كلّما انتهيت من العزف على نايي: «لماذا يُغفِلُ المعبد الذهبي عملي هذا؟ لمَ لا يلومني أو يقاطعني حين أتجسَّد في الموسيقى هكذا؟ لم يَنْهَ عني المعبد، ولا مرة واحدة قطُّ، عندما حاولت التجسُّد في سعادة الحياة وملذاتها. وكان دأبه، في كلّ مناسبة كهذه أن يعرقل جهودي في الحال، ويرغمني على العودة إلى نفسي. فلم لا يجيز السُّكْر والنسيان إلا في حال الموسيقى؟

يتلاشى سحر الموسيقى، كلّما طرأت في بالي هذه الخواطر، بفعل الواقع الصرف بأن المعبد الذهبي أتاح لي هذه اللذة بعينها. فبمقدار ما يمنحني المعبد موافقتَه الضمنيةَ كانت الموسيقى، مهما كان قرب شبهها بالحياة، تُمسي شكلًا متخيَّلًا ومزيفًا من الحياة. ومهما أوتيتُ من محاولة التجسُّد فيها، ما كان لذلك التجسُّد بعينه أن يكون إلا أمرًا موقتًا.

ليس في ودي أن أعطي انطباعًا بأنني أذعنت واعتزلت الميدان نتيجة نكستيَّ مع النساء ومع الحياة. فحتى نهاية سنة ١٩٤٨، أتيح لي المزيد من الفرص المماثلة، ناهيك عن توجيهات كاشيواغي. انتدبت نفسي للمهمة، لا يثنيني عنها شيء. لكن النتيجة كانت دومًا هي هي.

كان المعبد الذهبي يظهر لا محالة بيني وبين الفتاة، وبيني وبين الحياة. ثم، إن الشيء الذي يلامس يدي وأنا أحاول أن أقبض عليه كان ينقلب رمادًا في الحال، ويتحول الأمل أمامي إلى صحراء.

حدث، ذات مرة، بينما كنت أستريح من بعض العمل في الحقل الواقع خلف المطبخ، أن رصدت الطريقة التي كانت تزور بها نحلةٌ أقحوانةً صيفيةً صفراءَ صغيرة. جاءت النحلة طائرةً على جناحيها الذهبيين عبر الضياء الكلّي الحضور، ثم اختارت زهرةً بعينها، من بين الأقحوانات الكثيرة، وراحت تحوّم أمامها. حاولت أن أنظر إلى الزهرة عبر عيني النحلة. كانت الأقحوانة منتصبة هناك، ناشرةً بتلاتها الصفراء التي لا تشوبها شائبة. كانت مثل المعبد الذهبي جمالًا، وتماثله كمالًا، إنما لم يطرأ عليها تحوُّل إلى المعبد وبقيتْ على حالٍ كونها أقحوانة صيفية فريدة. أجل، ظلت أقحوانة صامدة، زهرة واحدة، شكلًا فريدًا من دون أيّ مدلولات ماورائية. تقيّدتْ بقواعد وجودها الخاص، فعبقتْ بفيضٍ من الفتنة، وأصبحتْ غرضًا ملائمًا لرغبة النحلة. أيُّ سرّ كان في كمونها هناك، متنفّسةً، بصفتها غرضًا لتلك الرغبة الطائرة، المتحركة، المتدفقة، العديمة الشكل!

يتخلخل الشكل رويدًا رويدًا، ويصير أقل كثافة، فيبدو كأنما هو على وشك التفتُّت، يرتعش، يرتجف. وهذا أمر طبيعي للغاية، بحيث إن شكل الأقحوانة بالذات مصمَّم لملاءمة رغبة النحلة، ويزهر جمالَه بالذات متفتحًا عن آخره استشرافًا لتلك الرغبة. الآن هي اللحظة التي يوشك فيها معنى شكل الزهرة على الإشعاع في قلب الحياة. الشكل بعينه إنما هو قالب للحياة السارية باستمرار والتي لا شكل لها؛ وطيران الحياة العديمة الشكل هو في الوقت نفسه، قالب لجميع الأشكال في هذا العالم... بذا، فقد انغرزت النحلة في قلب الزهرة، وغرقتْ سُكْرًا إذ اتَّشحتْ بغبار الطلع. والأقحوانة، إذ استقبلت النحلة في جسمها، أصبحت بالذات مثل نحلة باذخة، مكسوَّة بالدروع، صفراء، ورحت أنا أرقبها تنتفض بعنف كأنما هي على وشك أن تفلت طائرةً من ساقها.

الضياء، وهذا الفعل المؤدَّى في غمرة الضياء، جعلاني أشعر بما يشبه الدوار. إذ ذاك، بالضبط وأنا أغادر عيني النحلة وأعود إلى عينيَّ، خطر في بالي أن عينيَّ اللتين كنت أحدّق بهما إلى هذا المشهد كانتا تنظران تحديدًا من موقع عينَيّ المعبد الذهبي. أجل، هكذا كان الأمر. بالطريقة ذاتها التي انكفأتُ بها من عيني النحلة إلى عينيَّ أنا، كذلك في تلك اللحظات، حين كانت الحياة تدنو مني، كنتُ أتخلَّى عن عينَيَّ وأُحِلُّ محلَّهما عينيّ المعبد الذهبي. وكان المعبد الذهبي يحُول بيني وبين الحياة في مثل هذه اللحظات تحديدًا.

عدت إلى عينَي. في هذا العالم الشاسع، الغامض، الحافل بالأشياء، كانت النحلة والأقحوانة الصيفية تبقيان فقط كي «توضعا في الترتيب»، إذا جاز القول. فطيران النحلة وانتفاض الزهرة لا يختلفان في شيء البتة عن صفير الريح. كان كلٌّ شيء يجري على قدم المساواة، في هذا العالم الساكن، الجامد، وصار الآن منقرضًا ذلك الشكلُ الذي عبق لحظةً بكلّ هذا السحر الفاتن. لم تعد الأقحوانة جميلة بحُكم شكلها، وإنما بسبب اسم «أقحوانة» المبهم الذي نطلقه عليها، وبسبب الوعد الذي ينطوي عليه ذاك الاسم. فلأني لست نحلة، لم تُغوِني الأقحوانة. ولأني لست أقحوانة، ما من نحلة كانت تصبو إليَّ. كنت مدركاً لشعور بوجود ارتباط مع تدفق الحياة ومع كل الأشكال التي تحتويها. لكن هذا الشعور اختفى الآن. لقد نُبِذَ العالمُ من جديد إلى النسبية، ووحده الزمن كان يتحرك. لا أودُّ أن أكرر وجهة نظري كثيرًا. كلٌّ ما أريد قوله هو أنه كلَّما ظهر المعبد الذهبي الأبدي والمطلق وحلّت عيناه محلَّ عيني، تحوَّل العالم حولي بالطريقة التي وصفتُها، ووحده المعبد الذهبي كان يحتفظ بشكله ويتصف بالجمال في هذا العالم المتحول، فيقلب كلَّ شيء آخر إلى أصله الترابي. منذ أن دُسْتُ على جسم تلك المومس في حديقة المعبد، وخصوصًا منذ وفاة تسوروكاوا، ما انفككت أردّد لنفسي السؤال: «هل الشر ممكن على الرغم من ذلك؟»

انتهزت فرصة عصر شاغر، ذات يوم سبت من كانون الثاني ١٩٤٨،

لأقصد دار سينما من الدرجة الثالثة. تسكعت، بعد انتهاء الفيلم، في الشينكيوغوكو(*) بمفردي للمرة الأولى منذ زمن بعيد. وجدت نفسي بين حشود الناس فجأة بجوار وجه مألوف جدًا، لكن ابتلعه بحرُ المارّة وتوارى خلفي قبل أن أتمكن من تذكرٍ وجه مَن كان.

كان الرجل يرتدي قبعة من اللبّاد ومعطفًا أنيقًا ووشاحًا، ويسير مع فتاة تلبس سترةً لونها الأرجواني مائل إلى الصدأ، وقد بدا واضحًا أنها من الغيشا(**). وجه الرجل المكتنز، الوردي؛ إيحاؤه بنظافةٍ تشبه نظافة الأطفال، وشديدة الاختلاف عن نظافة معظم الرجال في منتصف العمر؛ أنفه الطويل؛ أجل، هذه كلُّها كانت الملامح التي تميّز الرئيس، الأب دوسِن، ووحدها قبعة اللبّاد التي حجبتْها للحظة. كانت ردة فعلي الفورية هي الخوف من أنه ربما لمحني مع أني لم أفعل شيئًا يُشعرِني بالخجل. شعرت في الحال بأنه يجب عليَّ تجنُّب أن أكون شاهدًا على مغامرة رئيسي السرية فأتورط بذلك، في صمت، في علاقة ثقة أو ارتياب معه.

طفق كلب أسود، إذ ذاك، يسير منسلًّا بين حشود الناس. كان كلبًا ضخمًا أشعث الوبر، بدا واضحًا أنه معتاد السير في الأماكن المزدحمة، بحيث إنه كان يختار سبيله بمهارة فائقة بين أقدام النسوة

(*) شارع شعبي أنيق للتسوُّق في كيوتو. (المترجم)

(**) غيشا في كيوتو: نساء يدرسن التقاليد القديمة للفن والرقص والغناء (الكلمة تعني «فنانة» أو «صاحبة الفن») للترويح عن الرجال، ويتميَّزن بأزيائهنَّ وطريقة تبرُّجهنَّ التقليدية. وخلافًا للاعتقاد الشائع، فإن الغيشا لسن المعادل الياباني للمومسات. (المترجم)

بمعاطفهنَّ الزاهية، والرجال ببزَّاتهم العسكرية، فيتوقف بين الفينة والفينة أمام أحد المحال. لحظت الكلب يتوقف للتشمُّم خارج محل للتذكارات لم يطرأ عليه أي تعديل منذ أيام الحلوى التقليدية كعك الياتسوهاشي(*). واستطعت أن أرى عند ذاك، للمرة الأولى، وجهَ الكلب في ضوء الدكان. كانت إحدى عينيه مفقوءة والدم والقيح المتخثر في زاويتها يشبهان الياقوتة. أما العين السليمة فكانت تنظر مباشرة إلى الأسفل صوب الأرض. وكان الوبر الأشعث على ظهره متجمعًا بوضوح في حِزَمٍ، وذا مظهر متصلّب.

لا أدري بالضبط لماذا اتفق لهذا الكلب أن يلفت انتباهي. ألعلَّ ذلك لأنه، وهو يهيم في كلّ اتجاه، كان يحمل في ذاته عالمًا مختلفًا كليًا عن هذا الشارع المزدحم الصاخب المتلألئ الأضواء. كان الكلب يسير عبر عالم معتم تسوده حاسة الشم. وكان هذا العالم متراكِبًا مع عالم الشوارع البشرية، وواقع الأمر أن أضواء المدينة، والأغاني التي تصدح بها أسطوانات الفونوغراف، وصوت الضحك البشري، كانت تتهدَّدها جميعًا روائحُ قاتمةٌ لجوج. إذ إن نظام الشم أدق، ورائحة البول العالقة بقوائم كلب مبتلّة تتصل اتصالًا دقيقًا بالرائحة النتنة الخفيفة المنبعثة من الأعضاء البشرية الباطنة.

كان البرد قارسًا. عَبَرَ الشارع رهط من الشبان، تشبه هيئتهم

(*) ياتسوهاشي: حلويات يابانية تباع كحلوى تذكارية من كيوتو، مصنوعة من طحين الرز اللزج والسكر والقرفة. قوامها وهي نيئة يشبه كعك الأرزّ (موتشي)، وغالبًا ما تؤكل مغلّفةً بمعجون الفاصولياء الحمراء. (المترجم)

هيئة العاملين في السوق السوداء، وراحوا ينتزعون زينة أشجار صنوبر رأس السنة التي لا تزال تزين أبواب بعض المنازل على الرغم من انتهاء فترة الأعياد. ثم ما لبثوا أن فتحوا أكفَّ قفازاتهم الجلدية ليعرفوا من استطاع أن يجمع أكثر من غيره. أحدهم لم يحظَ بغير بضع أوراق شجر؛ أمَّا نصيب آخر فكان غصن صنوبر صغير كاملًا. ثم قهقه الشبان واختفوا عن الأنظار.

وجدتُني أتبع الكلب. خلت للحظة أني قد فقدته، لكنه عاود الظهور في الحال. انعطف في الطريق المؤدي إلى كاواراماتشي(*). واصلت السير وأنا أتبعه، ووصلت إلى الطريق الذي تسير عليه عربات الترامواي. كان الحي أعتم نوعًا ما من الشينكيوغوكو. اختفى الكلب. توقفت وبحثت عنه في كلّ اتجاه. ذهبت إلى ناصية الشارع وتابعت البحث عنه. توقفت أمامي عندئذٍ بالضبط سيارة مستأجَرة ذات هيكل برَّاق يقودها سائق، فتح الباب وتقدَّمتْ أولًا فتاةٌ لتركب. وجدتني أنظر إليها. ثمة رجل كان على وشك الركوب بعد الفتاة، لكنه وقف هناك مسمَّرًا في مكانه عندما لحظني.

كان الرجل هو الرئيس. لا أدري أيَّ مصادفة حتَّمتْ على الرئيس، الذي سبق له أن تجاوزني في الشارع وقام بالتفافة مع الفتاة، أن يقع نظره عليَّ هكذا مرة ثانية. أيًّا يكن الأمر، ها هو ذا هنا الآن، وسترة الفتاة التي ركبت السيارة كانت السترة الأرجوانية المائلة إلى الصدأ التي تذكرتها.

(*) شارع شعبي أنيق للتسوُّق في كيوتو، يتقاطع مع الشينكيوغوكو. (المترجم)

ما كان تجنُّبه مستطاعًا هذه المرة. لكني كنت من شدة الاستياء من ملاقاته، بحيث لم أفه بكلمة واحده. أخذتْ أصواتُ تأتأة تغلي في فمي قبل أن أتمكن من النطق بشيء. وارتسم على وجهي في النهاية تعبير لم أقصده. فعلت في الواقع أمرًا لا يمتُّ بتاتًا إلى الموقف بصلة: انفجرت ضاحكًا في وجه رئيسي.

ليس في وسعي أن أفسّر ضحكتي هذه. حدث الأمر كما لو أنها أتت من الخارج والتصقت فجأة بفمي، بيد أن الرئيس تغيرت سحنته عندما رآني أضحك.

«أيها الأحمق الصغير!» قال. «هل تحاول تتبُّعي؟»

ثم استقلّ السيارة وصفق الباب في وجهي. وبينما كانت السيارة تسير مبتعدةً أدركت أنه قد لحظني عندما تصادفنا قبلئذٍ في الشينكيوغوكو.

انتظرت في اليوم التالي، أن يستدعيني الرئيس للتأنيب. لو فعل ذلك لمنحني فرصة لتفسير ما حدث. لكنه، تمامًا كما تصرَّف بعد تلك المناسبة السابقة عندما دُسْتُ على المومس، أخذ يعذبني عبر التغاضي عن الأمر في صمت.

تلقيت عندئذٍ بالذات رسالة أخرى من الوالدة ختمتْها بملاحظتها المعتادة بشأن عيشها على أمل رؤيتي أتولّى سيادة المعبد الذهبي.

«أيها الأحمق الصغير، هل تحاول تتبُّعي؟». فكرت في الكلمات التي زمجرها في وجهي فبدت لي غير ملائمة. لو كان

كاهن زِن نموذجيًا أكثر، أكثر انفتاحًا ذهنيًا وتفهُّمًا، ويتمتع بحسّ فكاهي، لَما توجَّه أبدًا إلى تلميذ له بمثل هذا التوبيخ السوقي، ولَوجَّه إليه ملاحظةً أكثر سَدادًا وفعالية. من المؤكد، بالطبع، أن الرئيس ما كان في وسعه أن يسحب ما قاله. لكني كنت متأكدًا من أنه ظنَّ وقتذاك خطأً أني كنت قد تتبَّعته عن قصد، وهزئت منه كما لو كنت أمسكت به وهو يقترف إثمًا جسيمًا. ونتيجة لذلك، أُحرِجَ وأظهر تلقائيًا غضبه بطريقة سوقية.

أيًا تكن وقائع القضية، منذ صار صمت الرئيس مرة أخرى مصدرًا للضيق الذي راح يضغط عليَّ يومًا بعد يوم. أصبح وجوده قوةً عظيمة؛ أصبح مثل ظل فراشة ليلية ترفرف رفرفةً مزعجةً أمام عينيّ المرء.

كان من عادة الرئيس أن يصطحب واحدًا أو اثنين من المساعدين حين يُطلَبُ منه حضورُ شعائر خارج المعبد. وجرى في الماضي العرف بأن يتولَّى الشمَّاس حضور هذه المناسبات، ولكن صار عاديًا، في الآونة الأخيرة، كجزء مما يسمَّى عملية الدمَقْرَطة، أن يتناوب خمسة منَّا، الشمَّاس، القندلفت، أنا نفسي، واثنان من المساعدين الآخرين، على مرافقة الرئيس. أما ناظر المهجع الذي صارت صرامته بيننا مضرب مثل، فقد جُنّد وقُتِلَ في الحرب. وتولى بعده القندلفت المتوسط العمر ممارسة واجباته. وحلَّ بعد وفاة تسوروكاوا متدرّب آخر محلَّه في المعبد.

توفي في تلك الفترة تحديدًا رئيس أحد المعابد (تابع لفرقة

السوكوكوجي، ويعود في نَسَبه إلى أصول الروكونجي التاريخية عينها) فدُعي رئيسُنا إلى حضور تنصيب خليفته. وصادف أن وقع عليَّ الدورُ لمرافقته. وبما أنه لم يفعل أيَّ شيء للحؤول دون ذهابي معه، فقد توقعت أن تتاح لنا الفرصةُ للتصارح وشرح الأمور ونحن في طريقنا إلى المعبد، أو ونحن عائدان منه. لكن تغيَّرت الترتيبات في الليلة التي سبقت شعائر التنصيب، بحيث انضمَّ إلينا المبتدئُ الجديدُ، فاهتزت آمالي اهتزازًا خطيرًا.

لا ريب في أن القراء المطَّلعين على أدبيات الغوسان(*) سيتذكرون الموعظة التي أُلقيت حين دخل إيشيمورو زِنْكيو(**) معبد المانجو في كيوتو في العام الأول من عهد كُوان (١٣٦١). فالكلمات الجميلة التي تفوَّه بها الكاهن الجديد لدى وصوله إلى المعبد وهو يتقدَّم من البوابة الرئيسية إلى قاعة الأرض، ومنها إلى قاعة الأسلاف،

(*) «نظام الجبال الخمسة والأديرة العشرة»، المعروف باسم «نظام الجبال الخمسة»، عبارة عن شبكة من معابد تشان (زِن) التي كانت ترعاها الدولة في الصين في إبَّان عهد سونغ الجنوبي (١١٢٧-١٢٧٩). ويعني مصطلح «جبل» في هذا السياق «معبدًا» أو «ديرًا»، وقد اعتُمِدَ لأن عددًا من الأديرة بُني على جبال معزولة. ونشأ هذا النظام في الهند وتبنَّته اليابان أيضًا في أواخر فترة كاماكورا (١١٨٥-١٣٣٣)، بحيث قام الحكم العسكري بحماية المعابد العشرة القائمة (خمسة في كيوتو وخمسة في كاماكورا، كاناغاوا) التي تحولت مع الوقت إلى نوع من البيروقراطية الحكومية، وساعدت حكم آل أشيكاغا على ضبط البلاد في فترات القلاقل. (المترجم)

(**) إيشيمورو زِنْكيو (١٢٩٤-١٣٨٩): راهب ياباني ذهب إلى الصين سنة ١٣١٨ ودرس الزِن على يد كورِن سيمو. وأصبح رئيس معبد تِنْريوجي ثم معبد كنتشوجي بعد أن عاد إلى اليابان سنة ١٣٢٦. (المترجم)

وأخيرًا إلى ديوان الأباتي، ثم تناقلها حتى وصلت إلينا. نطق باعتزازٍ بكلمات مشحونة بالفرح، وهو يشير بإصبعه إلى البوابة الرئيسية مبتهجًا بتولّيه واجباته الدينية الجديدة: «ضمن التنجو كيوتشو، أمام بوابة التيجو مانجو، أفتح القفل صفر اليدين، وأصعد حافي القدمين جبل كونرون المقدَّس».

بدأ طقس حرق البخور. أدَّى الكاهن أولًا الشيهوكو تكريمًا للزعيم الديني الكبير شيهو. في سالف الأزمان، حين لم تكن ديانة الزّن قد طغت عليها الأعراف، وحين كانت اليقظة الروحية للفرد مثمَّنة فوق كلّ شيء، جرت العادة أن يصطفي التلميذُ أستاذَه، لا أن يصطفي الأستاذُ تلميذَه. كان التلميذ في تلك الأيام لا يتسلم «الاعتماد» الديني من أول كاهن تولّى تعليمه فقط، وإنما من مجموعة من مختلف المعلّمين. وتُطلَبُ منه في إبان طقس الشيهوكو لحرق البخور، إذاعةُ اسم الأستاذ الذي يتوق قانتًا إلى وراثته خَلَفًا في رسالته.

تساءلتُ، وأنا أشاهد طقس حرق البخور المهيب هذا، إن كنت، حين يحين موعد حضوري طقس التوريث في المعبد الذهبي، سوف أعلن اسم الرئيس كما جرت العادة. لعلّي سوف أكسر العادة المتوارَثة طوال سبعمئة عام وأذيع اسمًا آخر ما. برودة ديوان الأباتي عصر ذلك اليوم الربيعي، الأريج الزكي الفوّاح لأنواع البخور الخمسة، الإكليل المتلألئ خلف الأواني الشعائرية الثلاثة، والهالة الزاهرة المحيطة بالبوذا الرئيسي، الحِلَل الكهنوتية البرّاقة التي

يرتديها الكهنة القائمون على الشعائر... وماذا لو اتفق لي يومًا ما أن أجد نفسي هنا مؤديًا طقس الشيهوكو لحرق البخور؟ تخيَّلت نفسي في هيئة كاهن يخضع لطقس تدشين العهد هذا. باستلهامي جوَّ أوائل الربيع الشديد، لا بدَّ من أني سوف أخون العادة القديمة بكلِّ ابتهاج. سوف يكون الرئيس في الحضرة، وسينعقد لسانه ذهولًا، إذ يسمع كلماتي، ويشحب لونه غضبًا؛ ذلك بأني لا بدَّ من أن أنطق باسم غير اسمه. اسم آخر؟ ولكن مَن هو المعلِّم الآخر الذي أرشدني إلى طريق الاستنارة الحق؟ اسمه عالق في حلقي. حبَسْته تأتأتي وهو يأبى الخروج من فمي. أتأتئ؛ ويبدأ مع تأتأتي ذلك الاسم الآخر بالخروج: «جمال»، أتلعثم قائلًا، و«عدم». وينفجر إذ ذاك جميع الحاضرين ضاحكين، وأقف هناك مرتبكًا، مسمَّرًا في مكاني على نحوٍ أخرق وسط ضحكهم.

أفقت بغتة من حلم يقظتي. كان على الرئيس أن يؤدي بعض الشعائر، وعليَّ أنا، بصفتي مساعده، أن أعاونه. كان من دواعيَ فخر المساعد أن يكون حاضرًا في مناسبة كهذه، وخصوصًا في حالتي، بما أن رئيس المعبد الذهبي كان كبير الضيوف بين أولئك القائمين على الطقس. عندما انتهى الرئيس من حرق البخور، طرق طرقةً بالمطرقة المعروفة باسم «المدقة البيضاء»، شاهدًا بذلك على أن رسامة الكاهن الذي رُسِمَ اليوم رئيسًا لهذا المعبد رسامة صحيحة، وأنه ليس غنفوتو، أي ليس دجالًا يدَّعي الكهنوت. رتَّل الآية التي تُتلى تقليديًّا في هذه المناسبة، وطرق طرقةً عاليةً بالمدقة

البيضاء. وأدركت يومذاك مجددًا القوة المعجزة التي أوتِيَها رئيسي هذا.

لم أستطع أن أحتمل الطريقة التي سكت بها الرئيس متغاضيًا عن الحدث الأخير، وخصوصًا أني لم أكن على علم بطول مدة هذا السكوت. إذا حُبيتُ أنا نفسي شكلًا ما من الشعور الإنساني، فلِمَ لا أتوقع صدور مشاعر إنسانية مماثلة من أناس، مثل الرئيس، أنا على تماسٍ معهم؟ سواء أكانت مشاعر حبٍّ أم كره. تعوّدت آنذاك عادةً ذميمة؛ تفحُّص تعابير وجه الرئيس في كلّ مناسبة ممكنة، لكني لم أقدر ولا مرة واحدة على أن أستجلي أيَّ مشاعر خاصة في وجهه هذا. لم يكن غياب التعبير لديه معادلًا للبرودة حتى. قد يؤوَّل هذا الأمر بصفته احتقارًا؛ إنما لو صح ذلك فإن احتقاره هذا لم يكن احتقارًا لي بصفتي فردًا، بل كان بالأصح أمرًا عامًا؛ أمرًا كان يوجّهه، على سبيل المثال، نحو البشرية جمعاء، أو حتى نحو مختلف المفاهيم المجردة.

أجبرت نفسي اعتبارًا من ذلك الوقت تقريبًا على استحضار صورة الرأس الحيواني للرئيس والوظائف البدنية المشينة التي يؤديها. تخيَّلته وهو يتغوَّط، كما تصوَّرته أيضًا وهو نائم مع تلك الفتاة ذات السترة القرمزية الصدئة. شاهدت ملامحه الخالية من التعابير وهي تسترخي، وتبدو على وجهه نظرة، قد تكون إما نظرة ضاحكة وإما نظرة وجع، تصير وانيةً من فرط اللذة الحسّية. مظهر جسمه الناعم، الأملس، وهو

يذوب في جسم الفتاة الذي يساويه نعومةً ومَلاسةً، فلا يتميز عمليًا واحدهما من الآخر؛ الطريقة التي يضغط بها كرشه المنتفخ على بطن الفتاة العريض. ومع ذلك، فإن أغرب ما في الأمر أن مخيّلتي، مهما بلغت من النشاط، تظل فيها ملامح الرئيس الخالية من التعبير مرتبطة حالًا بالتعبير الحيواني الذي ينتمي إلى التغوط والجماع، ولم يطرأ أيُّ شيء أبدًا لملء الفراغ بين الاثنين. كان أحد الضدين الأقصيين يتحول مباشرة إلى الضد الأقصى الآخر، من دون أيٍّ تدخُّل من التلاوين القوس القزحية للحياة اليومية للربط في ما بينهما. الأمر الوحيد الذي أتى بالحدّ الأدنى من الارتباط كان الزجر السوقي نوعًا ما، الذي وجّهه إليَّ الرئيس ذلك العصر: «أيها الأحمق الصغير، هل تحاول تتبُّعي؟»

استولت عليَّ أخيرًا، بعد أن أنهكني التفكير وطول الانتظار، رغبةٌ عنيدة: كانت ببساطة اقتناص نظرة الكره البادية على وجه الرئيس. وكانت الخطة التي وضعتها بناءً على ذلك، رعناء، صبيانية، وكانت بكلّ تأكيد في غير صالحي، غير أني لم أعد قادرًا على ضبط نفسي. حتى إني لم أضع في حسباني أن من شأن مقلبي هذا أن يرسخ فقط سوء فهم الرئيس لي سابقًا حين ظن أني تتبّعته عن قصد.

قابلت كاشيواغي في الجامعة وطلبت منه اسم المحل وعنوانه، فأعطاني المعلومات من غير حتى أن يستفسر عن مرادي. ذهبت من فوري إلى المحل وتفحّصت عددًا من الصور الفوتوغرافية، من قياس

البطاقة البريدية لنساء الغيشا الشهيرات من حيّ غيون(*). بدت في البداية وجوه الفتيات بمكياجهنّ الكثيف، كلُّها متشابهة؛ إنما سرعان ما بدأت مجموعة متنوعة من الأنماط بالبروز واضحةً من الصور. وأصبحت، قادرًا عبر أقنعة البودرة والماكياج المتماثلة، على أن أميز تبايُن التلاوين الدقيقة بين طبائع كلّ منهن: القتامة أو البهاء؛ الكآبة أو السرور؛ الفطنة البارعة أو البلادة الجميلة؛ جفاء الطبع أو البشاشة المتعذرة الكبح؛ النحس أو الحظ. وقعت أخيرًا على الصورة التي كنت أفتش عنها. بسبب الضوء الكهربائي الساطع في المحل كان انعكاس الصورة متلألئًا على الورق اللمّيع، فكان من الصعب رؤية الصورة جيدًا، ولكن عندما استقر الانعكاس في يدي استطعت أن أتأكد من أن هذا بالفعل كان وجه الفتاة صاحبة السترة القرمزية الصدئية.

«أودُّ هذه»، قلت لصاحب المحل.

كانت جسارتي الفارقة الغريبة آنذاك تتوافق بالدقة مع حقيقة أني، منذ أن انبريت لتنفيذ خطتي هذه، تغيرت تمامًا وأصبحت جَذِلًا، مفعمًا ببهجة لا تفسَّر. كانت فكرتي الأُصلية تقوم على اختيار وقت يكون فيه الرئيس متغيبًا، فأخفي عنه بذلك هوية الفاعل. لكن مزاجي الجديد المتقد هداني الآن إلى تنفيذ الخطة بجسارة بحيث تُعزى إليَّ حصرًا مسؤوليةُ الفعلة دونما لَبس.

(*) حيّ شهير في كيوتو، بُني أصلًا لتلبية حاجات المسافرين والحجاج إلى مزار ياساكا (مزار غيون)؛ نما وازدهر أصلًا أمام المزار في فترة سينغوكو، ثم ما لبث أن تطور ليصبح واحدًا من أشهر أحياء الغيشا وأكثرها حصرية في اليابان. (المترجم)

ما زال تسليم جريدة الصباح إلى حجرة الرئيس من واجبي. ذهبت كعادتي إلى مدخل المعبد لإحضار الجريدة ذات صباح من آذار والجوُّ لا يزال باردًا. كان قلبي يخفق وأنا أُخرج صورة غيشا حيّ غيون من جيبي وأدسُّها في الجريدة.

كانت شمس الصباح تطلُّ مشرقةً على نخلة الساغو(*) النابتة وسط الفناء يطوّقها سياجٌ دائري، وكان لحاء جذع النخلة الخشن مظلَّلًا بشكل واضح في ضياء الشمس. وكانت إلى اليسار شجرة ليمون صغيرة. وثمة بضعة حساسين متأخرة تُصدِرُ من على الأغصان زقزقةً خافتةً تشبه احتكاك خرزات المسبحة. بدا غريبًا أن توجد بعدُ حساسين في ذلك الوقت من السنة. لكن هذا التفصيل الخجول من تفاصيل الفجر الأصفر الذي كان في وسعي أن أراه في أشعة الشمس النافذة عير الأغصان، ما كان لينتمي إلا إلى هذا الجنس من العصافير. كانت الحصى البيضاء ممدَّدة بسلام على الفناء.

قطعت الرواق بحرص كي لا تبتلَّ قدماي في بُريكات الماء الباقية هنا وهناك من عملية المسح الأخيرة. كان باب ديوان الرئيس في المكتبة الكبرى مُحكَم الإغلاق. ولا يزال الوقت الصباحي باكرًا جدًّا، حتى إن بياض ورق الباب الجرَّار تألَّق ناصعًا.

ركعت على ركبتي خارج المكتبة، وقلت كعادتي: «هل لي أن أدخل، يا أبتِ؟» ودفعت الباب الجرَّار لدى سماعي كلمة الموافقة

(*) نخلة موطنها الأصلي جنوب اليابان وواحدة من عدة أجناس يُستخرَج من لبّها نشاءٌ يؤكل وتُستعمَل نبتةً للزينة؛ اسمها العلمي: Cycas revoluta. (المترجم)

من الرئيس حتى انفتح، فدخلت الحجرة ووضعت الجريدة المطوية طيًّا طفيفًا على إحدى زوايا المكتب. كان الرئيس منهمكًا في كتاب فلم ينظر إلى عينيَّ. انسحبت من حضرته، وأغلقت الباب، ومشيت ببطء على امتداد الرواق عائدًا إلى غرفتي، باذلًا ما في وسعي من الجهد كي أبقى هادئًا.

اقتعدت الأرض عندما بلغت غرفتي، واستسلمت بكلّيتي لإثارتي الواجفة حتى حان موعد انصرافي إلى الجامعة. لم يحدث لي أبدًا في حياتي أن تطلّعت إلى أمر بكلّ هذا الترقُّب. فمع أني وضعت خطتي متوقعًا إثارة غضب الرئيس، لم يكن المشهد الذي تخيَّلته مفعمًا إلا بالحرارة الدرامية للَّحظة التي يصل فيها شخصان إلى التفاهم.

لعلَّ الرئيس يقتحم عليَّ غرفتي ويسامحني. وإذا اتفق له أن يغفر لي، فلربما بلغت، للمرة الأولى في حياتي، تلك الحال المضيئة، الصرف، من الشعور الذي عاش فيه تسوروكاوا طوال حياته. لربما تعانقنا، الرئيس وأنا، إذ ذاك وكلٌّ ما يتبقى من ذلك الحين فصاعدًا سيكون أسفنا من أننا لم نصل قبل ذلك الحين إلى تفاهم متبادل.

لم يطل بي هذا الحلم، إنما يبدو متعذر التفسير تمامًا أن أستسلم كليًّا، حتى لمدة قصيرة، لأوهام بلهاء كهذه. حين تفكرت في الأمر بهدوء أدركت أنني، إذ تكبَّدتُ سخط الرئيس من جراء هذه الفعلة الحمقاء تمامًا، شاطبًا بذلك اسمي من قائمة المرشحين المحتمَلين للخلافة، وبالتالي، ممهّدًا بدوري الطريقَ لموقف تنعدم فيه حظوظي

في أن آمل بأن أصبح يومًا سيّد المعبد الذهبي. وطوال هذا الوقت كلّه، كنت من الاستغراق في هدفي المباشر، بحيث إني نسيت فعليًا تكرسي الخاشع مدى حياتي إلى المعبد الذهبي نفسه.

كان انتباهي مركزًا في الإصغاء إلى أيّ صوت قد يأتي من غرفة الرئيس في المكتبة الكبرى. لم أستطع سماع شيء.

أخذت الآن أنتظر انفجار الرئيس ساخطًا، أترقب صيحته المزمجرة الهادرة. شعرت بأني، من جهتي، لن أبدي ندمًا، حتى لو بُطِشَ بي، أو أُوسعتُ ركلًا وأنا أتضوَّر على الأرض، وأُسيلَ دمي. لكن صمتًا تامًّا كان مستتبًا من جهة المكتبة الكبرى. لم يتناهَ إلى سمعي أيُّ صوت وأنا جالس منتظرًا في غرفتي.

كان قلبي تالفًا ومنهكًا تمامًا عندما أزف أخيرًا وقتُ مغادرتي وانطلاقي إلى الجامعة. لم أكن قادرًا على التركيز في المحاضرة، وأعطيت إجابةً مغلوطةً تمامًا عندما طرح المدرّس عليَّ سؤالًا. ضحك الجميع مني. نظرت إلى كاشيواغي ورأيت أنه وحده كان غير مبالٍ بهذا كلّه ويحملق عبر النافذة. كان يعي من دون شك الدراما المعتملة في داخلي...

لم يكن أيُّ شيء قد تغير حين عدت إلى المعبد. كانت أبدية حياة المعبد القاتمة، العفنة، قوية الرسوخ بحيث يتعذر وجود أيُّ فارق بين أي يوم والذي يليه.

كانت محاضراتٌ في كتب الزّن الدينية المعتمَدة تنعقد مرتين

كلَّ شهر، وصادف أنْ هذا اليوم كان موعد إحداها. احتشد جميع مَن في المعبد في حجرة سَكَن الرئيس لسماعه يلقي محاضرته. خطر في بالي أنه قد يستعمل فعلًا شرحه عن كتاب الموُمُنكان ذريعةً لتأنيبي أمام الآخرين مجتمعين. كان لديّ سبب خاص لاعتقاد ذلك. وشعرت، من واقع جلوسي قبالة الرئيس مباشرة في محاضرته ذلك المساء، بأني أُلهِمتُ نوعًا أشد ما يكون رعونةً من شجاعة الرجال. بدا لي أنه سيستجيب لهذا الأمر بأن يُظهِرَ من تلقاء نفسه فضيلةً من فضائل الرجال: حسبتُه سيفضح كلَّ نفاق، ويعترف بفعلته أمام جميع مَن في المعبد، ويؤنبني على فعلتي الرخيصة بعد أن يفعل.

تجمَّع نزلاء المعبد جميعًا تحت الضوء الكهربائي الخافت، وفي أيديهم نسخٌ من نصّ الموُمُنكان. كانت ليلة باردة، لكن وسيلة التدفئة الوحيدة كانت عبارة عن مرجل صغيرة موضوع في جوار الرئيس. كان في وسعي سماع الناس يتنفَّسون. جلسوا هناك، شبانًا وشِيبًا، والظلال ترسم تدرُّجات من الضوء على وجوههم المطرِقة. كان في نظراتهم ما يوحي إيحاءً لا يوصف بأن لا حول لهم ولا قوة. كان المتدرّب المبتدئ الجديد الذي يعمل نهارًا مدرّسًا في مدرسة ابتدائية، شابًّا ضعيف البصر، لا تنفك نظّارتاه تنزلقان على جسر أنفه النحيل.

كنت وحدي واعيًا بالقوة في جسمي. ذلك على الأقل ما تخيَّلته. فتح الرئيس كتابه وأجال نظره فينا جميعًا. تتبَّعتُ نظرته. أردته أن يرى أني كنت قطعًا لا أغض بصري. لكن عندما وقعتْ عليَّ عيناه،

محاطتين بتجاعيدهما اللحيمة، لم تُظهِرا أدنى اهتمام، وانتقلتا إلى الشخص التالي.

بدأت المحاضرة. كنت أتحيَّن فقط اللحظة التي ستتطرق فيها فجأةً إلى مشكلتي. لذا، أصغيت باهتمام شديد. واستمرّ صوت الرئيس حاد النبرة يطنُّ ويطن. لم يصدر ولا صوت واحد من شعوره الداخلي.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة، امتلأتُ وأنا مستلقٍ يقظًا، احتقارًا للرئيس ورغبةً في السخرية من نفاقه. غير أن شعورًا بالندم راح يصحو فيَّ رويدًا رويدًا، وأخذ يعدّل مشاعري الفظة. أمسى احتقاري الرئيس مرتبطًا ارتباطًا غريبًا بالوهن الذي أخذ يستولي على روحي تدريجيًا، حتى بلغتُ أخيرًا نقطةً من التفكير مفادها أني، بقدر ما تبيَّنت الآن أيَّ شخص تافه عديم الكيان هو الرئيس حقًّا، كان طلبي منه أن يسامحني لا يمثل بأيّ حال من الأحوال هزيمة. طفق قلبي الآن، بعد أن صعد إلى قمة جبل شاهق، يجري مسرعًا نحو الوادي.

قررت أن أذهب وأعتذر في الصباح التالي. ثم قررت تأجيل اعتذاري إلى وقت ما في أثناء النهار، حين جاء الصباح. ولحظت أن نظرة الرئيس لم تتبدل قيد شعرة.

كان يومًا عاصفًا. اتفق لي أن أفتح جاروري لدى عودتي من الجامعة. أبصرت شيئًا مغلّفًا بورق أبيض. إنها الصورة! لا توجد كلمة واحدة مكتوبة على الورقة. من الواضح أن الرئيس نوى أن يضع

حدًّا للمسألة بهذه الطريقة. لم يقصد أن يغضّ النظر عن فعلتي كليًّا، بل أن يجعلني أدرك عبثها ولاجدواها. غير أن الطريقة الطريفة التي أعاد بها الصورة استدعت حشدًا من الصور المتقاطرة في ذهني. «إذن، فالرئيس ما فتئ يتعذب هو الآخر!» فكرت. «لا بدَّ من أنه عانى الكرب الأمرَّين حتى اهتدى إلى هذه الطريقة. قطعًا لا بدَّ من أنه يكرهني الآن. أغلب الظن أنه لا يكرهني بسبب الصورة بالذات، بل لأني حملته على التصرف بهذه الطريقة الخسيسة. وشعر بأنه، من جراء هذه الصورة إيَّاها، مضطر إلى التصرف تصرُّف المختلسين في معبده هو. اضطر إلى أن يذرع الرواق خلسة بينما لم يكن أحد آخر على مقربة منه، ثم اضطر إلى دخول غرفة أحد متدرّبيه التي لم يسبق لقدمه أن وطئتها من قبل، ووجب عليه أن يفتح الجارور بالضبط كما لو كان يرتكب جريمة. أجل، لديه الآن سبب كافٍ ليكرهني».

غمرني فرح لا يوصف عندما خطرت في بالي هذه الخواطر. ثم حضرت نفسي لمهمةٍ ممتعة. تناولت مقصًّا وقصصت الصورة إلى نتف صغيرة. ثم لففتها بإحكام بصفحة ورق متينة انتزعتها من دفتري، وإذ أحكمت قبضتي عليها، سرت إلى مكان في جوار المعبد الذهبي. كان المعبد المترع باتزانه الواجم المعتاد يعلو في السماء العاصفة المضاءة بالقمر. كانت الأعمدة الرشيقة قائمة قريبة من بعضها البعض. وبدت كأوتار قيثارة بينما كان القمر يلقي بإشعاعه عليها، وبدا المعبد نفسه أشبه بآلة موسيقية ضخمة عجيبة. كان هذا الانطباع بعينه يتوقف على ارتفاع القمر. ما كان ثمة مجال للَّبس

هذه الليلة. ومع ذلك، كانت الريح تهبُّ سدًى عبر الفراغات بين تلك الأوتار العديمة الصوت.

التقطتُ حجرًا فلففته بالورقة وضغطت الحزمة جمعاء بإحكام، فما لبثت نتف وجه الفتاة الضئيلة، وقد أثقلها وزن الحجر، أن غاصت وسط بركة كيوكو. انتشرت التموجات متوسّعةً بحرية، وسرعان ما بلغتْ حافة الماء حيث كنت واقفًا.

جاء فراري المفاجئ من المعبد في تشرين الثاني من تلك السنة نتيجة تراكم هذه الأمور كلّها. حين فكرت في الأمر لاحقًا أدركت أن فراري هذا، الذي بدا مفاجئًا، كان قد سبقه في الواقع قَدْر كبير من التفكر والتردد. غير أني آثرت أن أصدّق أن ما ساقني إليه كان عبارة عن اندفاع مفاجىء. وبما أني كنت أفتقر أساسًا إلى أيّ خصلة اندفاعيه، فقد أدمنت شكلًا من أشكال الاندفاعية الملفقة. ففي حال رجل كان يخطط، على سبيل المثال، لزيارة قبر أبيه في اليوم التالي، لكنه حين يأزف الموعد ويجد نفسه أمام المحطة يغير رأيه فجأة، ويقرر أن يقصد نديم سكر من ندمائه، هل يجوز للمرء أن يقول إن هذا يدل على أيّ اندفاعية أصيلة؟ ألا يُعتبر تغيير رأيه المفاجئ نوعًا من الثأر يقتصُّ به من إرادته؟ أليس، في واقع الأمر، شيئًا أكثر وعيًا من استعداداته المطوّلة لزيارة القبر؟

كان الدافع المباشر إلى فراري يكمن في ما باح به الرئيس لي بوضوح في اليوم السابق: «كنت أنوي، في وقت ما، أن أجعلك

خليفتي هنا. لكني أستطيع الآن أن أخبرك بكلِّ صراحة بأنه ليس لديّ نية كهذه».

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها منه أمرًا من هذا النوع، إنما كان عليَّ حقًّا أن أتوقع الإعلان وأن أستعدّ له. لا يجوز لي أن أزعم أنه نزل عليَّ مفاجئًا نزولَ الصاعقة من السماء، أو أنه تركني مشدوهًا، ومصابًا بالهلع. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يحلو لي أن أصدّق أن فراري قد فجّرتْ صاعِقَه كلماتُ الرئيس، وتسبّبت به اندفاعة مفاجئة.

أخذتُ أهمل دراستي في الجامعة بعد أن تأكدتُ من غضب الرئيس من جراء حيلتي مع الصورة. كان هذا الأمر جليًّا تمامًا. حزت أفضلَ النتائج في اللغة الصينية والتاريخ، في دروس سنتي التحضيرية، حاصلًا على أربع وثمانين علامة في هاتين المادتين، وما مجموعه سبعمئة وثمانٍ وأربعون علامة، حائزًا بذلك المرتبة الرابعة والعشرين في صفّ من أربعة وثمانين طالبًا. وتغيَّبت أربع عشرة ساعة فقط من أصل أربعمئة وأربع وستين ساعة. وحصلت في سنتي الثانية على ما مجموعه ستمئة وثلاث وتسعون علامة فقط، وتراجعت إلى المرتبة الخامسة والثلاثين من أصل سبعة وسبعين طالبًا. أما سنتي الثالثة فهي التي أخذت فيها فعلًا أهمل دروسي، لا لأنّ لديَّ أيَّ مال أهدر به وقتي، وإنما ببساطة من فرط ابتهاجي بالبقاء خاملًا. وقد اتفق للفصل الدراسي الأول من السنة الثالثة أن بدأ بُعيد حادثة الصورة.

أرسلت الجامعة تقريرًا إلى المعبد ووبَّخني عليه الرئيس عندما

انتهى الفصل الدراسي الأول. كان سبب هذا التوبيخ أن علاماتي كانت ضعيفة، وأني تغيَّبت ساعاتٍ كثيرة. ولكن ما أثار حفيظة الرئيس بصورة خاصة، هو أني قد فوَّتُّ الحصصَ الخاصة بتمرين الزّن الذي كان يُعقد مدة ثلاثة أيام فقط في إبّان الفصل الدراسي الواحد. فهذه الحصص في تمرين الزّن كانت تُعقَدُ مدة ثلاثة أيام قبل بداية عطلات الصيف والشتاء والربيع، أي ما مجموعه تسعة أيام طوال السنة. وتُجرى بالشكل عينه الذي تُجرى فيه الحصصُ في مختلف حلقات البحث الاختصاصية.

استدعاني الرئيس إلى غرفته الخاصة بمناسبة هذا التأنيب، الأمر الذي كان في حدّ ذاته حدثًا نادرًا. وقفت هناك صامتًا مطأطئًا رأسي. كنت أترقب بلهفة في قلبي أن يتطرق بكلامه إلى موضوع بعينه، لكنه لم يلمّح بأيّ إشارة إلى حادثة الصورة، ولا هو عاد وأتى على ذكر المومس وابتزازها.

أضحى موقف الرئيس حيالي باردًا بشكل ملحوظ اعتبارًا من هذا الوقت بالضبط. كان هذا هو، لِنَقُلْ، المآلَ الذي كنت أرغب فيه حصرًا؛ البرهانَ الذي كنت أتوق إلى رؤيته من دون غيره. وقد مثَّل، في نظري، نوعًا من النصر. بيد أن الأمر الوحيد الضروري لإنجازه كان الخمول من جانبي. تغيَّبت في الفصل الدراسي الأول من سنتي الثالثة، مدةَ ستين ساعة؛ نحو خمسة أضعاف مجموع المرات التي غبتها طوال السنة الأولى بأكملها. لم أقرأ أيَّ كتاب، في إبان تلك الساعات كلّها، ولا كان لديَّ مال لإنفاقه على الملاهي. كنت أحيانًا

أتحدث إلى كاشيواغي، لكني بقيت معظم الوقت بمفردي لا أفعل شيئًا. أجل، بقيت بمفردي صامتًا، لا أفعل شيئًا، وذكرياتي من جامعة أوتاني مختلطة بذكريات البطالة. فلعلّ هذا النوع من الخمول كان أسلوبي الخاص في تمرين الزّن، لم يصادف أبدًا أن شعرت، بينما كنت أنهمك فيه، ولا للحظة واحدة، بأيّ نوع من الضجر.

جلست ذات مرة على العشب ساعات وساعات أرقب مستعمرة نمل منهمكة في نقل ذريرات دقيقة من التراب الأحمر. لم تكن المسألة مسألة أن النمل أثار اهتمامي. ولبثت، في مناسبة أخرى، دهورًا خارج الجامعة وأنا أحدّق كالأبله إلى خيوط الدخان الرقيقة المتصاعدة من مدخنة مصنع في الخلف. ليس الأمر أن الدخان جذب مخيّلتي. كنت أشعر، في أوقات كهذه، كما لو أني غائص حتى العنق في الوجود الذي هو نفسي. فكأن العالم خارجي قد بردت أجزاءٌ منه ثم أعيد تسخينه. كيف أعبّر عن ذلك؟ كنت أشعر بأن العالم الخارجي مرقّط تارة، ومخطّط تارة أخرى. كان كياني الداخلي والعالم الخارجي، يتبادلان الأماكن ببطء وبغير انتظام. كان المشهد العديم المعنى المحيط بي، يشعُّ أمام عيني. وبينما هو يشع، يستبيحني. ووحدها تلك الأجزاء من المشهد التي لم تدخل كانت تُواصِلُ بريقها المتقد في مكان ما أبعد. وقد تكون تلك الأجزاء المتلألئة إمّا علمًا يرفرف على مصنع، وإمّا بقعة تافهة على الجدار، وإمّا قبقابًا باليًا مطروحًا على العشب. كانت تُبعَثُ إلى الحياة في داخلي لحظةً تلو اللحظة، هذه الأشياءُ وأشياءُ أخرى من كلّ صنف

ولون، ثم لا تلبث أن تضمحل. أم لعلّي يجب أن أقول، بالأصح، خواطرُ أخرى عديمة الشكل من كلّ صنف ولون؟ كانت الأشياء المهمة تتضافر مع أتفه الأشياء، بحيث إن التطورات السياسية في أوروبا التي أقرأ عنها في جريدة الصباح تصير مرتبطة ارتباطًا لا فكاك منه بالقبقاب البالي المطروح عند قدميّ.

صرفت وقتًا طويلًا وأنا أفكر في الزاوية الحادة التي يشكلها رأس نصلة معينة من العشب. لعل كلمة «أفكر» ليست ملائمة تمامًا. إذ إن تصوُّري الغريب، العابث، ما كان سيرورةً متواصلة، بل من شأنه أن يعاود الظهور بإصرار، مثل لازمةِ أغنية. لماذا وجب أن تكون تلك الزاوية الحادَّة حادَّةً إلى هذا الحد؟ لو كانت بدلًا من ذلك منفرجة، هل كان مصير تصنيف «عشب» أن يتبدَّد، وهل كان مصير الطبيعة أن تتضعضع لا محالة وتُباد، ابتداءً من تلك الزاوية الواحدة من زوايا كلّيتها؟ عندما يُنزَعُ ترسٌ صغيرٌ واحدٌ من آلة الطبيعة، ألا يطاح بالطبيعة ذاتها بالكامل؟ ثم لا يلبث ذهني أن يفحص المشكلة من وجهة نظر تلو الأخرى.

سرعان ما ذاع أمر توبيخ الرئيس لي بين أهل المعبد، فأصبح موقفهم مني أكثر عدائية بكلّ وضوح. فزميلي المتدرّب الذي كان يحسدني حَسَدًا على تزكيتي للدراسة الجامعية، بات الآن يضحك ضحكةَ انتصار خافتة كلَّما رآني.

واصلت حياتي في المعبد طوال الصيف والخريف وأنا أكاد لا

أكلِّم أحدًا. أمر الرئيس الشمَّاس أن يستدعيني إلى غرفته في صباح اليوم السابق لفراري. كنَّا في التاسع من تشرين الثاني. وكنت لابسًا بزَّتي الطلَّابية بما أني كنت على وشك المغادرة إلى الجامعة.

كان وجه الرئيس المكتنز بشوشًا عادةً، لكنه اتخذ سحنةً غريبةَ الجمود استباقًا لاضطراره إلى إخباري بأمرٍ كريهٍ. أما أنا فاستحسنت رؤيته ينظر إليَّ كما لو كان يشاهد مجذومًا. وتلك النظرة هي بالضبط النظرة التي أردت أن أراها على وجهه؛ نظرة تنمُّ عن شعور بشري.

أشاح الرئيس بوجهه عني. وراح، هو يتكلَّم، يفرك يديه الواحدة بالأخرى فوق رمل الجمر. لم يصدر عن لحم راحتيه الطري غير صوت خفيف، بيد أنه بلغ أذنيَّ كأنه الصرير ولاح لي أنه يخرِّب صفاء هواء الصباح الشتوي. كان احتكاك لحم الكاهن بلحمه يولِّد شعورًا أليفًا لا داعي له.

«كم كان والدك المرحوم ليحزن لو علم بالأمر!» قال. «إليك هذه الرسالة! لقد كتبوا ثانية من الجامعة بأشد العبارات حدَّة. خير لك أن تبدأ بالتفكير في ما سيحدث إذا استمرت الأمور على هذا المنوال». ثم انتقل مباشرة إلى كلماته الأخرى، تلك، التي نطق بها: «كنت أنوي في وقت ما، أن أجعلك خليفتي هنا. لكني أستطيع الآن أن أخبرك بكلِّ صراحة بأنه ليس لديَّ نية كهذه».

لبثت ساكتًا مدة طويلة. ثم قلت: «يعني أنك لن تدعمني بعد الآن؟»

«وهل كنت تتوقع حقًا أنني سأواصل دعمك بعد ذلك؟» سألني الرئيس بعد هنيهة سكوت.

لم أجب عن سؤاله، بل سمعتني توًا أتفوّه متأنيًا بشيء يخصُّ أمرًا مغايرًا تمامًا: «أنت، يا أبتِ، تعرفني حتى أدق التفاصيل. وأظنني أعلم عنك بعض الأمور أيضًا».

«وماذا لو كنت تعلم؟» قال الرئيس، ونظرةٌ كالحةٌ تلوح في عينيه. «لن يُجْديك هذا شيئًا. كلُّه لا طائل منه البتة».

لم يسبق لي أبدًا أن رأيت وجهًا بشريًا هجر الدنيا إلى هذا الحد. لم أرَ رجلًا أبدًا، مع أنه لا يتورع عن توسيخ يديه بالمال، وبالنساء، وبكلّ تفصيل آخر من تفاصيل الحياة المادية، يزدري الدنيا بهذا القدر التام. امتلأتُ بالكراهية، كأني في حضرة جيفة لا تزال دافئة، وبشرتها سليمة معافاة.

اجتاحتني، في تلك اللحظة، رغبة عارمة في الإفلات من كلّ ما يحيط بي، وإنْ لفترة قصيرة من الوقت فقط. واشتدّت هذه الرغبة أكثر بعد أن انصرفت من غرفة الرئيس ولم أعد أقوى على التفكير في أيّ أمر آخر.

أخذت بقجتي الفوروشِكي(*) وصررت بها قاموس البوذية الخاص بي، والناي الذي أهداني إياه كاشيواغي. كان ذهني مستغرقًا

(*) نوع من القماش الياباني التقليدي المستعمَل تقليديًا في صرّ الملابس أو الهدايا أو غيرها من السلع. (المترجم)

في فكرة الرحيل وأنا منطلق إلى الجامعة حاملًا هذه الصرَّة وحقيبتي المدرسية.

سررت لرؤية كاشيواغي يمشي أمامي وأنا داخلٌ بوابةَ الجامعة. شددته من ذراعه وانتحيت به جانب الطريق. وسألته أن يقرضني ثلاثة آلاف ينْ، وأن يأخذ القاموس والناي ويستعملهما بالوسيلة التي يراها مناسبة. كان وجهه الآن خاليًا من أيّ أثر لتلك النظرة المعتادة التي تلوح عليه حين يدلي بتعليقاته الحافلة بالمفارقات؛ تلك النظرة التي يجوز للمرء أن يصفها بكونها نظرة انتشاء فلسفي. حملق إليَّ بعينين منقبضتين يشوبهما غبش.

«هل تتذكر النصيحة التي يسديها لايرتس إلى ابنه في مسرحية هملت؟ «لا تكن مَدينًا ولا دائنًا. فالدَّين مرارًا ما يفرّط في ذاته وفي الصديق».

«لم يعد لديَّ أب»، أجبت. «ولكن، إذا لم تستطع ذلك فلا عليك».

«لم أقل إنه ليس في وسعي»، قال كاشيواغي. «دعنا نتحدث. لست واثقًا إن كنت أستطيع أن ألملم ثلاثة آلاف ينْ أم لا».

- أردت أن أتهم كاشيواغي بما سمعته عنه من المرأة التي تعلّم تنسيق الزهور، بأسلوبه في استدرار المال من النساء، لكنّي استطعت أن أتمالك نفسي.

«يحسن بنا أولًا أن نفكر في كيفية التصرف في هذا القاموس وهذا الناي».

ما إن قال كاشيواغي هذا حتى استدار بغتةً وعاد أدراجه صوب البوابة. استدرت بدوري ورافقته، مبطئًا من سرعة خطوي كي أسايره. أخذ يتكلّم على طالب من زملائنا كان رئيسًا لجمعية تسليف تُعرَفُ باسم نادي هِكاري، وقد اعتُقل للاشتباه في تعاطيه بعض أنشطة السوق السوداء المالية. ثم أُفرِجَ عنه في أيلول، ومن الواضح أنه عانى بعدئذٍ مصاعب جمة لأن سمعته تلقَّت ضربة قاصمة. أبدى كاشيواغي منذ نحو شهر نيسان اهتمامًا كبيرًا برئيس نادي هِكاري هذا، وكثيرًا ما كنا نأتي على ذكره. كنَّا نعتقد كلانا أنه ما زال يتمتع بنفوذ اجتماعي لا يُستهان به، وما كنَّا لنتوقع قطعًا أنه بعد أسبوعين فقط سيُقدِمُ على الانتحار.

«ما حاجتك إلى هذا المال؟» قال كاشيواغي بغتة. بدا مستغرَبًا أن يصدر عنه مثل هذا السؤال.

«أريد أن أرحل إلى مكان ما. ليس في ذهني أيُّ مقصد بعينه».

«وهل ستعود يا ترى؟»

«على الأغلب».

«وما الذي تريد أن تهرب منه؟»

«أريد أن أبتعد عن كلّ ما يحيط بي؛ عن رائحة العجز النفَّاذة التي تفوح من كلّ مَن حولي. الرئيس عاجز. عاجز إلى حدّ رهيب. لقد أدركت ذلك أيضًا».

«وتريد أن تبتعد عن المعبد الذهبي أيضًا؟»

«نعم بالفعل! عن المعبد الذهبي أيضًا».

«وهل المعبد الذهبي حتى عاجز؟»

«لا، قطعًا المعبد الذهبي ليس عاجزًا! إنه أصل العجز في كلّ مَن سواه».

«نعم، هذا نوع الأمور التي يدور فكرك بشأنها»، قال كاشيواغي، وطقطق بلسانه مَرِحًا فيما راح يمشي بمشيته الراقصة المبالغ فيها. تبعته إلى داخل محل صغير بارد لبيع العتيقيات حيث باع الناي. لم يتمكن من الحصول لقاءه على أكثر من أربعمئة ينْ. توقفنا بعد ذلك عند متجر لبيع الكتب المستعملة، حيث أفلح في بيع القاموس لقاء مئة ينْ. واصطحبني إلى دار سَكَنه من أجل الألفين وخمسمئة ينْ المتبقية. وبعد أن أقرضني المال اقترح اقتراحًا عجيبًا. الناي، كما شرح لي، أعطاني إياه على سبيل الإعارة فأعدتُه إليه، والقاموس يجوز أن يُعَدَّ هدية. وبناءً عليه، لم أفعل سوى إعادة ما كان يملكه أصلًا. ومبلغ الخمسمئة ينْ الناتج من عملية البيع يخصُّه هو. وعندما تضاف إليه الألفان وخمسمئة ينْ فإن حاصل القرض يبلغ بطبيعة الحال ثلاثة آلاف. وعلى هذه الثلاثة آلاف ينْ يودُّ كاشيواغي الحصول على فائدة شهرية مقدارها عشرة في المئة حتى سَداد الدين. فبالمقارنة مع نسبة الأربعة والثلاثين في المئة التي يتقاضاها نادي هِكاري، كان هذا، بحسب كاشيواغي، سعر فائدة زهيدًا للغاية، بحيث إن الصفقة بأكملها كانت فعليًا معروفًا منه يسديه إليَّ. ثم ما لبث أن أخرج قرطاسًا من الورق الياباني السميك

ودواةً فدوَّن عليه بمهابة بنود القرض، ثم طلب مني أن أبصم على المستند. ولما كنت أمقت التفكير في المستقبل، فقد وضعت من فوري إبهامي على المحبرة وبصمت على سند الدين.

كان قلبي يطرق من فرط اللهفة، ركبت عربة تراموا‌ي حتى أوصلتني إلى حديقة فوناوكا بعد أن غادرت دار سَكَن كاشيواغي ومبلغ الثلاثة آلاف يِنْ في جيبي. هرولت صاعدًا الدرجات الحجرية المؤدية التفافًا إلى مزار كنكون. كنت أنوي سحب قُرعَة ميكوجي(*) مقدسة للحصول على مقترح ما بخصوص رحلتي. وكان في مستطاع المرء عَند أسفل الدرج، أن يرى بناء مقام يوشيتيرو إناري الرئيسي مطليًّا بلون قرمزي صارخ، وزوجين من الثعالب حجريين مطوقين بشبكة أسلاك معدنية. كان كلٌّ ثعلب منهما يحمل لفافة في فمه، وحتى باطن أذن كل منهما الحادة المرفوعة كان مطليًّا باللون القرمزي.

كان يومًا باردًا والريح تهبُّ من حين إلى آخر بين أشعة الشمس الرقيقة. وكانت الشمس الواهنة تتسلَّل بين الأشجار وتجعل الدرجات تبدو كأن رمادًا دقيقًا قد نُثِرَ فوقها. وبدا الرماد متسخًا لأن الضوء كان شديد الوهن.

هرولت صاعدًا الدرجات من دون أن أتوقف لاسترداد أنفاسي،

(*) أو-ميكوجي («فأل مقدَّس»): هو سحب عشوائي لـ «البخت» أو الفأل المكتوب على شرائط ورقية عادةً ما تُسحَب لقاء أعطية صغيرة (تُفضَّل قطع الخمسة ينّات النقدية لأنه يُعتقَد أنها تجلب الحظ). (المترجم)

وكنت أنصبَّب عرقًا عندما بلغت الفِناء المفتوح الكبير أمام مزار كنكون. كان أمامي درجٌ آخر يؤدي إلى المزار نفسه. كان السقف المغطى بقطع متساوية من القرميد يمتد منحنيًا صوب الدرجات. وعلى جانبَي المسلك إلى المزار كانت أشجار صنوبر قصيرة تمتطَ متلوية تحت سماء الشتاء. كان بناء مكتب المزار الخشبي القديم قائمًا إلى اليمين، وعلى بابه لافتة معلَّقة عليها كلمات: «معهد الأبحاث لدراسة مصائر البشر». وبين مكتب المزار وقاعة العبادة الرئيسية كان ثمة مستودع أبيض، ونَمَتْ خلفه بعضُ أشجار الأرْز المتفرقة تحت السحب الباردة، المتبدِّلة اللون، والتي كانت متبعثرة فوقي مفعمةً بضوء مأتمي. كان في وسع المرء أن يطلَّ من هنا على الجبال إلى الغرب من كيوتو.

كان المعبود الرئيسي في مزار كنكون هو أمير الحرب الإقطاعي نوبوناغا[*]. وكان رفات بكر أبنائه، نوبوتادا، محفوظًا هو الآخر ومعبودًا بصفته وليًا رديفًا. كان المزار بسيطًا ولمسة اللون الوحيدة فيه هي اللون القرمزي للدرابزين المسيّج لقاعة العبادة الرئيسية.

(*) أودا نوبوناغا (١٥٣٤-١٥٨٢): أمير حرب إقطاعي واسع النفوذ، حاول توحيد اليابان في إبَّان أواخر فترة سينغوكو، وأفلح في بسط سيطرته على معظم هونشو، وبذلك يكون، إلى جانب تويوتومي هِديوشي (١٥٣٧-١٥٩٨) وتوكاغاوا إياسو (١٥٤٣-١٦١٦)، واحدًا من موحّدي اليابان الثلاثة. عُرِفَ نوبوناغا لاحقًا بقمعه الوحشي لمعارضيه الجديين، إذ قام بتصفية مَن رفض منهم التعاون أو الإذعان لمطالبه. وشجع على تطوير الخطط الحربية، ورعى التجارة الحرة، ومهَّد لاستهلال فترة موموياما الفنية. ومات قتلًا في أثناء تمرُّد عليه قادَه وكيلُه أكيتشي مِتسوهيدِه. (المترجم)

صعدت الدرجات وأدَّيت فروض الاحترام للآلهة، ثم التقطت العلبة القديمة السداسية الشكل والتي كانت موضوعةً على رفّ إلى جانب صندوق الصدقات. خضخضت العلبة، فظهر عود من الخيزران المنقوش بأناقة من الفتحة في أعلى الصندوق، وعليه الرقم ١٤ وقد كتب بالحبر الهندي. استدرت.

«أربعة عشر، أربعة عشر»، طفقت أتمتم لنفسي وأنا أهبط الدرج. بدا كأن صوت مقاطع اللفظ يتخثر على لساني، ويتخذ رويدًا رويدًا معنى ما.

ذهبت إلى مدخل مكتب المزار وأعلنت عن حضوري. ظهرت امرأة في منتصف العمر. بدا جليًّا أنها كانت مشغولة ببعض الغسيل، فكانت تنشف يديها بقماش مريلتها. ومن غير أن يبدو على محيَّاها أيُّ تعبير، أخذت مني رسم العشرة ينات النظامي الذي ناولتُها إيَّاه.

«ما رقمك؟»

«أربعة عشر».

«انتظر هناك من فضلك».

جلست على الشرفة المفتوحة وانتظرت. خطر في بالي كم كان بلا معنى أن يتحدَّد مصيري على يدَي هذه المرأة المبتلَّتين والمشققتين. بيد أن الأمر كان عديم الأهمية، لأني قد جئت إلى المزار وفي نيتي أصلًا المجازفة بقبول مثل هذا اللامعنى. تناهى إلى سمعي، من على الجانب الآخر من الباب الورقي الجرَّار، الصوتُ

الملازم للحلقة المعدنية على جارور قديم بينما كانت المرأة تحاول أن تفتحه بصعوبة بالغة. ثم سمعت صوت تمزيق قطعة من الورق، وفُتحَ بعد لحظة الباب الجرّار نصف فتحة.

«هاك»، قالت المرأة وهي تناولني ورقة رفيعة، ثم أغلقت الباب مرة أخرى. وكانت أصابعها المبتلّة قد تركت علامة رطبة على إحدى زواياها.

قرأت الورقة. «العدد أربعة عشر؛ منحوس»، جاء فيها. «ما دمتَ هنا، فإن الآلاف المؤلَّفة من الآلهة ستُهلِكك».

«رحل الأمير أوكوني عن هذه المقاطعة وفقًا لتعليمات آلهة أسلافه بعد أن كابد الحجارة الحارقة والسهام المدبَّبة وغيرهما من فنون التعذيب. يكمن ههنا نذيرٌ لك بهروب سرّي».

كان التفسير المطبوع تحت ما سبق مباشرةً يتطرق إلى الارتياب وكلّ صنوف المصاعب الكامنة في المستقبل. لم يُخِفْني ذلك. فتشت بين سائر النقاط المتنوعة الواردة في النصف السفلي من الورقة، ووجدت بند السفر.

«السفر؛ منحوس. تجنَّبْ خصوصًا السفر في اتجاه شمال غرب».

قررت، عندما قرأت هذا الأمر، أن أجعل رحلتي إلى الشمال الغربي.

غادر القطار المتوجّه إلى تسوروغا محطة كيوتو في الساعة السابعة

إلا خمس دقائق صباحًا. كان وقت الاستيقاظ في المعبد هو الخامسة والنصف. ولم يُبدِ أحد أيَّ ريبة حين نهضت صباح العاشر من تشرين الثاني وارتديت بزَّتي الطلَّابية مباشرةً. كان من عادتهم جميعًا أن يتظاهروا بعدم رؤيتي.

كانت أمور المعبد دومًا مشوَّشة بعض الشيء في إبَّان فترة الشفق. بعض الناس مشغول بالكنس، بعضهم الآخر بالمسح. كانت الساعة الممتدة حتى السادسة والنصف مخصَّصة لأنشطة التنظيف. خرجت وأخذت أكنس أمام الفِناء. نويت أن أنطلق في رحلتي من المعبد مباشرة من دون أن آخذ معي أيَّ شيء، وكأني اختُطفت فجأةً إلى عالم آخر بعيد. تحركتُ ومكنستي على طول درب الحصباء الذي كان يشعُّ إشعاعًا خفيفًا في ضوء أول الفجر. تسقط المكنسة على الأرض فجأة، وأختفي بدوري، ولا شيء يبقى في الضوء الخافت غير الحصى البيضاء على الدرب. هكذا تخيلت أن رحيلي يجب أن يكون.

لم أودّع المعبد الذهبي لهذا السبب. كان ضروريًا أن أُنتزَعَ بغتةً من بيئتي كليًا. وهذه البيئة تتضمَّن المعبد الذهبي. وجَّهتُ حركة مكنستي تدريجيًا صوب البوابة الرئيسية. كان في وسعي أن أبصر نجوم الصباح عبر أغصان أشجار الصنوبر.

كان قلبي يخفق. يجب الآن أن أغادر. بدت الكلمة تقريبًا كأنها ترفرف في الجو. مهما حدث يجب أن أغادر؛ أغادر محيطي، أغادر مفهومي للجمال الذي يكبّلني إلى هذا الحد؛ أغادر الظلمة المعزولة التي أعيش فيها؛ أغادر تأتأتي وسائر ظروف وجودي الأخرى.

سقطت مكنستي من يديَّ في عتمة العشب سقوطَ ثمرة ناضجة من شجرة. تسلَّلت خلسةً صوب البوابة الرئيسية مستترًا خلف الأشجار. ما إن عبرت البوابة حتى طفقت أجري بأقصى سرعة تحملني بها ساقاي. كانت أولى عربات ترمواي الصباح تقعقع على الخط. ركبت على متنها. لم يكن في العربة سوى بضعة أشخاص؛ بدا أنهم عمال. تركت الضوء الكهربائي ينصبُّ عليَّ بكلّ قوة شاعرًا كأني لم أكن أبدًا في مثل هذا المكان الساطع من قبل.

أتذكر تفاصيل رحلتي بكلّ وضوح. لم أغادر من دون اتخاذ وجهة. وقع قراري على محلّة سبق لي أن زرتها مرة في نزهة مدرسية أيام المدرسة الإعدادية. بيد أن، مشاعر الرحيل ومشاعر الانطلاق المعتملة فيَّ كانت من الشدة، وأنا أدنو من المكان تدريجيًا، بحيث شعرت كأني أتحرك نحو وجهة مجهولة.

كنت مسافرًا على الخط الحديدي المألوف والمؤدي إلى مسقط رأسي، ولكن لم يحدث من قبل قط أن بدت لي هذه العربة القديمة المسخَّمة غريبة كما بدت في نظري آنذاك، ولم تظهر لي قط بألوانٍ بهذه النضارة. المحطة، الصافرة، وحتى الصوت الصادر من مكبّر الصوت الذي تردَّد صداه في هواء أول الفجر؛ كلُّها كانت تكرر شعورًا واحدًا بعينه، تعزّزه، وتبسط أفقًا شاعريًا، باهرًا، أمام عينيَّ. كانت شمس الصباح الوليد تقطع رصيف المحطة العريض إلى أقسام. صوت أحذية تتراكض على طول الرصيف؛ رنين جرس المحطة الرتيب اللجوج؛ صوت قبقاب خشبي ينكسر؛ لون ثمرة

يوسفي التقطها أحد باعة الرصيف من سلّته ورفعها إلى فوق؛ كلُّ شيء بدا لي كأنه افتراضات أو نذر بذلك الأمر الهائل الذي كنت الآن قد استودعتُه نفسي.

كلٌّ جزء بعينه من المحطة، مهما كان ضئيلًا، كان متركزًا في شعوري المهيمن بالانفصال والرحيل. أخذ الرصيف بالابتعاد عني بكلّ كياسة وفي منتهى الطمأنينة. كان في وسعي أن أشعر بذلك. أجل، كان بوسعي أن أشعر كيف أن ذلك السطح الخرساني العديم الملامح، كان مضاءً بالغرض المبتعد، المنفصل، الراحل عنه.

كنت متّكلًا على القطار. إنها طريقة غريبة للتعبير عن الأمر، لكن لا توجد طريقة أخرى لأفِيَ تلك الفكرة التي لا تصدَّق حقَّها: كان موقعي ينتقل رويدًا رويدًا منساقًا بعيدًا عن محطة كيوتو. كنت، ليلةً بعد ليلة، وأنا مستلقٍ في المعبد، أسمع صافرة قطارات البضائع وهي تمر على مقربة من حَرَم المعبد، فما كان لي إلا أن أستغرب الآن وجودي بنفسي جالسًا في واحد من تلك القطارات التي ما انفكت ليل نهار، وبلا كلل، تندفع مارَّةً لتنأى بعيدًا.

كنَّا الآن نحث السير قُدُمًا بمحاذاة نهر هوزو الذي رأيته منذ أمد بعيد حين كنت راكبًا هذا القطار مع أبي المعتلّ. كان للناحية الواقعة بين هنا وسونوبي، إلى الغرب من سلسلة أتاغو الجبلية ومن أراشِياما، مناخٌ مختلف تمامًا عن مناخ مدينة كيوتو. ومردُّ هذا الاختلاف على الأرجح إلى التيارات الجوية. تتصاعد، في إبَّان الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة، غشاوةٌ ضبابيةٌ من نهر هوزو في نحو الساعة

الحادية عشرة ليلًا، وتغطي الناحية بأسرها حتى العاشرة من صباح اليوم التالي. ويكاد لا يكون ثمة أيُّ انقطاع في الغشاوة وهي تطفو مبتعدة عن النهر.

انفتحت الحقولُ مغشَّاةً على جانبَي القطار كليهما، والأقسامُ التي تم حصادها كانت بلون العفن الأخضر. نَمَتْ بضعُ أشجار متناثرة، متفاوتةً جميعًا في الحجم والارتفاع، على الأخاديد بين حقول الأرز. كانت الأغصان والأوراق الخفيضة قد قُطِعَتْ جميعًا ولُفَّتْ أحصرةً من قش (معروفة في هذه المحلَّة باسم «أقفاص البخار») حول جذوعها النحيلة، بحيث إن الأشجار كانت تبدو كأنها أشباح أشجار، وهي تبرز واحدة تلو الأُخرى خارج الضباب. ظهرت مرة شجرة صفصاف ضخمة بوضوح أخَّاذ قريبًا جدًّا من نافذة القطار. كانت حقول الأرز تمتد في الخلفية رماديةً، وتكاد تكون غير مرئية؛ كانت أوراق الصفصافة المبتلَّة تتدلَّى ثقيلةً، وتهتز الشجرة برمَّتها اهتزازًا خفيفًا وسط غشاوة الضباب.

راحت معنوياتي التي كانت مفعمة بهجةً حين غادرت كيوتو تنجذب إلى ذكريات عن أشخاص ميتين. وانبعث فيَّ حنانٌ لا يوصف وأنا أتذكر أويكو وأبي وتسوروكاوا، وتساءلت عمَّا إذا لم يكن البشر الوحيدون الذين أقوى على حبّهم، في واقع الأمر، هم الموتى. مهما يكن من أمر، فما أسهل أن يحبَّ المرءُ الميتين بالمقارنة مع أولئك الذين لا يزالون أحياء!

لم تكن عربة الدرجة الثالثة شديدة الازدحام. كان يجلس فيها

الناس الذين يصعب جدًا حبُّهم، مشغولين بنفث دخان سجائرهم أو بتقشير اليوسفي. وجلس إلى جانبي موظف كهل ينتمي إلى إحدى المنظمات العامة. كان يتحدث بصوت عالٍ إلى رجل آخر. وكلا الرجلين كان يرتدي بذلة بالية لا شكل لها، وقد لحظت وجود قطعة من بطانة مخططة ممزقة متدلّية من واحد من أكمامهم. صدمني مرة أخرى واقع أن صفة الوضاعة لا تتناقص البتة مع تقدُّم الناس في السن. تلك الوجوه الفلّاحية المتغضنة التي لوَّحتْها الشمس؛ أصواتهم تلك التي اخشوشنت من فرط الشراب، يجوز القول إنها تمثل خلاصة نمط معيَّن من الوضاعة.

كانا يتناقشان بخصوص الجهة التي ينبغي لهما أن يلتمسا منها التبرع لمنظمتهما العامة. كان رجل أصلع جالسًا هناك، وثمة نظرة رصينة مرتسمة على وجهه. لم يشارك في النقاش، لكنه ظل يمسح يديه بمنديل قطني كان في الأصل أبيض، لكنه استحال الآن أصفر من فرط ما غُسل.

«انظرا إلى يديَّ هاتين!» تمتم متأففًا. «إنهما تتسخان من السخام وأنا جالس هنا فحسب. إنه حقًّا أمر مزعج!»

«لقد سبق لك مرةً أن كتبتَ رسالة إلى الصحف بخصوص السخام، ألم تفعل؟» قال رجل آخر انضم الآن إلى النقاش.

«لا»، قال الرجل الأصلع، «لكن الأمر يزعجني حقًّا؛ كلُّ هذا السخام!»

مع أني لم أكن أصغي، لم أستطع إلا السَّماعِ؛ سماع أن المعبد الذهبي والمعبد الفضي(*) يظل يأتي ذكرهما في نقاش الرجال. كانوا جميعًا متفقين على أنه ينبغي لهم أن يحصلوا على تبرعات دسمة من هذين المعبدين. كان ريع المعبد الفضي لا يتعدّى نصف ريع المعبد الذهبي، لكنه مع ذلك كان مبلغًا معتبرًا لا يُستهان به. كان الريع السنوي للمعبد الذهبي، كما قال أحد الرجال على سبيل المثال، يتجاوز في الغالب خمسة ملايين يِنْ. فالكلفة الفعلية لإدارة المعبد على غرار الإدارة المعتادة لمؤسسة زِن، بما في ذلك نفقات الكهرباء والماء، لا يمكن لها أن تتجاوز مئتي ألف ين. حسنًا، ما مصير الرصيد؟ الأمر من أبسط ما يكون! كان الرئيس يترك المساعدين والمتدرّبين يقتاتون بالأرزّ البارد في حين يخرج هو بمفرده وينفق المال على الغيشا في حي غيون. وفوق ذلك كلّه المعابد معفاة من الضرائب. كان الأمر بالضبط كما لو أنها تتمتع بامتيازات خارج حقوق الدولة. أجل، لا بدَّ من ملاحقة تلك المعابد بلا رحمة حتى تسدّد ما عليها من تبرعات.

استمر نقاشهم على هذا المنوال. عندما بلغوا نهايته، قال الرجل الأصلع الرأس الذي ما انفك يمسح يديه بمنديله: «إنه أمر مزعج

(*) غنكاكوجي: معبد زِن واقع على امتداد جبال كيوتو الجنوبية (هيغاشِياما). في سنة ١٤٨٢ بنى الحاكم العسكري أشيكاغا يوشيماسا (١٤٣٦-١٤٩٠) فيلًا تقاعدُه في موقِع معبد اليوم، وقام بتصميمها على غرار انغكاكوجي، (المعبد الذهبي)، وهو فيلًا تقاعُد جدّه يوشيمِتسو (انظر الفصل الأول) المبنية عند أسفل جبال كيوتو الشمالية (كيتاياما). وحُوّلَتْ الفيلًا إلى معبد زِن بعد وفاة يوشيماسا. (المترجم)

حقًّا!» ولخّص هذا الأمور، في نظر الجميع. لم يكن ثمة أيُّ أثر للسخام في يديه؛ لقد مُسِحتا ولُمّعتا تمامًا، وكان ينبعث منهما بريق منحوتة نِتسوكِه(*) للزينة. كانت يداه الجاهزتان هاتان أشبه بقفازين من شبههما بأيّ شيء آخر.

قد يبدو هذا مستغرَبًا، لكن هذه كانت أول مرة في حياتي أجدني فيها على تماسٍ مع النقد العام. كنّا جميعًا، في المعبد الذهبي، ننتمي إلى عالم الكهنوت، والجامعة، هي الأخرى، كانت جزءًا من ذلك العالم. لم يحدث قط أن نتداول الانتقادات بخصوص المعبد. بيد أن هذا النقاش بين الموظفين الكهول لم يفاجئني البتة. كلُّ ما قالوه بدا لي من البديهيّات. كنّا نأكل الأرزّ البارد، والرئيس يزور حي غيون. هذا كلّه كان عاديًّا للغاية. لكن ما ملأني غضبًا يتعذر وصفه، هو أن أكون أنا نفسي محكومًا بأن أُفهَمَ بواسطة طريقة الفهم التي يعتمدها هؤلاء الموظفون الكهول. كان مما لا يطاق في نظري، أن أُفهَمَ بواسطة كلماتهم هم؛ إذ إن كلماتي أنا كانت من طبيعة مغايرة. لا تنسَ، رجاءً، أنه لم تستحوذ

(*) منحوتات منمنمة تشير تسميتها إلى معنى «الربط المحكم»، وقد اختُرعت في اليابان في القرن السابع عشر لتؤدي وظيفة عملية. فلمّا كانت الملابس اليابانية التقليدية بلا جيوب، كان الرجال الذين يرتدونها يحفظون أمتعتهم الشخصية (كالغليون والتبغ والمال والأختام والأدوية) في محفظة مصنوعة من مواد أخرى (كالقش أو الجلد... إلخ) تعلّق بحبل على مَنطقة (أوبي) الكيمونو؛ وينتهي الحبل بمنحوتة منمنمة تشبه الزر، تسمّى نِتسوكِه، وظيفتها إحكام شدّ الحبل. وتطور النتسوكِه مع الوقت عن وظيفته العملية حصرًا، ليصير صنعُه فنًّا حرفيًّا رفيعًا. (المترجم)

عليّ أدنى درجة من الكراهية الأخلاقية، حتى عندما رأيت الرئيس يمشي مع غيشا غيون.

طار من ذهني لهذه الأسباب، حديثُ الموظفين الكهول من دون أن يترك سوى كراهية باهتة ورائحة وضاعة عالقة. لم تكن لديَّ أيَّ نية للسعي لإقناع الناس بتأييد أفكاري. ولا أنا اعتزمت توفير إطار لأفكاري قد يجعلها أقرب إلى فهم العالم، فلقد كان واقع عدم كوني مفهومًا، كما قلت مرارًا وتكرارًا، هو علّة وجودي بالذات.

انفتح باب العربة ودلف بائعٌ بسلَّة كبيرة مدلَّاة من رقبته، وأعلن عن بضاعته بصوت أجش. خطر في بالي فجأة أني جائع، واشتريت واحدة من وجبات غذائه المعلّبة، كانت عبارة عن شعيرية خضراء طُهيت فيها الأعشاب البحرية بدلًا من الأرزّ. كانت الغشاوة قد انقشعت إنما لم يكن أي ضياء في السماء. وكان في وسعي أن أرى عند سفوح جبال تامبا، أشجارَ التوت نابتةً في الأرض القاحلة، ولاحت في الأفق البيوت التي يعمل أصحابها في صناعة الورق.

خليج مايزورو. حرَّك الاسم عواطفي الآن مثلما كان يحركها في الماضي. أصبحت كلمة «مايزورو»، منذ أيام طفولتي في قرية شيراكو المجاورة، بمثابة مصطلح جامع على بحر تتعذر رؤيته، وقد آلَ في النهاية إلى الدلالة على نذير شؤم فعليّ يمثله البحر.

كان يمكن رؤية ذلك البحر غير المرئي بوضوح من قمة جبل أوبا الذي يرتفع وراء قرية شيراكو. كنت قد تسلَّقت ذلك الجبل مرتين. ورأيت، في المناسبة الثانية، جمع البوارج والطرّادات والمدمّرات

التي صدف لها أن تكون راسية في ميناء مايزورو البحري. ولعل السفن التي ألقت بمراسيها في الجَوْن، كانت في الواقع جزءًا من بعض التدابير السرية لقوات البحرية. فكلُّ ما يتعلّق بهذا الأسطول كان محاطًا بسرية، بحيث يكاد المرء لا يتمالك نفسه من التساؤل إن كان الأسطول موجودًا أصلًا. وفي النتيجة، لاح جمع الأسطول الذي رأيته من بعيد، مثلَ سرب من طيور البحر السوداء الجليلة التي عَرَفَها المرء بالاسم، ولم يرَها حتى الآن إلا في الصور. بدت كأنها تستمتع بالسباحة في الجَوْن سرًّا، تحت العين الساهرة لطائر عجوز جارح، مغتبطةً في غفلتها عمَّن يراقبها.

أعادني إلى الحاضر عنوةً صوتُ السائق الذي جاء وأعلن عن المحطة المقبلة: غرب مايزورو. لم يعد بين الركاب الآن ولا واحد من أولئك البحارة الذين كانوا في ما مضى يضعون على عجل حقائب عدَّتهم على أكتافهم. الأشخاص الوحيدون الذين كانوا يستعدون لمغادرة القطار، ما عداي، كانوا بضعة رجال يشبهون مُتعاطي السوق السوداء.

كلُّ شيء قد تغير. أصبح المكان ميناءً أجنبيًّا. ازدهرت لافتات الشوارع باللغة الإنكليزية عند التقاطعات بصورة توحي بالتهديد، وكان الجنود الأميركيون يجولون بأعداد كبيرة. كان نسيم بارد محمَّل بالملح تحت سماء الشتاء الغائمة، يهبُّ على الطريق الذي تم شقُّه عريضًا خصيصًا لأغراض عسكرية. كانت تفوح منه الرائحة غير العضوية النفَّاذة للحديد الصدئ بدلًا من نفحات نسيم البحر.

الشريط البحري الضيق المفضي كالقناة إلى قلب البلدة؛ صفحة الماء الراكدة؛ الفرقاطة الحربية الأميركية الصغيرة الجاثمة مربوطةً إلى الشاطئ؛ من المؤكد أن شعورًا بالسلام كان مخيّمًا على هذه الأمور كلّها. لكن سياسةً للنظافة مبالغًا فيها قد سلبت الميناء سابقَ عنفوانه الجسماني الفوضوي، وجعلت البلدة بأسرها تبدو كأنها نوع من مستشفى.

لم أتوقع أن ألاقي البحر هنا وفق أيّ شروط حميمة، مع أنه قد يتفق بالطبع لسيارة جيب أن تباغتني من الخلف وتدفعني إلى البحر على سبيل اللعب. أدرك أن الدافع الذي حدا بي إلى السفر، حين أفكر في الأمر الآن، كان يتضمَّن حميمية ما للبحر، غير أنه لم يكن ميناء بحريًا مصطنعًا مثل هذا الذي في مايزورو، بل كان بحرًا مائجًا لا يزال يحتفظ بعنفوانه الوليد، مثل البحر الذي سبق لي أن خَبِرتُه في إبَّان سنيّ طفولتي في مسقط رأسي على رأس ناريو. أجل، كان البحر النزق، السريعَ الهياج، والمفعم دومًا بالغضب، الذي يجده المرء على طول ساحل بحر اليابان.

لذا، قررت الذهاب إلى يورا. كان الشاطئ صيفًا، مزدحمًا بالمستحمّين، إنما لا بدَّ من أنه مهجور في هذا الموسم، ليس فيه إلا البحر واليابسة يتصارعان تصارُعَ قوى الظلام. كانت المسافة من غرب مايزورو إلى يورا لا تتعدّى سبعة أميال إلا قليلًا. تذكرتُ قدماي الطريق تذكرًا مبهَمًا.

كان الطريق يتبع الجزء الأدنى من الجَوْن إلى الغرب من مايزورو،

فيتقاطع مع خط مِيازو بزوايا قائمة، ثم يتابع على ممر تاكاجيري ليفضي إلى نهر يورا. ثم، بعد عبور جسر أوكاوا، يسير نهر يورا شمالًا بمحاذاة الضفة الغربية. ويتبع من ذلك الحين ببساطة مجرى النهر، ويؤدي إلى المصب عند البحر.

غادرت البلدة وأخذت أسير على الطريق. تعبت ساقاي وأنا أسير، فسألت نفسي: «ماذا أنا واجِدٌ في يورا؟ أي نوع من البرهان أرتجي الوقوع عليه، ويستحق بذل كلِّ هذا الجهد؟ ليس هناك قطعًا من شيء غير شريط من بحر اليابان وشاطئ مهجور؟ لكن ساقيَّ لم تبديا أيَّ ميل إلى الإبطاء. كنت أحاول بلوغ مقصد ما، ما همَّني أين تكون. لم يكن لاسم المكان الذي أتوجَّه إليه أدنى معنى. كانت الشجاعة ملهمتي، شجاعة تكاد تكون فاجرة، لمواجهة مقصدي، أيًّا تكن.

كانت أشعة الشمس الناعمة تتلامع، بين الفينة والفينة، متقطعةً، فتومض خيوطُها اللطيفةُ ترحابًا عبر أغصان أشجار الكِياكي الضخمة على جانب الطريق. بيد أني، لسبب ما، شعرت بأنه ليس في مقدوري أن أماطل. لم يكن الوقت متاحًا لي للراحة.

أبصرت فجأة نهر يورا من معبر ضيق في الجبل بدلًا من أن أجد منحدرًا خفيفًا يؤدي نزولًا إلى وادٍ نهري عريض. كان الماء أزرق، ومع أن النهر كان عريضًا، فقد كان يجري بليدًا تحت السماء الغائمة، ويبدو كأنه يدبُّ دبيبًا على مضض صوب البحر.

كانت الطريق قد خلت من أيّ سيارات أو مشاة عندما بلغت

الضفة الغربية للنهر. لحظت، بين حين وآخر، بيّارة برتقال إلى جانب الطريق. لكن المكان كان خاليًا تمامًا من الناس. سمعت صوت العشب ينحّي جانبًا وأنا مارٌّ بضيعة صغيرة تدعى كازوي. كان كلبًا، ووحده وجهه كان يطلُّ من العشب. والشعر على أرنبة خطمه كان أسود.

كنت أعلم بأن هذه الناحية مشهورة (بحسب تقليد يشوبه بعض الريبة) بأنها كانت مقرَّ سكن ذلك الإقطاعي القديم؛ سانشو دايو، إنما لم تكن لديّ نية للتوقف في المكان، فعبرتُه من دون حتى أن ألحظه؛ إذ إني كنت أنظر إلى النهر من دون غيره. كان ثمة جزيرة عظيمة وسط النهر، يحيط بها الخيزران. ومع أن الطريق خلا من أقل نسمة، فإن سيقان الخيزران على الجزيرة كانت ساجدة أمام الريح. كانت الجزيرة تضم أربعة أو خمسة فدادين من حقول الأرزّ المروية بماء المطر، إلا أن بصري لم يقع على فلّاح واحد. الشخص الوحيد في مرمى البصر كان رجلًا واقفًا هناك يوليني ظهره، ماسكًا صنارة صيد. لم يكن بصري قد وقع على إنسان منذ أمد طويل نسبيًّا، فشعرت تجاهه بشيء من الودّ. بدا كأنه يصيد سمك البوري. «في تلك الحالة»، فكرت، «لا بدَّ أني لست بعيدًا جدًّا عن مصب النهر».

طغى إذ ذاك حفيف الخيزران العظيم وهو يسجد للريح على صوت النهر. وما بدا أشبه بالغشاوة طفق يتصاعد فوق الجزيرة: لا بدَّ من أنه المطر الذي أخذ يهطل. راحت قطراته تصبغ ضفة النهر الجافة على الجزيرة، وسرعان ما أخذت تتساقط عليَّ. ولحظت، بينما كنت

واقفًا أنظر إلى الجزيرة وأبتلُّ تدريجيًّا، أنه لم يكن يوجد الآن أيُّ أثر للمطر هنالك. فالرجل المنهمك في الصيد لم يغير وضعيَّته البتة منذ رأيته أول وهلة. وما لبث الوابل أن جاز الموضع الذي كنت واقفًا فيه أيضًا.

كانت الأجمات وأزهار الخريف تغطي مرمى بصري عند كلِّ منعطف من الطريق. لكني كنت على وشك الوصول إلى المكان حيث ينفتح مصبُّ النهر أمام عينيَّ على البحر؛ إذ إن ريحًا بحرية بالغة البرودة صفعت أنفي. وبينما كان نهر يورا يدنو من نهايته، راح يتكشف عن عدد من الجزر المقفرة. ومع اقتراب ماء النهر الأكيد من البحر، كان يتعرَّض سلفًا لهجوم المياه المالحة، لكن سطحه نفسه صار أهدأ فأهدأ من دون أن يبدي أيَّ علامة على ما هو مقبل عليه؛ بالضبط مثل امرئ أُغمِيَ عليه ثم مات من دون أن يستعيد وعيه.

كان مصبُّ النهر ضيقًا على نحوٍ غير متوقع. وكان البحر منبسطًا هناك، ممتزجًا بحُزَم السحاب الغامق، غير متميز عنها، ذائبًا في النهر، معتديًا عليه. وكان لا بدَّ لي من السير بعدُ مسافةً لا يُستهان بها حتى أحصل على إدراك ملموس لهذا البحر والريح تهبُّ عليَّ بضراوة عبر السهول وحقول الأرزّ. كانت الريح ترسم أنساقها فوق سطح البحر بأسره. وتبدّد، بسبب البحر حصرًا، طاقتها العارمة على هذه الحقول المهجورة. وكان البحر عبارة عن بحر من البخار يغطي هذه الناحية الشتوية؛ بحر متغطرس، مهيمن، غير مرئي.

كانت الأمواج، أبعد من مصبّ النهر، تنطوي على نفسها، طبقةً

فوق طبقة، وتفصح تدريجيًا عن مدى سطح البحر الرمادي. كانت جزيرة على شكل قبّعة طافية على سطح النهر: إنها جزيرة كمُّوري التي باتت محميَّة بصفتها موطنًا لطيور أوميزوناغي البحرية النادرة.

قررت أن أذهب إلى واحد من الحقول. أَجَلْتُ بصري من حولي. كانت أرضًا مقفرة. وَمَضَ في ذهني، في تلك اللحظة، نوعٌ من المعنى. لكن ما إن فطنت إلى هذه الومضة حتى تلاشت وأضعتُ المغزى. وقفت هناك بعض الوقت، لكن الريح الجليدية التي كانت تضرب جسمي سلبت مني خواطري كلَّها. أخذت أمشي في غمار الريح. اندمجت الحقول الغثة في اليابسة الحجرية القاحلة. كان العشب ذاويًا، والخضرة الوحيدة غير الذابلة كانت خضرة بعض الحشائش الشبيهة بالطحالب التي تشبَّثت بالأرض، وتلك الحشائش، هي الأخرى، كانت ذات منظر مهشَّم، منكمش. كانت الأرض بالفعل مختلطة بالرمل.

تناهى إلى سمعي صوت رجرجة رتيبة، ثم سمعت أصواتًا بشرية. سمعتها بالضبط حين أدرت ظهري للريح الضارية ورفعت بصري محدقًا إلى ذروة يوراغاتاكي.

أجلتُ بصري من حولي باحثًا عن بشر. كان درب صغير يؤدي إلى الشاطئ نزولًا بمحاذاة الجروف الخفيضة. كنت أعلم بأن هناك أعمالًا تنفَّذ تدريجيًا لحماية تلك الجروف من التآكل الواسع. كانت أعمدة خرسانية موزَّعة هنا وهناك مثل هياكل عظمية بيضاء، ولون الخرسانة الجديدة على خلفية الرمل يوحي بنضارة غريبة. أما صوت الرجرجة الرتيبة فكان مصدره خلَّاط الخرسانة الذي يخضُّ الإسمنت

وهو يُصَبُّ في الإطار. راح شبان من العمال ذوي الأنوف الحمراء الزاهية ينظرون إليّ باستغراب وأنا أمر بهم في زيّ الطلبة. نظرت في اتجاههم. وذاك كان مبلغ تحيّاتنا البشرية، بعضنا لبعض.

كان البحر ينحسر عن الشاطئ انحسارًا مخروطيًا ومباغتًا. طار قلبي فرحًا، وأنا أسير قاطعًا مسافة الرمل الغرانيتي صوب حافة الماء، عندما خطر في بالي أني كنت أقترب بلا ريب خطوةً خطوةً من المعنى الأوحد الذي وَمَضَ في ذهني قُبيلئذٍ. كانت الريحُ قارسةَ البرودة، ولأني لم أكن أرتدي قفازين، كادت يداي أن تتجمدا لكني لم أبالِ بذلك على الإطلاق.

أجل، كان هذا حقًّا ساحل بحر اليابان! كان هنا منبع تعاستي كلّها؛ منبع خواطري السوداوية كلّها؛ أصل قبحي كلّه وقوتي كلّها. كان بحرًا هائجًا. كانت الأمواج تفور هاجمةً في كتلة شبه متواصلة، تكاد لا تتيح للمرء رؤية الوهاد الرمادية، السلسة، الواقعة بين الموجة والموجة التي تليها. كانت حُزَم السحب العظيمة، وقد تكدَّس بعضها على بعض فوق عرض البحر، تكشف عن ثقل، وفي الوقت ذاته، عن هشاشة؛ إذ إن ذاك التراكم الثقيل وغير المحدد من الغيم، كان يتخذ حاشيةً له خطًّا يماثل أرقَّ الريش خفةً وبرودة، وفي مركزه يكتنف سماءً شاحبةَ الزرقة ما كان في وسع المرء أن يستيقن من وجودها. وكانت تتسامق خلف المياه بلون الزنك، جبالُ الرأس الأرجوانية المائلة إلى السواد. كلُّ شيء كان مشبعًا بالجيشان والسكون، بقوة مظلمة، متحركة أبدًا، بالشعور المتخثر للمعدن.

تذكرت بغتةً ما قاله لي كاشيواغي يوم لقائنا الأول. يتفجر نبع القسوة من دواخلنا فجأة في مثل الأوقات التي يجلس المرء فيها على مرج مجزوز العشب بإتقان عصر يوم ربيعي جميل، بينما يشاهد الشمس شاردًا وهي تتلصَّص عبر أوراق الشجر الشمس وتحوك بخيوطها أنساقًا على العشب.

كنت الآن أواجه الموج وريح الشمال العاتية. لم يكن ثمة عصر ربيعي جميل هنا، ولا مرج مجزوز العشب بإتقان. بيد أن هذه الطبيعة المقفرة أمامي أشد إطراءً لمعنوياتي، ومرتبطة بوجودي ارتباطًا أكثر حميمية، من أيّ مرج في عصر يوم من أوائل الربيع. في مقدوري هنا أن أكتفي ذاتيًا. لم يكن يتهدَّدني شيء هنا.

هل كانت النظرية التي خطرت في بالي الآن نظرية قاسية بمعنى كاشيواغي للكلمة؟ لا أدري. لكن في أي حال، كشفت هذه النظرية التي بعثت إلى الحياة في باطني فجأةً عن المعنى الذي سبق له أن وَمَضَ في ذهني، وجعلتني أشعُّ ألقًا في الداخل. لم أحاول بعد أن أمعن النظر فيها عميقًا، لكن تلك النظرية استلبتني فحسب، كما لو أن ضوءًا صعقني. بيد أن تلك الفكرة، التي لم تخطر قط في بالي قبلئذٍ ولا مرة، ما كادت تولد حتى أخذت تتنامى قوةً وحجمًا. كنت أبعد ما أكون عن احتواء الفكرة، بل أنا نفسي الذي تغلَّفتُ بها. وهذه هي النظرية التي غلفتني: «يجب عليَّ أن أضرم النار في المعبد الذهبي».



الفصل الثامن

واصلتُ السير، في أثناء ذلك، حتى وصلتُ إلى أمام محطة تانغو - يورا على خط مِيازو. كنَّا قد اتَّبعنا المسار نفسه، حين جئت إلى هنا يوم النزهة المدرسية التي نظَّمتْها مدرسة شرق مايزورو الإعدادية، وركبنا القطار من هذه المحطة. كاد الطريق أمامها يخلو من المارة، فكان من السهل أن أخمّن أن هذا المكان يعتاش أهلُه من موسم الصيف القصير حين تأتي أعداد كبيرة من الزوار.

قررت أن أقيم بنُزُل صغير رأيت عليه لافتة تقول: «إيوان يورا - نُزُل للمستحمّين». فتحتُ النافذة الزجاجية الجرَّارة عند المدخل، وأعلنتُ عن وجودي، لكني لم أتلقَّ ردًّا. كان الغبار يغطي الدرجات، والمصاريع مغلقة، وبدا داخل البيت معتمًا. ولم يكن هناك أي شخص يمكن رؤيته.

ذهبت إلى الباب الخلفي. كان ثمة حديقة صغيرة بسيطة نبتت

فيها بعض الأقحوانات الذابلة. ثمة دلو موضوع على رفّ مرتفع، مخصَّص لزوار الصيف الذين يستعملونه لسكب الماء على أجسادهم، والاغتسال من الرمل العالق بها حين يعودون من سباحتهم.

ثمة بيت صغير على مسافة قصيرة من البناء الرئيسي، يعيش فيه قطعًا صاحب النزل مع أسرته. تناهى إلى سمعي صوت مذياع عبر الأبواب الزجاجية المغلقة. كان علوّ الصوت غير الضروري يوحي بنوع من الخواء، الأمر الذي جعلني أشعر بأنه لم يكن ثمة أحد في المنزل. كانت بضعة أزواج من القباقيب الخشبية مبعثرة عند المدخل. وقفت في الخارج ورحت أعلن عن وجودي كلَّما حصل همود في ضجيج المذياع. إنما، كما توقعت، لم يأتِني ردٌّ من هذا البناء أيضًا.

ظهر خيال شخص في الخلف. كانت الشمس تنسرب واهنةً عبر السماء الغائمة. لم ألحظه حتى اتفق لي أن أبصر عروق علبة القباقيب الخشبية عند المدخل ينقلب لونها أفتح. ثمة امرأة كانت تنظر إليَّ. كانت ذات سمنة جعلتْ منحنياتِ جسمها الأبيض تبرز بروزًا لطيفًا، وعيناها ضيقتان وصغيرتان، بحيث يشقُّ على المرء أن يخمّن إن كانت لديها عينان أصلًا. سألتُها إن كانت هناك غرفة. لم تسألني المرأة أن أتبعها حتى، بل استدارت على عقبيها من دون أن تنطق بكلمة، ومشت صوب مدخل الفندق.

أُعطيتُ غرفةً ركنيةً صغيرةً في الطابق الثاني مطلَّةً على البحر، ظلَّت موصدةً فترة طويلة، والنار الوانية المشتعلة في المرجل الذي

جلبته المرأة لي سرعان ما ملأت الهواء بالأدخنة، فجعلته منتنًا بما يكاد لا يطاق. فتحتُ النافذة وسلَّمت نفسي لريح الشمال. راحت السحب، صوب البحر، تواصل لعبتها البطيئة، المتثاقلة، والتي لم تقصد منها أن يراها أحد. بدت تلك السحب كما لو أنها انعكاس لاندفاعة عشوائية ما من اندفاعات الطبيعة. كان في وسع المرء أن يبصر، في بعض أجزائها، قِطَعًا من السماء؛ بلورات صغيرة، زرقاء، من الذكاء الصافي. أما البحر نفسه فكان غير مرئي.

أخذت، وأنا واقف عند النافذة، أستقرئ نظريتي الآنفة الذكر. تساءلت لماذا لم أتوصل إلى فكرة قتل الرئيس قبل أن تخطر في بالي فكرةُ إضرام النار في المعبد. كان إمكان قتل الرئيس، كما أدركت، قد ومض في ذهني، لكني فهمت من فوري كم سيكون ذلك عديم الجدوى. فحتى لو اتفق لي أن أنجح في قتله، فإن رأسه الكهنوتي الحليق والشرَّ الكامن فيه، والذي كان مركبًا من العجز، سيظلان يعاودان الظهور من الأفق المظلم إلى ما لا نهاية. على العموم، لا تتصف الأشياء الموهوبة بالحياة، بصفة الوجود الأزلي الجامد كما المعبد الذهبي. أما البشر فقد حَبَتْهم الطبيعةُ بجزء واحد فحسب من خواصها، وراحوا ينشرون ذلك الجزء ويجعلونه يتكاثر بطريقة استبدال فعّالة. إذا كان قصد القاتل من القتل هو تدمير الخاصية الأزلية لضحيته، فإن ذلك القتل يستند إلى سوء تقدير دائم. بذا هَدَتْني خواطري بوضوح متزايد إلى التسليم بوجود مفارقة تامة بين وجود المعبد الذهبي والبشر. فمن ناحية، ينبع توهُّم الخلود من

الجانب الفاني ظاهريًا من البشر؛ ومن ناحية أخرى، فإن الجمال غير الفاني ظاهريًا للمعبد الذهبي يسفر عن إمكان تدميره. الأشياء الفانية كالبشر عصيَّة على الإبادة؛ الأشياء غير القابلة للفناء كالمعبد الذهبي يمكن تدميرها. لِمَ لم يفطن إلى هذا الأمر أحد؟ لم يكن ثمة شك في أصالة استنتاجي. إذا قُيّض لي أن أضرم حريقًا في المعبد الذهبي، الذي اعتُبر كنزًا وطنيًا سنة ١٨٩٧، فسأُقْدِمُ على فعل تدمير خالص؛ فعل خرابٍ متعذر الإصلاح؛ فعل من شأنه أن يقلّل حقًّا حجم الجمال الذي أبدعه البشر في هذا العالم.

ساورني مزاجٌ مرح بينما طفقت أفكر على هذا النحو. «إذا أحرقت المعبد الذهبي»، قلت لنفسي، «فسوف أفعل أمرًا ستكون له قيمة تربوية عظيمة؛ إذ إنه سوف يعلّم الناس أنَّ من غير المعقول استنباطَ عدم قابلية الفناء من خلال التشبيه. سوف يتعلّمون أن مجرَّد واقع ديمومة المعبد الذهبي في الوجود؛ أن ديمومة قيامه طوال خمسمئة وخمسين سنة في جوار بركة كيوكو، لا تمنحه أيَّ ضمانة على الإطلاق. ولسوف ينغرس فيهم شعورٌ بالضيق وهم يفطنون إلى أن المسلَّمة البديهية التي أسندها بقاؤنا إلى المعبد يمكن لها أن تنهار بين عشية وضحاها».

تُصان ديمومةُ حياتنا بإحاطتها بالجوهر المتصلّب للزمن الذي استمر مدة بعينها. خذ، على سبيل المثال، جارورًا صغيرًا صنعه النجار من أجل راحة أصحابِ بيتٍ ما. يتغلَّب الزمن نفسه بمرور الزمن على الشكل الفعلي لهذا الجارور، ويبدو الأمر بعد انقضاء

عقودٍ وقرونٍ كما لو أن الزمن قد تصلَّب واتخذ ذلك الشكل. مساحة صغيرة بعينها، شَغَلَها الشيء في البداية، بات يشغلها الآن زمنٌ متصلِّب. لقد غدت في الواقع تجسيدًا لشكل معيَّن من الروح. في بداية التسوكوموغامي -كي، وهو كتاب من حكايات الجن يعود إلى العصر الوسيط، نجد المقطع التالي: «جاء في النثريات بخصوص القوتين الكونيتين، يِنْ ويانغ(*)، أنه بعد انقضاء مئة عام وتحوُّل الأشياء إلى أرواح، تُخدع قلوب البشر؛ وهذا ما يُطلَقُ عليه اسمُ تسوكوموغامي(**)، وهو عام الروح المحزونة. يقضي عرف العالم بأن ينزع القوم الأواني المنزلية القديمة كلَّ عام قبل قدوم الربيع ويطرحوها في الزقاق. وهذا هو ما يُعرَفُ باسم كنس

(*) يِنْ ويانغ: في الحكمة الطاوية الصينية، يصف قطبا الينْ واليانغ (حرفيًّا: «معتم/ مضيء»، «سالب/موجب») كيف يمكن للقوى المتضادة أو المتعاكسة في الظاهر أن تتكامل وترابط وتتكافل في العالم الطبيعي، وكيف يمكن لكلٍّ منها أن يفضي إلى الآخر. يُنظَرُ إلى عدد من الثنائيات الملموسة (نور/ظلام، نار/ماء، ذكر/أنثى، بسط/قبض) بصفتها تجلّيات مادية للثنوية التي يرمز إليها اليانغ والينْ. ولهذه الثنوية تطبيقات في أصول عدد من العلوم الصينية القديمة (كالفيزياء والفلك وعلم النجوم)، فضلًا عن كونها المبدأ التوجيهي الأول للطب الصيني، ومبدأً مركزيًّا لمختلف مدارس الفنون القتالية الصينية ورياضاتها. وانتقلت هذه المعطيات إلى اليابان وازدهرت في علومها وفنونها قاطبة. (المترجم)

(**) تسوكوموغامي: أشباح أو أطياف (يوكاي)، هي عبارة عن فئةٍ من الأرواح الفائقة للطبيعة في الفولكلور الياباني، مستحدَثة من أداة أو غرض يحلّ فيه أحد الكائنات الإلهية (كامي) ويتخذه سَكَنًا. تكتسب أصناف التسوكوموغامي كلُّها، في الحكايات الشعبية اليابانية، الحياة والشعور في الذكرى المئوية لصنعها، ويمكن لها أن تتراوح، بحسب كيفية معاملتها واستخدامها، بين كائنات ودية لطيفة وأرواح منتقمة مرعبة. يقال أيضًا إن الأدوات الكهربائية الحديثة لا يمكن لها أن تصبح تسوكوموغامي. (المترجم)

البيت. على الغرار ذاته، على البشر كلَّ مئة عام أن يتكبَّدوا كوارث التسوكوموغامي».

وهكذا ستفتح فعلتي أعين البشر على كوارث التسوكوموغامي، وتنجيهم منها. لا بدَّ أن أدفع بفعلتي تلك، بالعالم الذي يوجد فيه المعبد الذهبي إلى عالم لا يعود موجودًا فيه. وبذا سيتغير معنى العالم قطعًا.

كلَّما أعملتُ تفكيري في الأمر ازددت ابتهاجًا. نهايةُ العالم، ذلك العالم الذي يحيط بي الآن وينبسط أمام عينيَّ، وسقوطُه ليسا ببعيدين. أشعة الشمس الغاربة مرتمية عبر الأرض. كان المعبد الذهبي يشعُّ في ضوئها، والعالم الذي يحوي المعبد الذهبي ينسل مبتعدًا لا محالة، لحظةً من إثر لحظة، مثل رمل يدلف من بين الأصابع.

انتهت إقامتي في «إيوان يورا» بعد ثلاثة أيام عندما ذهبت المالكة، التي ارتابت في أمري لأنني لم أَخْطُ خطوةً واحدةً خارج النُّزُل طوال هذه المدة، وجاءت بشُرطي. عندما رأيته يدخل غرفتي ببزَّته ويأخذ في استجوابي ارتعبت من أن يقف على خطتي، لكنني أدركت فورًا أن ليس ثمة أسباب موجبة لمثل هذا الخوف. أجبته عن أسئلته، وأخبرته بما حدث بالضبط؛ أخبرته بأنني أردت أن أفرَّ من حياتي في المعبد لمدة قصيرة وأنني شردت. ثم أريته وثائقي التعريفية الجامعية، تعمَّدتُ لاحقًا، كي أبدِّد شكوكه، تسديد قيمة فاتورتي بالكامل بينما كان يراقب. واتَّخذ، بناءً على ذلك، موقفًا وقائيًّا. اتصل بالمعبد على الفور بالهاتف، للتأكد من صحة قصتي،

ثم أخبرني بأنه سيعيدني إلى هناك بنفسه. وتكلّف عناء تبديل زيّه الرسمي للقيام بالرحلة ليجنّبني أيَّ إضرار محتمل بـ«مستقبلي»، كما سماه.

هطل وابل مطر بينما كنّا ننتظر القطار في محطة تانغو-يورا، فابتلّت فورًا، كونها عديمة السقف. اصطحبني الشرطي مرتديًا الآن ثيابه العادية إلى مكتب المحطة، حيث انتهز المناسبة ليتباهى خصيصًا أمامي بأن ناظر المحطة وغيره من الموظفين كانوا من أصدقائه المقربين. ولم يكتفِ بذلك، بل قدَّمني إلى الجميع بصفتي ابن شقيقه الذي أتاه زائرًا من كيوتو.

كنت متفهمًا نفسية الثوار. فموظفا الدولة هذان، ناظر المحطة والشرطي، الجالسان الآن يدردشان حول جمر المرجل الحديدي المتقد، لم يكن لديهما أدنى استشعار للانقلاب العظيم في العالم الذي كان يجري أمام أعينهما بالذات، ويسبّب دمار نظام الأشياء الخاص بهما وبأمثالهما، والذي كان بهذا القرب منهما.

سوف يتحول عالم هؤلاء الأفراد إلى الأبد، حين يحترق المعبد الذهبي؛ أجل، حين يحترق المعبد الذهبي، سوف تنقلب قاعدة حياتهم الذهبية رأسًا على عقب؛ سوف تُطرَحُ الجداولُ الزمنيةُ لقطاراتهم في غياهب البلبلة المطلقة؛ سوف تغدو قوانينهم بلا مفعول. لقد أسعدني أن أفكر في أن هؤلاء الناس غافلون تمامًا عن أن الشاب الجالس إلى جوارهم وهو يدفئ يديه على المرجل، وعلى وجهه نظرة عدم اكتراث، هو مجرم مرتقَب.

كان أحد موظفي المحطة شابًا مفعمًا حيويةً ومرحًا، يروي للجميع، بصوت عالٍ، عن فيلم ينوي أن يشاهده يوم عطلته المقبل. كان فيلمًا رائعًا لا يُفوَّت، يستدرُّ الدمع من العين لا محالة، ومليء بالأكشن في الوقت ذاته. أجل، سيذهب إلى السينما يوم عطلته المقبل. هذا الفتى الغضّ، والذي كان أصلبَ مني كثيرًا، وأشدَّ إقبالًا على الحياة بما لا يقاس، ذاهبٌ إلى السينما يوم عطلته المقبل. وسيجلس هناك مطوقًا بذراعه إحدى البنات، ثم يذهب معها إلى الفراش. طفق يمازح ناظر المحطة، يروي النكات، ويتلقى توبيخًا ضعيفًا من رؤسائه، بينما ينشط في أرجاء المكان في الوقت نفسه، فيضع الفحم على المرجل، ويكتب أرقامًا على السبورة. شعرت للحظة بأني على وشك الوقوع مرة أخرى في سحر الحياة، أو في حسدها. كان من الممكن لي بعدُ أن أمتنع من إضرام النار في المعبد؛ ففي وسعي أن أغادره نهائيًا، فأتخلّى عن الكهنوت وأدفن نفسي في الحياة مثل هذا الشاب. لكن قوى الظلام أعادتني إلى نفسي على الفور، واختطفتْني من مثل هذه الخواطر. نعم، لا بدَّ لي من حرق المعبد الذهبي. عندئذٍ فقط يمكن لحياة جديدة أن تبدأ؛ حياة مصنوعة خصيصًا بناءً على طلبي.

أجاب ناظر المحطة على اتصال هاتفي، ثم اتجه صوب المرآة وأصلح بعناية وضع قبعته المزينة بضفيرة مذهَّبة؛ ثم تنحنح، ونفخ صدره، وراح يختال على الرصيف كما لو كان يدخل قاعة احتفال. كان المطر قد توقف عن الهطول. وسرعان ما تناهت إلى الأسماع

واضحةً جلبةُ القطار البليلة وهو يجري على سكّتيه اللتين شُقَّ مسارُهما عبر الجُرْف. وما هي إلا لحظة حتى راح ينزلق منسابًا إلى المحطة.

وصلت إلى كيوتو في الثامنة إلا عشر دقائق، واصطحبني الشرطي بثيابه المدنية إلى بوابة المعبد الرئيسية. كان مساءً باردًا. رأيت أن أمّي كانت واقفة هناك، وأنا أطلُّ من بين صفّ أشجار الصنوبر الداكنة، وأقترب من البوابة المتصلبة. اتفق لها أن تكون واقفة في جوار اللافتة المكتوب عليها: «أيُّ خرق لهذه اللوائح يعاقَب عليها وفقًا لما ينصُّ عليه القانون». بدا رأسها الأشعث في ضوء المصباح على البوابة، كما لو أن كلَّ شعرة بيضاء مفردة واقفةٌ منتصبة. وجعل انعكاس الضوء الصادر من المصباح شعرها يبدو أكثر ابيضاضًا مما هو عليه فعلًا. كان وجهها الصغير المحاط بهذه الكتلة البيضاء الشعثاء هامدًا.

بدا جسم الوالدة، الضئيل منتفخا بصورة بشعة. لمحتُ، عبر البوابة المفتوحة، الفِناء الغارق في العتمة الممتد وراءها. ارتسمتْ هيئتُها الضخمة بارزةً أمام العتمة؛ وممّا زاد الطين بلّة أنها اتّشحت للمناسبة بكيمونو رثّ أظهرها بمظهر الحمقاء، وعقدت فوقه وشاحها الأثير المطرز بالذهب، الذي بات الآن مهترئًا تمامًا من كثرة ما ارتدته. بدت هناك بهيئتها تلك كالجثة الواقفة على قدميها.

تردَّدتُ في الاقتراب منها. لم أستطع للوهلة الأولى أن أفهم كيف تصادف وجودها هناك، لكني استنتجت لاحقًا أن الرئيس، عندما

اكتشف رحيلي، اتصل بالمكان الذي تقيم به والدتي، وسأل عني، وقد استاءت جدًّا، وزارت المعبد حيث لبثت إلى حين عودتي.

دفعني الشرطي إلى الأمام. أغرب ما في الأمر أن راح جسمها يصغر ويصغر وأنا أقترب منها. كان وجهها أدنى من وجهي، وبدا ملتويًا التواءً قبيحًا منفرًا عندما رفعتْ بصرَها إليَّ.

قلَّما خدعتني يومًا مشاعري الغريزية، لذا فإن رؤية عينيها الصغيرتين، الماكرتين، الغائرتين، أكَّد لي بوضوح لا يشوبه لَبْسٌ كم كنت محقًّا في كرهي والدتي. وهو كره مستمَدّ من واقع أنها ولدتني أصلًا؛ من ذكريات عن الإذلال العميق الذي عرَّضتني له بفعلتها؛ وهو إذلال، كما سبق لي أن شرحت، لم يترك لي أيَّ مجال للتخطيط للأخذ بثأري منها، لكنه عزلني، بدلًا من ذلك، بكلّ بساطة عنها. كان من الصعب كسر هذه الأواصر. بيد أني الآن، شعرتُ بغتة بأني قد تحررت، بينما كنت أستشعر أنها كانت نصف غارقة في حزن الأم. لا أدري لماذا، لكني شعرت بأنه لم يعد أبدًا في مقدورها أن تهدّدني مجددًا.

تعالى صوت نشيج وحشيّ كأن أحدهم كان يُخنَق حتى الموت. ثم امتدت يد والدتي وطفقت تصفعني صفعًا واهنًا على وجنتي.

«أيها الابن العاقّ! أليس لديك أدنى حسّ بواجباتك؟»

نظر الشرطي إليَّ ساكتًا وأنا أتلقَّى صفعاتي. ما لبثت أصابعها أن فقدت تناسق حركاتها، وبدا أن القوة كلَّها تبارح يدها: راحت

رؤوس أظافرها، نتيجة لذلك، تطقطق على خدّي مثل حبّات البَرَد. ولحظتُ أنها لم تفقد نظرتها المتوسّلة، حتى وهي تسدّد ضرباتها نحوي، فأشحت ببصري عنها.

غيَّرتْ نبرتها بعد برهة. «لقد رحلتَ؛ رحلتَ وقطعتَ كلَّ هذه المسافة»، قالت. «كيف تدبَّرت أمر المال؟»

«المال؟ اقترضته من صديق، لعلمك».

«حقًّا؟ ألم تُقدِمْ على سرقته؟»

«لا، لم أسرقه».

تنفست والدتي الصعداء، كأن هذا الأمر كان وحده يُقلقها.

«حقًّا؟ إذًا، لم تقترف إثمًا؟»

«لا، لا شيء من هذا».

«حقًّا؟ حسنًا، هذا جيد، في كلّ الأحوال. طبعًا، عليك أن تذهب وتعتذر إلى الرئيس اعتذارًا خاشعًا. لقد اعتذرتُ بنفسي، لكن عليك الآن أن تذهب وتتوسل إليه من أعماق قلبك كي يسامحك. الرئيس رجل راجح العقل، وأظن أنه سيصرف النظر عن المسألة. لكن عليك هذه المرة أن تقلب صفحة جديدة، وإلا فإن الموت سوف يكون مصير أمّك المسكينة! أنا أعني ما أقول، يا بنيَّ! سوف يكون الموت مصيري إذا لم تغير ما في نفسك. ويجب عليك أن تصبح كاهنًا عظيمًا... لكن أول ما ينبغي لك أن تفعله هو أن تذهب وتعتذر».

تبعتُ والشرطيَّ والدتي في صمت. كانت من شدة انفعالها أن نسيتْ أن توجّه إلى الشرطي كلمة تحية مألوفة. راحت تمشي بخطوات قصيرة، سريعة. وتساءلتُ عمَّا يجعلها بكلّ هذا القبح، بينما كنت أحدّق إلى وشاحها الرخو، المتدلي من الظهر. ثم فهمت. ما يجعلها قبيحة هو الأمل؛ أملٌ عضال، مثل حالة جَرَب معنّدة، تثوي، رطبةً ومحمرَّةً، في الجلد المصاب، فتسبّب حكاكاً دائمًا وترفض الإذعان لأيّ قوة خارجية.

حلَّ الشتاء. بات قراري أكثر فأكثر حزمًا. اضطررت إلى تأجيل خطتي مرة بعد مرة، لكني لم أسأم من هذه المماطلة المتكررة. ما أقلقني، طوال مدة نصف السنة هذه، كان أمرًا مختلفًا كليًا. كان كاشيواغي يطالبني بتسديد القرض الذي أقرضني إيَّاه عند آخر كلّ شهر. كان يُخطِرُني بالمبلغ الكلّي، آخذًا الفائدة المستحقة بالحسبان، ثم يأخذ في مناكدتي، مستخدمًا كلَّ فنون الإذلال الخبيث. إلا أنه لم تعد لديَّ أيُّ نيَّة في سَداد الدَّين. فما دمت أتفادى الذهاب إلى الجامعة، لم أكن مضطرًا إلى لقاء كاشيواغي.

قد يبدو مستغرَبًا أني لم أروِ كيف أني سرعان ما تشوَّشتُ وأخذتُ في التذبذب بين إقدام وإحجام، من بعد أن اتخذتُ هذا القرار. فواقع الأمر أن مثل هذه التذبذبات أمست الآن أمرًا من الماضي. كانت عيناي طوال فترة نصف السنة هذه، مثبَّتتين بحزم على نقطة واحدة في المستقبل. ولعلّي عرفت آنذاك معنى السعادة حقَّ معرفته.

أصبحت حياتي في المعبد هنيئة في المقام الأول. كلَّما فكرت في أنه لا بدَّ للمعبد الذهبي من أن يحترق عن آخره، مهما حدث، أصبحت الأمور التي لا تطاق قابلةً للاحتمال. أخذتُ الآن، كمَن يترقَّب موته، أجعل نفسي مقبولًا في نظر الآخرين في المعبد. أصبح سلوكي لطيفًا، وحاولت التصالح مع كلّ شيء. حتى إني تصالحت مع الطبيعة. كنت أنظر إلى صدور الطيور الزغباء بشعور بالود الحقيقي، كلَّ صباح، عندما تأتي لتنقر ما تبقى من نباتات البهشية الشائكة.

نسيت حتى كرهي للرئيس! لقد أصبحت حرًّا. تحررتُ من أمّي؛ من أصحابي؛ من كلّ شيء. لكني لم أكن من الحماقة بما يكفي كي أصدّق أن هذا الفرج الذي وجدته حديثًا في حياتي اليومية كان نتيجة قيامي بتغيير العالم من غير حتى أن أحرّك ساكنًا وأضع عليه يديَّ. يمكن لأيّ أمر أن يصير مبررًا حينما يُرى من حيث النتيجة، مترافقًا مع الشعور بأن القرار بتوليد هذه النتيجة يتوقف عليَّ وحدي. ههنا، كان أساس شعوري بالحرية.

على الرغم من أن قراري إضرام النار في المعبد الذهبي كان قرارًا مفاجئًا، فإنه ناسبني كثيرًا، مثل بذلة فُصّلتْ بعناية على مقاسي. كان الأمر كما لو أني ما فتئت أخطّط للأمر منذ ولادتي. كان الأمر، على الأقل، كما لو أن الفكرة ما فتئت تنمو في باطني فتتطلّع إلى يوم إزهارها التام منذ أول زيارة لي للمعبد الذهبي مع الوالد. واقعُ أن المعبد، بصفته يتمتع بكلّ هذا الجمال الفذّ، قد صعق فتًى غضًّا؛

هذا الواقع بالذات كان ينطوي على مختلف الدوافع المؤدّية إلى إحراقه عَمْدًا في آخر المطاف.

أنهيت دروسي التحضيرية في جامعة أوتاني في السابع عشر من آذار سنة ١٩٥٠. ووافتْ بعدئذٍ بيومين ذكرى ميلادي الحادية والعشرون. كان سجل نتائجي في إبّان سنوات الدروس التحضيرية الثلاث باهرًا للغاية. فلقد تمكنت من إحراز المرتبة التاسعة بعد السبعين بين تسعة وسبعين طالبًا. كانت أدنى علاماتي في اللغة اليابانية التي حصلت فيها على مجموع إجمالي مقداره اثنتان وأربعون. تغيَّبت عن مئتين وثماني عشرة ساعة من أصل ستمئة وست عشرة ساعة؛ أي أكثر من ثلث الوقت في الواقع. ومع ذلك، لم يكن عند القوم شيء يسمّى الرسوب، بما أن كلَّ شيء في هذه الجامعة كان قائمًا على مذهب الرحمة البوذي، فسُمِحَ لي بالتقدم إلى الدروس النظامية. وقد أعطى الرئيس موافقته الضمنية على هذه الخطوة.

استمررت في إهمال دروسي. وصرفتُ وقتي زائرًا مختلف المزارات والمعابد التي كان يجوز دخولها مجانًا طوال الأيام الجميلة بين أواخر الربيع وأوائل الصيف. اعتدت أن أسير ما دامت لساقيَّ طاقة على حملي. أتذكر يومًا بعينه من هذا القبيل.

كنت أمشي على طول الطريق أمام معبد ميوشِن عندما اتفق لي أن ألحظ طالبًا يذرع الطريق متقدّمًا أمامي على إيقاع خطواتي نفسه. توقف عند دكان صغير لبيع السجائر يقع في بناء حوافُّ سطحه

قديمة، فلحظت ملامحه الجانبية وهو واقف هناك بقبَّعته الطلابية يشتري علبة سجائر. كانت هيئة جانبية بيضاء، حادة، بحاجبين رفيعين. واستنتجت من قبَّعته أنه طالب في جامعة كيوتو. رمقني من طرف عينه. كان الأمر كما لو أن ظلَّين قد ضلَّا معًا، فحدست أنه كان مهووسًا بالحرائق.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، وهو توقيت هيهات أن يناسب الإحراق العَمْد. رفرفتْ فراشةٌ من الطريق الأسفلتية حيث كانت تمر الباصات، وتعلَّقتْ بزهرة كاميليا منحنية، خائرة، موضوعة في مزهرية في واجهة دكان التبغ. بدت الأجزاء الذابلة من الزهرة البيضاء كما لو أن نارًا بنّية أحرقتْها. مضى وقت طويل قبل أن يُقْبل باص. كانت الساعة المعلَّقة فوق الطريق متوقفة.

لم أدرِ لماذا، لكني كنت واثقًا بأن الطالب يتحرك خطوةً بعد خطوةٍ في اتجاه الحرق المتعمَّد. أحسب أن وثوقي أتى من كونه يشبه المهووسين بالحرائق شبهًا صريحًا لا لَبْس فيه. لقد اختار بتصميم وضح النهار، وهو أصعب وقت لإضرام الحرائق إطلاقًا. وكان الآن يوجِّه خطواتِه ببطء نحو الوجهة التي قصدها بعزيمة لا تلين. تنتظر أمامه النيران والدمار؛ كان وراءه عالم النظام الذي هجره. كان في ظهر بزَّته ما يوحي بالصرامة، وهو ما جعلني أشعر بهذا، ربما لأني لطالما تخيَّلت أن هذه هي الهيئة التي سيبدو عليها ظهرُ شاب مهووس بالحرائق. ظهرُه الجوخ الأسود الذي كانت الشمس تضيء عليه من عَلٍ، كان مفعمًا بالتعاسة والغضب.

تباطأتُ وقررتُ أن أتعقَّب الطالب. وأنا أسير خلفه، ملاحِظًا أن إحدى كتفيه أخفض من الأخرى. شعرت بأن ظهره كان، في واقع الأمر، ظهري أنا. كان أجمل مني بكثير، إنما لم يكن لدي شك في أنه مسيَّر لارتكاب فعلتي نفسها بدافع الوحشة ذاتها، التعاسة ذاتها، الأفكار المشوشة ذاتها بخصوص الجمال. أخذت أشعر، وأنا أتعقَّبه، بأنني كنت شاهدًا على فعلتي أنا استباقًا.

من شأن أمور كهذه أن تحدث في وقت متأخر من عصر يوم ربيعي، لا لشيء، إلا لأن الضياء عميم والهواء خامل. ازدوجتُ، وطفقتْ ذاتي الأخرى تحاكي أفعالي مسبقًا، فتريني بذلك بوضوح الذاتَ التي لن يكون في وسعي رؤيتُها حين يأزف موعد وضع خطتي موضع التنفيذ.

لم يأتِ الباص بعدُ. كانت الطريق خالية من المارة. راحت البوابة الجنوبية العظيمة لمعبد ميوشِن تقترب تدريجيًا. كانت الأبوابُ مفتوحة على مصاريعها، وبدا أن البوابة أجازت استيعاب جميع الأنماط الممكنة من الظواهر. كانت تضمُّ في إطارها الفخم، كما راقبتُه من زاوية رؤيتي الخاصة، التداخلَ بين أعمدة بوابة رُسُل الإمبراطور وبوابة سَنْمون ذات الطابقين، وقرميد القاعة البوذية، وكثير من أشجار الصنوبر، وجزء من السماء الزرقاء فُصِلَ فصلًا واضحًا عن البقية، وكثير من خصل الغيم الشاحبة. كان المزيد يُضاف باستمرار وأنا أقترب من البوابة: الرصف الحجري الممتد طولًا وعرضًا في صحن المعبد الشاسع، وجدار بناء الباغودة، وأشياء أخرى لا نهاية

لها. فما إن يعبر المرء البوابة حتى يدرك أن هذا المبنى السرّي يحتوي على السماء الزرقاء بأسرها، وعلى كلّ غيمة مفردة في تلك السماء. فتلك كانت طبيعة الكاثدرائية.

عَبَرَ الطالبُ البوابة. ثم دار حول بوابة رُسُل الإمبراطور من الخارج وتوقف حول البركة التي تحيط بها الأزهار أمام بوابة السنمون. ثم وقف على الجسر الحجري الصيني الطراز، الذي يقطع البركة، ورفع بصره إلى بوابة السنمون المتعالية فوقه. لا بدَّ من أن البوابة، كما فكرت، هي التي ستكون هدفًا للإحراق المتعمَّد، الذي ينوي القيام به.

كانت بوابة السنمون البديعة ملائمة فعلًا لأن تلتهمها النيران. والأرجح ألا يرى أحد النار في عصر صافٍ كهذا، فالدخان سيلتف حول البوابة ويتصاعد في الجو. لكن الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرء أن يخمّن بها أن ألسنة اللهب تلك تطاول السماء، هي أن يراقب كيف كانت السماوات الزرقاء تنحني وترتجف. ذهبتُ إلى أحد الجانبين، حيث لا يمكن للطالب أن يراني، بينما كان يقترب من بوابة السنمون وأخذت أراقبه عن كثب. كان موعد عودة الكهنة الشحاذين إلى المعبد قد حلَّ، ولحظت أن مجموعة من ثلاثة منهم كانت تقترب على طول الدرب. ساروا جنبًا إلى جنب على الرصيف الحجري، يرتدون صنادلهم المصنوعة من القش، ويحملون قبعاتهم المصنوعة من الخيزران الطري بأيديهم. انعطفوا يمينًا بعد أن مروا بي. كانوا يسيرون في صمت تام، متقيّدين بقاعدة الكهنة الشحاذين

التي لا تجيز لهم أن ينظروا أكثر من بضع أقدام أمامهم قبل أن يعودوا إلى صوامعهم.

كان الطالب لا يزال يحوّم بتردُّد إلى جانب بوابة السنمون. اتكأ أخيرًا على طرف أحد الأعمدة، وأخرج من جيبه علبة السجائر التي اشتراها لتوّه. نظر حواليه بعصبية. خطر في بالي أنه سيشعل النار في البوابة متذرعًا بتدخين سيجارة. ووضع بعد ذلك سيجارة في فمه كما تهيَّأ لي، وقدَّم وجهه إلى الأمام، ثم ضرب عود ثقاب.

أطلق عودُ الثقاب للحظة ومضةً صغيرةً صافية. بدا كما لو كان لون الشعلة غير مرئي حتى في نظر الطالب. كان ذلك لأن شمس العصر، في تلك اللحظة، تغلّف ثلاثة جوانب من البوابة، تاركةً جانبي وحده في الظل. أحدث عودُ الثقاب، للحظة واحدة فقط، شيئًا أشبه بفقاعةٍ من نار اندلعتْ إلى جانب وجه الطالب وهو واقف هناك، متكئًا على عمود البوابة عند البركة المحاطة بالزهور. ثم هزَّ يده بعنف وأطفأه.

لم يبدُ على الطالب أنه راضٍ حتى عندما انطفأ عود الثقاب. ألقاه على أحد أحجار الأساس وأمعن في دعكه بقدمه. ثم عبر الجسر، وهو مستمر في تدخين سيجارته بسرور، ومشى بمحاذاة بوابة رُسُل الإمبراطور، غافلًا تمامًا عن الخيبة التي شعرتُ بها وأنا واقف هناك وحيدًا ومنبوذًا. واختفى أخيرًا أبعد من البوابة الجنوبية التي كان في وسع المرء أن يرى عبرها الطريق الرئيسية، ويتبيَّن بإبهام صفًّا من البيوت الممتدة بعيدًا.

ما كان هذا بمهووس بالحرائق! بل مجرّد طالب خرج يتمشّى. على الأغلب، شابٌّ سَئِمٌ نوعًا ما؛ فقيرٌ نوعًا ما.

وقفت أتفرّج على أفعاله بالتفصيل، ولا أبالغ إن قلتُ إن كلّ ما يختص به أثار امتعاضي، جبنه الذي جعله ينظر حواليه بكلّ هذه العصبية، لا لأنه كان ينوي ارتكاب فعلة إحراق متعمّد، بل لأنه كان ينوي ببساطة خرق القواعد ويدخّن سيجارة؛ اللذة الوضيعة التي تميّز الطلاب، والتي كان يستمدّها بوضوح من كسر هذه القواعد؛ الطريقة التي حرص فيها كثيرًا على عرك عود الثقاب بقدمه على الرغم من أنه كان منطفئًا أصلًا. والأنكى من ذلك كلّه: «ثقافته المتحضرة». فبفضل هذا النوع من الثقافة التافهة الحقيرة، تمّت السيطرة على شعلته الصغيرة بكلّ أمان. ولعلّه شعر بفخر عظيم من فكرة أنه هو نفسه كان المتحكّم في عود ثقابه، المتحكّم المثالي، السريع، الذي يحمي المجتمع من أخطار الحرائق.

من نِعَم هذه الثقافة، أنه منذ إصلاحات ميجي(*)، نادرًا جدًّا ما حصل للمعابد القديمة في كيوتو وما حولها أن احترقت عن آخرها.

(*) استرداد (ثورة، تجديد، إصلاح) ميجي: حدثٌ أعاد الحكم الإمبراطوري عمليًّا إلى اليابان سنة ١٨٦٨ تحت سلطان الإمبراطور الجديد ميجي الأكبر (١٨٥٢-١٩١٢) الذي عبّر عن أهداف الدولة المستردّة من حكم الساموراي الإقطاعي في «ميثاق القَسَم». فعلى الرغم من وجود أباطرة حاكمين قبل الشروع في هذا الإصلاح الجذري، فإن الأحداث استردّت الصلاحيات العملية للإمبراطور، وعززت النظام السياسي تحت إمرته. وأدت عملية الاسترداد هذه إلى تغييرات هائلة في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لليابان، وفتحت هذا البلد أمام الغرب والعالم. (المترجم)

وحتى في تلك المناسبات النادرة التي صادف أن اندلعت فيها الحرائق عن غير قصد كانت ألسنة النيران تحاصَر على الفور، وتقسَّم ويُسيطَر عليها. لم يكن الأمر يجري على هذا النحو أبدًا في الماضي. فقد احترق معبد تشيون عن آخره سنة ١٤٣١، وتكبَّد حرائق عدة مرات بعد ذلك. نشبت النار في المبنى الرئيسي لمعبد نانزِنْ سنة ١٣٩٣، على نحو أدّى إلى فقدان قاعة البوذا، وقاعة الشعائر، وقاعة الماس، وصومعة الغيمة الكبرى، وغيرها من المباني. واستحال معبد إنرياكو إلى رماد سنة ١٥٧١. وقضت النار على معبد كينجين في إبَّان الحرب سنة ١٥٥٢. وأُحرقَت قاعة سانجوسنغن عن آخرها سنة ١٢٤٩. ودمَّرت النار معبد هونُّو في إبَّان الحرب سنة ١٥٨٢.

كانت الحرائق، في تلك الأيام، على صلة وثيقة، بعضها ببعض. لم تكن تقسَّم أجزاء صغيرة فيُستهتَر بها، كما هي حالها في الوقت الحاضر، بل كان يُسمح لها بالانضمام إلى بعضها البعض، بحيث يمكن لحرائق منفصلة لا حصر لها أن تتحد في سعير واحد مهيب. والأرجح أن الناس آنذاك كانوا هكذا أيضًا. أينما نشب حريق في وسعه أن يستنجد بحريق آخر، فيُسمَعُ صوتُه على الفور. وعلَّة أن حرائق المعابد الوارد ذكرها في السجلات القديمة لم تُنسَب قط إلى الحرائق المتعمَّدة، بل كانت توصَف دومًا بكونها حرائق عَرَضية، أو حرائق منتشرة، أو حرائق تسبَّبت بها معارك حربية، هي أنه حتى لو اتفق لشخص مثلي أن يوجد في الأيام الخوالي، فإن كلَّ ما كان يجب عليه فعله هو أن يحبس أنفاسه ويلبث منتظرًا في مخبأ ما؛

إذ إن كلَّ معبد محكوم عليه حتمًا بأن يحترق عن آخره، عاجلًا أم آجلًا. كانت الحرائق وفيرة وجامحة. كان حسبه أن ينتظر، والنار التي ترتقب فرصتها كانت تندلع لا محالة، وتنضم النار الواحدة إلى نار أخرى، فتنجزان معًا ما يجب إنجازه. لقد نَعِمَ المعبدُ الذهبي حقًّا بفرصة من أندر الفرص، فنجا من الحريق. فالمبادئ والشرائع البوذية كانت تحكم العالم حكمًا شديد الصرامة: كانت الحرائق تنشب نشوبًا طبيعيًا، والدمار والإنكار من الأمور المألوفة في تلك الأيام، والمعابد الكبيرة التي تم بناؤها مصيرها المحتوم أن تحترق عن آخرها. وحتى لو وُجِدَ أشخاصٌ مهووسون بالحرائق، فقد كانوا محكومين بأن يلتمسوا قوى النار ويناشدوها مناشدةً طبيعية إلى حدًّ لا يقدر فيه أيُّ مؤرخ أن يحمل نفسه على الاقتناع بأن الدمار الناجم كان نتيجةً للإحراق المتعمَّد.

كان العالم في تلك الأيام مكانًا صعبًا. ولم يقل صعوبة الآن، سنة ١٩٥٠. فعلى فرض أن مختلف المعابد قد أُحرِقَتْ عن آخرها من جراء هذه الصعوبة، فما هي الحجة التي تحُول الآن دون إحراق المعبد الذهبي عن آخره؟

على الرغم من أني كنت أتجنَّب المحاضرات فقد كان من عادتي أن أذهب إلى المكتبة. وصادفت ذات يوم من أيام أيَّار كاشيواغي الذي كنت حريصًا على تجنُّبه. ولاحقني بنظرة مستمتِعة حين رآني أحاول تجنُّبه. منعني من التحرك حينها إدراكي أني إذا هربت منه فلن يستطيع اللحاق بي على رِجليه المعوجّتين. أمسكني كاشيواغي

من كتفي. كان منقطع الأنفاس. كانت المحاضرات لذلك اليوم قد انتهت، والساعة في تقديري تناهز الخامسة والنصف. وكنت قد درت من خلف بناء الجامعة بعد مغادرة المكتبة حتى لا أصادفه، وسرت في الدرب الذي يمر بين الجدار الحجري العالي والبرّاكات التي تؤوي غرف الدروس. كان الأقحوان البري ينمو بغزارة على الأرض القفر، تتخلّله جذاذات الورق والزجاجات الفارغة التي رماها الناس. وكان بعض الأولاد قد تسلّلوا إلى الحَرَم وراحوا يتقاذفون الكرات. وقد لفتت أصواتُهم الجشّاء انتباهَ المرء إلى خواء غرف الدروس التي كان في وسع المرء أن يراها عبر النوافذ المكسورة. كان جميع الطلّاب قد غادروا، والمقاعد المغبرّة جاثمة صامتةً، صفًّا بعد صف.

تجاوزت البرّاكات وجئت إلى الجانب الآخر من بناء الجامعة الرئيسي. توقفت خارج كوخ صغير علّق عليه قسمُ تنسيق الزهور لافتةً مكتوبًا عليها «استوديو». كانت الشمس تشعُّ على صفٍّ من أشجار الكافور النابتة بمحاذاة الجدار، وظلُّ الأوراق الرقيق ينعكس عبر سقف الكوخ على جدار الطوب الأحمر للبناء الرئيسي. كان الطوب الأحمر يبدو زاهيًا في شمس المساء.

أسند كاشيواغي جسمه إلى الجدار وهو يلهث. كان ظلُّ أوراق أشجار الكافور يضيء وجنتيه اللتين بدتا نحيلتين، كما هو شأنهما دومًا، فيضفي عليهما مظهرًا حركيًّا زائد الحيوية. ربما كان انعكاس جدار الطوب الأحمر غير الملائم لكاشيواغي بتاتًا هو الذي ولّد هذا الانطباع.

«صار المبلغ خمسة آلاف ومئة يِنْ، لعلمك!» قال. «خمسة آلاف ومئة يِنْ في آخر هذا الشهر. أنت تصعّب على نفسك أكثر فأكثر أمر سَداد الدين».

استخرج صكَّ دَيني من جيب قميصه، حيث كان يحمله دومًا، وفَرَشَه أمامي. ثم عجّل في طيّه من جديد وأعاد وضعه في جيبه، بعد أن خشي قطعًا أن تمتد يدي وتنتزع منه الوثيقة وتمزقها إربًا. لم يبقَ في بصري غير طيف صورة لبصمة إبهام حمراء مسمومة. كانت تبدو قاسية للغاية، بصمة إبهامي تلك.

«سدّدْ لي الدَّين بسرعة!» قال كاشيواغي. «هذا لمصلحتك. لِمَ لا تستعمل رسم الجامعة، أو شيئًا من هذا القبيل كي تسدّد الدَّين؟»

لم أُجب. أيكون المرء مضطرًا إلى سَداد ديونه في مواجهة كارثة عالمية؟ أغراني أن ألمّح لكاشيواغي، بإشارة ضئيلة، إلى ما عزمت عليه، لكنني تمالكت نفسي.

«لن أقدر على أن أفهمك إذا رفضت الكلام»، قال كاشيواغي. «ماذا دهاك؟ ألا تزال خَجِلًا من تأتأتك؟ تغلّبت قطعًا على ذلك. يعلم الجميع بأنك متأتٍ؛ حتى هذا. أجل، حتى هذا!» وضرب جدار الطوب الأحمر الذي كانت شمس المساء منعكسة عليه. تلطّخت قبضته بمسحوق بني مصفر.

«حتى هذه القاعة تعلم. ما من شخص واحد في الجامعة لا يعلم بالأمر!»

كنت واقفًا بعدُ قبالته في صمت. أخفق أحد الأولاد، في تلك اللحظة، في التقاط الكرة، فجاءت تتدحرج بيننا. وشرع كاشيواغي في الانحناء في محاولة لالتقاط الكرة وإعادة رميها نحوهم. وغلبتْني، إذ رأيت ذلك، رغبةٌ شريرةٌ في رصد كيف سيفلح كاشيواغي بِرجليه المعوجّتين في تحريك الكرة من حيث هي مطروحة على مسافة نحو قدم، بحيث يستطيع الوصول إليها بيده. بدا أن عينيَّ استدارتا نحو رِجليه عن غير وعي مني، فأدرك ذلك بسرعة تكاد تكون خارقة. وعاد وشدَّ ظهره مستقيمًا قبل أن يستطيع المرء أن يخمّن إن كان قد حاول أن ينحني حقًّا، وراح يتفرّس فيَّ، وفي عينيه نظرة كراهية متّقدة أبعد ما تكون عن طبيعته. اقترب منّا أحد الأولاد بخجل، فالتقط الكرة من حيث كانت بيننا وفرَّ هاربًا. قال لي كاشيواغي أخيرًا: «حسنًا! إن كان هذا هو موقفك، فأنا أعلم بما ينبغي لي أن أفعل. سوف أستردُّ أكبر قدر ممكن من مالي قبل أن أعود إلى القرية في الشهر القادم. وسوف ترى! حضّرْ حالك، خيرٌ لك!»

غدت المحاضرات المهمّة في حزيران، أكثر ندرةً، أخذ الطلاب يستعدُّون للعودة إلى بلداتهم وقراهم. كان العاشر من هذا الشهر يومًا لن أنساه أبدًا. ما انفك المطر يهطل منذ الصباح، وأمسى سيلًا في المساء. كنت بعد العشاء قاعدًا في غرفتي أقرأ كتابًا، فسمعت نحو الساعة الثامنة وقع خطواتٍ تقترب على امتداد الرواق بين قاعة الضيوف والمكتبة الكبرى. كانت تلك الأمسية واحدة من الأمسيات النادرة التي لم يخرج فيها الرئيس. من الواضح أن ضيفًا كان عنده.

كانت تلك الخطوات توحي بالغرابة. قرقعتها مسموعة كأنها قطرات مطر متفرقة تطرق بابًا خشبيًا. كانت خطوات المتدرّب المبتدئ الذي يقود الضيف إلى حجرة الرئيس، لطيفةً ومنتظمة، وغارقةً تقريبًا في خطوات الضيف الممطوطة التي جعلت ألواحَ أرضية الرواق القديمة تصدر صريرًا بطريقة من أغرب ما يكون.

كان المعبد مشحونًا بصوت المطر. راح المطر الليلي ينسكب على المعبد القديم الكبير، وكانت مترعة بصوته الغرفُ الخاوية، العفنة، التي لا نهاية لها. في المطبخ؛ في مقر سكن الشمّاس؛ في غرفة القندلفت؛ في قاعة الضيوف، لم يكن يُسمع سوى صوت المطر. فكرت الآن في المطر الذي استولى على المعبد الذهبي. فتحت باب غرفتي الجرّار جزئيًا. الفِناء المركزي الصغير الذي كان مكونًا من الحجارة فقط، كان طافحًا بماء المطر، وكان في مقدوري أن أرى سطح الماء الأسود، اللامع، وهو يسيل من حجر إلى حجر.

عاد المبتدئ من حجرة الرئيس، وأولج رأسه في غرفتي.

«يوجد طالب هناك يدعى كاشيواغي أتى لرؤية الرئيس. أليس واحدًا من أصدقائك؟»

اعتراني الضيق. كان المبتدئ الذي يضع نظارتين ويعمل نهارًا مدرّسًا في مدرسة ابتدائية، على وشك الانصراف، لكنني استوقفته ودعوته إلى غرفتي. كنت أتخيَّل مختلف صنوف الأشياء بشأن الحديث الدائر في المكتبة، فلم أستطع أن أحتمل البقاء وحدي.

مرت بضع دقائق. تعالى فجأة رنين جرس الرئيس اليدوي. اخترق بصلصلته الآمرة جلبة المطر، ثم توقف فجأة. نظرتُ والمتدرب، كلٌّ منّا إلى الآخر.

«إنه من أجلك»، قال. أجبرت نفسي على النهوض.

ركعت خارجًا عندما بلغت غرفة الرئيس. كان في وسعي أن أرى الوثيقة وعليها بصمة إبهامي مطروحةً على المكتب. رفع الرئيس أحد أطرافها وأراني إيّاه. واستبقاني راكعًا خارج الغرفة.

«أهذه حقًّا علامة إبهامك؟» سأل.

«نعم».

«حسنًا، لقد أتيت أمرًا باهرًا، أليس كذلك؟! إذا صادفتْني أيُّ مشكلة أخرى منك من هذا النوع فلن أقدر على استبقائك هنا فترة أطول. خير لك أن تصحو على واقع الأمر. فهذه ليست المرة الأولى...» اختصر الرئيس في الكلام، ربما لأن كاشيواغي كان في الغرفة. «سأسدّد مبلغ المال بنفسي»، تابع، «يمكنك أن تنصرف الآن».

استطعت، عند سماعي هذه الكلمات أن أنظر إلى كاشيواغي للمرة الأولى. كان جالسًا على الأرضية، وعلى وجهه نظرة مَن أتى أمرًا حميدًا للغاية. غير أنه حوّل بصره متحاشيًا النظر إليَّ. كان كاشيواغي يبدو دومًا مظهرّ من أطهر ما يكون، حين يرتكب فعلةً شريرةً، كما لو أن جوهر طبيعته بالذات، من حيث لا يدري البتة، قد استُخرِجَ منه. وكنت أعرف وحدي هذه الخصلة فيه.

عدت إلى غرفتي. كنت واعيًا حينها، بأني، في تلك الليلة، في صوت المطر الضاري، في وحدتي، كنت طليقًا.

«لن أقدر على استبقائك هنا فترة أطول». للمرة الأولى سمعت الرئيس يخبرني بهذا الأمر؛ للمرة الأولى أعطاني هذا العهد. اتضح كلُّ شيء فجأة. ارتأى الرئيس سلفًا فَصْلي من المعبد. يجب عليَّ أن أعجّل في تنفيذ قراري.

لو أن كاشيواغي لم يتصرف كما فعل تلك الليلة لَما أتيحت لي في الغالب فرصةُ سماع تلك الكلمات من فم الرئيس، ولتأجّلت خطتي أكثر. استحوذ عليَّ شعور غريب بالامتنان له عندما خطرت لي فكرة أن كاشيواغي هو الذي أعطاني القوة للتغلب على خمولي.

لم يُبْدِ المطر أيَّ علامة على الهمود. كان الجو أبرد مما هو معتاد في حزيران وبدت غرفتي الخلفية الصغيرة، المحاطة بألواحها الخشبية، موحشةً في ضوء المصباح الكهربائي. كانت هذه مثواي الذي لا بدَّ من أن أُطرَدَ منه قريبًا في الغالب. لم يكن في الغرفة أيُّ عنصر زينة. تمزقت الحافة السوداء لحصير القش الذي بهت لونه على الأرضية والتَوَتْ. وكان في وسع المرء أن يرى الخيوط المتيبّسة بوضوح. وكانت أصابع قدميَّ تصطدم بحافة الحصير الممزقة، في كثير من الأحيان عندما كنت أدخل غرفتي المظلمة وأشعل الضوء لكني لم أبذل جهدًا لإصلاحها. فهمّتي للحياة لم تكن تبالي بحُصُر القشّ.

أما وإن الصيف يقترب، فقد كانت تفوح من غرفتي الصغيرة

رائحة جسمي القارصة. بدا مضحكًا أن جسمي، على الرغم من كوني كاهنًا، ينضح برائحة شاب عادي. كانت هذه الرائحة قد تخلّلت الأعمدة القديمة، اللامعة السواد، في زوايا الغرفة الأربع وحتى الجدران الخشبية. أجل، كانت الرائحة الكريهة لرجل شاب ترشح من بين عروق الخشب الذي أفلح العمر في إكسابه مظهرًا باليًا. وقد تحولت الأعمدة والجدران إلى كائنات حية، جامدة، لكنها تبث مع ذلك رائحة سمك نيئ مريبة.

اقتربت إذ ذاك الخطوات الغريبة التي سمعتها من قبل على طول الرواق. نهضت واقفًا وذهبت إلى الرواق. كان كاشيواغي واقفًا هناك مثل جهاز آليّ جمد في مكانه بغتة. ويضيء من ورائه الضوء من حجرة الرئيس شجرةَ الصنوبر، شبيهة المركب الشراعي في الحديقة. وكان في وسعي أن أبصر مقدم الشجرة المبتل، الأخضر الداكن، يرتفع عاليًا في الظلمة.

ارتسمت على وجهي ابتسامة. وشعرت بالرضا العظيم حين أدركت أن تعبيرًا أدنى إلى الخوف ظهر للمرة الأولى على وجه كاشيواغي حين رأى هذه الابتسامة.

«أما تودُّ أن تزورني بعض الوقت؟» قلت.

«طيب، طيب. لا تحاول إخافتي! يا لك من شخص عجيب!»

دخل كاشيواغي غرفتي وأفلح في النهاية في إنزال نفسه جانبًا على الأرضية بحركته البطيئة المألوفة تلك، التي يظن مَن يراها أنه

يحاول التكور على نفسه. رفع رأسه وأجال بصره حواليه في الغرفة. كان صوت المطر في الخارج يحبسنا بما يشبه الستارة السميكة. وسط رشيش الماء على الشرفة المفتوحة، كان في وسع المرء أن يسمع قطرات المطر تتواثب مرتدّة عن ورق الأبواب الجرّارة في مختلف أرجاء البناء.

«طيب»، قال كاشيواغي، «لا يحقُّ لك أن تلومني، لعلمك. أنت مَن اضطرني إلى تحصيل مالي بهذه الطريقة. حسنًا، ها قد انتهينا من الأمر!» ثم استخرج من جيبه ظرفًا تبيَّنتُ عليه خاتمَ المعبد، وراح يعدُّ أوراق العملة التي كانت في داخله. كان ثمة ما مقداره ثلاثة آلاف ينْ فقط من الأوراق؛ أوراق جديدة تمامًا، واضح أنها من إصدار كانون الثاني الأخير.

«أوراق العملة في هذا المعبد نظيفة وصقيلة، أليس كذلك؟» قلت. «رئيسنا، من فرط وسوسته بالتفاصيل، يأمر الشمَّاس بالذهاب إلى المصرف كلَّ ثلاثة أيام للحصول على مال نظيف بدل الفكاك الذي نحصل عليه في المعبد».

«يا له من مقتّر!» قال كاشيواغي. «فقط ثلاثة أوراق من فئة الألف. لديكم كاهن حريص حقًّا يدير هذا المعبد، أليس كذلك؟ يقول إنه لن يعترف بالفائدة على القروض بين الزملاء الطلاب، مع أنه استفاد هو كما يحلو له من هذا النوع من الأمور».

أبهجتْني من صميم قلبي رؤيةُ كاشيواغي مقهورًا من خيبة الأمل

غير المتوقعة هذه. ضحكت بلا تحفُّظ، وشاركني كاشيواغي في الضحك. ساد بيننا نوعٌ من الانسجام للحظة، ثم ما لبث كاشيواغي أن توقف عن الضحك، وثبّت عينيه في نقطة ما من جبيني متفرسًا، ثم نطق كأنه يلفظني. «أعلم»، قال. «أراك تبيّت في ذهنك مكيدةً مدمّرةً ما هذه الأيام، أليس كذلك؟»

لم أستطع احتمال ثقل نظرته إلا بشقّ النفس، ثم أدركت أن قصده من كلمة «مدمّرة» كان مختلفًا تمامًا بطبيعته عمّا كنت أخطّط له، فاستعدت رباطة جأشي. لم يكن في جوابي أيُّ أثر للتأتأة. «لا، لا شيء من هذا»، قلت.

«حقًّا؟ أنت شخص غريب. لعلّك أغرب شخص قابلته يومًا».

حدستُ أن هذه الملاحظة ألهمتْها الابتسامةُ الودّية التي لم تكن قد تلاشت بعدُ من فمي. كان من المؤكد تمامًا أن كاشيواغي لن يدرك أبدًا معنى الامتنان الذي هاج في باطني، وهذا الخاطر جعل ابتسامتي تتسع أكثر، حتى من تلقاء ذاتها.

«هل تنوي العودة إلى مسقط رأسك الآن؟» سألت بالطريقة التي قد يستعملها الأصدقاء العاديون في التحدث، بعضهم مع بعض.

«أجل، أنوي الذهاب إلى القرية غدًا. سأمضي الصيف في سَنُّومِيا، مع أن الإقامة مملّة هناك أيضًا».

«إذًا، لن نلتقي في الجامعة بعض الوقت».

«ماذا؟ أنت أصلًا لا تحضر إلى هناك، في كلّ الأحوال».

فكَّ كاشيواغي على عجل أزرار مقدمة سترة بزَّته بينما كان يتكلَّم وتحسَّس الجيب الداخلي.

«قررت أن أُحضِرَ لك هذه قبل أن أغادر إلى القرية»، قال. «فكرت في أنها قد تسرُّك. ألم تكن تجلُّه، حدَّ السخف؟»

ألقى برزمة صغيرة من الرسائل على منضدتي، وأذهلتْني قراءة اسم المرسِل على الظرف.

«اقرأها، أرجوك»، قال كاشيواغي بنبرة واقعية. «إنها تذكار من تسوروكاوا».

«هل صادقتَ تسوروكاوا؟» سألت.

«حسنا، دعنا نرَ. أجل، أحسبني كنت صديقًا له على طريقتي. كان تسوروكاوا نفسه يمقت أن يُظَنَّ صديقي. وكنت، في الوقت ذاته، الشخص الوحيد الذي ائتمنه على أسراره يومًا. مضت على وفاته ثلاث سنوات الآن، لذا أحسب ألا مانع من إطلاع الناس على هذه الرسائل. كنتَ من الودّ معه بحيث ارتأيتُ أن أسمح لك برؤيتها أنت من دون سواك. كنت أنوي أصلًا السماح لك بإلقاء نظرة عليها يومًا ما».

كانت الرسائل مؤرخة جميعًا قبيل وفاته، في فترة شهر أيَّار ١٩٤٧. كُتِبَتْ من طوكيو على نحوٍ شبه يوميّ، وكانت موجَّهةً إلى كاشيواغي. لم يبعث إليَّ قط برسالة واحدة، لكنه واظب على الكتابة إلى كاشيواغي منذ اليوم التالي لعودته إلى طوكيو. كانت الرسائل

من تسوروكاوا قطعًا. ذلك، بلا ريب، خطّه الطفولي، الحادُّ الزوايا. شعرت بما يشبه الحسد. تسوروكاوا، الذي لم يبدُ عليه قطُّ أنه يبذل أدنى جهد لإخفاء مشاعره الشفافة عني، والذي لم يتوانَ في بعض الأحيان عن تحذيري من كاشيواغي، والذي حاول جهده أن يثنيني عن مرافقته، كان هو نفسه على علاقة سرّية به!

شرعت في قراءة الرسائل وفق ترتيب تواريخها. كانت مكتوبة بخطّ صغير على أوراق رسائل رقيقة بأسلوب أخرق متميز. بدت أفكاره متخبّطة على الدوام بحيث يصعب تتبُّعها. بيد أن معاناة مبهمةً سرعان ما أخذتْ ترتسم من وراء عباراته المشوَّشة. وحين وصلت إلى الرسائل الأخيرة، تجلت اللوعة التي كابدها تسوروكاوا أمامي بكلّ صفاء. وبينما كنت أواصل القراءة طفرت الدموع من عينيَّ، وشُدِهْتُ في الوقت نفسه من فرط تفاهة ما كانت عليه تعاسته.

لم يتعدَّ الأمرُ مجرَّد قصة غرام صغيرة مبتذلة؛ غرام شقيّ كابده شاب غرٌّ بحال فتاة لم يوافق عليها والداه. ثم لم يلبثْ مقطع بعينه في الرسالة أن أوقفني بغتة عن متابعة القراءة. ربما كان الأمر من جانب تسوروكاوا مبالغةً غير مقصودة في وصف مشاعره، لكن مفعول العبارة كان مرعبًا.

«عندما أفكر الآن في الأمر»، كتب، «فإن حبي التعس هذا قد يكون النتيجة المباشرة لطبيعتي التعسة. لا أحسبني عرفت يومًا ماهية البهجة والسرور».

اختُتِمَت الرسالة الأخيرة بنبرة عاصفة. واعترتني عندما قرأتها، شبهةٌ لم تخطر في بالي حتى ذلك الحين.

«هل يمكن أن يكون...» بدأت أفكر.

أومأ كاشيواغي برأسه مقاطعًا: «نعم، بالفعل. كان انتحارًا. أنا متأكد تمامًا من أنه قد مات منتحرًا. قامت عائلته بتسوية الأمور وتهدئتها حفظًا لماء الوجه واختلقت قصة الشاحنة، إلى آخر ما هنالك».

«وكتبتَ له جوابًا، أليس كذلك؟» كنت أتأتئ امتعاضًا، وأنا أطرح هذا السؤال على كاشيواغي.

«نعم، لكني أفهم أن جوابي لم يصل إلا بعد أن مات».

«وماذا كتبت؟»

«كتبت أحذِّره من أن يموت. هذا كلُّ ما في الأمر».

ثبت، إذًا، لي بطلانُ قناعتي العميقة بأن مشاعري الخاصة لا يمكن لها أن تخونني أبدًا. وكاشيواغي هو الذي أبرأ ذمتي من وهمي هذا.

«حسنًا، ما شعورك حيال الأمر؟» قال. «هل غيَّرتْ هذه الرسائل نظرتك إلى الحياة؟ تحطَّمت الآن خططك كلُّها، أليس كذلك؟»

اتضح لي لماذا أطلعني كاشيواغي على هذه الرسائل الآن بعد ثلاث سنوات. وعلى الرغم من صدمتي، فإن ذكرى بعينها ظلَّت

تلازمني؛ ذكرى شمس الصباح وهي تنساب عبر الأشجار وتوشّي القميص الأبيض للشاب المستلقي هناك على عشب الصيف الكثيف. مات تسوروكاوا، وبعد ثلاث سنوات كان قد تحوّل على هذا النحو. قد يتبادر إلى الذهن أن ما استودعتُه إيّاه سيضمحل بموته، إنما بدلًا من ذلك، انبعث مجدَّدًا، في تلك اللحظة بالذات، في نمط جديد من الواقع. فقد اتفق لي أن أؤمن بجوهر الذاكرة، لا بمعناها الفعلي. وشروط إيماني كانت من القوة بحيث إني لو توقفت عن الإيمان بتلك الذاكرة، فإن الحياة نفسها ستنهار تلقائيًا. غير أن كاشيواغي، وهو واقف هناك مستهترًا بي، كان ممتلئًا بالرضا بأنه أَعْمَلَ مبضعه بجرأةٍ في مشاعري، ذبحًا وتقتيلًا.

«ماذا عن ذلك؟» قال. «شيء ما في داخلك انكسر لتوّه، أليس كذلك؟ لا أطيق رؤية صديق لي يعيش، وفي داخله شيء ما يسهل كسره إلى هذا الحد. يكمن عطفي كلُّه في تحطيم مثل هذه الأشياء».

«وماذا إن لم ينكسر بعد؟» سألت.

«كفاك كبرياء كاذبة!» قال كاشيواغي بابتسامة هازئة. «أردت فقط أن أجعلك تفهم. إن ما يحوّل هذا العالم هو المعرفة. هل ترى ما أقصده؟ لا شيء آخر في مقدوره أن يغيّر شيئًا في هذا العالم. وحدها المعرفة قادرة على تحويله، بينما هي تتركه، في الوقت نفسه، على حاله بالضبط. حين تنظر إلى العالم بعين المعرفة تدرك أن الأشياء مستقرة، غير متبدّلة، وفي الوقت نفسه، تتحول باستمرار. قد تسأل: أيّ خير لنا في ذلك؟ لنقل الأمر على هذا النحو: يمتلك

البشر سلاح المعرفة من أجل جعل الحياة تطاق. مثل هذه الأمور غير ضرورية للحيوان. الحيوانات لا تحتاج إلى المعرفة أو إلى أيّ شيء من هذا القبيل لجعل الحياة قابلة للاحتمال. أما البشر فيحتاجون إلى شيء، ويقدرون بالمعرفة أن يجعلوا عدمَ قابلية الحياة للاحتمال بالذات سلاحًا، مع أن عدم قابلية الحياة للاحتمال ذاك، في الوقت نفسه، لا يتناقص البتة. هذا كلٌّ ما في الأمر».

«ألا تؤمن بوجود طريقة أخرى ما لاحتمال الحياة؟»

«لا، لا أعتقد. ما عدا ذلك هناك الجنون فقط، أو الموت».

«لا تقدر المعرفة أبدًا على أن تغيّر العالم»، بادرتُه من غير تفكير، طائفًا عند حافة الاعتراف. «إن ما يغيّر العالم هو العمل. ليس هناك شيء آخر».

تحاشى كاشيواغي تصريحي، كما توقعت بالضبط، بابتسامةٍ باردةٍ بدت كأنها التصقت على وجهه.

«ها هي!» قال. «العمل، تقول. ولكن ألا ترى أن جمال هذا العالم الذي يعني لك الكثير يتوق إلى النوم، وأنه يجب أن تحميه المعرفة كي ينام؟ لعلّك تتذكر قصة «نانسِن يقتل هريرة»؛ تلك التي حدثتك عنها ذات مرة. كانت القطة في تلك القصة جميلة جمالًا لا يضاهى. وسبب شجار الكهنة من قاعتَي المعبد بشأنها هو أن كلا الفريقين كان يريد أن يحمي الهريرة؛ أن يعتني بها؛ أن يدعها تنام مستكينةً للدفء ضمن عباءة المعرفة التي تخصُّه. كان

الأب نانسِن رجلًا عمليًا، فأقدم على قتل الهريرة بمنجله ووضع حدًا للأمر. ولكن حين أقبل جوشو لاحقًا، خلع نعليه ووضعهما على رأسه. ما أراد جوشو قوله هو هذا. لقد كان بصيرًا تمامًا بأن الجمال شيء يجب أن ينام، وأنه، وهو نائم، يجب أن تحميه المعرفة. ولكن لا يوجد شيء اسمه معرفة فردية؛ معرفة خاصة يستأثر بها شخصٌ بالذات، أو جماعةٌ بعينها. المعرفة هي بحر البشرية، وحقلها؛ الشرط العام للوجود البشري. أعتقد أن هذا ما قَصَدَه. تراك الآن تريد أن تؤدي دور جوشو، أليس كذلك؟ حسنًا، فالجمال، الجمال الذي تعشقه كلَّ هذا العشق، هو وهم من أوهام الجزء المتبقي، الجزء الزائد، الذي أُودِعَ في المعرفة. إنه وهم من أوهام «الطريقة الأخرى لاحتمال الحياة» التي ذكرتَها. يجوز للمرء أن يقول إنه في واقع الأمر لا يوجد شيء اسمه الجمال. إن ما يجعل الوهم بكلّ هذه القوة؛ ما يُكسِبُه واقعيةً بكلّ هذه السطوة، هو المعرفة تحديدًا. الجمال من وجهة نظر المعرفة ليس عزاءً أبدًا. قد يكون امرأة؛ قد يكون زوجة، لكنه ليس عزاءً أبدًا. بيد أنه يولد شيءٌ ثالث من التزاوج بين هذا الشيء الجميل، الذي ليس عزاءً أبدًا، من ناحية، وبين المعرفة، من ناحية ثانية. إنه سريع الزوال مثل الفقاعة، وميؤوس منه تمامًا. بيد أن شيئًا يولد. وذلك الشيء هو ما يسمّيه الناس فنًّا».

«الجمال...» قلت وتوقفت في نوبة من التأتأة. كانت فكرة غير محدودة. لقد طرأتْ في ذهني للتو شبهةٌ، مفادها أن تصوُّري

الخاص للجمال قد يكون هو الذي أنجب تأتأتي. «الجمال، الأشياء الجميلة»، تابعت، «هؤلاء هم الآن أعدائي الأكثر فتكًا».

«الجمال هو عدوُّك الأكثر فتكًا؟!» قال كاشيواغي، فاتحًا عينيه على اتساعيهما. ثم عادت النظرة الفلسفية المعتادة، المتهلّلة، إلى وجهه المحتقن. «أي تغيير أن أسمع ذلك منك! يجب عليَّ حقًّا أن أعيد تركيز عدسات فهمي».

واصلنا الحديث مدة طويلة. كانت هذه هي المرة الأولى منذ وقت طويل التي نتبادل فيها النظرات بهذه الطريقة الحميمة. لم يكن المطر قد توقف بعد. وبينما كان كاشيواغي يتأهب للانصراف، أخبرني عن سَنُّومِيا وميناء كوبي. لم أكن قد زرت أيًّا من هذين المكانين، وقد طفق الآن يصف السفن العظيمة التي تغادر الميناء صيفًا. انبعثت المشاهدُ حيَّةً في مخيّلتي وأنا أتذكر مايزورو. تطابق رأيانا لمرة واحدة: طالبان فقيران، مُعدَمان، يتقاسمان أحلام اليقظة نفسها، ويتفقان على أن لا الفهم ولا العمل من شأنهما إطلاقًا أن يساويا فرحة الإبحار بعيدًا في المسافات.



الفصل التاسع

لعلّ الأمر لم يكن مجرّد مصادفة أن الرئيس قام الآن بإسداء معروف إليّ، بدلًا من تحذيري كما كان ديدنه أن يفعل، وفي الوقت الذي كان التحذير هو المطلوب بالذات. دعاني إلى مكتبه، بعد خمسة أيام من قدوم كاشيواغي لاسترداد دَينه، وناولني ثلاثة آلاف وأربعمئة يِن بدلًا عن رسوم جامعتي في إبّان الفصل الدراسي الأول، وثلاثمئة وخمسين يِنًّا بدلًا عن تنقلاتي، وخمسمئة يِن بدلًا عن نفقات قرطاسيتي. كانت أنظمة الجامعة تقضي بواجب تسديدنا رسومنا قبل حلول العطلة الصيفية، ولكن لم أتخيَّل لحظة واحدة، بعد ما حدث أن الرئيس سيعطيني المال. فحتى لو قرر تسديد الرسوم، ظننت، وهو العالِـم الآن كم أنا قليل الأهلية للثقة، أنه سيرسل المال إلى الجامعة مباشرة.

كنت أعلم خيرًا منه، على الرغم من أنه سلَّمني المال الآن،

بأن ثقته بي مزيفة، هذا المعروف الذي أسداه الرئيس لي من غير أن ينبس ببنت شفة، ذكّرني، على نحوٍ ما، بجسده الوردي الناعم؛ المشبّع زيفًا والذي يأمن على ما يستحق الخيانة ويخون ما يستحق الأمانة؛ جسدٍ لا يعتريه فساد؛ جسدٍ دافئ، ورديّ فاتح اللون يتفشى في صمت.

تمامًا كما أصابني رعبٌ من أن يُفتضَحَ أمري حين رأيت الشرطي في نُزُل يورا، استولى عليَّ الآن خوفٌ، كاد يكون توهمًا بأن الرئيس استشفَّ أمر خططي، وكان يحاول أن يفوّت عليَّ فرصةَ قيامي بعمل حاسم، من خلال إعطائي المال. شعرت بأني ربما لن أستطيع أبدًا استجماع الشجاعة على ارتكاب فعلتي ما دمت أحتفظ بذلك المبلغ من المال الذي أعطاني إيَّاه. كان عليَّ في أقرب وقت ممكن أن أجد وسيلة ما لإنفاقه. كان عليَّ أن أجد وسيلة ما لإنفاقه، بحيث إن الرئيس، إذا اتفق له أن يكتشف ما فعلت، لن يستطيع إلا أن يستشيط غضبًا ويطردني من المعبد على الفور.

كان دوري يومذاك أن أعمل في المطبخ. وبينما كنت أقوم بغسل الأطباق بعد العشاء، اتفق لي أن أنظر في اتجاه غرفة الطعام. كان الجميع قد غادر، والغرفة هادئة. وكان ينتصب عند المدخل عمود مسخَّم ينبعث منه بريق أسود. كانت شارة، قد تغير لونها تمامًا من السخام، مثبَّتة على العمود. قرأت الكلمات:

آـتاـكو شارة قدسية

حذارِ من النار.

في ذهني كان في وسعي أن أبصر الشكل الباهت للنار الأسيرة، حبيسةِ هذه الشارة التعويذية. شيء ما، كان ذات يوم زاهرًا، يحوّم الآن خلف هذه الشارة ممتقعًا، واهنًا. أتساءل إن كان سيصدّقني أحدٌ لو قلت إن رؤيا النار في إبّان تلك الأيام لم تلهمني شيئًا أقل من شهوة الجسد. ومع ذلك، ألم يكن من الطبيعي، ما دامت إرادةُ الحياة عندي متوقفةً كليًّا على النار، أن تتحول شهوتي، هي الأخرى، في هذا الاتجاه؟ راحت شهوتي تُقَولِبُ هيئةَ النار المطواعة؛ وإذا فطنت ألسنةُ اللهب، إلى أني أبصرها عبر العمود الأسود اللمّاع، تزيَّنتْ بهيَّةً خصيصًا للمناسبة. كانت أشياء هشَّة؛ أيادي تلك النار، أطرافها، صدرها.

انسرقتُ من المعبد، مساء الثامن عشر من حزيران وفي جيبي المال، وتوجهتُ إلى حي شمال شينتشي المعروف عادةً باسم غوبانتشو. سمعت أن الأسعار رخيصة هناك، وأنهنَّ لطيفات مع مبتدئي المعابد وسائر الزبائن من هذا الصنف. يبعد الغوبانتشو مسير نحو نصف ساعة عن المعبد. كان مساءً رطبًا، والقمر يشعُّ خافتًا عبر سماء ملبَّدة بغيوم رقيقة. كنت أرتدي سترة خفيفة وسروالًا خاكيًا، وأنتعل قبقابًا خشبيًا. كان مقيَّضًا لي أن أعود، على الأرجح، بعد بضع ساعات في الملابس ذاتها بالضبط. فكيف أمكن لي أن أقتنع بفكرة أنني أنا، لابس تلك الثياب، سأكون شخصًا مختلفًا كليًّا؟

كنت أخطّط لإضرام النار في المعبد الذهبي، قطعًا كي تتاح

لي الحياة، لكن ما كنت أفعله الآن كان أشبه بالاستعداد للموت. فكما أن الرجل الذي اعتزم الانتحار قد يزور أولًا ماخورًا كي يفقد عذريَّته، كذلك كنت الآن منطلقًا إلى حيّ المباهج. ولكن اطمئن، أرجوك! حين يزور رجل كهذا عاهرة، فإن الأمر أشبه بوضع توقيعه على وثيقة معتمَدة. وعلى الرغم من أنه قد يفقد عذريَّته، فانه لن يصبح أبدًا «شخصًا مختلفًا».

لم أكن مضطرًّا الآن إلى أن أقف خائفًا من ذلك الإحباط؛ ذلك الإحباط الذي مرارًا ما عانيت بسببه عند اللحظة المصيرية كلَّما حال المعبد الذهبي بيني وبين المرأة. فأنا لم تعد لديَّ أيُّ مطامح ولا أيُّ مقاصد للمشاركة في الحياة، بواسطة امرأة. كانت حياتي الفردية الآن راسخة الثبات على ذلك الأمر الآخر؛ جميع أفعالي حتى الآن كانت عبارة فقط عن العمليات القاسية والموحشة التي أوصلتْني إلى حالتي الراهنة.

هذا ما حدَّثت به نفسي وأنا سائر صوب الغوبانتشو. غير أن كلمات كاشيواغي خطرت لي عندئذٍ: «المومسات لا يضاجعن زبائنهنَّ حبًّا بهم. إنهن يقبلن أيَّ أحد زبونًا، رجالًا مسنِّين خَرفين؛ شحَّاذين؛ رجالًا عُورًا؛ رجالًا وسيمين، ويقبلن مجذومين حتى، ما دمن لا يعرفن أنهم مجذومون. من شأن هذا النهج الآخذ بالمساواة أن يُشعِرَ أكثر الشباب العاديين بالارتياح، فيُقدِموا بسعادة بالغة ويستأجرو أول امرأة يصادفونها. لكنني لم أستحسن مذهب المساواة هذا. ما كان في وسعي أن أحتمل فكرة أن المرأة ينبغي لها أن تُعامِلَ

رجلًا سويَّ الخلقة وشخصًا مثلي أنا على قدم المساواة. بدا لي الأمر كأنه تدنيس ذاتي فظيع».

كان موجعًا لي الآن أن أتذكر هذه الكلمات. غير أن حالي لم تكن مثل حال كاشيواغي. فما عدا تأتأتي، لم أكن أعاني أيّ تشوُّه فعلي، وما من سبب قاهر يدعوني إلى ألا أعتبر افتقاري إلى الوسامة مجرَّد نوع معهود من الدمامة.

رغم ذلك، تساءلت، أليس من شأن حدس الأنثى أن يجعل أيَّ امرأة تتفرس في جبيني القبيح سماتِ رجل وُلد مجرمًا؟» ملأني هذا الخاطر الأحمق على الفور بالضيق فتباطأتْ خطواتي. ضقت ذرعًا، أخيرًا، بالتفكير، فلم أعد واثقًا حقًّا إن كنت أنوي فقد عذريَّتي كي أقوى على إضرام النار في المعبد الذهبي، أم كنت أخطّط لإحراق المعبد الذهبي كي أفقدها. خطرت في ذهني، إذ ذاك، من دون أيّ سبب منطقي، الآية الشريفة تِنبو كنَّنْ («المصائب التي تنتظر العالم»)، فطفقت أمشي وأنا أردّد تِنبو كنَّنْ، تِنبو كنَّنْ... ولم يطل بي الأمر حتى اقتربتُ من مكان تنحَّت فيه صالاتُ الألعاب وحاناتُ الشراب المتلألئة الصاخبة، لتفسح المجال لامتداد من العتمة الهادئة تضيئها، على فواصل منتظمة، أنوارٌ مشعشعةٌ ومصابيحُ ورقيةٌ بيضاءُ خافتة. واستبدَّ بي، منذ اللحظة التي غادرت فيها المعبد، خيال مفاده أن أويكو ما زالت حيَّة، وأنها تعيش منزوية في هذا المكان بعينه. وملأني هذا الخيال بالقوة. فمنذ أن اعتزمت إضرام النار في المعبد الذهبي، عدت إلى طور شبابي النَّضِر، غير المدنَّس، شاعرًا

بأنه لن يضيرني الآن أن أصادف الناس والأشياء الذين التقيتهم في مستهل حياتي.

ينبغي لي من الآن فصاعدًا أن أعيش. بيد أن أغرب ما في الأمر هو أن أنواعًا شتى من خواطر الشؤم راحت تستجمع قوتها فيَّ يومًا بعد يوم، وشعرتُ بأن الموت قد يزورني في أيّ لحظة. دعوتُ فقط أن يمهلني الموت حتى أضرم النار في المعبد الذهبي. لم يسبق لي تقريبًا أبدًا أن أُصبت بمرض، ولم تكن ظاهرةً عليَّ الآن أيُّ علامة من علاماته. بيد أني كنت أشعر بقوة متزايدة كلَّ يوم بأن السيطرة على مختلف الشروط التي تُبقيني في قيد الحياة تقع على عاتقي وحدي؛ وحدي أنا كان عليَّ أن أحتمل ثقل هذه المسؤولية عن بقائي حيًّا.

كنت قد جرحت إصبعي بقشة خيزران من مكنستي، في اليوم السابق، وأنا أقوم بالكنس، وحتى هذا الجرح الضئيل كان كافيًا لإثارة قلقي. تذكرت الشاعر الذي نجم موته عن وخز إصبعه بشوكة وردة. الناس من حولي لا يموتون أبدًا من جراء أسباب كهذه، لكنني أصبحت شخصًا قيِّمًا، وما كان لأحدٍ أن يعلم أيَّ موت محتوم تخبِّئه لي الأقدار. لم يتقيّح إصبعي، لحسن الحظ، ولم أشعر اليوم، إلا بألم طفيف للغاية، عندما ضغطت عليه.

غني عن القول إني اتخذت كلَّ احتياط صحي ممكن قبل زيارتي الغوبانتشو. ففي اليوم السابق، ذهبت إلى صيدلية في قسم بعيد نسبيًّا من أحياء المدينة لم أكن معروفًا فيه، واشتريت لنفسي

دستة من الواقيات المطاطية. كانت أغشية هذه الأغراض الملساء المغبرَّة ذات لون واهٍ سقيم. أخرجت مساءً واحدًا منها، وجرَّبته عليَّ. وبينما أخذ عضوي ينتصب هناك وسط أغراض أخرى في غرفتي، رسم بوذي خربشتُ عليه بقلم شمع أحمر؛ الروزنامة من جمعية كيوتو للسياحة؛ كتاب النصوص البوذية التي تُقرأ في معابد الزّن، والذي اتفق أن يكون مفتوحًا بالضبط على الابتهال إلى بوتشو-سونشو(*)، جواربي المتسخة؛ حصير القش المشقوق، فقد بدا مثل صورة مشؤومة للبوذا، ناعمًا، رماديًا، خاليًا من العينين والأنف. ذكّرني شكلُه الكريهُ بالفعل الديني الوحشي المعروف باسم «بتر العضو»، الذي لم يبقَ في أيامنا هذه إلا في سجلّات معيّنة تمَّ تناقلها من الماضي حتى وصلت إلينا.

دخلت شارعًا جانبيًّا تصطف عليه فوانيس ورقية. كانت البيوت المتلاصقة على طول الشارع التي تنوف على المئة، مبنية جميعًا على الطراز ذاته. يقال إنه إذا وضع لهارب من العدالة نفسه تحت تصرُّف الريّس الذي يتولّى إدارة هذا الحي، فإن إخفاءه من أسهل ما يكون. فمن الواضح أنه حين يكبس الريّس على زرّ يرنُّ جرسٌ في كلّ المواخير، فيحذِّرُ المجرمُ من أن الشرطة قادمة.

(*) بوتشو (حرفيًا: «تاج البوذا»): طائفة من الآلهة الباطنية التي تجسّد أوج المعرفة على قمة رأس البوذا؛ تُصوَّر في كثير من الأحيان على أنها بوذِسَتْفا، وفي وسعها أن تتخذ صورة الذكر أو الأنثى. ترتبط البوتشو في اليابان بالشعائر الجنائزية خصوصًا، وذلك لأن صلاحياتها تشمل التطهير من الكارما الشرير ونجاة الناس من عذاب الجحيم. أما بوتشو-سونشو فهي إلهة، صارت، نقلًا عن البوذية الشعبية الهندية-التيبتية، محلّ عبادة فردية. (المترجم)

كانت لكلّ من البيوت مشربيّة عند جانب المدخل، ولكلّ منها طابقان. وكانت سقوف القرميد القديمة، الثقيلة، الممتدة على مدى النظر تحت القمر الرطب، متساويةَ الارتفاع جميعًا. كانت ستائر غامقة الزرقة، على كلٍّ منها أحرف كلمة نيشِجين (منطقة في كيوتو) مطليّان بالأبيض، تتدلّى فوق كلّ مدخل، وخلفها كان في الوسع رؤية «مدام» كلّ بيت من بيوت الدعارة، مرتديةً مريلتها البيضاء، ومنحنيةً إلى الأمام لمراقبة مَن كان يمرُّ بالشارع.

لم يكن لديّ أدنى مفهوم للّذة. كنت أشعر كما لو أن نظام الأشياء المعهود قد هجرني؛ كما لو أني وحدي قد فُرِزتُ من بين الصفوف، وقد بدوت الآن كأني أجرجر ساقيّ المنهكتين عبر قفر تخيّم عليه عزلة مطلقة. قبعت الرغبةُ التي تسكنني مقعيّةً وهي تضمُّ ركبتيها إلى صدرها وتُظهِرُ لي ظهرها المتجهّم. سيّان الأمر عندي، فكرت، فواجبي يقضي بأن أنفق المال في هذا المكان. أجل، ينبغي لي أن أنفق كلّ المالَ الذي استلمتُه لتسديد رسوم جامعتي، وأقدّم بذلك إلى الرئيس عذرًا معقولًا تمامًا لطردي من المعبد. لم يخطر ببالي أن في هذه الفكرة تناقضًا غريبًا ما، بيد أنه لو كان هذا هو دافعي الحقيقي فهو يعني أني لا بد أحب الرئيس.

ربما كان الوقت مبكرًا نوعًا ما بعدُ على زيارة الحشود للغوبانتشو. في أيّ حال، كان هناك عدد قليل من الناس في الشارع. كانت طقطقة قبقابي الخشبي تتردَّد واضحةً في هواء الليل. بدت أصوات القوّادات الرتيبة وهنّ ينادين المارة القلائل كأنها تزحف عبر هواء

موسم الأمطار الرطب المنخفض. تشبَّثتْ أصابعُ قدميَّ بقوة بأحزمة قبقابي التي باتت رخوة. وهذه كانت خواطري. لا بدَّ من أني كنت أحدّق إلى أضواء هذا الشارع بالذات، بين الأضواء التي لا تحصى، والتي أبصرتها تلك الليلة من على قمة جبل فودو عندما انتهت الحرب.

لا بدَّ من أن أويكو تنتظر الآن في المكان الذي تقودني إليه ساقاي. لحظت بيتًا يسمَّى أوتاكي عند أحد تقاطعات الطرق. اخترت هذا المكان عشوائيًّا، ودلفت عبر الستارة الزرقاء. وجدت نفسي بغتة في غرفة ذات أرضية مبلَّطة. كانت ثلاث فتيات جالسات عند طرف الغرفة المقابل. بَدَيْن تمامًا كما لو كنَّ جالساتٍ بضجر في انتظار قطار. كانت إحداهنَّ ترتدي كيمونو، وتضع حول عنقها ضمادة. وكانت الأخريان ترتديان ملابس غربية. إحداهما كانت منحنية إلى الأمام. كانت قد أنزلت جوربها، وانهمكت في حكِّ رَبْلة ساقها. كانت أويكو متغيّبة. وأشعرني بالارتياح واقع أنها خرجت.

رفعت الفتاة التي كانت تحكُّ ساقها بصرها مثل كلب ينادى. كانت طبقة المسحوق الأبيض والحمرة السميكة تضمّخ وجهها المستدير المنتبج بذلك النوع من الوضوح الفجّ الذي يراه المرء في رسوم الأطفال. وعلى الرغم من أن قول هذا قد يبدو مستغرَبًا، فإنها نظرتْ إليَّ نظرةً مفعمةً حقًّا بطيب النيَّة. كانت نظرتها هي بالضبط النظرة التي يلقيها أحدهم على واحد من إخوانه البشر وهو يمر به

مصادفةً عند ناصية شارع. لم تُبْدِ عيناها أدنى تعرُّف إلى الرغبة الكامنة في باطني.

سيَّان عندي أيَّ الفتيات أختار بما أن أويكو غير موجودة، . إذ ما زال يسيّرني التطيُّر من أن أيَّ اختيار أو ترقُّب من جانبي سيؤدي لا محالة إلى الإخفاق. فكما أن الفتيات لا يملكن أن يخترن زبائنهنَّ، كذلك خير لي ألا أختار فتاتي. عليَّ أن أحرص على ألا يتدخل المفهوم المروّع للجمال الذي يجعل الناس عاجزين عن إتيان الفعل بيني وبين ما نويت.

«أيّهنَّ تريد؟» قالت المدام. أشرت بإصبعي إلى الفتاة التي كانت تحكُّ ساقها. كان الحُكاك الطفيف على ساق الفتاة، حُكاك بقي على الأرجح من لسعة بعوضة كانت تجوس خلسة فوق الأرضية المبلّطة، هو الصلة التي تربطني بها. وسيُقيَّض لها بعدئذٍ، بفضل حكَّتها تلك، أن تكتسب الحقَّ في أداء دور الشاهدة عندما يحين أوان التحقيق الرسمي في فعلتي. نهضت الفتاة وأقبلت نحوي. لمستْ برفقٍ كُمَّ سترتي، ولحظتُ أن شفتيها افترّتا عن ابتسامة.

فكرت مجددًا في أويكو، وأنا أصعد الدرج القديم، الكئيب، إلى الطابق الثاني، فكرت في أمر خروجها من هذا الوقت؛ خروجها من العالم الموجود في هذا الوقت. فما دامت قد ذهبت بعيدًا عن هذا المكان، فلن يقيَّض لي أن أجدها أينما بحثت. بدا كأن أويكو قد ذهبت خارج عالمنا هذا لتستحمَّ، أو لتأتي أمرًا بسيطًا من هذا القبيل.

شعرت بأن أويكو، حين كانت لا تزال حية، قادرة على الدخول إلى عالم مزدوج من هذا النوع، وعلى الخروج منه بكلّ حرية. فحتى عندما وقعتْ تلك الحادثة المأسوية، بالضبط حين بدا أنها ترفض العالم، فقد قبلتْه مرة أخرى. ربما كان الموت، في نظرها، مجرَّد حادثة عَرَضية موقتة. ربما كان الدم الذي تركتْه على رواق معبد كونغو أشبه بالمسحوق المتبقي من أجنحة فراشة حين تنفتح النافذة في الصباح فتطير توًّا.

كان ثمة درابزين مخرَّم، وسط الطابق الثاني يحيط بفسحة يتصاعد عبرها تيارٌ هوائيٌّ من فِناء البيت. كان حبل غسيل يمتد من جزء من حافة السطح إلى الجزء التالي، وقد عُلِّقتْ عليه تنورة داخلية حمراء، وبضعُ قطع من الثياب الداخلية النسائية، وقميصُ نوم. كان المكان معتمًا جدًّا، والخطوط غير الواضحة لقميص النوم تبدو كأنها هيئة بشرية.

كانت فتاة تغني في إحدى الغرف. انسابت أغنيتها بعذوبة. كان ينضم إليها، بين الفينة والفينة، نشازُ صوت رجل. انتهت الأغنية وتلاها صمت قصير، ثم أخذت الفتاة تضحك كأن وترًا قد انقطع.

«إنها هاروكو»، قالت الفتاة التي صحبتني ملتفتةً إلى المدام.

«الأمر دائمًا هكذا»، قالت المدام، «دائمًا». وأدارت بعناد ظهرها المربع صوب الغرفة التي كان الضحك آتيًا منها. دُعيتُ إلى دخول غرفة صغيرة تفتقر إلى الذوق. كان شيءٌ يشبه المنضدة قد حلَّ محلَّ التوكونوما المعتاد، ووضع عليها أحدُهم كيفما اتفق صورةً

لإله الحظ هوتي(*)، وتمثالًا صغيرًا للقطة الملوّحة بقائمتها(**). وقد أُلصِقَ إشعارٌ مفصَّل بالأنظمة المعمول بها على الحائط، كما عُلِّقَتْ روزنامة عليه أيضًا. كانت الغرفة مضاءة بمصباح كهربائي واحد خافت. وكانت تُسمَعُ عبر النافذة المفتوحة، من حين إلى آخر خطى المارة وهم يجولون الشوارع طلبًا للَّذة.

سألتني المدام إن كنت أود أن أبقى فترة قصيرة، أم أُمضي الليلة بطولها. كانت تكلفة زيارة قصيرة أربعمئة يِن. طلبتُ بعض الساكي وبعض بسكويت الأرزّ. نزلت المدام إلى الطابق السفلي لإحضار ما طلبت، لكن الفتاة لم تقترب وتأتي إلى جانبي. لم تنضم الفتاة إليَّ على حصير القش إلا عندما عادت المدام حاملةً الساكي وأمرتْها بأن تجلس إلى جانبي. أما وقد أمكنني الآن أن أرقبها عن كثب رأيت أن شفتها العليا قد فُرِكَتْ بحيث أصبحت ذات حمرة خفيفة. كان واضحًا أن الفتاة اعتادت أن تقتل الوقت لا بدعك ساقيها وحكّها فقط، بل جميع أنحاء جسمها. ثم خطر في بالي أن هذا الاحمرار

(*) هوتي: كاهن زِن صيني يتصف مظهره وبعض تصرفاته بالتهتك: فمظهره يجعله يبدو كأنه شخص شرير، مؤذٍ للغاية، وليس لديه مكان ثابت للنوم، لكنه يُعَدُّ في الصين واليابان إله الحظ، الوصي على الأطفال، راعي العرّافين وأصحاب الحانات. يصوَّر دومًا كرجل بدين أصلع، مبتسم، بشاربين مجعَّدين، نصف عارٍ لأن ملابسه ليست واسعة بما يكفي لتغطية كرشه الضخم. (المترجم)

(**) مانِكي-نِكو (حرفيًا: «القطة الملوّحة»): تمثال ياباني شائع، مصنوع غالبًا من الخزف، يمثل قطة تلوّح بقائمتها الأمامية اليمنى؛ يُعتقَد أنه يجلب الحظ السعيد للمالك، فيوضع في الغالب عند مداخل المحالّ التجارية والمطاعم... إلخ. (المترجم)

الطفيف قد يكون مجرَّد لطخة من حمرتها السميكة. من فضلك، لا تستغرب هجسي برصد كلّ شيء بحذافيره. فهذه هي زيارتي الأولى لماخور، وكنت متلهفًا إلى البحث عن أدلة للَّذة في كلّ مفردة تقع عليها عيناي. رأيت كلَّ تفصيل بوضوح كما تُرى تفاصيلُ النقش. كان كلُّ تفصيل ملصَقًا بكلّ نصاعته على مسافة ثابتة أمام عينيَّ.

«ألم أرَك من قبل، يا سيدي؟» قالت الفتاة التي قدَّمت نفسها على أن اسمها ماريكو.

«لعلمكِ، إنها مرَّتي الأولى».

«حقًّا؟ أهي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى مكان كهذا؟»

«أجل، هي بالفعل المرة الأولى».

«نعم، أحسب أنها كذلك. لهذا ترتجف يدك».

لم أنتبه إلى أن يدي التي كنت أحمل بها قدح الساكي كانت تهتز بعنف، حتى قالت هذا.

«إن كان هذا صحيحًا، ماريكو»، قالت المدام، «فأنت محظوظة الليلة، أليس كذلك؟»

«سأعرف قريبًا جدًّا، في كلّ الأحوال، إن كان صحيحًا أم لا»، قالت ماريكو عَرَضًا. لم يكن ثمة إيحاء شهواني البتة في نبرة كلامها، وقد استشعرتُ بأن روحها تتلهَّى في مكان لا يمتُّ بصلة إلى جسمي ولا إلى جسمها، شأنها شأن طفل فُصِلَ عن رفاقه في اللعب. كانت ماريكو ترتدي بلوزة خضراء فاتحة اللون وتنورة صفراء. نظرت

إلى يديها، فلحظت أن إبهاميها فقط كانا ملوَّنين بالأحمر؛ فلعلَّها استعارت بعض طلاء الأظافر من إحدى صديقاتها، وطلت إبهاميها على سبيل التسلية.

ذهبنا بعد ذلك بوقت قصير إلى غرفة النوم. وضعت ماريكو إحدى قدميها على فراش النوم الذي كان ممدودًا على حصير القش، وشدَّت الحبل الطويل المتدلِّي من جانب مظلَّة المصباح. ظهرت ألوان لحاف القطن المطبوع الزاهية بوضوح تحت الضوء الكهربائي. كانت دمية فرنسية الطراز موضوعة في تجويف الحائط الأنيق.

خلعت ملابسي بطريقة خرقاء. وضعت ماريكو كساءً من البشكير الوردي الخفيف على كتفيها، وتعرَّت بمهارة تحته. كان ثمة إبريق ماء على المنضدة إلى جانب الفراش، فجرعتُ ملء كأسين، فسمعتْ ماريكو التي كانت تواجه الناحية الأخرى صوت الماء.

«أوه، فأنت إذن شارب ماء!» قالت ضاحكة.

وضعت إصبعها بخفة على أرنبة أنفي، عندما استلقينا على الفراش وتمدَّدنا متواجهَين، وقالت: «هل هذه حقًّا هي مرَّتك الأولى؟» فضحكت.

لم أسْهُ عن النظر حتى في الضوء الخافت الآتي من مصباح منضدة الفراش؛ إذ إن فعل النظر كان برهانًا على وجودي. ثم إن هذه كانت المرة الأولى التي أرى فيها عينَي شخص آخر بهذا القرب

مني. تحطَّم قانون المسافة الذي كان ينظم وجودي. شخص غريب تعدَّى بلا خوف على وجودي. حرارة جسم الغريبة والعطر الرخيص على بشرتها اجتمعا على غَمْري رويدًا رويدًا، حتى انغمستُ في الأمر بكلّي. شهدت للمرة الأولى أن في إمكان عالم شخص آخر أن يذوب متلاشيًا على هذا النحو.

كنت أُساسُ مثل رجل هو جزء من وحدة كلّية. لم أتخيَّل قطّ أن أحدًا ما قد يسوسني يومًا هكذا. جُرّدت من طبقات عديدة أخرى حتى بعد أن تعرَّيت من ثيابي؛ جُرّدت من تأتأتي، وكذلك من دمامتي وفقري. بلغت في ذلك المساء، نعم بلغت، الإشباعَ الجسدي. بيد أني ما كنت لأصدّق أني أنا مَن يستمتع بذلك الإشباع. انبجس من بعيد شعورٌ كان حتى ذلك الحين قد جافاني، وما لبث أن انهار من جديد. فصلتُ جسمي بغتة عن جسم الفتاة، ووضعت ذقني على الوسادة. كان جزء من رأسي خَدِرًا من البرد، فطفقت أطرقه بقبضتي طرقًا خفيفًا، ثم تولّاني شعورٌ بأن كلَّ شيء تركني في موقف عسير. بيد أن هذا لم يكفِ لحملي على البكاء.

استلقينا واحدنا إلى جانب الآخر بعد أن انتهينا وجعلنا نتجاذب أطراف الحديث. سمعت الفتاة، وأنا شارد، تخبرني كيف ساقتْها الظروفُ من ناغويا حتى انتهت بها الحال إلى هذا المكان. لكن أفكاري كلَّها كانت متجهة صوب المعبد الذهبي. كانت في الواقع خواطر مجرَّدة بشأنه، مغايرة كليًّا لخواطري البليدة المثقلة بالأحاسيس.

«ستأتي إلى هنا ثانية، أليس كذلك؟» قالت ماريكو، وشعرت من كلماتها بأنها أغلب الظن أكبر مني ببضع سنوات. نعم، كانت حتمًا أكبر مني. كان ثدياها أمامي مباشرة، وكانا ينضحان عرقًا. كانا لحمًا صرفًا، ثديا ماريكو هذان، ولا حظَّ لهما أبدًا في الخضوع لأيّ من تلك العمليات الغريبة، كأنْ يتحوَّلا إلى المعبد الذهبي. لامستُهما بحياءٍ بطرف إصبعي.

«أحسب أنهما يبدوان غريبين في نظرك». قالت ماريكو. ثم استوت جالسة على الفراش. وإذ نظرتُ إلى أحد ثدييها باهتمام شديد، راحت تهزُّه هزًّا خفيفًا كأنها تُلاعِبُ حيوانًا أليفًا صغيرًا. ذكّرني ارتجاج لحمها اللطيف بشمس المساء فوق خليج مايزورو. بدت الطريقة التي تغيرت بها الشمس بتلك السرعة كأنها تلتحم في ذهني بخاصية التغير السريع في جسد الفتاة. وقد واساني أن أفكر في أن اللحم المرتعش أمام عينيّ، مثله مثل شمس المساء المدفونة حاليًا بين السحب المتعدّدة الطبقات، سرعان ما سيثوي عميقًا في قبر الليل المعتم.

زرت المحلَّ ذاته، في اليوم التالي، وطلبت الفتاة ذاتها. لم أفعل هذا فقط، لأنه لا يزال في حوزتي مبلغ كبير من المال. فالفعلة، حين ارتكبتُها أول مرة، بدت فقيرة إلى حد مروع بالمقارنة مع النشوة التي كنت قد تخيَّلتها، فكان يتعيَّن عليَّ أن أحاول مرة أخرى، وأن أقرّبها أكثر من نشوتي المتخيَّلة. إذ إن واحدًا من الأشياء التي أختلف فيها عن سواي من الناس هو أن الأفعال التي

أؤديها في حياتي الواقعية تميل في النهاية إلى التكشف عن نسخ أمينة عمَّا تصوَّرتُه في مخيّلتي. أو لعلّي، بالأصح، ينبغي لي ألا أقول مخيّلتي، بل مَعين ذاكرتي الذي لا ينضب. ما كان في وسعي أن أغالب شعورًا بأن كلَّ خبرة مفردة قد يتفق لي أن أستمتع بها في حياتي، قد سبق لي أن اختبرتها أصلًا في صورة أكثر بهاءً. وحتى في حالة فعل جسدي كهذا، كنت أشعر بأني، في وقت ما وفي مكان ما لم تعد تطالهما ذاكرتي، ربما مع أويكو، سبق لي أن خَبِرتُ شكلًا أعنف من المتعة الجسدية؛ إحساسًا جعل جسمي كلَّه يبدو خَدِرًا. هذا ما وفَّر منبع مباهجي اللاحقة كلّها، وتلك المباهج بالفعل كانت بمثابة مجرَّد حفنات ماء أغترفها من الماضي.

كنت حقًّا أشعر بأني شهدت في وقت ما في الماضي البعيد، في مكان ما، وهجَ غروبٍ لا تُضاهى روعتُه. فهل هو ذنبي أن الشموس الغاربة التي رأيتها بعدئذٍ كانت دومًا تبدو باهتة نوعًا ما؟

عاملتني الفتاة البارحة معاملةً أدنى إلى معاملة الزبائن العاديين، فاصطحبت في زيارتي اليوم في جيبي كتابًا. كان واحدًا من سلسلة كتب اشتريتها قبلئذٍ ببضعة أيام من متجرٍ للكتب المستعملة، عنوانه في «الجريمة والقصاص» من تأليف بيكّاريا(*)؛ فقد تبيَّن لي أن

(*) تشيزاري بونسانا-بيكّاريا (١٧٣٨-١٧٩٤): اختصاصي بعلم الجريمة، وفقيه في القانون، وفيلسوف وسياسي إيطالي. يُعَدُّ أكثر الفقهاء موهبةً، وواحدًا من مفكري عصر التنوير الكبار، وأبا القانون والعدالة الجنائيين الحديثين. من أشهر كتبه أطروحته عن الجرائم والعقوبات (١٧٦٤) التي أدان فيها التعذيب وعقوبة الإعدام، وكانت عملًا مؤسّسًا في مجال علم العقوبات وعلم الجريمة. كان لأعماله تأثير عميق في الآباء المؤسّسين للولايات المتحدة. (المترجم)

هذا المؤلَّف الذي وضعه فقيه جنائي من القرن الثامن عشر عبارة عن وجبة عشاء هزيلة قوامها مساعدات معتادة على التنوير والعقلانية، فطرحته جانبًا بعد قراءة بضع صفحات. غير أنه قد تبادر إلى ذهني أن من الممكن للفتاة أن تهتم بالعنوان.

حيَّتني ماريكو بابتسامة هي عينها ابتسامتها بالأمس. كانت الابتسامة ذاتها، لكن «الأمس» لم يكن قد ترك أدنى أثر. كانت دماثتها تجاهي هي عينها الدماثة التي يُبديها الناس لغريب يتفق لهم أن يلمحوه عند ناصية شارع. وعلَّة ذلك، ربما، أن جسم هذه الفتاة ذاته كان مثل ناصية شارع.

جلست في غرفة صغيرة مع ماريكو والمدام. احتسينا بعض الساكي، وكنت ماهرًا بعض الشيء في أسلوب تبادل الأقداح وفقًا للعرف التقليدي.

«تُراك تجيد تدوير القدح حين تناوله لشريكك»، قالت المدام. «صحيح أنك شاب غرٌّ، لكنني أراك تتقن آداب السلوك!»

«لكنك إذا أتيت إلى هنا يوميًا هكذا»، أردفت ماريكو، «ألن يوبّخك رئيسك؟»

«لقد افتضح أمري، إذًا»، فكرت. كانتا تعلمان بأني تابع لمعبد.

«لا تظن أني لم أفطن إلى ذلك!» قالت ماريكو، وقد لحظت نظرة الدهشة على وجهي. «جميع شبَّان هذه الأيام يعفون شعورهم على طراز عهد الوصاية. فإذا رأيت فتى بشعر مجزوز قصير كشعرك،

تراك تستدل على الفور أنه تابع لأحد المعابد. نحن نعلم كلَّ شيء عنهم في بيوت كهذا البيت، لأن هذه هي الأمكنة التي كان يأتي إليها الرجال الذين غدوا كهنة مشهورين حين كانوا شبانًا. طيب، ما قولك في سماع أغنية؟» وأخذت ماريكو بغتة تغني أغنية شعبية عن مختلف مآثر امرأة ما من المرفأ.

ما لبثنا أن ذهبنا إلى غرفة النوم وقمت بكلّ شيء بسلاسة وباسترخاء تامَّين وسط ذلك المحيط الذي أمسى الآن مألوفًا. شعرت هذه المرة فعليًا بأنني أصبت لمحةً من اللذة، بيد أنه لم يكن صنف اللذة الذي سبق لي أن تخيّلته، بل مجرّد ترضية الشعور العابرة بأني أتكيَّف مع شروط اللذة الجسدية.

ألقت ماريكو على مسمعي، حين انتهينا، موعظةً شجية تنمُّ عن كونها أكبر مني. كان للموعظة لوهلة قصيرة أثرٌ بارد نوعًا ما عليّ.

«أظن أن من الأفضل لك ألا تُكثر من المجيء إلى هذا النوع من الأمكنة»، قالت ماريكو. «أنت شخص جادّ. أنا واثقة بذلك. ولعلمك، لا يجب أن تنشغل بهذا النوع من الأمور، بل عليك أن تستجمع طاقتك كلّها للقيام بعملك. ذلك خير لك كثيرًا. بالطبع أحبُّك أن تأتي إلى هنا لرؤيتي. لكني أحسب أنك تفهم لماذا أكلّمك هكذا، أليس كذلك؟ أشعر بأنك مثل أخي الصغير، كما ترى».

أغلب الظن أن ماريكو اقتطفت هذا النوع من الحديث من قصة قرأتها في إحدى المجلات النسائية الرخيصة. لم يَشِ النطقُ بكلماتها بأيّ عمق شعوري خاص. كانت تلفّق ببساطة قصة صغيرة،

جاعلةً مني أحدَ شخوصها، وتتوقع أني أنخرط في الانفعالات التي اختلقتْها. واستجابتي المثلى من وجهة نظرها هي أن أنفجر باكيًا.

لكني لم أفعل. وبدلًا من ذلك، اختطفت بغتة نسخة «الجريمة والقصاص» من على منضدة الفراش، ودفعت بها أمامها مباشرة. أذعنت ماريكو وأخذت تتصفح الكتاب، ثم عادت ووضعته حيث كان من غير أن تنبس بكلمة. كان الكتاب قد غادر ذاكرتها سلفًا.

تمنيت فقط لو أن ماريكو اختبرت تحذيرًا استباقيًا عن الحدث المصيري الذي يعنيه لقاؤها بي. تمنيت لو أنها دنت أكثر قليلًا من معرفة أنها تمدُّ يد العون، من حيث لا تدري، في دمار العالم. فهذا الأمر، في الحاصل، من الخطورة بحيث لا يجوز أن يكون محلَّ عدم اكتراث، حتى في نظر هذه الفتاة. راح صبري ينفد، وأفلتت مني أخيرًا كلماتٌ ما كان يجوز لي أن أُفشيها: «سأصبح مالئ الدنيا وشاغل الناس في الصحف بعد شهر، أجل، بعد شهر من الآن بالتمام. تذكّريني رجاءً عندما يحدث ذلك».

كان قلبي يخفق بشدة حين انتهيت من النطق، غير أن ماريكو انفجرت ضاحكة. ضحكت حتى اهتزَّ ثدياها من شدة الضحك، ثم نظرتْ إليَّ وحاولتْ أن تتمالك نفسها بعضّ كمّها. لكنها عادت وطفقت تتشنج من فرط الضحك، حتى أخذ جسمها برمَّته ينتفض. شعرتُ يقينًا بأن ماريكو نفسها ما كانت لتستطيع تفسير لماذا أضحكها الأمر إلى هذا الحد. لحظتِ التعبير على وجهي فتوقفتْ عن الضحك.

«ما المضحك في الأمر إلى هذا الحد؟» سألتها. كان سؤالًا غبيًّا.

«أنت كذَّاب محترف، أليس كذلك؟ أوه، إنه حقًّا مضحك جدًّا! يا لك من كذَّاب رهيب!»

«أنا لم أفُه بأيّ أكاذيب».

«أوه، كفى أرجوك!» قالت ماريكو وانفجرت ضاحكة من جديد. «سأموت لو واصلتُ الضحك هكذا. أنت تقتلني! كلُّه كذب في كذب! وتستطيع أن تحتفظ بتعبير وجهك جديًّا طوال الوقت!»

نظرت إليها وهي تضحك. لعل ما أضحكها كان ببساطة تأتأتي الغريبة للغاية عندما نطقتُ بتصريحاتي المؤكَّدة عن المستقبل. تبقى الحقيقة أنها لم تصدّق كلمة واحدة مما نطقت به.

لم تكن ماريكو لتصدق شيئًا. فلو وقع زلزال أمام عينيها مباشرة لما صدَّقتْ ما ترى. لو قُيّض للعالم بأسره أن ينهار لنجت هذه الفتاة وحدها على الأرجح، إذ إنها لم تكن تصدّق إلا الأشياء التي تحدث وفقًا لمنطق يخصُّها وحدها. وهذا المنطق ما كان ليجيز حدوث أيّ انهيار للعالم، وتبعًا لذلك، ما كان لأيّ شيء أن يتيح لماريكو فرصة للتفكير في أمر كهذا. كانت من هذا القبيل تشبه كاشيواغي. كانت ماريكو كاشيواغي أنثى، إنما كاشيواغي لا يفكر.

استوت ماريكو جالسة على الفراش لما بلغت المحادثة نهايتها، وثدياها لا يزالان عاريين، وأخذت تدندن. اختلطت دندنتها بأزيز

ذبابة كانت تطير حول رأسها. وما هي إلا هنيهة حتى حطَّت الذبابة على أحد ثدييها.

«أوه، إنها تدغدغ!» قالت، لكنْ من دون أن تبذل جهدًا لطردها.

ما إن حطَّت الذبابة على ثديها حتى استقرَّت هناك. استغربتُ بشدة أنه لم يبدُ عليها أنها تستهجن تمامًا مداعبة حشرة لها بهذا الطريقة.

تناهى إلى سمعي صوت المطر على حواف السطح. خُيّل إليَّ من صوته كأنه يهطل فقط على هذه البقعة بعينها. بدا المطر في مسمعي كأنه تجمَّد من فرط الخوف، وكأنه جال على غير هدى في هذه الناحية بعينها من البلدة وضلَّ سبيله تمامًا. كان صوت المطر منفصلًا عن الليل الشاسع، مثلي بالضبط؛ كان صوتًا ينتمي إلى عالم محدَّد التخوم، مثل العالم الذي كان مضاءً بضوء مصباح الفراش الخافت.

هل يُعقَلُ أن ماريكو آخذة بالتعفن، بما أن الذباب يعشق التعفن؟ هل كان الغياب التام للتصديق يفيد ضمنًا بالتعفن؟ هل اصطفتْها الذبابة لأنها تسكن عالمًا مطلقًا يخصُّها وحدها؟ كان الأمر عسيرًا على فهمي.

لحظتُ فجأة، إذ ذاك، أن ماريكو قد غفت. كانت مسجَّاة هناك مثل الجثة، وكانت الذبابة أيضًا لا تحرك ساكنًا على استدارة نهدها الذي يضيئه مصباح الفراش، وقد غفت حتمًا هي الأخرى.

لم أعد أبدًا إلى أوتاكي؛ فقد أنجزتُ ما كان عليَّ أن أفعله. كلُّ

ما تبقى الآن هو أن يفطن الرئيس إلى كيفية إنفاقي رسم جامعتي، ويصرفني من المعبد.

لم أُبْدِ للرئيس، مع ذلك، أيَّ تلميح بخصوص ما فعلته بالمال. لم أكن مضطرًا إلى الاعتراف بنفسي؛ بل على الرئيس أن ينقب مفتشًا عن فعلتي من دون أيّ اعتراف من جانبي.

يصعب عليَّ أن أعلّل لنفسي لماذا أردت أن أتكلّف كلَّ هذه المشقة في الاتكال، إذا جاز القول، على قوة الرئيس. لماذا وجب عليَّ أن أستعير قوته هذه؟ لماذا وجب عليَّ أن أسمح لقراري النهائي بأن يتوقف على قيام الرئيس بطردي. وأنا، كما سبق لي أن قلت، قد فطنت منذ زمن طويل إلى العجز الجوهري له.

أتيحت لي فرصةُ رصد هذه الخصلة بالذات في طبيعة الرئيس بعد زيارتي الثانية للماخور ببضعة أيام. فقد خرج في جولة حول المعبد في وقت مبكر من ذلك الصباح، قبل افتتاح الحَرَم. هذا أمر لم يكن من عادته أن يفعله على الإطلاق. أقبل علينا أنا والكهنة الشباب ونحن نقوم بكنس أرض الحَرَم، وتفوّه ببعض العبارات التقليدية شاكرًا إيانا على جهودنا. ثم أخذ يصعد بردائه الأبيض الهفهاف الدرجات الحجرية المؤدية إلى اليوكاتي. كان حتمًا يريد أن يجلس مختليًا بنفسه هناك، فيعدَّ بعض الشاي حتى يصفو ذهنه.

كانت في السماء آثارٌ من شروق شمس شديدِ الضراوة. ثمة غيوم، هنا وهناك، لا تزال تعكس ألقًا أحمر، وتتحرك عبر الخلفية الزرقاء كما لو أنها لم تتمكن من التغلُّب بعدُ على حيائها.

عاد أفراد فريقي الآخرون إلى البناء الرئيسي بعد أن انتهينا من الكنس. مشيت وحدي في الدرب المؤدي بمحاذاة اليوكاتي إلى مؤخرة المكتبة الكبرى. كان يقع على عاتقي أن أكنس الأرض خلف المكتبة. التقطتُّ مكنستي وصعدت الدرجات الحجرية التي كان يحدُّها سياج من الخيزران. كانت الدرجات تؤدي إلى مكان في جوار بهو شاي اليوكاتي. كانت الأشجار لا تزال مبتلَّة من المطر الذي ما انفك يهطل حتى المساء السابق. كان ألق الصباح منعكسًا على قطرات الندى المنثورة بغزارة على الشجيرات المحيطة، وبدا كما لو أن توتًا أحمر قد أخذ ينمو هناك خارج موسمه. وخيوط العناكب الممتدة من قطرة ندى إلى أخرى، كانت تشوبها أيضًا حمرة خفيفة. وقد لحظت أنها كانت ترتعش.

امتلأتُ، وأنا أحدّق إلى هذا كلّه، بنوع من العجب من فكرة أن في إمكان الأشياء على هذه الأرض أن تعكس لون السماوات بكلّ هذه الحساسية. حتى رطوبة المطر التي كانت تلقي بغطائها الشفاف على مجمّع المعبد، كانت تستمدُّ خاصيتها كليًّا من السماء فوق. كلُّ شيء كان يقطر نداوةً، كما لو أنه كان يتلقى مباركة سخية من السماء، وتفوح منه رائحة يختلط فيها العفن بالنضارة. ذلك أن الأشياء على هذه الأرض لم تعرف الوسيلة لنبذ أيّ شيء.

كان ينتصب إلى جانب سرادق اليوكاتي، برجُ نجمة الشمال الذي كانت تعود تسميته بأصلها إلى المقطع: «نجمة الشمال تقيم بهذا المكان، والنجوم التي لا تعد ولا تحصى جميعًا تؤدي لها

الخدمة». غير أن برج نجمة الشمال الحالي لِيس عينه البرج الذي كان ينتصب هناك حين كان يوشيمِتسو ممسكًا بأعنَّة السلطة. فقد أعيد بناؤه قبل نحو مئة سنة على الهيئة المدوَّرة المفضَّلة لبيوت الشاي. وبما أن بصري لم يقع على الرئيس في اليوكاتي، فلا بدَّ من أنه في برج نجمة الشمال.

لم أشأ أن أجابه الرئيس وحدي. لذا مشيت على امتداد السياج بخطًى ساكنة وأنا أحني جسمي كيلا يراني أحد من الجهة المقابلة.

كان برج نجمة الشمال مفتوحًا. كان في وسعي أن أرى في تجويف الحائط لفيفة مارویاما أوكِيو(*) الفنية لمعهودة. كان التجويف يحوي أيضًا المزار البوذي الصغير المشغول بدقة، والمصنوع من خشب الصندل، والذي انقلب لونه إلى أسود في إبَّان مئات الأعوام التي انقضت على إحضاره من الهند. وكان في وسعي أن أرى إلى اليسار، الرفَّ على طراز ريكيو المصنوع من خشب التوت. كما لحظت أيضًا الرسم على الباب الجرَّار. كان كلُّ شيء هناك في موضعه، كما توقعت، ما عدا هيئة الرئيس. رفعت رأسي غريزيًّا فوق السياج وأَجَلتُ النظر.

رأيت شيئًا يشبه صرة بيضاء كبيرة في الجزء المعتم من الغرفة

(*) اسمه الأصلي ماساتاكا (١٧٣٣-١٧٩٥): رسام ياباني انتقل إلى كيوتو، حيث درس الفن من مصادر صينية ويابانية وغربية، ثم أسَّس مدرسة مارویاما للرسم. اتسم بأسلوب شخصي مستفاد من المذهب الطبيعي الغربي، وممتزج بالتصميم الزخرفي الشرقي. على الرغم من أن كثيرين من زملائه انتقدوا إفراطه في الإخلاص للواقعية، فإنه لاقى إقبالًا كبيرًا عند العامَّة. (المترجم)

بجوار العمود. وعندما أمعنت النظر رأيت أنه الرئيس. كانت هيئته المتلفّعة بالرداء الأبيض منحنية إلى أقصى حدّ ممكن، وهو جاثم هناك، ورأسه بين ركبتيه، ووجهه مغطى بكمّيه الطويلين.

بقي الرئيس على الوضعية ذاتها. كان ساكنًا تمامًا. أما أنا الواقف هناك أشاهده، فقد اعترتْني فورةٌ من المشاعر المتذبذبة.

أول ما خطر في بالي أن الرئيس قد ألمّ به فجأة مرضٌ، وكان يعاني نوعًا من النوبة. فكان عليّ أن أهرع إليه من فوري وأعرض عليه مساعدتي. غير أنه حالما خطر هذا في بالي صدّني عنه أمرٌ ما. لم أكنّ للرئيس أدنى حب، وسوف أنفذ في أيّ يوم مقبل ما أنويه من إضرام النار في المعبد الذهبي. لذا فإن مدّي يد العون له في ظل هذه الظروف هو من قبيل الرياء المحض. كان مكمن الخطر، علاوة على ذلك، في أني لو ساعدته فعلًا فقد أُصبح محلًّا لامتنانه وحبّه، وقد ينال ذلك، في النتيجة، من تصميمي.

أما وقد أمعنت في مراقبة الرئيس، فلم يبدُ لي أنه مريض. مهما يكن ما حلّ به، فقد كانت هيئته وهو جاثم في دار الشاي الصغيرة خاليةً تمامًا من أيّ كبرياء أو كرامة. كانت توحي بالضَّعَة مثل هيئة حيوان نائم. ولحظت أن كمّيه كانا يرتعشان ارتعاشًا خفيفًا كأن ثقلًا غير مرئي يضغط على ظهره.

ما كنهه؟ هذا الثقل غير المرئي. ألعلّه المعاناة؟ أم لعلّه كان معرفة الرئيس التي لا تطاق بعجزه المستحكم؟

أدركت، مع اعتيادي على الهدوء، أن الرئيس كان يتمتم شيئًا بصوت خفيض للغاية. كان الصوت يوحي بأنه سوترا، لكني لم أستطع أن أتميَّزه. واستبدَّ بي فجأة خاطرٌ أطاح كبريائي؛ خاطر أن رئيسنا كان يمتلك حياةً روحيةً مظلمةً لا نعرف عنها شيئًا، وأن الشرور والخطايا وسائر صنوف الإهمال التي كدحت إليها كدحًا، بكلِّ هذه المثابرة، كانت تافهة لا تستحق الذكر، مقارنةً مع حياة الرئيس هذه.

ثم أدركت الأمر. كانت الوضعية التي جثم بها الرئيس عينها وضعية «انتظار الحديقة»؛ أي وضعية الكاهن الجوَّال الذي رُفِضَ طلبُه دخول المعبد، فيجلس على كيسه طوال اليوم إلى جوار المدخل محنيَّ الرأس. إذا كان حَبْرٌ رفيعُ المرتبة كرئيسنا يقلِّد حقًّا التأديب الديني الذي يُنزِلُه بنفسه الكاهنُ الرحَّالةُ الواصل حديثًا، فلا بدَّ من أنه يتحلَّى بدرجة رائعة من التواضع. ولكن، إلامَ كان تواضعه هذا موجهًا؟ كما أن تواضع نصلات العشب؛ تواضع أطراف الأوراق على الشجر؛ تواضع الندى الساكن في بيت العنكبوت، موجَّهة كلها نحو ألق الصباح في السماوات، كذلك كان الرئيس يوجّه تواضعَه نحو شرور العالم وخطاياه الأصلية التي لم يقترفها هو. ربما كان يسمح لهذه الأشياء بأن تنعكس انعكاسًا طبيعيًّا على شخصه وهو جالس هناك، وجاثمًا كحيوان؟

ولكنْ، لا. لم يكن تواضعُه موجَّهًا إلى أيّ قوة كونية كهذه. كان يتخذ هذا الموقف المتواضع من أجلي أنا، بحسب ما فطنتُ

فجأة. ما كان ثمة مجال للشك في ذلك. كان يعلم بأني سأمر بهذا المكان، وقد اتخذ هذا الموقف من أجل مصلحتي. أدرك الرئيس تمامًا عجزه وقلّة حيلته، فاهتدى أخيرًا إلى هذه الطريقة الفظيعة السخرية لتحذيري؛ لتمزيق قلبي إربًا في صمت؛ لإيقاظ الرأفة في قلبي؛ لحملي على ثني ركبتيَّ مصليًا.

لم أستطع أن أنجو من هجمة العاطفة التي تعرَّضتُ لها إلا بشقّ النفس وأنا أرقب الرئيس الجاثم هناك في ما تهيَّأ لي أنه موقف تواضع. فعلى الرغم من محاولتي رفضها بكلّ ما أوتيت من قوة، فإن الحقيقة هي أني كنت على وشك الرضوخ للعطف عليه. لكن فكرة أنه قد اتخذ هذا الموقف من أجل مصلحتي أنا بالذات، قلبت مسار الأمور، وجعلت قلبي أقسى حتى مما كان عليه من قبل.

قررت، في هذه اللحظة بالذات، أن أمضي قُدُمًا في تنفيذ خططي من دون الاتكال على أيّ شرط تمهيدي كقيام الرئيس بطردي. لقد أصبحت أنا والرئيس نسكن عالمين مختلفين، لم يعد لأيّ منهما تأثيرٌ في الآخر. لقد تحرَّرتُ من جميع القيود. كان في مقدوري الآن تنفيذ قراري كيفما أحببت، ومتى أحببت، من دون أن أتوقع أيَّ شيء من قدرة خارجية.

تلاشى ألق الصباح من السماء. وتجمَّعت، في الوقت ذاته، السحب، وانسحب ضياء الشمس الصافي من برج نجمة الشمال. بقي الرئيس هناك في وضعية جثومه. غادرت المكان مسرعًا.

اندلعت في ٢٥ حزيران الحرب الكورية. لقد تحقق توجُّسي من أن العالم ماضٍ، لا محالة، إلى الخراب والانهيار. كان عليَّ أن أُسرع.



الفصل العاشر

قمت سلفًا باختبار، بعد يوم من زيارتي للغوبانتشو. نزعت مسمارين اثنين بطول بوصتين من الباب الخشبي في الجزء الخلفي من المعبد الذهبي.

يوجد مدخلان إلى الهوسوي - إنْ في الطابق الأرضي من المعبد الذهبي. كلاهما باب ينطوي، واحد إلى الشرق والآخر إلى الغرب. كان من عادة الدليل العجوز أن يصعد إلى المعبد الذهبي كلَّ ليلة، فيغلق أولًا الباب الغربي من الداخل، ثم يغلق الباب الشرقي من الخارج ويوصده. غير أني كنت أعرف أن في مقدوري دخول المعبد الذهبي من دون مفتاح؛ إذ إنه يوجد باب خشبي قديم في الخلف لم يعد قيد الاستعمال، وفي الإمكان نزعه بسهولة إذا انتزع المرء نحو نصف دزينة من المسامير من الأعلى والأسفل. كانت المسامير كلُّها رخوة، ومن السهل للغاية أن ينتزعها المرء بأصابعه. لذا انتزعت

مسمارين على سبيل التجربة، وغلَّفتهما بقطعة من الورق ووضعتهما بحرص شديد في الجزء الخلفي من جاروري. انقضت بضعة أيام. لم يبدُ على أحد أنه لحظ. مرَّ أسبوع. لم يكن ثمة أيٌّ علامة بعدُ على أن أحدًا ما لحظ أن المسمارين كانا ناقصين. دخلت المعبد خلسة مساء الثامن والعشرين، وأعدتهما إلى مكانهما السابق.

ذهبت إلى صيدلية قرب مخفر شرطة نيشنيجين في تشيموتو-إيمادغاوا(*) واشتريت بعض الزرنيخ، يوم رأيت الرئيس جاثمًا في بهو الشاي وقررت أخيرًا أني لن أتكل على قوة أيّ أحد سواي،. أُعطيتُ أولًا زجاجةً صغيرةً ما كانت تتسع لأكثر من ثلاثين قرصًا، فطلبت واحدة أكبر، ودفعت أخيرًا مئة يِن ثمنًا لزجاجة من مئة قرص. ثم ذهبت إلى متجر للخردوات جنوب مخفر الشرطة، واشتريت مطواة جيب طول نصلها نحو أربع بوصات. كلَّفتني مع غمدها تسعين ينًّا.

تمشيت جيئة وذهابًا أمام مخفر شرطة نيشنيجين. كان الوقت مساءً، وكثير من النوافذ مضاءٌ إضاءةً ساطعة. لحظت شرطيًا من المباحث يسارع إلى دخول البناء. كان يرتدي قميصًا مفتوح الياقة، ويحمل شنطة. لم ينتبه أحد لوجودي. لا أحد سبق أن انتبه لوجودي طوال السنوات العشرين الماضية، كان لا بدَّ لهذا من أن يستمر. وفي ظل الظروف الحالية ما زلت شخصًا لا أهمية له. كان في بلاد اليابان هذه ثمة أناس بالملايين، بعشرات الملايين، كانوا محشورين في

(*) نيشنيجين: حي تجاري شهير شمال غرب كيوتو؛ سِنْبون-إيمادِغاوا: تقاطع شارعين في حي نيشنيجين. (المترجم)

زوايا، ولا يهتم لأمرهم أحد. كنت لا أزال منتميًا إلى صفوف هؤلاء. لم يكن العالم يكترث أدنى اكتراث إن عاش هؤلاء الناس أم ماتوا، ولهذا السبب كان وجودهم يوحي بالاطمئنان. لذا، كان شرطي المباحث مطمئنًّا، فلم يكلّف نفسه عناء إلقاء نظرة ثانية إليَّ. كان الضوء الأحمر، الأدْخَن، للمصباح يضيء اللافتة الحجرية لمخفر شرطة نيشيجين. وكان حرف جين قد سقط، ولم يبالِ أحد باستبدال حرفٍ جديد به.

فكرت في مشترياتي ذلك المساء، في طريق عودتي إلى المعبد. كانت مشتريات مشوّقة. فعلى الرغم من أنني اشتريت العقار والسكين تحسُّبًا لاحتمال بعيد أجدني فيه مُكرَهًا على الموت، فإني كنت، من شدة سروري بهما، لا أملك إلا أن أتساءل إن لم يكن شعوري هذا هو عينه شعور مَن اقتنى منزلًا جديدًا، ومَن يضع خططًا لحياته المستقبلية. لم أتعب من النظر إلى مقتنييَّ الاثنين، حتى بعد عودتي إلى المعبد. استللت المطواة من غمدها ولعقت النصل. تلبَّد الفولاذ على الفور، وأعقبتْ برودتَه الصرف على لساني مسحةً من الحلاوة. انعكست الحلاوةُ خفيفةً على لساني من باطن الفولاذ الرقيق؛ من باطن جوهر الفولاذ المتعذر البلوغ. نقاء الشكل، بريق الحديد الشبيه باللون النيلي لأعماق البحر؛ هذان هما اللذان حملا هذه الحلاوة الرائقة التي أحكمت الالتفاف حول طرف لساني مع لعابي. انسحبت أخيرًا، الحلاوة مني. تخيَّلت مسرورًا اليوم الذي يثمل فيه جسدي بفيضٍ عظيمٍ من تلك الحلاوة. كانت سماء الموت

مشرقة، وتبدو لي مثل سماء الحياة. خواطري السُّود كلُّها انصرفت عني. كان هذا العالم الآن خاليًا من العذاب.

جُهِّزَ المعبد الذهبي، بعد الحرب، بنظام إنذار تلقائي من الحريق من أحدث طراز. كان مصمَّمًا، بحيث إنه حين تبلغ درجة الحرارة داخل المعبد نقطة معيَّنة ينطلق جرس الإنذار في رواق البناء الذي نعيش فيه. وتعطَّل جهاز الإنذار في مساء ٢٩ حزيران. وكان الدليل العجوز هو الذي اكتشف الخلل. وصادف أني كنت وقتذاك في المطبخ، وسمعت العجوز يبلِّغ عن الأمر في مكتب الشمَّاس. شعرت حينها بأني أصغي إلى تشجيع من السماء.

غير أن الشمَّاس اتصل هاتفيًّا في الصباح التالي بالمصنع الذي ركَّب الجهاز، وطلب من القيّمين عليه أن يبعثوا بمصلّح. وقد بذل الدليل الدمث مشقةً لإخباري بما استجد. عضضت على شفتي. كانت ليلة الأمس هي الفرصة الذهبية لتنفيذ قراري، وقد فوتُّها على نفسي.

جاء المصلّح في المساء. وقفنا جميعًا متحلّقين حوله بفضول ونحن نراقبه يعمل. مال الرجل برأسه إلى أحد الجانبين، وعلى وجهه تعبير مبهم عن فتور الهمّة، فأخذ المتفرجون عليه ينصرفون الواحد بعد الآخر. انصرفت أنا الآخر بعد حين. كان عليَّ الآن أن أنتظر اكتمال عملية التصليح وإشارة اليأس تلك عندما يصدح جرس الإنذار عاليًا عبر أبنية المعبد بينما يجرّبه الرجل. انتظرت. شق الليل

طريقه مخيِّمًا على المعبد الذهبي مثل مدّ متصاعد، وكان في وسعي أن أرى ضوء المصلّح الصغير يومض داخل البناء المعتم. لم يصدر أيُّ صوت إنذار. يئس المصلّح، وقال إنه سيعود في اليوم التالي لإنهاء المهمة.

غير أنه حنث بوعده، فلم يتمكن من المجيء يوم الأول من تموز. ولم تجد سلطات المعبد سببًا موجبًا لتسريع عملية التصليح.

ذهبت مرة أخرى إلى تشيموتو إيمادغاوا يوم ٣٠ حزيران واشتريت بعض الخبز الحلو وبعض شطائر مربَّى الفول. كنت آتي أحيانًا إلى هذا المكان، بما أننا لا نُعطى أبدًا أيَّ شيء يؤكل بين وجبات الطعام في المعبد، وأشتري بعض الحلوى من مصروفي الشخصي الهزيل.

غير أن مشترياتي يوم الثلاثين من حزيران لم تكن بدافع الجوع. ولا أنا اشتريت الخبز ليعينني على ابتلاع الزرنيخ. إن كان لا بدَّ لي من إيراد سبب لقلت إن الضّيق هو الذي جعلني أشتري ذلك الطعام.

كان هناك ما يشبه العلاقة بيني وبين كيس الورق الممتلئ ذاك الذي أحمله بيدي؛ وبين تلك الفعلة المعزولة الكاملة التي كنت على وشك القيام بها وبين الخبز الرديء في كيسي. كانت الشمس تنزُّ من السماء الغائمة نزيزًا وتجثم على البيوت القديمة على امتداد الشارع مثل غشاوةٍ من قيظ. بدأ العرق يجري متفصدًا خلسة نزولًا على ظهري وكأن خيطًا باردًا شُدَّ فجأة على طوله. كنت مرهقًا للغاية.

العلاقة بيني وبين الخبز الحلو. ما كنهها؟ تخيَّلت أنه متى آن الأوان ووجدتُني وجهًا لوجه مع الفعلة، ستقوى روحي المعنوية من شدة التوتر وتركيز اللحظة، لكن معدتي التي ستُترَكُ على حالِ عزلتها المعتادة ستظل تطلب ضمانةً ما لهذه العزلة. شعرت بأن أحشائي كانت مثل كلبٍ لي أشعث مستعصٍ أبدًا على الترويض. كنت أعلم، كنت أعلم بأنه مهما بلغت روحي من الانتعاش فإن معدتي وأمعائي، تلك الأعضاء الغليظة، البليدة، الساكنة في جسمي، ستصرُّ على التصرف على طريقتها، فتحلم حلمًا مبتذلًا من الحياة اليومية.

كنت أعلم بأن معدتي سوف تحلم؛ سوف تحلم بالخبز الحلو وبشطائر مربَّى الفول. ففي حين تحلم روحي بالجواهر، ستلحُّ معدتي على الحلم بالخبز الحلو وبشطائر مربَّى الفول. في أيِّ حال، فإن طعامي هذا سوف يأتي بدليل مناسب عندما يبدأ الناس بعصر أدمغتهم بشأن سبب ارتكابي الجريمة. «كان المسكين جائعًا»، سوف يقول الناس. «يا لضعف الطبيعة البشرية!»

وجاء اليوم؛ الأول من تموز ١٩٥٠. كما سبق لي أن ذكرت، لم يكن ثمة توقُّع بأن يتم إصلاح جهاز إنذار الحريق في أثناء النهار. وقد تأكد هذا في الساعة السادسة مساءً. اتصل الدليل العجوز هاتفيًّا بالمصنع مرة أخرى، وحثَّ القيِّمين عليه على إتمام عملية التصليح. أجاب الخبير بأن مشاغله، لسوء الحظ، أكثر من أن تسمح له بأن يأتي ذلك المساء، لكنه وعد بأنه سينهي المهمة في اليوم التالي، من كلِّ بدّ.

كان هناك نحو مئة زائر في المعبد في أثناء النهار، لكن بما أن البوابات تُغلَقُ في السادسة والنصف فإن موجات البشر كانت قد بدأت تنحسر. وقف الدليل العجوز عند مدخل المطبخ ينظر شاردًا إلى الحقل الصغير في الخارج عندما أنهى اتصاله الهاتفي. لقد أنهى عمله لذاك اليوم.

كانت السماء تمطر رذاذًا. هطل المطر وابلًا عدة مرات منذ الصباح. وكان ثمة نسمة خفيفة أيضًا، ولم يكن الجو قائظًا جدًّا كما هو عادةً في هذا الوقت من السنة. لحظت زهر نباتات اليقطين متناثرةً في الحقل هنا وهناك تحت المطر. أما بذور فول الصويا، التي زُرِعَتْ في الشهر الماضي، فقد بدأت تنبت على امتداد الروابي السوداء، اللامعة، على الجانب الآخر من الحقل.

كان من عادة الدليل حين ينهمك في التفكير أن يُطبِقَ بِدلَة أسنانه السيئة التطابق برنَّة مدوّية. كان كلَّ يوم يدلي بالمعلومات نفسها لزوار المعبد، ولكن بسبب بِدلَة أسنانه كان الفهم عليه يصير بمرور الوقت أكثر عسرًا. كان لا يبالي مطلقًا بشتى التلميحات إلى ضرورة قيامه بتصليحها. كان الرجل العجوز يتمتم لنفسه وهو يحملق في الحقل. توقف للحظة، فتناهى إلى سمعي صوت قرقعة بِدلَة أسنانه. ثم عاد إلى التمتمة من جديد. فلعلَّه كان يتأفف من التأخير في تصليح جهاز إنذار الحريق. شعرت وأنا أصغي إلى تمتمته غير المفهومة، بأنه يقول إن الأوان قد فات الآن على أيّ تصليح، سواء كان تصليح أسنانه، أو جهاز إنذار الحريق.

جاء الرئيسَ زائرًا ضيفٌ غير اعتيادي في ذلك المساء، هو الأب كواي زنكاي، رئيس معبد ريوهو في ولاية فوكوي، والذي كان صديقه منذ أيام الدراسة في معهد اللاهوت. وبما أن الأب زنكاي كان من أصدقاء الرئيس، فقد كان من أصحاب أبي أيضًا.

كان الرئيس متغيبًا عندما وصل الأب زنكاي. اتصل به أحدهم هاتفيًّا وأخبره بأن لديه زائرًا، فقال إنه سيعود بعد نحو الساعة. كان الأب زنكاي قد قدم إلى كيوتو ليمضي في معبدنا يومًا أو اثنين.

تذكرت أن والدي قد تحدّث دومًا بسعادة عن هذا الكاهن، وكنت أعلم بأنه معجب به كثيرًا. كان شديد الرجولة، إنْ في المظهر، أو في الشخصية، ونموذجًا للنمط الخشن من كهنة الزّن. يكاد طوله يبلغ ست أقدام، داكن البشرة، كثّ الحاجبين، وصوته كهزيم الرعد.

شعرت بشيء من التردد عندما جاء أحد زملائي المبتدئين يخبرني بأن الأب زنكاي يودُّ أن يكلّمني إلى حين عودة الرئيس. خشيت أن تستشف عينا الكاهن الصافيتان النقيتان أمر خطتي التي كانت الآن تدنو متسارعةً من لحظة التنفيذ.

وجدته يجلس متربعًا في قاعة الزوار الواسعة في المبنى الرئيسي. كان يشرب الساكي الذي تلطّف الشمّاس بإحضاره له، ويمضغ على مهل بعض الأطايب النباتية. كان زميلي المبتدئ قد قام على خدمته حتى وصولي، لكنني حللت الآن محلّه، وبدأتُ بصبّ الساكي له إذ اقتعدتُ الأرض قبالته كما تقضي الآداب. جلست وظهري إلى عتمة المطر الصامت. لذا، كان أمام عينَي الأب زنكاي منظران كالحان:

الحديقة المعتمة، التي كانت مخضلّةً من موسم الأمطار، ووجهي. لكنه لم يكن رجلًا ممّن يؤخذون بهذا، ولا بأيّ شيء آخر. وعلى الرغم من أنه كان أول لقاء بيننا، فإنه تكلّم بذهن حاضر وبلا تردُّد. توالت الملاحظات، واحدة في إثر الأخرى. «كم تشبه أباك!» «لقد كبرتَ حقًّا، أليس كذلك؟» «كم هو محزن للغاية أن أباك قد مات!»

كان الأب زنكاي يتصف ببساطة غريبة عن الرئيس، وبقوة لم يمتلكها والدي قط. كان وجهه ملوَّحًا بالشمس، وواسع المنخرين للغاية، وثنايا اللحم حول حاجبيه الثقيلين ينتأ بعضها تجاه بعض، بحيث بدا وجهه كأنه صُمّم على غرار أقنعة الأوبِشيمي المستعمَلة لتشخيص العفاريت في مسرحيات النُّو.

لم تكن منتظمة ملامحُه قطعًا. كان ثمة فيض من القوة الداخلية في الأب زنكاي. وكانت هذه القوة تتجلّى كما يحلو لها، وتحطّم بالكامل أيَّ انتظام من شأنه أن يكون موجودًا. كان عظما وجنتيه الناتئان شديدَي الانحدار مثل الجبال الصخرية الوعرة التي رسمها الفنانون الصينيون من مدرسة الجنوب.

بيد أن صوت الكاهن الهادر كان يوحي أيضًا بلطفٍ وَجَدَ صدًى له في قلبي. لم يكن نوعًا عاديًّا من اللطف، بل اللطف الذي تتصف به الجذور القاسية لشجرة معمّرة، عظيمة، تنمو خارج قرية فتغدو ملاذًا لعابر السبيل. كان لطفه خشن الملمس. كان عليَّ، ونحن نتكلّم، أن أحترس لئلا يفلّ التّماسُ مع لطفه من عزيمتي، هذه الليلة حصرًا من دون الليالي كلّها. ساوَرَني شكٌّ في أن يكون الرئيس قد

استضاف الأب زنكاي خصيصًا من أجل مصلحتي، لكني فطنت إلى أن من المستبعَد عليه أن يأتي به من ولاية فوكوي فقط من أجلي. لا، كان هذا الكاهن مجرَّد ضيف متميّز قُيّض له مصادفةً أن يكون شاهدًا على كارثة عظمى.

كانت قنينة الساكي الخزفية البيضاء تتسع لأكثر من نصف ليتر تقريبًا، لكن الأب زنكاي كان قد أفرغها بالفعل. استأذنت بانحناءة متأدّبة، وذهبت إلى المطبخ لجلب قنينة أخرى. غلبني شعورٌ لم أَخبَرْه قط حتى ذلك الحين، وأنا عائد بالساكي المسخَّن. لم تخطر في بالي قطُّ، من قبل، رغبةٌ في أن يفهمني الآخرون، لكني تمنيت الآن لو يفهمني الأب زنكاي وحده. لعلَّه لحظ، وأنا أجثو هناك من جديد أمامه وأصبُّ له الساكي، أن بريق عينيَّ يفصح عن إخلاص لم يكن فيهما قبل ذلك بهنيهة قصيرة.

«ما رأيك فيَّ، أبتِ»، سألت.

«هممم، سأقول إنك تشبه طالبًا جديًا مُجِدًا. لا أدري بالطبع أيَّ نوع من الفسق أنت مولع به سرًّا. ولكن هاك، لقد نسيت. لم تعد الأمور على الحال التي كانت عليها من قبل، أليس كذلك؟ لا أظن أنكم، شباب هذه الأيام، تملكون ما يكفي من المال للفسق. حين كنت وأبوك ورئيس هذا المعبد شبانًا، كنَّا نتفنَّن في ارتكاب المعاصي».

«هل أبدو مثل طالب عادي؟» سألت.

«نعم»، أجاب الأب زنكاي، «وذلك أفضل مظهر يبدو المرء عليه. أن تبدو عاديًا هو الأفضل لك إلى أبعد حد. فالناس عندئذٍ لا يرتابون فيك، كما ترى».

كان الأب زنكاي خاليًا من الغرور. الأحبار ذوو المراتب العليا، الذين يُسألون باستمرار أن يحكموا على جودة كلّ شيء، من اللوحات الفنية إلى التحف القديمة مرورًا بخصال البشر، كانوا عرضة للسقوط في خطيئة عدم إبداء رأي شافٍ في أيّ أمر، خوفًا من يصيروا لاحقًا محطًّ سخرية في حال تبيَّن أنهم على خطأ. ثم هناك، بالطبع، نمط كاهن الزنّ الذي ينطق فورًا بحكمه العشوائي على أيّ أمر يكون محلّ مناقشة، إنما مع حرصه على أن يصوغ جوابه بحيث يجوز أن تؤخذ عبارتُه على وجهين متناقضين. كان الأب زنكاي أبعد ما يكون عن هذا. كنت واعيًا يقينًا بأنه يتكلَّم بما يراه بالضبط، وبما يشعر به وحسب. لم يكن يتكلَّف مشقة التفتيش عن أيّ معنى خاص في الأشياء التي كانت تنعكس في عينيه الثاقبتين، الصافيتين. وسيَّان عنده إن وُجِدَ معنًى أو لم يوجد. وما جعله يبدو عظيمًا في نظري أكثر من أيّ شيمة أخرى، هو أنه حين كان ينظر إلى شيء، إليَّ أنا على سبيل المثال، لم يكن يحاول توكيد فرادته عن طريق إدراك شيء يراه هو من دون سواه، بل يرى الشيء بالضبط كما ينبغي لأيّ شخص آخر أن يراه. لم يكن للعالم الموضوعي المحض في نظر هذا الكاهن، من معنى في حدّ ذاته. فهمت ما كان يحاول أن يقوله لي، فأخذت تدريجيًا أشعر بالارتياح. فما دمت أبدو عاديًا

في نظر غيري من الناس، فإنني أكون حقًّا عاديًا، ومهما تكن غرابة الأفعال التي قد أحمل نفسي على ارتكابها، فإن صفة العادية هذه ستبقى مثل أرزّ نُخِلَ عبر غربال.

رحت أتخيَّل نفسي، من دون أن أبذل أيَّ جهد واعٍ شجرةً كثةً صغيرةً هادئة زُرِعَتْ أمام الأب زنكاي.

«هل يجوز للمرء، يا أبتِ»، قلت، «أن يتصرف وفقًا للنموذج الذي يتوقَّعه الناس منه؟»

«ليس الأمر دومًا بهذه السهولة. لكنك إذا أخذت تسلك سلوكًا مختلفًا، فسرعان ما سينحو الناس إلى قبول ذلك بصفته سويًّا في ما يخصك. فهم سريعو النسيان، كما تعلم».

«أيُّ الشخصيَّتين هي الباقية حقًّا»، سألت، «الشخصية التي أتصوَّرها عن نفسي، أم الشخصية التي يظن الناس الآخرون أنها شخصيتي؟»

«لن تلبث كلتاهما أن تفنى. مهما أقنعت نفسك بأن شخصيتك باقية فمحكوم عليها أن تنتهي، عاجلًا أم آجلًا. فما دام القطار يجري فإن الركَّاب يبقون ساكنين. إنما عندما يتوقف، عليهم أن يتأهَّبوا للسير من تلك النقطة فصاعدًا. يتوقف جري القطار وتتوقف كذلك الراحة. يبدو الموت كأنه الراحة النهائية، لكن ليس لأحد أن يجزم كم ندوم هذه حتى».

«أرجوك، يا أبتِ، أن تنظر في سريرتي»، قلت أخيرًا. «لستُ

من ذلك الصنف من الأشخاص الذي تتخيَّله. انظر في سرّ قلبي، أرجوك».

رفع الكاهن قدح الساكي إلى فمه ونظر إليَّ بإمعان شديد. أطبق الصمتُ عليَّ مثل سقف المعبد الأسود العظيم المبلَّل بالمطر. شعرت بقشعريرة. ثم تكلَّم الأب زنكاي فجأةً بصوت ضَحوك كان خارق الصفاء: «لا حاجة إلى النظر في سريرتك. كلُّ شيء ظاهر على وجهك».

شعرت بأني فُهِمْتُ تمامًا حتى أعمق خفايا كياني. أصبحتُ صفحةً ناصعةَ البياض للمرة الأولى في حياتي. انبثقتْ فيَّ مجددًا الشجاعةُ على ارتكاب فعلتي بالضبط مثل ماء يتشرَّبه هذا البياض.

عاد الرئيس إلى المعبد. كانت الساعة التاسعة. همَّتْ مجموعةٌ من أربعة للقيام بالتفتيش الأخير قبل حلول الليل كما جرت العادة. لم يكن ثمة شيء خارج عن المألوف. جلس الرئيس يحتسي الساكي مع الأب زنكاي. جاء أحد زملائي المتدرّبين، عند الساعة الثانية عشرة والنصف تقريبًا، ليدل الضيف على غرفة نومه. ثم ذهب الرئيس إلى حمَّامه، أو «دخل في المياه»، كما كان يسمَّى في المعبد، وخلد المعبد إلى السكون التام بحلول الساعة الواحدة من صباح الثاني من تموز، حين انتهت نوبة حراسة الليل. استمر المطر يهطل في الخارج في صمت.

كانت لفَّة نومي مفروشة على الأرضيَّة. جلست عليها بمفردي،

وتأمّلت الليل الذي استقر على المعبد. أمسى الليل رويدًا رويدًا أكثف وأثقل. بدت منقشفةِ الأعمدة الكبيرة والباب الخشبي للغرفة الصغيرة التي كنت جالسًا فيها، وهي تحمل هذا الليل القديم.

تأتأت صامتًا داخل فمي. ظهرت، كالعادة، كلمة واحدة على شفتيَّ، على نحو أثار غيظي الشديد؛ إذ إن الأمر كان أشبه تمامًا بمن يفتش عبثًا في كيس عن شيء. وبدلًا من أن يجده، يظل يقع على غرض آخر لا يريده. كان ثقلُ عالمي الباطني وكثافتُه قريبَي الشبه بثقل الليل وكثافته، وتصدر كلماتي في طريقها إلى السطح صريرًا أشبه بدلو ثقيل يُسحَبُ من بئر الليل العميقة.

«لن يطول بي الأمر الآن»، فكرت؛ «عليَّ فقط أن أتحلّى بالصبر وقتًا قصيرًا. المفتاح الصدئ الذي يفتح الباب بين العالم الخارجي وعالمي الداخلي سيدور سلسًا في قُفله. ويتهوّى بذلك عالمي بينما يهبُّ النسيم طَلْقًا بينه وبين العالم الخارجي. سيرتفع الدلو فيتأرجح بخفة في الريح، وينفتح كلُّ شيء أمامي على شكل حقل مترامي الأطراف، وتُمحَقُ الغرفةُ السرّيةُ محقًا... بدا ذلك الآن نصب عيني، ويداي على وشك الامتداد والوصول إليه...»

امتلأتُ سعادةً وأنا جالس هناك في الظلمة مدة ساعة تقريبًا. شعرت بأني لم أحظَ بسعادة كهذه طوال حياتي. نهضت، بغتة، خارجًا من الظلمة.

انسلَلْت خلسة إلى الجزء الخلفي من المكتبة، وانتعلت صندل القش الذي حرصت على وضعه هناك قبلئذٍ، ثم سرت تحت رذاذ

المطر بمحاذاة الخندق خلف المعبد في اتجاه المشغل. كان المشغل خاليًا من ألواح الخشب، لكن الأرضيَّة كانت مكسوَّة بنشارة الخشب التي كانت رائحة رطوبة المطر تفوح منها وتطوف شاردةً في أرجاء المكان. كان المشغل مستعمَلًا أيضًا لخزن القش. وجرت العادة أن تُشترى حمولةُ أربعين حزمة من هذا القش كلَّ مرة، ولكن كانت ثلاث حزم فقط باقية من الحمولة الأخيرة، في تلك الليلة.

التقطت الحزم الثلاث وعدت بها بمحاذاة حافة الحقل. كان كلُّ شيء هادئًا في المطبخ. مشيت منعطِفًا عند زاوية البناء، وبلغت مؤخرة حجرة الشمَّاس. سطع فجأة ضوء من نافذة المرحاض. أقعيت أرضًا.

تناهى إلى سمعي صوت أحدهم يتنحنح في المرحاض. بدا كأنه الشمَّاس. ثم سمعته يتبول. بدا الأمر كأنه يدوم إلى الأبد.

خشيت أن يبتلَّ القش من المطر فوقيتُه بصدري وأنا مُقْعٍ هناك إلى جانب المبنى. اشتدَّت الرائحة من المرحاض من جراءً المطر الذي كان يهطل الآن مدرارًا فوق تكتُّلات نبات السرخس. توقف صوت الطرطشة في حوض المرحاض، ثم سمعت جسمًا يرتطم بالحائط الخشبي. كان واضحًا أن الشمَّاس لم يكن صاحيًا تمامًا، وكان غير مستقر بعدُ على قدميه. انطفأ الضوء الآتي من النافذة. التقطتُّ حزم القش الثلاث، وانطلقتُ صوب مؤخرة المكتبة.

كانت ممتلكاتي عبارة عن سلَّة خيزران أحتفظ فيها بأغراضي

الشخصية وحقيبة صغيرة قديمة. وقد نويت أن أحرقها كلًّها. كنت قد حزمت كتبي وثيابي وردائي وغيرها من مختلف الأغراض، في وقت سابق من المساء، وجعلتها في هاتين القطعتين من الأمتعة. أتمنى أن يتضح للناس إلى أيّ حدّ تأنّيت في القيام بكلّ شيء. أغراضٌ مثل عصا ناموسيَّتي التي كان من شأنها أن تُحدِثَ جلبة وأنا أحملها، وكذلك الأغراض غير القابلة للاشتعال، مثل منفضتي وقدحي ودواتي، التي من شأنها أن تترك دليلًا على فعلتي، دسستُها بين بعض الوسائد الطرية ولففتها بقطعة قماش. كنت قد وضعت هذه الأغراض على حدة من بقية ممتلكاتي. وإضافة إلى ذلك، كان عليَّ أن أحرق حشية ولحافين. نقلت جميع هذه الأمتعة الكبيرة الحجم قطعةً قطعةً إلى مؤخرة المكتبة وكوَّمتها على الأرض، ثم ذهبت إلى المعبد الذهبي لنزع الباب الخلفي الذي ذكرته سابقًا.

خرجت المسامير واحدًا في إثر الآخر بسهولة بالغة كما لو كانت مغروسة في مهاد من التراب الناعم. أسندت الباب المائل بجسمي برمَّته، وقد انتفخ السطح الرطب للخشب المتعفن فاحتكّ بوجنتي بلطف. لم يكن بالوزن الذي توقعته. بعد أن فككت الباب وضعته على الأرض إلى جانب البناء. كان في وسعي الآن أن أنظر إلى داخل المعبد الذهبي. كان مفعمًا بالظلمة.

كان عرض الباب لا يكفي إلا بما يسمح بدخول المعبد جانبيًّا. انغمس جسمي في ظلمة المعبد الذهبي، ثم ظهر أمامي وجهٌ غريبٌ فجعل فرائصي ترتعد من الخوف. إذ لمَّا كنت أحمل عود ثقاب

مشتعلًا، فقد انعكس وجهي على الصندوق الزجاجي الذي يحتوي على نموذج المعبد.

لم يكن هذا الوقت مناسبًا لمثل هذه الألاعيب إلا بمشقة، لكني توقفت الآن وأمعنت التحديق إلى المعبد الذهبي المصغَّر المنتصب داخل صندوقه. هذا المعبد الصغير، كان قمر عود ثقابي يضيئه، وظلُّه يتراقص وإطاره الخشبي الرقيق جاثم هناك متململًا من القلق. ابتلعتْه الظلمة على الفور تقريبًا. فقد انطفأ عود ثقابي.

أغرب ما في الأمر أن البصيص الأحمر الذي نقَّطَ طرفَ عود الثقاب أثار عصبيَّتي، فسحقتُه بعناية مثلما فعل الطالب الذي رأيته ذات مرة في معبد ميوشِن، ثم أشعلت عود ثقاب آخر. مررت من أمام قاعة السوترا وتماثيل البوذا الثلاثة وجئت إلى حيث كان ينتصب صندوق الصدقات. كانت للصندوق عدة أضلاع خشبية تُلقى بينها قطع النقود، والآن بينما يومض عود ثقابي في الظلمة كانت ظلال تلك الأضلاع تتغضَّن كالأمواج. كان ثمة تمثال خشبي لأشيكاغا يوشيمِتسو مصنَّف من الكنوز الوطنية داخل صندوق الصدقات. كان عبارة عن هيئة بشرية متخذة وضعية الجلوس ومتسربلة برداء كهنوتي يستطيل كمَّاه عند النهايتين. وثمة صولجانٌ مستقرٌّ بين يديه. كانت عينا الرأس الصغير الحليق مفتوحتين على اتساعيهما، والعنق كان مدفونًا في كمَّي الرداء الواسعين. كانت عينا التمثال تبرقان في ضوء عود ثقابي، لكني لم أَخَفْ. كان مفزعًا حقًّا تمثال يوشيمِتسو الصغير ذاك. ومع أن رفاته كانت ترقد في زاوية من

البناء الذي أقامه بنفسه، بدا أنه قد تخلَّى عن كلّ ملكية وسيطرة منذ أمد طويل.

فتحت الباب الغربي المفضي إلى السوسي. كما سبق أن ذكرت، كان هذا بابًا ذا مفاصل ينفتح من الداخل. كانت سماء الليل الممطرة تبدو أخفَّ من داخل المعبد الذهبي. وبصوت مقتضب مكتوم، ترك البابُ الرطبُ هواءَ الليل الأزرق الغامق المفعم بالنسيم يدلف إلى المعبد.

«عينا يوشيمِتسو»، فكرت وأنا أثب خارج الباب، وأركض صوب مؤخرة المكتبة. «عينا يوشيمِتسو هاتان. كلُّ شيء سيؤدَّى في مرأى من تينك العينين؛ أمام تينك العينين غير المبصرتين لشاهد ميت».

لحظت وأنا أجري أن شيئًا ما يُصدر صوتًا في جيب سروالي. كان خشخشة علبة الثقاب. توقفت وحشوت منديلًا ورقيًا تحت غطاء العلبة فتوقفت الخشخشة. لم يصدر أيُّ صوت من الجيب الآخر حيث كانت زجاجة زرنيخي وسكيني مغلَّفتين بأمان في منديل. ولا كان يصدر أيُّ صوت، بالطبع، من الخبز الحلو وشطائر مربَّى الفول والسجائر الراقدة في جيب سترتي.

باشرت، إذ ذاك، عملًا آليًا. استغرقني الأمر أربع رحلات لنقل جميع الأغراض التي كنت قد كوَّمتها خارج المكتبة إلى وجهتها أمام تمثال يوشيمِتسو في المعبد الذهبي. حملت أولًا الفراش والناموسية التي نزعت عنها عصاها، ثم أخذت اللحافين، ثم الصندوق وسلَّة

الخيزران، وبعدهما حزم القش الثلاث. كوَّمت هذه الأشياء كلَّها من دون ترتيب، واضعًا حزم القش بين الناموسية والفراش. بدت الناموسية أكثر الأغراض قابلية للاشتعال، وعليه، فقد بسطتُ جزءًا منها فوق بقية الأمتعة.

عدت أخيرًا إلى مؤخرة المكتبة وجلبت الرزمة التي لففت بها مختلف الأشياء التي يصعب حرقها. أخذت حملي هذه المرة إلى حافة البركة شرق المعبد الذهبي. كان في وسعي أن أبصر من هنا صخرة يوهاكو أمامي مباشرة. وقفت تحت أجمة من أشجار الصنوبر ولم أتمكن من الاحتماء من المطر.

أضفى انعكاس سماء الليل على سطح البركة بياضًا خافتًا. جعلتْها كثافةُ أُشْن الماء تبدو كأنها أرض يابسة، فكان المرء لا يقدر أن يتبيَّن أن ماءً يرقد تحتها إلا من الفجوات المتفرقة التي تتخلَّل الغطاء السميك. لم يكن المطر يهطل حيث كنت أقف بما يكفي من الغزارة لصنع أيِّ اهتزازات على صفحة الماء. كان البخار يتصاعد تحت المطر من البركة التي تبدو منبسطةً إلى ما لا نهاية على مدّ البصر. كان الهواء مفعمًا بالرطوبة.

التقطت حصاةً وألقيت بها في الماء. صدر صوت طرطشة بدا من فرط علوّه أن الهواء من حولي تصدَّع. جثمت هنيهة قصيرة في الظلمة وأنا لا أحرك ساكنًا، آملًا أن يطمس صمتي الضجة التي أحدثتُها من حيث لم أحتسب.

غمست يدي في الماء، فعلقت أُشْن الماء الفاترة بأصابعي.

تركت عصا الناموسية أولًا تنزلق في الماء من بين أصابعي، ثم استودعت منفضتي ماء البركة كما لو أني أطهرها. ألقيت بالطريقة ذاتها بقدحي ودواتي. وتخلَّصت بذلك من جميع الأغراض التي يجب رميها في الماء. كلٌّ ما تبقى بجانبي كان الوسادة وقطعة القماش التي لففت بها هذه الأشياء. لم يبقَ عليَّ الآن سوى أن آخذ هذين الغرضين إلى أمام تمثال يوشيمِتسو، ثم أضرم النار أخيرًا في المعبد.

توافَق واقعُ أن الجوع غلبني بغتة في هذه اللحظة كلَّ التوافق مع ما كنت قد توقعته. لكن الأمر هيهات أن يرضيني، بل جعلني أشعر بأني قد غُدِرَ بي. كنت لا أزال أحمل الخبز الحلو وشطائر مربَّى الفول التي باشرت أَكلَها في اليوم السابق. جففت يديَّ المبتلَّتين بطرف سترتي والتهمت الطعام بنهم. لم أنتبه للطَّعم. كانت معدتي تستصرخني غير مكترثة البتة بأيّ إحساس بمذاق الطعام. كان أمرًا طيبًا أني قادر على حشو فمي بالخبز الحلو. كان قلبي يخفق. وغرفت براحتيَّ بعض الماء من البركة وشربت عندما انتهيت من ازدراد الطعام.

كنت قابَ قوس أو أدنى من فعلتي. كنت قد أتممت جميع التحضيرات التي تؤدي إلى الفعلة وأقف الآن على الطرف الأخير تلك التحضيرات النهائية، بحيث لم يبقَ ما أفعله سوى زج نفسي في العمل الفعلي، بت أستطيع بأقل قدر من الجهد، أن أقوى على هذه الفعلة.

لم أتخيَّل للحظة أن هوَّة عظيمة بما يكفي لابتلاع حياتي كلّها كانت تنفتح بيني وبين ما كنت أنوي فعله.

حدَّقت في تلك اللحظة إلى المعبد الذهبي لأودّعه الوداع الأخير. كان المعبد قاتمًا، ذا هيئة مبهمة، في حلكة الليل. وقفت هناك وسط السواد العميق كما لو أنه الليل بذاته وقد تبلور. استطعت حين أجهدت عينيَّ أن أتبيَّن الكوكيوتشو، أعلى طوابق المعبد، حيث كان المبنى برمَّته يستدقُّ فجأة، وكذلك غابة الأعمدة الضيقة التي تحيط بالتشوندو والهوسوي - إن. لكن مختلف تفاصيل المعبد التي لطالما أثَّرت فيَّ بالغ التأثير في الماضي، كانت قد اضمحلت في الظلمة الأحادية اللون.

لكن بينما كانت حيوية تذكاري للجمال تتنامى وتتنامى، بدأ هذا الظلام بالذات يرسم خلفيةً أستطيع عليها استحضار رؤياي طوع إرادتي. كان تصوُّري للجمال بأكمله يكمن في هذا الشكل الجاثم، الداكن. بدأت التفاصيل الجمالية المتنوعة، بفضل قوة الذاكرة، تتألق واحدًا تلو الآخر من الظلمة المحيطة؛ ثم انتشر الألق على مدى أوسع فأوسع حتى تجلّى المعبد برمَّته أمامي تحت الضوء الغريب للزمن بالذات، الذي ليس ليلًا، وليس نهارًا. لم يكشف المعبد الذهبي قَطُّ من قبل عن ذاته لي في صورة بهذا الكمال؛ لم أبصره يتلألأ هكذا قطُّ من قبل، في كلّ تفصيل من تفاصيله. كان الأمر كما لو أني تفرَّدت ببصيرة رجل أعمى. كان النور المنبعث من المعبد نفسه قد جعل البناء شفافًا، بحيث إني وأنا واقف إلى

جانب البركة كان في وسعي أن أبصر بوضوح لوحات الملائكة على السقف داخل التشوندو وبقايا وريقات الذهب على جدران الكوكيوتشو. كان خارج المعبد الذهبي الرقيق قد تمازج تمازجًا حميمًا مع داخله. وبينما عيناي تحيطان بالمشهد ككل استطعت أن أدرك بنية المعبد والخطوط العريضة لفكرته الرئيسية؛ استطعت أن أبصر التكرار والزخرفة الدؤوبَين للتفاصيل التي تجسَّدت بواسطتها الفكرةُ الرئيسية، أبصرت آثار التضاد والتناظر. كان الطابقان السفليان - الهوسوي-إنْ التشوندو - بالعرض نفسه، ومع أن بينهما فارقًا طفيفًا كان يحميهما الإفريز الواسع نفسه؛ كان أحد الطابقين مستقرًا فوق الآخر بحيث يبدوان مثل حلمين متآلفين، أو مثل متعتين متشابهتين جدًا استمتعنا بهما في الماضي. وهذان الطابقان التوأمان تُوّجا بطابق ثالث - الكوكيوتشو - يستدقُّ بغتة. وكان طائر الفينيق البرونزي المذهَّب عاليًا على قمة السطح المسقوف، يواجه الليالي الطويلة الدامسة.

بيد أن هذا حتى لم يُرضِ المعمار. وعند غرب الهوسوي-إنْ، أضاف السوسي الضئيل الذي كان يبرز من المعبد مثل سرادق معلّق. فعل ذلك كأنه استجمع قدراته الجمالية كلَّها لكسر تناظر البناء. كان دور السوسي في التكوين المعماري الإجمالي هو دور المقاومة الميتافيزيقية. فمع أنه لم يكن يترامى بعيدًا جدًّا فوق البركة، إلا أنه بدا كما لو أنه يهرب من مركز المعبد الذهبي إلى ما لا نهاية. كان السوسي مثل طائر يحلّق بعيدًا عن هيكل البناء؛ مثل طائر كان

قبلئذٍ ببضع لحظات قد نشر جناحيه وهمَّ بالفرار نحو سطح البركة، نحو كلّ ما هو دنيوي. كانت أهمية السوسي مدَّ جسرٍ يصل بين النظام الذي يتحكم في العالم، وبين تلك الأمور الدنيوية التي تتسم بالفوضوية التامة، من نحوِ شهوة الجسد. أجل، كان كذلك. بدأت روح المعبد الذهبي مع السوسي الذي يشبه جسرًا قُطِعَ من نقطة منتصفه؛ ثم شكَّلتْ برجًا من ثلاثة طوابق؛ ثم ولَّتْ هاربةً مجددًا عن طريق هذا الجسر. إذ إن القدرة الهائلة للشهوة الحسّية المتلألئة على صفحة البركة كانت منبع القوة الخفية التي شيَّدت المعبد الذهبي؛ ولكن بعدما وُضعت هذه القدرة في سياقها وتشكل البرج الثلاثي الجميل، لم تعد تطيق الإقامة هناك، فلم يبقَ لها إلا أن تفرَّ عن طريق السوسي عائدةً إلى صفحة البركة، إلى تلألؤ شهوة الحسّ إلى ما لا نهاية، إلى موطنها الأصلي. كلَّما نظرتُ في الماضي إلى غشاوة الصباح أو غشاوة المساء وهي تطوف فوق البركة، كانت تجتاحني الفكرةُ ذاتها؛ فكرةُ أن هذه كانت مسكن القدرة الحسّية الغريزية التي شيَّدت المعبد الذهبي أصلًا.

والجمال هو الذي ألَّف بين الصراعات والتناقضات والتنافرات في كلّ جزء من أجزاء هذا البناء. وعلاوة على ذلك، كان الجمال هو الذي يحكمها جميعًا! كان المعبد الذهبي قد بُني بغبار الذهب في الليالي الطويلة، الدامسة، تمامًا مثل سوترا تدوَّن بتؤدة بغبار الذهب على الصفحات القاتمة الزرقة من كتاب. بيد أني لم أدرِ إن كان الجمال، من ناحية، متماثلًا مع المعبد الذهبي نفسه أم أنه، من

الناحية الأخرى، مساوٍ في الجوهر لِلَيلِ العدم المحيط بالمعبد. ربما كان الجمال هو هذين الأمرين كليهما. ربما كان، في آنٍ معًا، الأجزاء الفردية والمبنى كلَّه، كلًّا من المعبد الذهبي والليل الذي يلتف حول المعبد الذهبي. شعرتُ، عندما أشرقتْ هذه الفكرةُ في ذهني بأن سرَّ جمال المعبد الذهبي الذي لطالما لوَّعني في الماضي كان في منتصف طريقه إلى الحل. إذا تفحَّص المرء جمال كلّ تفصيل فردي – الأعمدة، الدرابزين، مصاريع النوافذ، الأبواب المؤطَّرة، النوافذ المزخرفة، السقف الهرمي، الهوسوي-إنْ، التشوندو، الكوكيوتشو، السوسي، طيف المعبد على البركة، الجُزيرات، أشجار الصنوبر، أجل، وحتى مرسى زورق المعبد – لم يكن الجمال مكتملًا في أيّ تفصيل مفرد من تفاصيل المعبد: إذ إن كلَّ تفصيل كان يومئ رمزًا إلى جمال التفصيل التالي. كان جمال التفصيل المفرد، في حدّ ذاته، مفعمًا دومًا بالقلق. كان يحلم بالكمال، لكنه لم يعرف الاكتمال، فيُستَدرَجُ على الدوام إلى الجمال التالي، الجمال المجهول. كان كلُّ رمز إلى الجمال محتوًى في أحد التفاصيل يرتبط بالرمز اللاحق إلى الجمال، بحيث إن مختلف الرموز إلى الجمال غير الموجود غدت الفكرة الرئيسية المضمَرة للمعبد الذهبي. رموز كهذه كانت إشارات للعدم. والعدم كان في صلب بنية هذا الجمال. لذا، فمن نقصِ مختلف تفاصيل هذا الجمال كان ينبثق تلقائيًّا رمزٌ إلى العدم، وهذا البناء الرهيف للغاية، المشغول بأرق أنواع الخشب، كان يرتجف تحسُّبًا من العدم مثل قلادةٍ من الجواهر ترتجف في مهبّ الريح.

بيد أنه لم يحدث أبدًا أن انقطع المعبد الذهبي عن الجمال! كان جماله يتردَّد صداه دومًا في مكان ما! مثل شخص مصاب بطنين في الأذنين، كنت أسمع صوت جمال المعبد الذهبي على الدوام أينما كنت حتى تعوَّدته. إذا جاز للمرء أن يقارن هذا الجمال بصوتٍ، فإن البناء كان مثل ناقوس ذهبي صغير ما انفك يطنُّ طوال خمسة قرون ونصف القرن، أو، بالأصح، مثل قيثارة صغيرة. ولكن ماذا لو قُيّض لهذا الصوت أن يخمد؟

انتابني إرهاق شديد.

ظل في وسعي أن أبصر بوضوح معبد رؤياي الذهبي فوق المعبد الذهبي الموجود في الظلمة. لم يكن قد انتهى من التلألؤ بعد. تقهقر بتواضع عظيم درابزين الهوسوي-إنْ على حافة الماء، بينما على حواف سقفه كان درابزين التشوندو، محمولًا على ركائزه الهندية الطراز، ينهد بصدره حالمًا صوب البركة. كانت حواف السقف مضاءة بانعكاس البركة، ووميضُ الماء ينعكس عليها محتارًا. حين كان المعبد الذهبي يعكس شمس المساء أو يشرق في نور القمر، كان ضياء الماء هو الذي يجعل المبنى برمَّته يبدو كأنما يطوّف كاللغز مرفرفًا بأجنحته. كانت أواصر شكل المعبد القوية تنحلُّ من جراء انعكاس الماء وارتعاشه، ويبدو المعبد الذهبي، في لحظات كهذه، كأنه مبني من مواد كالريح والماء واللهب التي تتحرك باستمرار.

كان جمال المعبد الذهبي لا نظير له. وقد عرفت الآن من أين جاء شعوري بالإرهاق الشديد. ذاك الجمال كان ينتهز فرصةً أخيرةً

لممارسة سلطانه عليَّ ولتقييدي بذلك العجز الذي غالبًا ما اعتراني في الماضي. شعرت بيديَّ ورجليَّ تُحجِمان عمَّا وضعتُه نصب عيني. كنت قُبيل لحظات على مسافة خطوة واحدة فقط من فعلتي، لكني الآن، مرة أخرى، تقهقرت بعيدًا في المدى.

«لقد قمت بتحضيراتي كلّها»، تمتمت لنفسي، «وكنت على مسافة خطوة واحدة من الفعلة. أما وقد حلمت بالفعلة بهذا التمام، أما وقد عشت ذاك الحلم بهذا التمام، فهل هناك حقًّا أيُّ حاجة إلى إنفاذه ماديًّا؟ ألن يكون هذا العمل عديم الجدوى في هذه المرحلة؟

«لعل كاشيواغي كان على حق حين قال إن ما يغير العالم ليس العمل، بل المعرفة. وهناك أيضًا نمط المعرفة التي تحاول نسخ العمل إلى أقصى حدّ ممكن. معرفتي من هذا النمط. وهذا النمط من المعرفة هو الذي يجعل العمل باطلًا حقًّا. أليس دافعي، إذن، إلى قيامي بتحضيراتي الدقيقة المتروّية، هو معرفتي بأني لن أُضطر في الآخِر إلى العمل مخلصًا؟

«أجل، هو ذاك. العمل هو الآن ببساطة أمر غير ضروري بنظري. لقد انبثق من الحياة؛ انبثق من إرادتي أنا، وهو الآن يقف أمامي مثل آلية فولاذ منفصلة، باردة، تنتظر أن أشغّلها. لكأنه لا يوجد أدنى ارتباط بيني وبين عملي. حتى هذه اللحظة كنت أنا؛ من الآن فصاعدًا لست أنا. فكيف أجرؤ على أن أكفَّ عن كوني ذاتي؟»

اتكأت على أسفل شجرة الصنوبر. فتنني لحاء الشجرة البليل، البارد. شعرت بأن هذا الإحساس، وهذه البرودة، كانا ذاتي. كان

العالم قد توقف بالضبط على ما هو؛ لم تعد هناك أيُّ رغبة، وأنا الآخر كنت راضيًا تمامًا.

ماذا ينبغي لي أن أفعل بهذا الإرهاق الرهيب؟ فكرت. شعرت، على نحوٍ ما، بأني محموم، متوانٍ؛ أبَتْ يداي أن تتحركا إلى حيث كنت أقصد. لا بدَّ من أني مريض قطعًا.

كان المعبد الذهبي لا يزال يتلألأ أمامي، تمامًا مثل منظر الشمس الغاربة التي أبصرها شُنتوكومارو ذات مرة. في غمرة ليل عماه الدامس، أبصر شُنتوكومارو(*) الشمس الغاربة تلعب وهَّاجةً على بحر نامبا. لقد أبصر أواجي إشيما، سوما أكاشي، وحتى بحر كيي، وهي تعكس شمس المساء تحت سماء صافية.

بدا جسمي مشلولًا وترقرقت الدموع بلا توقف. لم أمانع البقاء هنا كما أنا تمامًا حتى يبزغ الفجر ويُفتضَحَ أمري. ولن أعتذر ولا بكلمة واحدة.

تكلَّمت حتى الآن بإسهاب على مقدار عجز ذاكرتي منذ سنيّ طفولتي، لكن يجب أن أشير إلى أن ذاكرةً تنتعش فجأة تحمل قدرة

(*) شُنتوكومارو: إحدى الشخصيات الرئيسية في مسرحية سِسْشو غابو-غا- تسوجي (أو «قصة عشق ناماتِه غوزن») التي كُتبت أصلًا لمسرح الدمى وعُرضت أول مرة سنة ١٧٧٣ ثم حُوّلت لاحقًا إلى مسرحية كابوكي وعُرضَت أول مرة سنة ١٨٣٨ في كيوتو. تدور حبكتها حول الشحاذ الكفيف الذي يظهر في كلّ من مسرحية النُّو يوروبوشي وأنشودة شُنتوكومارو وتندمج مع قصة الانجذاب الجنسي الذي تكابده أم نحو ابنها، بما يشبه ثيمة مسرحية فيدر (١٦٧٧) لجان راسين، الأمر الذي أدَّى إلى حظرها سنة ١٩٣٧. (المترجم)

عظيمة على الانبعاث من جديد. لا يشدُّنا الماضي القهقرى إلى الماضي فحسب. هناك ذكريات بعينها من الماضي مجهَّزة برفّاصات فولاذية قوية، وعندما نلمسها، نحن الأحياء في الحاضر، تراها تنشدُّ فجأة حتى التوتر، ثم تقذف بنا إلى المستقبل.

كان ذهني يتلمَّس سبيله في عتمة مكان ما من ذاكرتي بينما بدا جسمي خَدِرًا. طَفَتْ بعض الكلمات حتى السطح ثم توارت. لاح أني وصلت إليها بيدَي روحي ثم لم تلبث أن احتجبتْ مرة أخرى. كانت تلك الكلمات تناديني. كانت تحاول الاقتراب مني كي أثبت أهليتي.

«واجِهِ الخلف، واجِهِ الخارج، وإذا التقيتَ فاقتلْ حالًا!»

أجل، جرت الجملة الأولى على هذا النحو؛ المقطع الشهير من ذلك الفصل من الرنزايروكو. ثم ظهرت الكلمات الباقية بطلاقة: «حين تلتقي البوذا اقتلِ البوذا! حين تلتقي سَلَفكَ اقتلْ سَلَفك! حين تلتقي أحد تلاميذ البوذا اقتلِ التلميذ! حين تلتقي والديكَ اقتلْ والديك! حين تلتقي نسيبكَ اقتلْ نسيبك! بذا فقط تبلغ النجاة. بذا فقط تفلت من أَسر الأشياء المادية وتغدو حرًّا».

قذفتْ بي الكلماتُ خارج العجز الذي سقطت فيه. امتلأ جسمي كلُّه فجأةً بالقوة. ظل جزء من ذهني يلحُّ في القول لي إن من العقيم الآن تنفيذ هذه الفعلة، لكن قوتي المسترجَعة لم تكن تخشى العقم. يجب أن أقوم بالفعلة تحديدًا لأنها عقيمة.

لففت قطعة القماش المطروحة إلى جانبي، وطويتها تحت ذراعي مع الوسادة، ثم انتصبت واقفًا. نظرت صوب المعبد الذهبي. كان معبد رؤياي المتلألئ قد أخذ يخبو. راحت الظلمة تبتلع الدرابزين رويدًا رويدًا، وغابة الأعمدة الرشيقة تفقد وضوحها. تلاشى الضوء من الماء واضمحل أيضًا انعكاسُه على ظهر حواف السقف. وسرعان ما احتجبت التفاصيل جميعًا في الظلمة، ولم يبقَ من المعبد الذهبي شيء سوى ملامح سوداء مبهمة.

وجريت. رحت أجري حول شمال المعبد. تعوَّدت قدماي مهمَّتهما فلم أتعثر. انفتحت الظلمة أمامي بالتسلسل ودلَّتني على طريقي.

قفزت من على حافة السوسي إلى داخل المعبد الذهبي عبر الباب ذي المفاصل عند المدخل الغربي الذي تركته مفتوحًا. ألقيت بالوسادة وقطعة القماش فوق الكومة التي هيَّأتها سابقًا.

كان قلبي يخفق مبتهجًا ويداي الرطبتان ترتجفان. فضلًا عن ذلك، كانت أعواد ثقابي رطبة. أبى عود الثقاب الأول أن يشتعل. وكان الثاني على وشك الاشتعال حين انكسر. وانفجر الثالث ملتهبًا، وبينما رفعت يدي مقابل الريح، أضاء المسافات بين أصابعي.

ثم وجب عليَّ أن أفتش عن حزم القش. فعلى الرغم من أني جررت الحزم الثلاث إلى هنا بنفسي وأودعتُها في أجزاء متعددة من البناء، فإني نسيت تمامًا أين وضعتها. وبحلول الوقت الذي وجدتها فيه كان العود قد انطفأ. جثمت جالسًا إلى جانب القش، وأشعلت هذه المرة عودين معًا.

رسمت النار ظلال حزم القش المعقدة. وإذ أطلقت اللون البراق للأماكن البرية، طفقت تسري بلا هوادة في الاتجاهات كلّها. وبينما كان الدخان يرتفع في الجو اختبأت النار ضمن الكتلة البيضاء. ثم، بعيدًا بشكل غير متوقع عن المكان الذي كنت واقفًا فيه، اشتعلت ألسنة اللهب نافخةً خضرة الناموسية تصاعدت. شعرت كأن كلّ شيء من حولي انبعثت فيه الحياة فجأة.

صفا رأسي تمامًا في تلك اللحظة. كان عدد أعواد الثقاب التي في حوزتي محدودًا. هرعت إلى زاوية أخرى من الغرفة، وإذ أشعلت بتأنٍ عود ثقاب أضرمتُ النار في حزمة القش التالية. شدّتْ ألسنة اللهب المتصاعدة من أزري. في الماضي، كلّما خرجت مع رفاقي في رحلة وأوقدنا نيران مخيّم، كنت دومًا ماهرًا في تولّي المهمة.

نهض ظلٌّ عظيم يومض مختلجًا ضمن الهوسوي-إنْ. تماثيل البوذا المقدسة الثلاثة، أميدا وكنُّون وسيشي(*)، تألّقت حُمرة. التمعت عينا تمثال يوشيمِتسو الخشبي؛ وكان ظلّه يختلج في الخلف.

كدت لا أشعر بالحرارة. شعرت بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام، عندما رأيت أن النيران قد انتقلت حثيثةً إلى صندوق الصدقات.

(*) كنُّون بوساتسو (بالصينية: غوان يِنْ): بوذِسَتْفا قوة الرحمة المعبودة في شتى مدارس بوذية الشمال؛ اسمها الصيني يعني «المنصتة إلى أصوات العالم». أما سَيشي بوساتسو، فهو بوذِسَتْفا قوة الحكمة، وهو، مع كنُّون، أحد إمامَي البوذا القطب أميدا. (المترجم)

كنت قد نسيت أمر الزرنيخ والمطواة. طرأت في بالي فجأة فكرة الموت في الكوكيوتشو محاطًا بألسنة اللهب. فررت إذ ذاك من النار وركضت على السلَّم الضيق. لم يخطر في بالي أن أتساءل لماذا كان الباب المفضي إلى التشوندو مفتوحًا. كان الدليل العجوز قد نسي أن يغلق باب الطابق الثاني.

تلولب الدخان صوب ظهري. حدَّقت وأنا أسعل إلى تمثال كَنُّون المنسوب إلى كيشن، وإلى الملائكة عازفي الموسيقى المرسومين على السقف. امتلأ التشوندو تدريجيًّا بالدخان الشارد. ركضت صاعدًا الدرج التالي، وحاولت فتح باب الكوكيوتشو. أبى الباب أن ينفتح. كان مدخل الطابق الثالث مقفلًا بإحكام.

طرقت على الباب. لا بدَّ من أنه كان طرقًا عنيفًا، لكن الصوت لم يمسس أذنيَّ. طفقت أطرق على الباب بكلّ ما أوتيت من قوة. شعرت بأن أحدهم قد يفتح لي الباب إلى الكوكيوتشو من الداخل. ما حلمت بأن أجده في الكوكيوتشو كان مكانًا أموت فيه، ولكن بما أن الدخان كان يلاحقني أصلًا طفقت أطرق على الباب طرقًا أهوج كما لو أني كنت أطلب بدلًا من ذلك ملاذًا. ما كان ينتظر على الجانب الآخر من ذلك الباب ليس حتمًا إلا غرفة صغيرة. حلمت بشجنٍ في تلك اللحظة بأن جدران الغرفة مغطاة كليًّا برقائق الذهب، مع أنّي كنت أعلم بأنها في الواقع الفعلي تكاد تكون متجرّدة من وريقاتها. لا أستطيع أن أفسر مقدار توقي المستميت إلى هذه الغرفة الصغيرة المشعَّة، وأنا واقف هناك أطرق على الباب. ليتني أستطيع

الوصول إليها، فكرت، فيكون كلُّ شيء على ما يرام. ليتني أستطيع الوصول إلى تلك الغرفة الذهبية الصغيرة.

طرقت بكلّ ما أوتيت من قوة. لم تكن يداي قويتين بما يكفي، فارتميت بجسمي كلّه على الباب. ومع ذلك أبى أن ينفتح.

كان التشوندو قد امتلأ بالدخان. تناهى إلى سمعي صوتُ فرقعة النار تحت قدميَّ. اختنقت بالدخان، وكاد يغمى عليَّ. واصلتُ الطرق وأنا أسعل. إنما، مع ذلك، أبى الباب أن ينفتح.

حين برز فيَّ، في لحظة معينة، وعيٌ صافٍ بأني رُفِضتُ، لم أتردَّد. هربت من الدرج. ركضت نازلًا إلى الهوسوي-إنْ عبر الدخان المتلولب. لا بد أني مررت من خلال النار نفسها. ألقيت بنفسي في العراء. عندما بلغت الباب الغربي أخيرًا، . ثم طفقت أركض مثل الرصاصة، غير دارٍ إلى أين أنا ذاهب.

ركضت. كان رائعًا إلى أيّ بُعْدٍ ركضت من غير أن أتوقف للراحة. لا أقدر حتى على أن أتذكر الأماكن التي مررت بها. أغلب الظن أني غادرت من البوابة الخلفية في جوار برج كيوهوكو شمال حَرَم المعبد، ثم مررت بقاعة مايو، وركضت في الدرب الجبلي الذي تحدُّه أعشاب الخيزران والأزاليا، ووصلت إلى قمة جبل هيداري دايمونجي. نعم، استلقيت على ظهري في حقل الخيزران، على قمة جبل هيداري دايمونجي، في ظل أشجار الصنوبر الأحمر، وحاولت أن أهدّئ من خفقان قلبي الضاري. هذا الجبل هو الذي كان يحمي المعبد الذهبي من ناحية الشمال.

صراخ بعض الطيور التي أجفلت هو الذي أعادني إلى حواسي؛ أو لعلَّه كان طائرًا طار على مقربة من وجهي برفرفة عظيمة من جناحيه.

حدَّقت إلى سماء الليل بينما كنت ممدًّدا على ظهري. حلَّقت الطيور فوق أغصان أشجار الصنوبر الأحمر بأعداد كبيرة، وراحت رقائق الحريق الدقيقة التي أصبحت نادرة بالفعل. تطفو في السماء فوق رأسي.

استقمت جالسًا ونظرت بعيدًا أسفل الوَهْد نحو المعبد الذهبي. ثمة صوت غريب يتردَّد صداه من هناك. كان مثل صوت المفرقعات. كان مثل صوت عدد لا يحصى من مفاصل الناس وهي تفرقع في وقت واحد.

كان المعبد الذهبي نفسه غير مرئي من حيث أجلس. كلُّ ما استطعت رؤيته هو الدخان المتلولب والنار العظيمة اللذان يتصاعدان إلى السماء. كانت الرقائق الصادرة من الحريق شاردة بين الأشجار، وبدت سماء المعبد الذهبي منثورة برمال الذهب.

تربَّعت وجلست أحدّق إلى المشهد مدة طويلة.

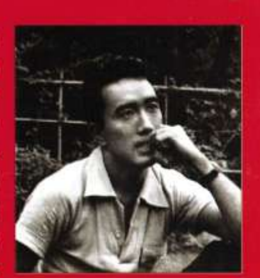
عندما عدت إلى نفسي، وجدت أن جسمي مغطى بالقروح والبثور وأني أنزف بغزارة. كانت أصابعي ملطخة بالدم، حتمًا منذ الوقت الذي جرحتها فيه بطرقي على باب المعبد. لعقت جراحي كحيوان فرَّ من مطارديه.

نظرت إلى جيبي واستخرجت زجاجة الزرنيخ، الملفوفة في منديلي، والسكين. رميتهما إلى أسفل الوَهْد.

ثم لحظت علبة السجائر في جيبي الآخر. أخرجت واحدة وأخذت أدخّن. شعرت شعور رجل يستريح للتدخين بعد انتهائه من تأدية عمل. أردت أن أعيش.







يوكيو ميشيما هو الاسم الأدبي للكاتب الياباني كيميتاكي هيراوكا، الذي كان روائياً وشاعراً وكاتباً مسرحياً وممثلاً ومخرج أفلام. رشّح ميشيما للحصول على جائزة نوبل في الأدب ثلاث مرات، وحصد جوائز متعدّدة مرموقة، منها جائزة Schincho وجائزة Kishida وجائزة Yomiuri. وكان اسمه معروفاً على نطاق عالمي، ويعدّ من أشهر الكتاب اليابانيين في القرن العشرين، وقد مزجت أعماله الطليعية بين القيم الجمالية الحديثة والتقليدية وحطمت الحواجز الثقافية وكانت الجنسانية والموت والتحول السياسي من أهم محاورها. وقد ترجمت جميع أعماله إلى كثير من اللغات حول العالم. ولد عام ١٩٢٥ وتوفي منتحراً عام ١٩٧٠، مطبّقاً بذلك طقوس الانتحار المقدسة التي كان يؤمن بها.

في «المعبد الذهبي» أو كينكاكوجي، الرواية التي كرّست اسم ميشيما عقب نشرها بين أكثر كتّاب العالم تميّزاً، يأخذنا الروائي الياباني في رحلةٍ فلسفيّةٍ مع الجمال عبر قصّةٍ هزّت اليابان عن رجلٍ أحرق أجمل معبدٍ في العالم.

منذ طفولته، يسمع ميزوغوتشي عن المعبد الذهبي من أبيه الكاهن البوذي. ومنذ طفولته أيضاً يُتأتئ في الكلام ما جعله منغلقاً على ذاته. ذات يوم يدرك الأب أن وفاته اقتربت، فيطلب إلى ابنه الاعتناء بالمعبد الذي شُيّد قبل أكثر من خمسمئة عام في مدينة كيوتو. يعرّفه إلى رئيس المعبد، وتبدأ رحلة الفتى التي نرافقه فيها فنطلّ معه على اليابان قبل الحرب العالميّة والتغييرات التي طرأت عليها حتى عام ١٩٥٠ وهو العام الذي أُحرِق فيه المعبد الذهبي، أشهر معالم اليابان السياحية.

آمن ميشيما بأن الكتابة فعل تغيير وقدّم في روايته هذه رؤيةً جديدة للتاريخ ضمّنها فلسفته الخاصّة في مواضيع مثل العنف، والرغبة، والدين، والجمال. روايةٌ حين نتمّ صفحتها الأخيرة يصعب ألّا نهجس بأن كلّ ما في العالم يكتسب جماله من معرفة أنه سينتهي في لحظةٍ ما... وهذا في حدّ ذاته قمّة الجمال.

ISBN 978-6144-58-520-7





الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر